لجنة التأليف والترجمة والنشر

الفكر الأوربى

فى القرن الثامن عشر

من منتسكيو إلى ليسنج

تأليف

پول هازار

الجزء الأول

نقله إلى العربية

الدكتور محمد غلاب

وراجعه

الدكتور ابراهيم بيومى مدكور

اختارته واتفقت على ترجمته

الإدارة الثقافية

فى

جامعة الدول العربية

لجنة التأليف والترجمة والنشر

الفكر الأوربي

في القرن الثامن عشر

من منتسكيو الى ليسنج

تأليف

پول هازار

الجزء الأول

نقله إلى العربية

الدكتور محمد غلاب

وراجعه

الدكتور ابراهيم بيومي مدكور

اختارته وأنفقت على ترجمته

الادارة الثقافية

في

جامعة الدول العربية

الإهداء

إلى عميد الأدب العربي ، ورافع لواء الثقافة الناطقة بالضاد

إلى السيد الجليل الدكتور طه حسين ، أهدى هذا الكتاب.

وهو إحدى ثمرات اختياره المستنير الموفق الذى سيتيح للشرق فرصة الإلمام بالحركة الفكرية الشاملة التى كونت العقلية الغربية الحديثة ، وأرجو أن يكون فى هذا اعتراف ببعض فضله ، وتسجيل لشىء من إنتاج أياديه البيضاء على العلم والأدب .

فى أول يوليه سنة ١٩٥٧ م

محمد غلاب

مقدمة

لا يكاد فصل من فصول هذا الكتاب يخلو من إثارة بعض مشاكل الضمير ، ولا يكاد فصل من فصوله يخلو أيضاً من أن يسجل هزات امتدت حتى وصلت إلينا . وليس معنى هذا أن كل شيء ابتدأ في سنة ١٧١٥[١] بل إننا نحن أنفسنا في كتاب سلف ، جعلنا تاريخ ابتداء أزمة الضمير الأوربي ، حوالى سنة ١٦٨٠ . ومنذ ذلك الحين أبان آخرون عن الطرق التي التقى بها تفكير عصر النهضة بتفكير القرن الثامن عشر[٢] .

غير أنه ، منذ سنة ١٧١٥ ، بدت ظاهرة من ظواهر انتشار الفكر لا نظير لها ، إذ أن ما كان يعيش في الظلام ، أخذ يحيا في وضح النهار ، وما كان موضع نظر بضعة عقول ، غزا الجماهير ، وما كان حييا أصبح متحدياً . نحن ورثة مثقلون ، أخذنا عن العصور القديمة ، والوسيطة ، وعصر النهضة ، ولكننا نتحدر عن القرن الثامن عشر بهيئة مباشرة .

وسندع لغيرنا العناية بإثبات العلائق ، واستخلاص النتائج ، فإنا لم نرد أن نقوم بدور محي الماضي ، ولا صاحب المذهب ، ولا المتعصب له ، ولا يقيدنا الزمان كما كان يجب أن يكون أو كما كان يمكن أن يكون ، بل كل همنا أن نسجلها كما كانت فحسب ، وليس لدينا قانون أكثر سلطة من عرضها في حقيقتها الموضوعية ، ولم يشغلنا شاغل أعز علينا من أن نكون أوفياء للتاريخ .

---

(١) السنة التي توفي فيها الملك لويس الرابع عشر والتي تعتبر في المحيط الأدبي ، نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر . (المترجم)

(2) Rossi, Alle fonti del deismo e del materialismo moderni Firenze, 1942 — Lenoble, Mersenne ou la naissance du mécanisme, 1943— Pintard, Le libertinage érudit dans la 1ère moitié du 17ème siècle, 1943 .

٢

والمنظر الذى شاهدناه هو :

« أنه ترتفع أولا ضجة من النقد ، فيأخذ المحدثون على أسلافهم أنهم لم ينقلوا إليهم سوى مجتمع سيئ التكوين ، كله أوهام وآلام ، وأن الماضى السحيق لم ينته إلا إلى البأساء ،ولم ؟وعلى هذا النحو يشرعون علناً،فى قضية وصلت من الجرأة إلى حد أن نفرا من الضالين وحدهم هم الذين أعدوا فى الظلام مستنداتها الأولى . وعلى أثر هذا يظهر المتهم وهو المسيح ، ولم يكتف القرن الثامن عشر بالإصلاح ، وإنما أراد أن يحطم الصليب ، وأن يمحو فكرة الاتصال بين الإله والإنسان أى فكرة الوحى ، وأن يقوض الإدراك الدينى للحياة . ومن ذلك يتكون القسم الأول من هذه الدراسة أى « قضية المسيحية » .

كان أولئك الجرآء يريدون البناء أيضاً ، وكانوا يحسبون أن نور عقولهم سيبدد عظائم أكداس الظلام التى كانت الأرض مغطاة بها ، وأنهم سيعثرون على منهج الطبيعة وأنه ليس عليهم إلا أن يتبعوا هذا المنهج لكى يظفروا بالسعادة المفقودة ، وأنهم سيشيدون حقاً جديداً ، لا توجد بينه وبين الحق والإله أية صلة ، وأخلاقاً جديدة مستقلة عن كل لاهوتية ، وسياسة جديدة تحول الرعايا إلى مواطنين ، وأنهم سيخلعون على التربية مبادىء جديدة تقى أبناءهم من الوقوع فى الأخطاء القديمة . وحينئذ تنزل السماء إلى الأرض وفى تلك المبانى المنيرة الجميلة التى بنوها ، وترقى أجيال تصبح ولا حاجة بها إلى أن تبحث خارج أنفسها عن أسباب وجودها ، ولا عن عظمتها ، ولا عن سعادتها . وها نحن أولاء نتعقبهم فى أعمالهم ، وسنرى مشروعات وتكوين مدينتهم المثالية ، « مدينة الإنسان » .

ومع ذلك لا ينبغى أن تدرس الفكر كما لو كانت قد احتفظت ، إبان نموها ، بنقاء أصلها ، واستبقت — أثناء تطبيقها — منطق المجردات الذى لا يلين ، ولا تدع العصور المتعاقبة وراءها ألبتة ، ســوى ميادين عمل مهجورة ، وكل عصر منها يتحلل قبل أن ينتهى تكونه ، ويدفعها قادمون

آخرون كما دفعت هى نفسها ، من وجدتهم عند وصولها . وعندما تذهب تترك وراءها خليطاً تامياً بدلا من النظام الذى كانت تحلم به :

وسنعالج أسمى ما عرف من العقول المستنيرة ، وإن كانت قد خلقت ، فى فلسفتها الشفافة ، متناقضات سيفيد منها الزمن فى وقوع هذه الفلسفة لفعله القارض . وعلى هذا — بدلا من أن نوجز فكراً حية فى بضعة سطور مفرطة فى البساطة — يجب علينا أن نخصص جزءاً من دراستنا للنقص الذى انزلق إلى كمالهم المثــالى ، وسيكون علينا إذ ذاك ، ألا نؤدى حساباً عن الطريقة التى يريد أى مذهب أن يستقر عليها فحسب ، بل عن الصيرورة الحتمية التى تسايره . وسيكون ذلك هو القسم الثالث من دراستنا ، أى الانحلال .

ولكي نحدد حقلا من حقول الدراسة ، لا يقول عنه أحد قطعاً : إنه كان مفرطاً فى الضيق . لم نعتبر سوى أسرة واحدة من العقول ، فالأب بريفو مؤلف « مانون ليسكو » وريشارد ســون مؤلف « باميلا » و « كلاريس » وجوت مؤلف « فرتر » قد ذكرنا أسماءهم ، ولكن لمجرد التعامل ، ولم ندرسهم لأننا تجاهلنا راضين ،ممثلى الإنسان الحساس . ولم نتابع النهر الصاخب الذى كان ينساب أيضاً خلال القرن الثامن عشر ، وإنما قصرنا أنفسنا على الفلاسفة والعقليين ، تلك النفوس الجافة التى أدى جفافها بتأثير عكسى ، إلى ظهور ذوى الضلال والمتنسكين . تلك الأرواح المفتونة بالمعارك ، والتى لم تكن تحاول أن تسبر غور الجوانب النفسية لخصومها . تلك النفوس التى لم تستطع الغابة ، ولا الجبل ، ولا البحر ، أن تنال منها أدنى منال . تلك العقول الخالية من الرحمة ، والطباع التى لم تصل إلى القمم التى ارتفع إليها إسپينوزا ، وبيل ، وفينيلون وبوسويه ، وليبنيز ، والتى كانت بمثابة الجيل الثانى لتلك العبقريات العليا . ولكن أولئك القوم كانوا أيضاً كتاباً عباقرة وممثلين من الطراز الأول فى فاجعة الفكر ، لأنهم لم يريدوا ، بدافع الجبن ، أن يتركوا العالم كما وجدوه ، فتجرأوا .

إنهم حصروا أنفسهم فى دائرة المشكلات الجوهرية إلى درجة لا يبدو أننا نعرفها ، وإن الشواغل والملاهى واللعب ، بل إن إنفاق عقولهم لم يكن يظهر لهم إلا أمراً ثانوياً إلى جانب الأسئلة الخالدة وهى : ما الحقيقة ؟ وما العدالة ؟ وما الحياة ؟ وهذا العذاب لم يَكُفّ ألبتة عن أن يتعقبهم ، بل إنهم كانوا دائماً يعودون إلى ذات المطالب التى لم يكونوا يحسبون أنهم يبعدونها فى المساء ، إلا لكى يجدوها عند استيقاظهم .

ولقد كان يجدر بنا أن ندرس فى هذه المجموعة ذاتها ، الأسرة الأخرى أى أسرة ذوى القلوب المضطربة ، والإرادات المزعزعـــة ، والنفوس الكئيبة ، وأن ننظر إلى ذوى الرغبات والذين أضناهم الحب ، والحب الإلهى ، وأن نستمع إلى صرخاتهم واستغاثاتهم ، وأن نشهد اغتباطهم وانجذابهم ، وأن نستكشف معهم ثروات الظلام ، وأن نرى فى رفقتهم شموس الليل . وفى الحق إنه لكى يتمم المرء التاريخ العقلى للقرن الثامن عشر ، ينبغى له أن ينظر فى نشأة إنسان العاطفة ، ونموه إلى عهد الثورة الفرنسية . ولقد بدأنا هذا العمل فعلا وسنتابعه ، وقد ننتهى منه فى يوم ما إذا منحنا القوى « Si vis suppeditat » كما كان الأقدمون يقولون .

القسم الأول

قضـــية المسيحية

الفصل الأول

النقد العام

إن أسموديه[1] Asmodée قد تحرر وهو الآن يوجد فى كل مكان ، إنه يرفع سقف المنازل لكى يعلم الطباع ، ويذرع الطرقات ليستجوب المارة ، ويدخل الكنائس ليتحقق من إيمان المؤمنين ، بل إن هذه المهمة الأخيرة هى شغله الشاغل المفضل ، وهو لم يعد يعبر عن نفسه بمثل ثقل پيير بيل[2] Pierre Bayle الخاضع للهوى ، وقسوته المحزنة ولكنه — كشيطان ضاحك — كان يظفر ويلعب .

ولا غرو ، فالقرن السابع عشر قد انتهى من عدم الاحترام ، والقرن الثامن عشر قد بدأ فى وسط السخرية إذ أن الهجاء القديم لم يقف عن عمله قط ، وأن هوراس وچوڤينال Horace et Juvénal قد بعثا ، ولكن هذا النوع كان قد فاض ، فالروايات صارت هجائية ، وكذلك المهازل واللواذع والقوارص والثوالب أخذت تفرخ فى كثرة وسرعة ، ولم يكن هناك سوى نكت شائكة ،

---

(١) أسموديه هو البطل الأساسى لرواية أحد كتاب القرن الثامن عشر وهو ليساج (١٦٦٨ — ١٧٤٧) وعنوانها « الشيطان الأعرج » (١٧٠٧) . ومجملها أن أسموديه شيطان يأسره أحد الفلكيين ، وعندما ينقذه أحد الطلاب الأسبانيين من أسره يحمله إلى برج ، ومن هناك يرفع سقف المنازل ويشرح له كل ما يمر فى داخلها أى أعمال السكان ومسوغاتها وأشد أفكارهم خفاءا . ومنذ ذلك الحين دخل أسموديه فى اللغة الأدبية وهو هنا يمثل النقد العام الذى يتحدث عنه مؤلفنا ولنلاحظ أيضا أن ليساج نفسه قد حاكى رواية ظهرت فى سنة ١٦٤١ للمؤلف الأسبانى لويس ڤيليز دى جيفارا (١٥٧٠ — ١٦٤٤) المبتكر الحقيق لشخصية أسموديه . (المترجم)

(٢) كاتب فرنسى حرر الفكر ولد فى سنة ١٧٠٦ وهو مؤلف ذلك القاموس الفلسفى الشهير الذى يمكن أن يستخلص منه الجحود المطلق ، محجبا بحجاب من الاحترام الظاهر للمعتقدات الموروثة وليس الدين عنده سوى حيرة للعقل والأخلاق . (المترجم)

وتلميحات جارحة ، وتلويحات صائبة ، وتصريحات معروفة ، وكان الكل يقذفون بأنفسهم فى وسط هذا بقلوب مغتبطة . وعندما كان الكتاب لا يكفون لسد هذه الحاجة ، كان المصورون يهرعون إلى معونتهم . ومن الأمثلة النموذجية التى تميز ذلك العصر ، أنه كان فى لندن ، رجل عالم ، وطبيب ولغوى وسياسى أيضاً . وكان يدعى جون أربوثنوت ، فجمع حوله بضعة من علية القوم التى تمثل الفكر الإنجليزى ، وتعاونوا جميعاً فأسسوا فى مرح ، نادياً لا نظير له أطلقوا عليه اسم نادى الكتاب ، وكانت الغاية منه هى الثأر للفطرة السليمة بوساطة السخرية كما لو كانوا يودون أن يعلنوا فى أوربا فى سنة ١٧١٣ ، أن أوان النقد العام قد آن .

* * *

على صفحة هذا البحر الهائج ، ظهرت آثار لم تلبث أن كونت ثلاثة خطوط . أولها المضحك ، إذ لم تفتأ رواية « تيليماك » لفينيلون مثلا أن تنكرت لأصلها . وهناك مثل آخر يمكن إجماله فيما يلى :

إذا كان فى « الإلياذة » فصل رقيق مفعم بالحنان والحب ، فإنه هو الفصل الذى ترى فيه أندروماك Andromaque مودعة « هيكتور » Hector على النحو التالى .

تقف على مقربة منه وتجهش بالبكاء ، ثم تتناول يده .وتناجيه داعية إياه بجميع أسمائه قائلة : « حميتك ستقضى عليك ، ألا تشفق على ابنك الصغير ولا على أنا التعسة » . ولكن التراث القديم فقد اعتباره ، على أنه لم يكن إذ ذاك شىء معتبر . ومن ثم فهاك كيف ، وبأية عبارة يرد هيكتور على أندروماك : يا إلهى ! كم أنت تجيدين النهيق ! ولكن لو أنك نهقت أجود من ذلك أيضاً ، لكانت الصخرة أقل صلابة من هيكتور ، بل هو يعنى بدموعك عنايته بقطرات الأنف فى الشتاء »[1] .

---

(1) Marivaux, Homère travesti, Paris, 1717.

وقصارى القول إن الحماسة الهزلية انتشرت ، وأخذت تعم شيئاً فشيئاً حتى صارت بدعة العصر ، وصار الجميع يغتبطون بأن ينفخوا صغار الموضوعات أو يصغروا من شأن عظائمها . فمن أمثلة ذلك أن خصلة شعر تخطف أو كلمات نابية تنطق بها ببغاء ذات حظوة لدى الراهبات ، أو حماقة طالب مفتون بالمشاجرات والمبارزات ، تبدو كأنها موضوعات كافية لِتَتَنَكَّرِ عروس الشعر الحماسى ، وتساهم فى أن تخلق من السخرية أحد مواقف العقل المفضلة .

وفى الوقت ذاته تتابع وصول الرحالة الساخرين الذين كانوا يتظاهرون بأنهم ينظرون إلى أوربا بعيون جـــديدة — ويبينون مضحكاتها وعيوبها ورذائلها . وإنهم لكذلك إذ تجرأ جاسوس تركى ، ثم شخص سياسى وهما اللذان عبدا الطريق ، لفارسِيَّى مونتيسكيو Montesquieu وعندما ظهر هؤلاء الأخيرون سنة ١٧٢١ ، استقبلوا بحماسة . آه ! كم كانوا خفيفى الروح ! وكم كانوا لاذعين حينما جعلوا — متناسين أحداثهم المتعلقة بالقصر — يروون قصة دهشهم الساذج ، وبفضل هذه القصص البسيطة تخلصت الحياة الفرنسية بغتة ، من العادات التى كانت تزملها . وفوق ذلك فإن الأوهام المحجبة بالعرف الجارى ، وبطابعها المألوف فى الحياة العملية والمسوَّغ أحياناً بوساطة الاتفاقات الضرورية لمجتمع ما ، لم تكن تظهر فجأة إلا على ما كانت عليه فى الواقع ، أى على أنها أوهام وإن الأنظمة المجردة من هيبتها الاتفاقية ومن الالتزامات التى أسستها ، ومن ذكريات الخدمات التى أدتها ، ومن التسامح الطويل الذى حماها ، كانت تبدو عارية كالحة من الهرم لأن نقاب الاحترام قد تمزق ، وخلف النقاب لم يكن سوى مجافاة المنطق والتناقض .

كان الفارسيون[1] يحققون هذا العمل فى صورة ماهرة طبيعية ، قد أتقنت أجزاؤها إتقاناً علمياً ؛ وفى كثير من المرح والخفة ، وفى إرادة حازمة متحدية ، وكان كل ذلك مغرياً إلى حد يفتن القراء ، ويجتذبهم إلى

(١) يقصد المؤلف بالفارسيين شخصيات كتاب « رسائل فارسية » تأليف مونتيسكيو الذى نشر فى سنة ١٧٢١ . (المترجم)

صنفه . ولقد كان الجميع يرمون بالحمق كل من لا يكون حليفهم — وقد توفر لديهم أيضاً كثير من القوة ودقة الملاحظة ، والثقة من أنفسهم فى التعبير وتفارق التفاصيل ، إلى حد يجعل الإعجاب به ينتصر على المعارضة وذلك كما لو كان الفارسيون قد هدموا المنزل فى سرعة ومهارة إلى حد كان من شأنه أن يجعل المالك يهنئهم ويشكرهم . وعندما انسحب الفارسيون من الميدان انتزع أوليفير جولد سميث من أحد حواجزه[1] : صينيا يدعى ليان — شى — التانجى وأرسله يذرع طرقات لندن . وقد أخذ هذا الرحال أو المواطن العالمى يبعث بأحاسيسه إلى أصدقائه النائين ، وجعل يبرز — فى صورة السخرية — الجنتلمان الأرقاء الذين كانوا يمثلون كبرياءهم فى عصائب شعورهم المستعارة كما كانت قوة سمسون كامنة فى شعره ، والسيدات الرقيقات اللواتى يتزين بالأصباغ إلى حد أن يصير لكل منهن وجهان ، أحدهما جميل وزائف للنهار ، والآخر هرم ودميم لليل . وقد طفق هذا الصينى يتحدث عن الجميلات اللواتى كن يحاصرنه ، وعن تلك التى جاءته لتقدم إليه قلبها ثم استولت على ساعته . وأكثر من ذلك أنه تجرأ إلى حد أن دس — بين هذه الرسوم المحبوبة الباسمة — بضعة رسوم أخر ذات خطوط قد حفرت بهيئة أعمق ، وبمداد أكثر دسما وأشد سوادا إذ يقول لنا مثلا : انظروا إلى الأعلام المعلقة على سقف قبة كاتيدرائية القديس پولس ، إنها خرق حريرية لم تكد تبلغ من القيمة بضع قطع من العملة الصينية عندما كانت جديدة ، وهى لم تعد تساوى شيئاً الآن ، ومع ذلك يقال إن الفرنسيين فقـــدوا كثيراً من شرفهم بفقدها ، وإن الإنجليز ربحوا منه كثيراً باستيلائهم عليها . فهل شرف الدول الأوربية إذن يتلخص فى قطع من الأقمشة الممزقة ؟

---

(١) الحاجز أو الپاراڤان ، مزدان فى الغالب بصور صينية ، ولعل المؤلف يريد أن يقول إن إحدى هذه الصور هى التى ألهمت جولد سميث اتخاذ بطل كتابه من بين الصينيين . (المترجم)

وانظروا إلى المركبة الفخمة التى تجتاز الطرقات فى ضجة عظيمة ، إنها مركبة لورد انحدر من إحدى فتيات المطبخ ، تزوجها فى الماضى أحد أجداده ، ومن أحد سائسى الاصطبلات كانت فتاة المطبخ قد منحته حظوة سرية ، فاحتفظ من الأولى بذوق الإكثار من الأكل والإفراط فى الشرب ، ومن الثانى بهواية الجياد . ها هو ذا من يدعونه بالنبيل .

وحين ينتهى الصينى من هـــذا ، يخطو على المسرح بضع خطوات ثم يؤدى التحية ويختفى فيما وراء الكواليس إذ لاتكاد سنة ١٧٦٧ تحل حتى يصل هورونى[١] فينزل عند مصب نهير الرانس . وعلى أثر نزوله يسبب فضيحة للأب دى كيركابون وشقيقته الآنسة دى كيركابون ، ثم يزعم أنه يتزوج حسب هواه ويعرض نفسه لخطر الاتصال بالبروتستانتيين والجانسينيين ، وهكذا يقلب كيان بلاط فرساى رأسا على عقب ، لا لشىء سوى أنه ساذج ، ولأنه لم يتعلم شيئاً ، فليس لديه أوهام ، ولأنه لم ينحرف فهمه بالأخطاء ، فقد بقى على استقامته ، ولأنه — بعد أوسبيك وريكا ، وريدى[٢] وليان — شى — التانجى — يدعى للمرة الأولى أنه يرى الأشياء كما هى . وفى نهاية المطاف يتمدين الهورونى وينخرط فى سلك جيش الملك ، ثم يصير فيلسوفاً ومقاتلا شجاعاً ، ويفقد تبعاً لهذا أهميته .

وإذ ذاك تتساءل إســبانيا أى أجنبى تستطيع هى أيضاً أن تبدعه ، ثم تختار أفريقياً هو غزال بن على المراكشى ، فيدرس مدريد والأقاليم الإسبانية ، ثم يصف فى سلسلة من الرسائل يبعث بها إلى ابن بيلى ، أخلاق إسبانيا ، وفى الوقت ذاته يسجل أسباب عظمتها وتدهورها ، ويبين الدواء الذى بدأ يبرئها فعلا . تلك هى محتويات كتاب چوزيه كادالسو الذى عنوانه

(١) الهورونى أحد أفراد قبيلة هورون من الحمر الذين كانوا يقطنون أمريكا الشمالية فى غابر الأزمان وهذا الهورونى هو بطل كتاب ڤولتير الذى عنوانه (الساذج » . (المترجم)

(٢) أسماء شخصيات كتاب « الرسائل الفارسية » تأليف مونتيسكيو . (المترجم)

« الرسائل المراكشية » والذى ظهر فى الجزء الأخير من القرن الثامن عشر .

وفوق ذلك وجد بين كل اثنين من هؤلاء الأبطال أشخاص — كما لو كانوا قد أتى بهم لسد الفراغ — للقيام بأدوار ثانوية من جميع الأجناس أى من الأتراك والصينيين والمتوحشين الذين أقصوا عن بلادهم ، والبيروويين والسياميين والإيروكويين ، والهنود الذين كانوا يقومون فى مرح ، بأدوارهم البهلوانية النقدية .

وأخيراً — وتلك هى الطريقة النقدية الثالثة — نشاهد رحالة آخرين ، رحالة خياليين لم يغادروا مساكنهم قط ، يستكشفون بلاداً عجيبة تخجل أوربا . وذلك كأمبراطورية الكانتهار فعلا أو بجزيرة النساء العسكريات أو دولة وسط أفريقيا التى كان سكانها يعادلون الصينيين فى القدم والكثرة ، والمدنية ، أو كمدينة « فيلاديف » أو كجمهورية الفيلسوف أجويان .

لم يكد أحد يمل من أن يشيد بفضائل أولئك الذين لا وجود لهم ، والذين كانوا جميعاً منطقيين وسعداء . ولقد كان الناس إذ ذاك يعيدون طبع المشروعات الخيالية العتيقة . فمن ذلك أن دومانجو جونساليس قد بعث ليقذف بنفسه إلى القمر ، وكان البعض يكتب عن ذلك قصصاً كقصة نيكولا كليميوس الذى تغلغل إلى عالم ما تحت الأرض حيث ألفى مملكة البوتوانيين المستنيرين الحكماء ، وشاهد الأرض الثلجية التى يذوب سكانها عندما يصيبهم شعاع من أشـعة الشمس ، وذلك كله دون حسبان الذين لا رؤوس لهم ، والذين يتكلمون بأفواه فى وسط معداتهم ، ولا البوستانكيس الذين ثبتت قلوبهم فى أفخاذهم اليمنى .

تلك كانت بعض هذيانات الأخيلة وإن لم ينس أربابها الغاية الأساسية ، وهى إظهار كم أن الحياة غير قابلة للتعقل فى إنجلترا وألمـانيا وفرنسا والمقاطعات المتحدة ، وعلى العموم فى جميع البلاد التى تزعم أنها متمدينة ، وكم أنها يمكن أن تصير جميلة لو أنها صممت فى النهاية ، على أن تطيع قوانين العقل .

الخيالة . ومنذ سنة ١٧٢٦ بدأ أثر جوناثان سويفت – وهو أستاذ فى هذا النوع – يظهر فى كثير من هذه المشروعات . ولما كان الأطفال قد استولوا على كتاب سويفت الذى عنوانه « رحلة جوليفير » لكى يتخذوا منه أحد ملاهيهم المفضلة ، فقد شق علينا أن نرى إلى أى حد يمكن أن يصل مرماه الرهيب ، لأن سويفت يقبض بيده على المخلوق البشرى فيصغره إلى نسب ضئيلة ، ويكبره إلى أن يمنحه نسبا عملاقية ، ثم ينقله إلى بلاد فيها كل الصور الفطرية لحياتنا ، منقلبة رأساً على عقب . وهو لا يكتفى بأن يعطينا فى النسبية أكبر درس تلقيناه ، بل إنه يهاجم كل ما تعلمنا أن نؤمن به ونحترمه ونحبه ، وذلك فى حماس خبيث وحركة لا تلبث أن تصير مدمرة ، فرجال الحكومة مثلا جهلاء أغبياء مغروورون مجرمون ، والملوك يمنحون الأوسمة ذوات الأشرطة الزرق والسود والحمر كل من يجيدون معرفة القفز على الحبل ، والأحزاب تتقابل فيما بينها على معرفة ما إذا كان من الملائم فتح البيضة من طرفها الغليظ أو من طرفها الدقيق والعلماء ؟ إنهم مجانين ، وفى المجمع اللغوى لا چراد ونشاهد أحدهم يعمل على استخراج الشمس من الخيار وحبسها فى قوارير للشتاء . بينما نرى آخر يشيد منازل مبتدئا بسقفها ، نجد ثالثاً ، أعمى ، يصنع ألواناً ، وآخر يستبدل بالحرير نسيج العنكبوت .

والفلاسفة ؟ إنهم أدمغة مختلة تعمل دون جدوى ، ولا يوجد شىء متناقض أو غير معقول إلا وقد أيده واحد منهم .

وفى مملكة لوجناج يلتقى جوليفير بعدد من الخالدين يدعون استر البروجس ولكن أى خلود بشع مفزع ! ففى الواقع أنه فى بعض الأسر ، يولد أطفال موسومون فى جباههم بوشمات ، ومقدر عليهم أن يحيوا دائماً . وفى سن الثلاثين يصيرون منقبضين . وفى الثمانين يئنون تحت تعس الشيخوخة ؛ ويألمون بشعورهم بالهرم الذى ينتظرهم . وفى التسعين يصبحون بلا أسنان

ولاشعر ، وقد فقدوا الذاكرة وتذوق الطعام . وفى سن المائتين ثم فى سن الخمسمائة يصيرون حطاماً حقيراً بغيضاً بشع المنظر ، بل أشد إزعاجاً من من الأشباح بلاعون ولا أمل .

وأخيراً يصور سويفت وجودنا نفسه فظيعاً لأن فى بلاد الخيل ، تعيش فى العبودية ، حيوانات عفنة تدعى بالياهُوس . ولها شعر طويل يتدلى على وجوهها وأعناقها ، وصدورها وظهورها . وسيقانها الأمامية مغطاة بشعر سميك ، ولها لحى فى أذقانها كالتيوس ، وهى تستطيع أن تنام وتجلس وتقف على قوائمها الخلفية وتجرى وتقفز ، وتتسلق الأشجار مستعملة مخالبها . وإناثها أصغر قليلا من ذكورها وأثداؤها معلقة بين سيقانها الأمامية وتلمس الأرض أحياناً . وهذه الياهُوس المقززة هى بنو الإنسان ...

وعندما ينتهى المرء من مطالعة كتاب « رحلة جوليفير » يحس بميل إلى تغيير عنوانه ومنحه عنوان كتاب يعزى إلى مكتبة العملاقة الشابة جلومدالكليش من بلاد بروبدينياج ، وهو « رسالة فى ضعف النوع البشرى » .

ومن ثم فإن أبناء جوليفير — سواء أكانوا أبناء شرعيين يحملون اسمه أم أبناء طبيعيين — جعلوا يتناسلون فى خصوبة إلى حد أن كونوا قبيلة نقدية وهى قبيلة الساخطين أوغير المنسجمين مع المجتمع ، أو الحالمين فقط .

لقد أظهروا للعصر — فى الصحراوات المتحولة إلى حدائق ، وفى الجزر التى تختبئ فيها الدورادو ، أى أرض الذهب . وعلى شاطئ جرونكاوف ، وفى مجموعة جزر منجاهور ، التى لا تنبئها أية خريطة إنسانية عرفت ، كيف توجد دساتير أفضل ، وديانات أكثر نقاءاً ، وحرية ومساواة وسعادة . وإذا كان الأمر كذلك ، فلماذا نستمر نتعثر فى شقائنا ما دمنا نستطيع أن نجلب لأنفسنا كل هـــذه الخيرات ؟ إن هذا كله بسبب رذائلنا ، وإن رذائلنا لا تأتى إلا من أخطائنا الطويلة .

* * *

ذلك هو النقد العام ، وهو يطبق فى جميع الميادين : الأدبية ، والأخلاقية والسياسية ، والفلسفية . إنه روح تلك الحقبة المناضلة . ولم أر فى أى عصر ممثلين للنقد أوسع شهرة من نقادها ولم أر النقد مطبقاً بهيئة أكثر شمولا ، ولا أشد لذعاً مع ما يبدو عليه من مظهر مرح .

ومع ذلك فهو لا يتطلب تحولا مطلقاً فى كياننا ، ولا يحمل على الأنانية الأبدية التى شهَّر بها أخلاقيو القرن السابع عشر ، ولا يطلب إلينا أن نغير طبيعتنا لنصير قديسين أو آلهة ، إذ أنه يوجد اتجاهان ممتزجان فى المحيط النفسانى لأولئك النقاد أحدهما اتجاه الغضب والآخر اتجاه الأمل ، وحتى سويفت الشديد القتومة يدَعُنا نلمح شيئاً من الزرقة فى وسط سحب سمائنا . حقاً إنه يعلن أنه بمقت ذلك الحيوان الذى يدعى بالإنسان ، وأن رحلاته مؤسسة على ذلك المبنى العظيم الذى هو عداء البشرية . ولكن قد يحدث له أيضاً بغتة أن يصرح تصريحات أقل يأساً ، عندما يفرض أن ذلك البصيص من العقل الذى وضع فينا على صورة غير قابلة للشرح ، يمكن أن ينمو ، وأن السياسة تنحصر فى الحس المشترك ، وفى الإنهاء العاجل للأعمال ، وأن شخصاً يستطيع إنبات سنبلتين أو نبتتين من الأعشاب فقط ؛ فى قطعة من الأرض لم يكن فيها فيما مضى سوى نبت واحد . عند ذلك لا ينبغى اليأس تماماً من نوعنا . ولو أننا استطعنا أن نتخلص من رذيلتنا الجوهرية التى هى الكبرياء ، لـكُنا أقل تناقضاً ، وأقل تعاسة . ولكننا جسّمنا بأساءنا وأضفنا إليها أخريات . ومع ذلك فمن يدرى ما إذا كانت حكمة جديدة وفطرة سليمة بسيطة متواضعة ، وإدراك للحياة أدنى نسبة إلى طبيعتنا ، لا تكون هى الأدوية التى لم نستعملها ولكنها لا تزال فى متناول أيدينا ؟

وإذا كان سويفت كذلك فإن الآخرين من باب أولى يتمالكون أنفسهم ، لأن تشاؤمهم ليس كونياً أى أنه لا يمتد إلى العالم كله ولا ينطبق على حالتنا كلها . إنهم بالأحرى يتهمون حاضراً يثيرهم ولكنهم يحسبون أنه يمكن تغييره ، لأن

عدوهم هو الحالة الاجتماعية كما وجدوها عندما أتوا إلى هذا العالم . فلتهدم ولتبدل وعند ذلك يتحسن المستقبل .

لا يقترن نقدهم دائماً بطلب من المطالب ، فمن أمثلة ذلك ، أن جون جيه – وهو ليس عملاقاً . ولكنه صديق للعمالقة : أربوثنوت ، وبوپ ، وسويفت – Arbuthnot Pope Swift قدم مسرحية عنوانها «أوبرا المتسول» كان من الممكن أن تبدو للوهلة الأولى ، مزاحا بريئاً ، وذلك أن الأوبرا الإيطالية فى لندن تثير أعصابه ، وأخذ يسخر من أولئك المغنين الأكابر ، ومن تلك العواطف الجوفاء ، والدسائس الحمقاء ، التى لا تلائم العبقرية القوية للبريطانيين الأشداء .

ولكى يضع أولئك المغنين موضع السخرية أصعد على المسرح عصابة من اللصوص والمثالين ، والفتيات الساقطات ، ومعهم قاطع طريق . وبهذا يتم له تأليف معارضة لأشخاص الأوبرا الإيطالية المكونة من ملوك وملكات وبطلات مغرمات ، ومحبين ممعنين فى الإفصاح عن عواطفهم ، وآباء أشراف ورقيبات محترمات . ولا توجد حالة من حالات الأوبرا – كاعتراف يسوده الهوى أو مناجاة تحت نور القمر ، ولعنات أبوية ، وموت منسجم – دون أن تكون قد أخذت لها صورة كاريكاتورية فى تلك المسرحية . وفيما يتعلق بالموسيقى ، فإن ألحاناً شعبية ، وأغنيات قديمة ، وأنغاماً كان أهل سوهو[1] يترنمون بها وهكذا قد استهزئ بالتصنع والتعمل فى الخطابة ، والتظاهر بالرشاقة فى الأوبرا الإيطالية الخالية من المعنى غير الجديرة بالعبقرية القوية للبريطانيين الجافين .

ولكن هذا التصوير للسرقة كان يرمى إلى ما هو أبعد من ذلك لأن نشاط العصابة التى كانت تحركها عبقرية رئيسها المســتر پيتشوم – وهو

---

(١) أحد أحياء مدينة لندن . (المترجم)

مخبئ المسروقات ، وموزع الأدوار على الأشقياء ، ومنظم المؤامرات ، وهو قدير على حماية رجاله وانتزاعهم من السجون إذا اعتقلوا ، قدرته على عقابهم إذا ضعفوا — كان يهدف إلى أن يكونوا صورة للحياة السياسية بوزرائها الذين يوزعون على أنصارهم ما اختلسوه من الأفراد ، وعدالتها البعيدة عن العدل ، وقانونها الخارج على القانون . وأكثر من ذلك أن طبقة الأشراف هى التى كانت موضع سخرية المسرحية لأن المستر پيتشوم وصاحبته مسز بيتسن — وهى قوية الحنجرة ومستعدة دائماً لتوريد الأمثلة السائرة التى هى حكم الدول — وابنتها پولى وهى أجمل حلى العصابة وأكثرها نفعاً ، واللصوص الذين كانوا ينحبسون فى مقصف ، والعاهرات اللواتى تفوح منهن رائحة الكحول . وفيم يفترق كل هؤلاء عن السادة الخسان والسيدات النبيلات ممن يختلفون إلى البلاط ، ويسكنون القصور ، ويتنزهون فى المركبات ، ويشغلون الجوانب العليا فى الطرقات[1]

هــذا الفرق إن صح ، خارجى لأن العواطف والعادات والجرائم متماثلة إذا سنحت الفرصة ، وإلا فهل يعمل هؤلاء القوم ذوو المظهر الجميل شيئاً آخر سوى البحث عن فوائدهم ولذائذهم ؟ إنهم يتحدثون عن شرفهم ولكن أليسوا مستعدين دائماً لخيانته ؟ ويتحدثون عن فضائلهم ، ولكن أليس فيهم جميع الرذائل ؟ أو ليسوا غير أوفياء ؟ أولا يغشون فى اللعب ؟ أولا يترقبون الفرص لجمع المال ؟ إنهم وحوش مفترسة ، فليتظاهروا بالتقزز كما يريدون لأنه لا يعرف أحد بالضبط ما إذا كان السادة يحاكون أبناء الشوارع أو كان أبناء الشوارع يحاكون السادة . وإذا كان ينبغى الفصل بينهم ، فإن اللصوص هم الذين سينتصرون . حقاً إن اللصوص خير من هؤلاء المنافقين لأن هؤلاء إذ يجلبون إلى أنفسهم بلا طنطنة ما يحتاجون إليه ليعيشوا ،

---

(١) كانت الطرقات فى القرن الثامن عشر منحدرة فى أوساطها عالية فى جوانبها وكانت النواحى العالية النظيفة مخصصة للطبقة الأرستقراطية . (المترجم)

وإذ يكونون مهرة غير متأثرين بالتعب ، شجعاناً ، لا يترددون فى أن يخاطروا كل يوم بحريتهم وبحياتهم فى سبيل الاستعداد لإغاثة صديق ، وللموت من أجله مدفوعين إلى ذلك بالوفاء لقانونهم . هؤلاء « الفلاسفة العمليون » يرمون إلى أن يوزعوا — بصورة أكثر عدالة — خيرات هذا العالم ، وأن يصلحوا إجحاف الحظ .

والآن دعوا السنين تمضى ، وانظروا إلى بلد آخر مختلف كل الاختلاف ، وغيروا النوع الأدبى ، فإنكم ستجدون نفس القلق الاجتماعى .

كان باريني ابن أحد الصناع اللمبارديين وقد صار قسيساً ثم مربياً . ولما اقترب بسبب ذلك ، من الارستقراطية ، حكم عليها ودانها . وفى سنة ١٧٦٣ ، أخرج كتاباً عنوانه « الصباح » لم يلبث أن قفى على آثاره بآخر ، عنوانه « الظهر » وهما رائعان . والسيد الشاب الذى صور فيهما حياته أثناء بضع ساعات فقط ، أى منذ يقظته المتأخرة إلى وسط النهار ، ليس سوى كسل ورخاوة وتعطل ، وليست شواغله سوى فراغ ، فهو يتناول القهوة فى وعاء من الصينى الفاخر ، ويثرثر مع أستاذ الرقص ، وأستاذ الغناء ، وأستاذ اللغة الفرنسية ، ويستقبل الحائك الذى يأبى أن يدفع له ماعليه ويتلكأ طويلا أمام منضدة الزينة ، بينما يكون الحلاق الذى يهينه مشتغلا بتجميل شعره ووضع المساحيق عليه ، ثم يتجه نحو عشيقته المتزوجة تحت عينى زوجها . وأمام مائدة الطعام يتظاهر بالامتعاض بإزاء أطعمة لذيذة ، وهو يثرثر بلا ضابط ، ويصدر أحكاما قاطعة على مالا يعرفه . إنه مختل ومتكبر وقاس ، وإن مركبته تسحق المارة الذين لايبتعدون بسرعة عن طريقه ، فما هى مميزاته ؟ إنه لم يقدم خدمة إلى الدولة ، ولم يدافع عن وطنه كأجداده ، ولا يحمل فوق جنبه سوى سيف البلاط . إنه غير جدير باسمه وطبقته وامتيازاته وقد جعل باريني Parini يتعقبه تفصيلا إثر تفصيل . وهنا يسخر ويزمجر . ومن حين لآخر يستولى عليه غضب ، وغضب مكبوت بلا تعبير ولا صياح . وفى شعره ذى القوة التى لاتوازى ، تمر

حسرات وآمال كقوله مثلا : « قد يكون ذلك كذباً ، ولكن الخرافة تقول إنه وجد زمن ، كان فيه بنو الإنسان متساوين وكان السوقة والأشراف فيه اسمين غير معروفين ... »

على هذا النحو ظلت الحالة إلى نهاية القرن أى إلى فيجارو[1]

وظلت كذلك فى كل أوربا ، وكان النقد إذ ذاك ينتهى باستغاثة وتمنيات ومطالب . وأخيراً ماذا يشتهى أولئك الرحالة الساخطون ؟ أو الجائلون الناقمون ؟ وماذا يريد أولئك المتظلمون ؟ ولماذا يعيدون النظر بهيئة لا يفلت منها شيء ، لا التشريع الذى يحتمى بجلاله ؟ ولا الدين وهو يبرز طابعه الإلهى ؟ ومن أى خير يعتبر أولئك النفر أنفسهم محرومين ظلماً إنهم محرومون ظلماً من السعادة .

---

(١) الشخصية الأساسية فى أشهر مسرحيتين للكاتب الفرنسى بومار مشيه (١٧٣٢ - ١٧٩٩) « وهما حلاق إشبيلية » و « زواج فيجارو » . وقد أنشأ المؤلف فيهما هجاءا عنيفا لمجتمع النظام القديم عارض فيه السلطة الناشئة النامية للطبقة الشعبية التى كان فيجارو أحد مشاهير نماذجها . (المترجم)

الفصل الثاني

السعادة

أيتها السعادة ! يا نهاية كينونتنا وغايتها ، أيها الخير أو اللذة أو السعة أو الرضى أو أيا كان اسمك !

ستعود غالباً هذه الدعوات أو هذه العبارات التي تشبه الرقى . ولا جرم أن هذه الكلمات — وهي التي يجمعها پوپ في كتابه « محاولة على الإنسان » ، كما لو كان يناديها ، والتي يضيف إليها أيضاً كل الممكنات — ستتخذ من جديد ، وستحلل وستعرف بصورة غير قابلة للملل . فأهل ذلك الزمن لم يكونوا يخشون آلهة غيورين يسخطون عندما ينطق الفانون بكلمة غير حكيمة ، بل على الضد كانوا يصيحون معلنين أنهم يريدون نصيبهم من السعادة ، ذلك النصيب الذي سينالونه ، بل الذي كان لديهم فعلا . وهاك ما كانوا يجرؤون على تدوينه كعناوين لكتبهم بلغات مختلفة : « أفكار عن السعادة ، رسالة على السعادة ، عن الحياة السعيدة ، نظرية السعادة الحقة ، محاولة عن السعادة ، عن السعادة ، فن الإسعاد ، خطبة عن السعادة ، عن السعادة ، وعلى السعادة البشرية ، على السعادة » وعلى أثر هذا لما كان استكشاف السعادة ، بعد إرضاء الأفراد ، سيفيد الشعوب فقد وسعوا ما فيه من خير ، وأشاروا إلى ذلك في كتب أخرى على النحو التالي : « رسالة عن المجتمع المدني » ، وعن وسيلة تصيير الإنسان سعيداً يساهم في إسعاد الأشخاص الذين يعيش معهم ، وأسباب السعادة العامة ، وعن السعادة العامة ، وعن السعادة العامة ، وتعقلات مؤدية إلى السعادة العامة ، وتفكيرات عن السعادة العامة ، وعن السعادة العامة »[1] .

---

(١) تحمل هذه الكتب الثلاثة عنوانا واحدا ولكن أولها فرنسي وثانيها إيطالي وثالثها إنجليزي فالجهة منفكة كما يقول علماء المنطق . (المترجم)

ولكى يكون تحت أيديهم أفضل الرسائل فى تلك المسألة ، فقد كونوا منها مجموعة أطلقوا عليها عنوان « مبادئ السعادة » . ولقد كان المعبد الجميل هناك فوق التل السعيد ، وكان السرور واقفاً أمام بابه يدعو البشر آخر الأمر إلى عيد الحياة الأكبر .

غير أن هناك منافسة أخرى استولت على العقول . نعم إن الجميع كانوا ينقلون ، ولكن الجميع أيضاً كانوا يرددون أن الحقائق الهامة الوحيدة من بين جميع الحقائق ، هى التى تساهم فى جعلنا سعداء ، وأن الفنون الهامة الوحيدة من بين جميع الفنون ، هى التى تساهم فى جعلنا سعداء ، وأن كل الفلسفة تنحصر فى الوسائل الناجعة فى إسعادنا ، وأن نهاية المطاف هى أنه لا يوجد سوى واجب واحد هو أن يكون الإنسان سعيداً .

وضع الشعراء فى قصائدهم هـذا التنقيب عن السعادة الذى صار « جرال » Graal[1] العصر الحديث . ومن ثم فإن هلفيسيوس[2] Helvétius عندما اعتزم أن يكون أپولون[3] فرنسا طلب النصح من ڤولتير فأجابه بأن وجود موضوع جميل هو قبل كل شىء ، ضرورى لكى ينشىء المرء شعراً جميلا ، فطفق ينقب ، ولكنه لم يجد من بين الموضوعات أجدر من الموضوع التالى : سعادته هو وسعادة النوع البشرى .

---

(١) الجرال هى الكأس التى استعملها المسيح ليلة وفاته والتى تلقى فيها دمه على الصليب . وتروى القصائد الحماسية الفرنسية والألمانية فى العصور الوسيطة كيف أن الجرال قد حفظت فى قصر مونسالڤا حيث سيأتى للاستيلاء عليها پارسيفال البطل الشاب ذو القلب النقى الذى سيخلع عليه هذا الاستيلاء عنوان ملك الجرال والذى سيخلف ملك البلاد المتوفى . (المترجم)

(٢) هلفيسيوس هو أحد فلاسفة القرن الثامن عشر (١٧١٥ — ١٧٧١) وهو مؤلف قصيدة « السعادة » ورسالتين فلسفيتين . (المترجم)

(٣) أپولون هو عند الهيلين إله الشعر ، ورئيس عرائسه ، وهو مضرب المثل فى إجادة الشعر حتى ليطلق على من يتقن القريض اسم أپولون عصره وقد يطلق هذا التعبير أيضا على الشاعر الردىء للسخرية . (المترجم)

لقد دنا الزمن الذى كان سيتم فيه أورماز[١] ، إله الخير كفاحه ضد أريمان إله الشر ، بانتصار حاسم ، وكان أورماز هو الذى يعلن ذلك النبأ على هذا النحو : « إن الجحيم ينعدم ، وإن السماء تنزل على الأرض...

وكذلك وضع الكتاب هذا التنقيب عن السعادة فى رواياتهم . ففى سنة ١٧٥٩ قد وكل الكاتب المتعقل الحكيم صمويل چونسون Samuel Johnson هذه المخاطرة إلى بطل روايته راسيلاس ابن إمبراطور الحبشة .

كان راسيلاس – تبعاً لقانون بلاده ، وإلى أن يدعوه إلى الحكم نظام التعاقب على العرش – مبعوثاً فى أحد الأودية بلا اتصال مع العالم ، نعم لم يكن يعوزه شىء مما كان يجب أن يرضيه ، ومع ذلك فقد كانت حالته تبدو له غير ممكنة الاحتمال . وعلى أثر ذلك أعد مشروعاً لمغادرة سجنه المفرط فى الكمال . وأخيراً فرّ وجعل يزور الريف والمدن ، ثم اتجه إلى القاهرة التى يتجابه فيها الغرب والشرق والتى يوجد فيها المثل لجميع الحالات بل دخل الأهرام التى يمكن أن تكون قد خبأت سر الحكمة القديمة ، وجعل يردد – بصوت أخذ عزمه يقل تدريجياً بقدر ما كانت تجاربه تضعف أعماله – الكلمات الآتية : « لابد أن هناك مكاناً توجد فيه السعادة » .

وفى سنة ١٧٦٦ قد خلق ڤيلاند "Wieland" بطلة آجاتون ، وقد جعل هذا الأخير يجوس خلال المناطق المختلفة فى إغريقا الأثرية ، مستجوباً العامة والحكماء ، والمومسات والزهاد قائلا : « السعادة ، قل لى إذا كنت قد وجدتها ؟ أين السعادة ؟ » .

لقد كان بعض المؤلفين يحلمون ، فطفق أحدهم يقدم إلينا مملكة من ممالك الأحلام تمتد فى الجانب الآخر من خط الاستواء بين درجتى الأربعين

(١) أورماز أو أهورامازدا هو إله الخير ، وأرمان أو أهرمان هو إله الشر فى الديانة الفارسية القديمة ، وقد قدر لإله الخير فى تلك الديانة أن ينتصر على إله الشر آخر الأمر لتسود الفضيلة وتنمحى الرذيلة من الحياة . (المترجم)

والخمسين من خط العرض الجنوبى . وكانت عاصمتها ليليو بوليس مشيدة فوق صخرة فى جمال الرخام ، وكانت منازلها مزدانة بزخارف الأقمشة والبسط فى الشتاء ، وهى فى الصيف محلاة بأنسجة أكثر رقة ، وأسطع لوناً من حريرى الموصل والهند ، وكانت أغطية الحوائط والسقف مكسوة بزخرفة أكمل من زخارف الصين ، وكان الريف ثريا ومأهولا بالسكان وكانت الأراضى – وهى مزروعة بعناية تشبه عنايتنا بحدائقنا – تنتج أثرى الحصائل التى يمكن أن تقع عليها الأعين فى هذا العالم . وكانت توجد فيها جبال من ماس ، وكمية من الأحجار الكريمة كالياقوت والزمرد والزبرجد ، وكانت الأنهار تجتذب الذهب فى رمالها ، والبحر يحتوى الجوهر والعنبر والمرجان . ولم يكن هناك شىء يوازى خضرة الأشجار ، والمروج والأعشاب . وكانت الأسيجة النباتية نفسها مغطاة بزهور لا نظير لبريقها ، وكانت تعطر الجو بأريجها . وكانت الخضراوات والفواكه فيها فاخرة ، والنبيذ لذيذاً . وكانت الينابيع ذوات المياه النقية عديدة . وأخيراً إن هناك سماء صافية ، ودواءاً صحياً ، ومناخاً معتدلا أكثر وداعة وأقل خضوعاً للتغير من مناخنا . كل ذلك كان يتمم جعل السكان جديرين بهذا الاسم الجميل وهو « الهانئون » أو « السعداء »[1] ! .

كان أولئك المؤلفون يفرون من الواقع عن طريق الفكر ، فكان أحدهم مثلا يرتحل فى إثر روبينسون[2] فوق صفحة الخضم غير مأمون العاقبة . وكان يقتحم المخاطرات ومهالك البحر .

وكانت العاصفة تهب فتغرق السفينة ، ولكن الغارق كان يجد دائماً شاطئاً يأوى إليه ، وطبيعة رحيمة ، ووادياً خصباً ، ولحم صيد وفاكهة .

---

(1) **Marquis de Lassay, Relation du royaume des Féliciens peuples qui habitent dans les terres australes, 1727.**

(٢) روبينسون كروزيه هو بطل الرواية الشهيرة التى ألفها الكاتب الانجليزى دانيل ديفويه الذى ولد فى سنة ١٦٦١ وتوفى فى البأساء فى سنة ١٧٣١ . (المترجم)

وكانت إلى جانبه فى هذه الأسفار ، رفيقة ، أوكان يلتقى بها عن طريق أحد الأحداث . وحينئذ كان هذا المثنى يؤلف مجتمعاً تخجل حكمته أوربا العجوز . وكان كل ذلك يجرى فى جزيرة فيلسيفبور ، وهى فى أحد جوانب مملكة الأوهام ، أو فى جزيرة أخرى إدراكها أشد صعوبة ، وهى تسمى « أسعد جزائر العالم كله أو بلاد الرضوان والغبطة » .

وفى الحق أن جميع العلماء والسطحيين ، والمختارين والمبعدين والشبان والنساء والشيوخ كانوا يستولى عليهم ظمأ واحد ، فمدرسة الأشراف فى وارسو مثلا – لكى تقدم إلى الأسر فكرة عن رفعة دراستها – قد أبرزت أمام الرأى العام فى سنة ١٧٥٧ عشرة شبان خطباء كانوا يعالجون موضوع « سعادة الإنسان فى هذه الحياة » . وفى المنتديات الباريسية كان روادها يستبدلون « خريطة الحب » [١] بخريطة السعادة . وفى المسرح كان المرء يستطيع أن يشاهد تمثيل مسرحية فلسفية نثرية فى ثلاثة فصول ، عنوانها « السعيد » . ولقد كانت هناك أيضاً « نحل » « فى السعادة » تعتنقها شيع من بين الجمعيات السرية ، وكانت تلك الشيع فى مجتمعاتها تترنم بأغان من النوع الآتى : « إن جزيرة السعادة ليست وهما ، وإنما هى هناك حيث تسود اللذة التى هى أم الحب . أيها الإخوة ، لنجر ولنمخر عباب البحار الموصلة إلى سيتير [٢] فإننا نسجدها .

وكانت مدام دى پويزيو كذلك تكتب حين كانت تصور أخلاق معاصريها : « إن السعادة كرة نجرى وراءها عندما تتدحرج . وندفعها بأقدامنا عندما تتوقف . . . وحينما يعتزم المرء أن يستريح ، ويدع الكرة

---

(١) كان رواد المنتديات الباريسية فى القرن السابع عشر من الأدباء المتأنقين ، والأديبات المتأنقات قد اتفقوا على وضع خريطة للحب تحتوى على مراحله المتتالية التى يجب على كل محب متأنق أن يمر بها قبل أن يصل إلى الغاية العظمى من حبه . (المترجم)

(٢) سيتير هى إحدى الجزر الإغريقية فى البحر الأبيض ، وتدعى اليوم سيريجو وكان لأفروديت إلهة الجمال والحب فيها معبد بديع ، وتمثل سيتير فى لغة الشعر ، الوطن الرمزى للحب . (المترجم)

يبتعد ، يكون جد منهك . . . » . ولكن الإنسان إذا صدق ما يقوله مونتيسكيو ، لا يكون منهكاً ألبتة : « إن السيد دى موبيرتوى الذى حسب طول حياته ، أنه لم يكن سعيداً ، بل الذى يمكن أن يكون قد برهن على ذلك ، نشر آنفا رسالة صغيرة عن السعادة » .

ومهما يكن من الأمر فإن ذلك العصر كان مستعبداً لبضع فكر معينة ولم يكن يتعبه استئنافها من حين إلى حين . وكان يفضل أن يعود إلى نفس الصيغ ، ونفس الامتـــدادات كأنه لم يكن ألبتة موقناً بأنه أثبته ، ولا أقنع به أحداً بالقدر الكافى ، فنحن نراه هنا فى إحدى خططه المفضلة وفى إحدى معـــانداته ، إذ ينبغى أن نذكر أن الحروب لم تكن تضع أوزارها : كحرب التعاقب على عرش إسپانيا ، وحرب تركة النمسا ، وحرب السنوات السبع ، وحرب الشرق الأدنى ، والحرب التى حملت إلى العالم الجديد . وفوق ذلك فمن وقت إلى وقت كان الطاعون أو الجوع يأتى فيجتاح بضعة أقاليم . وفى كل مكان كان الناس يتألمون كما هى العادة . ومع ذلك فإن أوربا العقلية كانت تريد أن تقنع نفسها بإنها تعيش فى خير العوالم الممكنة . وكان مذهب التفاؤل هو معونتها العظمى[1] .

* * *

قد يقال إن هذا هو التاريخ الأبدى لوهم أبدى ... ولكن الأمر ليس كذلك ، فقد وجدت عصور يائسة ، ووجدت عصور ألبمة لم تكن لتجرؤ على أن تعلن هذا المطلب من السعادة لأن ، ذلك كان يبدو لها هزواً . وكانت قد أصيبت إصابة عميقة فى عقولها وفى أجسامها إلى حد أنها لم تكن توشك أن تجرؤ على الإيمان بغد أفضل . وكانت تعرف أنها تحمل فى داخلها جميع بأساء العالم . ولقد وجدت أيضاً عصور إيمان عند ما لاحظت شقاءنا الذى

---

(١) فيما يتعلق بتفاؤل ليبنيز وپوب ، انظر الفصل الثالث من القسم الثالث من هذا الكتاب تحت عنوان « الطبيعة والخيرية » .

لا دواء له ، وضعت ثقتها فيما وراء هذا العالم،أى فى من تنتظر منه العدالة . وهذه الأخيرة قد راهنت على اللا متناهى :

بيد أن السعادة كما أدركها عقليو القرن الثامن عشر ، كان لها مميزات لم تكن لغيرها . إنها سعادة عاجلة ، إذ أن الكلمات التى كانت تدخل فى الحسبان إذ ذاك ، هى : اليوم ، أوعلى الفور،وما إلى ذلك . وكان الغد يبدو متأخراً أمام ذلك القلق لأن الغد كان يمكن على الأكثر أن يحمل تتميما ، إن الغد كان يستطيع أن يستمر فى العمل الذى بدئ فيه . ولكنه لا يشير إلى تحول ما . إن هذه السعادة التى كانت غُنْماً أكثر منها منحة ، كانت سعادة إرادية ولم يكن يجب أن يدخل فى مقوماتها أى عنصر مأساوى . فلتهدأ الإنسانية كما يقول الألمان .

فلتهدأ الإنسانية ولتنقطع الاضطرابات والشكوك والقلق ! إطمئن أيها الإنسان ! إنك فى مَرْج لطيف محوط بأشجار ، تجتازه جداول من الفضة ، وهو يشبه جنة عدن . ومع ذلك فأنت تأبى أن تراه . وإن هنالك رائحة عطرة تتضوع من الزهور ، وأنت تأبى أن تتنسمها ، وزنابق ساطعة ، وفواكه لذيذة تتقدم إليك وأنت تأبى أن تجتنيها . وإذا اتجهت نحو شجرة ورد ، فأنت تعمل على أن تمزقك أشواكها . وإذا اجتزت الأعشاب فأنت تفعل ذلك لكى تجرى وراء الثعبان الذى يفر . وبعد كل ذلك فأنت تولول وتصعد الزفرات ، وتقول إن الكون يتآمر ضدك ، وإنه كان من الخير ألا تكون قد ولدت . ولكنك لست إلا معتوهاً وأنت نفسك تتسبب فى شقائك[1] . أو إنك تغتبط بأن تستحضر شَبَحاً أى آلهة مرعبة مرتدية ملابس سودا وجلدها متغضن بكثير من الثنايا ، ولون وجهها ممتقع ، ونظراتها مليئة بالفزع ، ويداها مسلحتان بسياط وعقارب إنك تستمع إلى صوتها وهى تنصح لك أن تشيح بوجهك عن جواذب عالم خادع وتقول

---

(1) I,P, Uz. Lyrische Gedichte, 1749. Versuch uber die Kunst stets frohlich Zu sein.

لك إن السرور ليس من نصيب الجنس البشرى ، وإنك ولدت لتتألم ولتكون ، ملعوناً ، وإن جميع المخلوقات تتألم تحت النجوم . وحينئذ أنت تطلب الموت . ولكن ألا تعرف أن الوهم هو الذى يحدثك على هذا النحو ، أو أنها ابنة القلق ، وأن من توابعها الخوف والهم ؟ .

فى الحق أن الأرض مفرطة فى الجمال إلى حد يحول بين العناية وبين جعلها مقراً للألم . ومن ثم فإن رفض الاستمتاع بالخيرات التى أعدها لك مبدع الأشياء ، يكون برهاناً على الجهل والفساد[1] .

ليس لهذه السعادة علاقة مشتركة بسعادة المتنسكين التى تتجه إلى التلاشى فى الإله ، وبسعادة فينيلون "Fénelon" الذى كان يشعر بأن روحه أكثر يقيناً وأشد بساطة عندما يلتحق بالإله فى الفكر ، أو بسعادة بوسويه "Bossuet" الذى كان يحس بعذوبة كونه مأموراً بوساطة العقيدة الموحاة ، ومقوداً بوساطة الكنيسة ، وبإحرازه اليقين بأنه سيُسعَد يوماً ما ، بين المصطفين الذين سيوجدون عن يمين قدس الأقداس ، أو بسعادة العادلين الذين كانوا يقبلون طاعة القانون ، وكانوا يؤملون فى المثوبة التى لا تنفد ، أو بسعادة البسطاء المغمورين فى الصلوات .

أولئك الذين كانوا يحلون محل الأساتذة القدماء ، لم يكونوا ينشغلون بالسعادة السماوية ، وإنما الذى كانوا يريدونه هو سعادة أرضية — تلك السعادة كانت إحدى طرائق الرضى بالممكن دون إدعاء اللحوق بالمطلق أى سعادة عادية ومتوسطة تقصى الربح التام خوفاً من خسران تام ، ذلك هو عمل بنى الإنسان الذين كانوا يستولون فى هدوء ، على الخيرات التى كان كلُّ يوم يحملها إليهم . وتلك هى أيضاً سعادة التقدير والتدبير . حقاً إن مقداراً منها معيناً للشر بلا خلاف . ولكن منها أيضاً مقداراً آخر للخير . وأخيراً إن الخير هو الذى سيغلب . وأكثر من ذلك إن البعض

(1) S, Johnson, The Rambler, no, 44, aout 1750.

كان يستعمل فى هذا عملية رياضية ، هاك مجملها : كوّن مجموعة خيرات الحياة، ومجموع الشرور التى لا يمكن تجنبها ثم اطرح الثانى من الأول فسترى أنك ستستبقى ربحاً . أو كون من جانب ، مجموع النقط المواتية مضروبا فى القوى . ومن جانب آخر مجموع النقط المضادة مضروبة كذلك فى القوة فإذا وجدت عند نهاية اليوم أن لديك أربعا وثلاثين درجة من اللذة وأربعا وعشرين درجة من الألم ،فإنه يجب عليك أن تعتبر نفسك راضيا[1] .

هناك أيضاً سعادة مشيدة . فلننظر فى شأنها إلى مؤلف كتاب « الرسائل الفارسية » كما يرى نفسه فى مرآته أى لنستفد مما ابتدأه ككل الناس إذ ذاك وهو « محاولة عن السعادة » وعلى الأخص من المذكرات التى اقتبسها من الكراسات الشخصية . فلنرى الطريقة التى عرف بها كيف يوجه وجوداً ناجحاً تاماً إلى هـــذا الحد . وإليك ما كان مونتيسكيو يقوله لنفسه : «سأصدر عن مبدأ واقعى ،وهو أنى لن أطمح إلى حالة الملائكة، ولن أشكو من أنى لم أظفر بها ، وسأكتفى بالنسبى . وعندما أجعل هذا المبدأ مقبولا نهائياً ، ألاحظ أن المزاج الفطرى يقوم بدور فى هذا الأمر . ولا جرم أن لدى فى هذا الشأن نصيباً موفوراً ، فنى الواقع أن هناك قوماً لديهم من الوسائل التى يحفظون بها صحتهم ، أن يتناولوا المسهلات أو يستعملوا الحجامة وما إلى ذلك . . .

أما أنا فليس لدى من نظام إلا أن أستعمل الحمْيَة حين أفرط ، وأن

---

(1) Wollaston, Religion of nature délinéated, 1722. Ebauche de la religion naturelle, La Haye 1756, Section II, note, p. 110.

« من ذلك الكتاب وهاك ترجمته : « ينبغى بالضرورة ، تقديم فكرة عن الموازنة التى أجراها المؤلف بين درجات اللذة والألم بالأرقام ، لإن هذه الموازنة تدخل القارىء بهيئة أكثر يسرا فى النظريات المجردة من هذا الجزء من الكتاب الذى يشير فيه المؤلف إلى علم الأعداد أشارات لا تنقطع .

أنام حين أسهر ، وألا أضجر ، لا بسبب الحزن ، ولا بوساطة اللذة ، ولا عن طريق العمل ، ولا من جراء التعطل » .

حقاً إن نفسه ترتبط بكل شيء ، إنه من أولئك الذين يحيُّون بمرح متساوٍ ، الفجر الذى يوقظ ، والليل الذى ينيم ،وإن القول بأنه يكون أكثر سروراً فى الريف ، ليس معناه أنه يكره باريس . . . ، إنه يرتاح ارتياحاً تاماً فى ممتلكاته التى لا يرى فيها سوى الأشجار ، وهو لا يقل عن ذلك ارتياحاً فى المدينة العظمى ، بين ذلك العدد من الناس الذى يساوى عدد رمال البحر . وفوق ذلك فإنه ينبغى أن يستغل ، فى مهارة ، هذه المسرات الحيوية على نحو ما يفعل صغار الناس ، لأنه كما أن الدراهم المكدسة تنتهى بأن تصير دنانير ذات رنين ، كذلك لحظات اللذائذ القصيرة تنتهى بتأليف ثروة من السعادة الملائمة . وإذن فلا ينبغى أن نئن من متاعبنا ، ولنذكر بالحرى أنها ستعود بنا إلى ملذاتنا . ومن ثم فإنى أتحداك أن تجعل ناسكا يصوم دون أن يمنح هذا العمل طعما جديداً لخضره . ولنذكر أيضاً أن الآلام المعتدلة ليست خِلْوًا من بعض اللذة ، وأن آلام الحياة إذا كانت تجرحنا فإنها تشغلنا . وقصارى القول ، لنضع أنفسنا فى استعداد روحى بحيث نفهم كم أن مالنا ، يتغلب على ما هو ضدنا . وإذن فلنلتئم مع الحياة لأنها ليست هى التى تلتئم معنا . لقد قذف بنا فى لعبة تدوم بمقدار دوامنا . وعندما يبلو دور سيء — يتخلى اللاعب الحاذق . وعندما يصل دور حسن يستفيد من أوراقه ، وهكذا يربح اللعبة ، بينما أن اللاعب الأخرق يخسر دائماً .

تلك السعادة هى سعادة الجفاف ، وكم من حالات نفسية خاصة كانت شبيهة بحالته النفسية عن تلك السعادة ، فكان الناس إذ ذاك يصنعون مزيجاً من العناصر المختلفة ليستبدلوا به السعادة النقية ، والابتهاجات (الفوق) الإنسانية . وكانوا يدخلون فيه اللذائذ المادية التى رُدَّ إليهـا اعتبارها : وفى الحق لم هذا المعنى المعكوس فى موضوعه طول هذا الزمن ؟ ولماذا نبذ ؟

أو لم يكن فى طبيعتنا ؟ أيتها اللذة ، يا سر الحياة ! : . . إن المتعصبين وحدهم هم الذين كانوا يستطيعون أن يضعوا سرورهم فى الحرمان ، وفى الآلام ، وفى الزهد ، لأن المرح يصنع منا آلهـة ، والعبوس يصنع شياطين[1] وفى هذا يقول كاتب آخر : « لماذا يجب على أنا أيضاً أن أبلى جسمى بوساطة الحداد والآلام ؟ ولماذا يجب على أنا الحى أن أحرم نفسى سرور الحياة؟[2] » إن الموت ، والموت نفسه يجب أن يفقد المظهر الفظيع الذى يعزى إليه ، لأن الموت المفرط فى الجدية محتقر بسبب التصنع الذى يرافقه ، ولأن عظماء الرجال الحقيقيين هم الذين عرفوا أن يموتوا وهم يمزحون[3] . وفى هذا المزيج كانوا يدخلون الصحة لا على أنها صلاة للاستفادة (الروحانية) من المرض . ولكن على أنها احتياط لكى لا يصيبها المرض . وفوق ذلك كانوا يدخلون فيه الثروة الكافية إذا كان ذلك ممكناً وكل الفوائد المـادية للمدنية لأنهم كانوا قد بدأوا يمنحون قيمة عالية لرفهنية الحياة .

ولقد كان بعض تآليف هذا المزيج ماديا كتأليف المركيز دى أرچانس الذى يعلن أن السعادة الحقة تنحصر فى ثلاثة أشياء ، وهى : ١ — ألا يكون لدينا شىء من الجرائم نأخذه على أنفسنا . ٢ — أن نعرف كيف نجعل أنفسنا سعداء فى الحالة التى وضعتنا فيها السماء والتى نحن مكرهون على البقاء فيها . ٣ — الاستمتاع بصحة كاملة » وكتأليف مدام دو شاتيليه التى تصرح بإنه : « ينبغى ، لكى نكون سعداء ، أن نتخلص من الآراء الباطلة ، وأن نكون فضلاء ، وأن يكون لدينا ميول وأهواء ، ويجب أن يكون لدينا الاستعداد للأوهام ، لأننا مدينون بأكثر ملذاتنا للوهم ، وشقى ذلك الذى يفقده . . . وينبغى أن نبدأ بأن نقول لأنفسنا إنه ليس

(١) انظر رسالة الإمبراطور فريدريك الثانى إلى ڤولتير ، ٢٧ سبتمبر سنة ١٧٣٧ .

(2) Hagedorn, Die Jugend, 1730.

(3) A.F.B. Deslandes, Réflexions sur les grands hommes qui sont morts en plaisantant, 1712.

لدينا ما نعمله فى هذا العالم إلا أن نجلب لأنفسنا أحاسيس ، وعواطف لذيذة » .

يشاهد المرء أحياناً أن فكرة الرضى بالنظام العام غامضة عند البعض ، وأكثر تحدداً عند المفكرين الذين كانوا ينقبون عن السبب العميق للخطة التى هى جد مختلفة عن خطة أسلافهم ، فعندهم أن النظام العام قد أراد أن يكون كل المخلوقات سعداء ، إذ — لوكان الأمر غير ذلك — لماذا استقبلوا الحياة ؟

كانت هذه الاتجاهات الجديدة تبدو بصورة واضحة على النحو التالى : « هناك جموع غفيرة من العوالم تتلألأ فى حدودها المعينة وفى الفضاء الإثيرى الذى يموج بكواكب لا عدد لهـــا تدور فى أفلاكها ، كل شىء خاضع للنظام .

« إنما للنظام وحده قد تألف كل موجود » ، والنظام هو الذى يحكم النسائم الرقيقة ، والرياح العاصفة ، وسلسلته تربط جميع الكائنات من الحشرات إلى الإنسان .

أن ناموسنا الأول هو خير ما فى الخليقة ، وسأكون سعيداً إذا لم أخرق — بأى عمل إجرامى — السعادة العامة التى هى الغاية الوحيدة لوجودى[1] » . . .

وهكذا بدت فى وضوح ، اتجاهات جديدة للفكر ، أولها أن قد انتهى الشوق إلى المطلق . ولكن الذى كان يراد هو أن يكون ذلك التخلى سلميا ، فكان الناس يتظاهرون بأنهم يؤمنون ، أوكانوا يوشكون أن يؤمنوا بأن الكأس لم تكن مملوءة بالمرارة ، وأن هذه المرارة نفسها لم تكن مرة . كانوا «يضعون النظام الأخلاقى للعالم فى مرتبة جد منخفضة تحت الكمال

(1) Uz, Lyrische Gedichte, 1749, Die Glückseligheit, traduction Hub(r, tome II, la Félicité, ode de M. Utz.

المثالى (لأننا غير قادرين على إدراك ما يستحيل علينا اللحوق به) ولكنه مع ذلك فى درجة كافية لكى تحقق لنا حالة سعيدة هادئة أو على الأقل قابلة للاحتمال[1] » .

من هذا يتبين أنهم كانوا يستنزلون السماء إلى الأرض ، بل أنه لم يعد من الممكن أن يوجد فرق فى النوع بين السماء والأرض ، لأنه إذا فرض أن وجودا آخر يمكن تصوره ، فكيف يمكن الاعتقاد بأن ذلك الوجود السعيد قد وجب أن يشترى بالشقاء ؟ وأن خالق العالم ومنظمه .قد أراد أن تكون الوسائل متعارضة فى بلوغ نفس الغاية فى هذه الحياة وفى حياة أخرى تتبعها ؟ وأن الإنسان لكى يكون سعيداً ينبغى أن يبدأ بالألم ؟ لأن الإله لا يمكن أن يسلم نفسه للعبة حرماننا من السـعادة أثناء وجودنا لكى يمنحنا إياها عندما لا نوجد . ومن ثم فإن الحاضر والمستقبل — إذا كان هناك مستقبل — لا يمكن أن يختلفا فى النوع ،بل إن الأفعال التى كان ينبغى أن نحققها لكى نظفر بأكبر قسط من السعادة التى كانت طبيعتنا كفئا لها ، كانت هى نفسها التى ستنتهى بنا إلى السعادة الأبدية ، إذا كانت هناك سعادة ، وإذا كان ذلك كذلك ، فلا انقطاع ولا تناقض ، وتكون كينونتنا استمرارا لكينونتنا ، إذا كانت هناك فردوس فيما وراء هذا العالم ، ويكون كياننا الجسمى شبيها به فى الحياة الأبدية[2] .

كان من جراء ذلك أن الفلسفة يجب أن توجهها الحياة العملية ، وأنها يجب ألا تكون شيئاً آخر غير التنقيب عن وسائل السعادة « إن فى الطبيعة مبدأ أكثر شمولا مما يدعى « بالنور الطبيعى » وهو اشتهاء أن يكون الإنسان سعيداً ، وهذا المبدأ هو متوحد بالنسبة إلى جميع بنى الإنسان ، وهو قائم بالنسبة إلى أدق الأناسى ، كما هو بالنسبة إلى أغباهم . وهل من

(1) Bolingbroke, A letter on the spirit of Patriotisme, 1737.

(2) Maupertuis, Essai de Philosophie morale, 1749.

الغريب القول بأن من هذا المبدأ وحده يجب علينا أن نستخلص قواعد السلوك التي يجب أن نلاحظها ؟ وأن بوساطته وحده ينبغي معرفة الحقائق التي يجب الإيمان بها ؟ . . . وإذا كنت أريد أن أستعلم عن طبيعة الإله ، وعن طبيعتي الخاصة ، وعن أصل العالم ومصيره ، فإن عقلي يختلط ، وإن جميع المذاهب تتركني في نفس الظلمة . وفي هذا الخندس المتوازى وفي ذلك الليل السحيق ، لو أنني التقيت بالمذهب الوحيد الذي يستطيع أن يحقق الرغبة التي عندى في أن أكون سعيداً . أفلا يجب على لذلك السبب ، الاعتراف بأنه حق ؟ أو لا يجب على أن أؤمن بأن ما ينتهي بي إلى السعادة ، هو الذى لا يستطيع أن يخدعني ؟[1] » .

وأخيراً ، صارت السعادة حقا حلت فكرته محل الواجب . وما دام أنها كانت غاية كل الكائنات العاقلة ، والمركز الذى كانت جميع أعمالهم تنتهي إليه ، وما دام أنها كانت هي القيمة المبدئية ، وما دام أن هذا الجزم — وهو « إني أريد أن أكون سعيداً » — كان هو المادة الأولى من قانون سابق على كل تشريع ، وكل مذهب ديني ، فإنه لم يعد أحد يتساءل عما إذا كان يستحق السعادة . ولكن عما إذا كان ينال السعادة التي كان له الحق فيها وبدلا من : هل أنا عادل ؟ كان هذا السؤال الآخر : هل أنا سعيد ؟

وكان من يفكرون على نحو آخر يعتبرون رجعيين . ومن ثم فإن الشاب ڤوڤينارج "Vauvenargues" الذى كان استوئيسيا ، والذى كان يبكى ويتحمس حين كان يقرأ ڤلوتارخوس والذى كان يعمل على أن يتعهد في نفسه الفضيلة لذاتها ، والبطولة لجمالها ، كان مخطئاً في نظر ابن عمه وصديقه الثائر ميرابو أى أن ڤوڤينارج في رأيه قد ضل بدلا من أن يضع لنفسه منهاجا

(1) Maupertuis, ibid,

معيناً لكى يلوك ما يجب أن يكون غايتنا الوحيدة وهى السعادة . وأن « أميرة كليف »[1] التى كانت محبوبة ومحبة والتى رفضت سعادتها واعتزلت ، فى صحراء لتفر من الرجل الذى كان يريد أن يكرهها على أن تكون سعيدة رغم إرادتها ، كانت فى نظر أهل القرن الثامن عشر مخطئة . وأن التاريخ فى رأيهم قد أسىء فهمه لأن العلماء الذين حاولوا أن يحددوا ما إذا كان الشعب الفلانى أشد تديناً من الشعب الفلانى الآخر ، وأكثر قناعة وأعظم قتالا ، كانوا مخطئين ، لأن الذى كان يجب أن يفعلوه هو التنقيب عن أنها كان أكثر سعادة . فالمصريون لم يكونوا سعداء ، ولا الإغريق رغم مرتبتهم العالية فى المدنية ، ولا الرومان رغم قوة إمبراطوريتهم ، ولا أوربا الخاضعة للمسيحية . ولكى يكون المؤرخون قادرين على الإتيان بدواء لهذه التعاسة الطويلة ، ولكى يكونوا نافعين فى الآونة الراهنة ، كان ينبغى أن يضعوا لأنفسهم هذين السؤالين وهما : كم من الأيام فى السنة ، أو كم من الساعات فى اليوم ، يستطيع المرء أن يعمل دون أن يتعب ؟ ودون أن يجعل نفسه شقياً ؟ وكم ينبغى أن يعمل المرء من الأيام فى السنة أو من الساعات فى اليوم لكى يجتذب لنفسه ما هو ضرورى للاحتفاظ بحياته وبميسرتها ؟ وفى الواقع « أنه توجد فى جميع الحالات جاذبية لا تقاوم ، تتجه بجميع الكائنات إلى خير حالة ممكنة . وفى هذا وحده ينبغى التنقيب عن ذلك الإلهام المادى الذى يجب أن ينتفع به جميع المشرعين كأنه وحى » . ولقد كانت مثقلة بالمعنى تلك العبارة التى نطق بها فى سنة ١٧٧٢ المركيز دى شاتيلوكس فى رسالته التى عنوانها « عن السعادة العامة أو اعتبارات عن حظوظ بنى الإنسان فى

---

(١) هى بطلة رواية مدام دى لافاييت الشهيرة المعنونة باسمها والتى ظهرت فى سنة ١٦٧٨ وكانت إحدى المنتجات الساطعة فى القرن السابع عشر . (المترجم)

عصور التاريخ المختلفة » ، إنها كانت مثقلة بمعنى واحد كان يجب أن ينميه المستقبل .

وإذن فقد كان جميع الناس مخطئين ، وقد يستثنى من ذلك الطلائع الذين فاز بهم القرن الثامن عشر أثناء عصر لويس الرابع عشر ، وقد نجمت عن ذلك المرارة النقدية واللوم الدائم والشكوى من الخيانة . وعنه أيضاً نجمت الدعوة إلى السعادة . ومنه كذلك نشأت فكرة إصلاح جد قريب بفضل العقل وبفضل « الأنوار » .

الفصل الثالث

العقل والأنوار

إن العقل ، فيما يرى المؤمنون ، قبس إلهى ، أو جزء من الحقيقة مُنِحَهَا المخلوقون الفانون إلى أن يحين اليوم الذى يغادرون فيه أبواب القبور حيث يلقون الإله وجهاً لوجه . بينما أن ذلك – فيما يرى الجيل الجديد – ليس سوى أباطيل عصر انتهى ، وآونة مضت . وهكذا نرى الفكر الأوربى هنا ، كما فى تعريفه للسعادة ، يبتدئ بعمل من أعمال التواضع لا يلبث أن يتبع بعمل من أعمال الكبرياء . ولكن قراره الأول يشتمل على تصريح من تصريحات التضحية ، لأنه يعترف بعدم مقدرته على معرفة المادة والجوهر اللذين هما فى محيط غير قابل للإدراك بالنسبة إليه . وإليك ما يعلنه فى هذا الصدد : إن الناس قد قدسوا – أثناء زمن طويل – مذاهب فنيت على التعاقب وشروحا هى فى كل مرة نهائية ، وفى كل مرة وهمية . وفى الحق إنه لمن لعب المجانين أن يجتهد المرء فى اجتياز حواجز غير ممكنة الاجتياز . وهى لعبة خطرة . وفى هذا يقول المثل اللاتينى : إنك ستأتى إلى هنا ولن تذهب إلى أبعد من ذلك "usque huc venies et non procedes amplius" فقف عند الحدود التى تعينها لك قواك فلم يتعد تلك الحدود أحد ، ولن يتعداها أحد ، وبهذا الشرط فقط ستحقق ثبات مكاسبك .

إن العقل كالأمير الذى عندما يصل إلى الملك يصمم على أن يتجاهل الأقاليم التى يعلم أنه لن يحكمها أبداً فى حزم ، وبهذا يبسط سلطانه بصورة أفضل على الأقاليم التى يملكها وإن البيرونية[1] التى هى العدو الخالد قد أتت

---

(١) البيرونية هى مدرسة الفيلسوف الإغريقى پيرون وهى مضرب المثل فى الارتيابية المغالية وقد كانت زاهرة فى القرن الرابع قبل المسيح . (المترجم)

من الطموح الذى تجاوز الحد . ولا جرم أن هذه الكبرياء المغترة لم تدع وراءها سوى الدمار . ولكن بفضل الاعتدال الذى هو الحكمة ، ستهزم البيرونية .

والآن ما هو العقل المحدد على هذا النحو ؟ بديهى أن الناس يعارضون فى كل طابع فطرى له ، فهو يتكون فى ذات الوقت الذى تتكون فيه نفسنا ، ثم يتكامل معها ، وهو يمتزج بذلك النشاط الباطنى الذى — عندما يعمل فى عناصر المعرفة الحسية — يقدم إلينا فكرنا المجردة ، والذى يتفرع إلى ملكات .

وبعد ذلك يمرون مروراً عاجلا بمقدرته على الاستنتاج ، لأن الاستنتاج ليس سوى امتداد لا يضيف شيئاً إلى المعرفة ما دام أنه يفرض سابقيتها فى العناصر الأولى التى تنتج منها جميع الأخر — ولكنهم على الأخص يلحون على بيان قيمته فى تمييز الحقائق ، لأن الحقيقة هى علاقة موافقة أو مباينة نجزم بها فى شأن الأفكار .

بيد أننا فى أكثر الأوقات ، لا نلمح هذه العلاقة ، لأننا يعوزنا الحد الأوسط ، ففى الواقع عندما نرى مبنيين متباعدين ، يكون من المستحيل بالنسبة إلينا أن نعرف على التحديد ، كيف يتشابهان ، وكيف يتباينان . ولكننا نعرف ذلك ، لو أننا طبقنا عليهما المقياس أو خيط البناء لأننا حينئذ ، نثبت بينهما صلة كانت العين المجردة غير قادرة على جعلنا ندركها .

هذا هو دور العقل كذلك ، إذ أنه — تجاه المظلم ، وما هو موضع الريبة — يشرع فى العمل ، أى أنه يحكم ويشبه ويستعمل المقياس العام ، ويستكشف ويصدر الكلمة الفاصلة . ولا توجد وظيفة أسمى من وظيفته مادام أنه مكلف بإيحاء الحقيقة ، وكشف الأخطاء . ومن ثم فإن بالعقل وحده يتعلق كل العلم وكل الفلسفة .

ولقد اعتبر من غير المفيد ، المجادلة حول جوهره . وعلى الضد من

ذلك ، اعتبر أن من أسمى الفوائد رؤية ذلك العامل المجد يفعل ، ومعرفة منهجه ونتائجه . إنه يلاحظ الوقائع التى تسجلها الحواس .

ولما كانت تلك الوقائع تتقدم إليه فى مجموعة تبدو للوهلة الأولى مستعصية ، فإنه يستخلصها من ذلك الخليط ، ويحاول أن يستولى عليها فى حالتها النقية ، ثم يحتفظ بها كما هى دون أن يؤولها ، ودون أن يقتحم فى موضوعها أى افتراض . إن التحليل هو منهجه المفضل . وبدلا من صدوره عن مبادئ سابقة على التجربة "a priori" — كما كان يفعل أهل الزمن الماضى الذين كانوا يقتنعون بالألفاظ وكانوا يدورون دوران الرحى دون أن يلمحوا ذلك — هو يرتبط بالواقع الذى يتبين عناصره بوساطة التحليل ، ثم يجمعها فى صبر ، ذلك هو عمله الأول . أما الثانى فهو يتألف من الموازنة بين تلك العناصر ومن تبين الروابط التى تجمعها واستخلاص قوانين من هذه الروابط .

تلك مهمة بطيئة وشاقة . ولكن العقل على الأقل بإزائها يكون فى استطاعته أن يستجوب الوقائع التى تفلت منه ، بل أن يكرهها على أن تستأنف عودتها لكى يختبرها عن قرب ، وأن يراجع ضبط علائقها بفضل طريقة يجهلها الميتافيزيقيون . وهو يضعها فى الصف الأول ، وهذه الطريقة هى التجربة. ومن ثم فإن الحركات المتتابعة لتصرفه المتبصر هى استيلاؤه على الواقعة ، منتزعة من ظلالها ، ومراجعة الواقعة والعودة إلى الواقعة . ولا غرو فبين الكسب المؤقت والنتيجة النهائية توجد التجربة كأنها ضمان وتأمين ضد الخطأ ودواء لضعف حواسنا ولإهمال كسلنا ، وانحراف خيالنا ، وأمراض عقلنا التى تألمت منها الأجيال السابقة . ولهذا صارت هى القوة النافعة التى قوضت معابد الباطل ، فمثلا إن مانجوجول بطل كتاب « الحلى البائحة بالسر » — ولو أنه كان مشغولا بملاه لا يربطها بالشواغل الفلسفية رابط مشترك — لم يكن أقل هياماً بالعقل منـــه بالملاهى وبهذا العنوان يخلع عليه

ديديرو مؤلف الكتاب ، حلما رمزياً تفيض منه حماسة للتجربة » ومجمله أن مانجوجول فى نومه يرى نفسه قد نقل بوساطة الوحش هيبوجريف[1] إلى مبنى غريب لا يستند إلى أى أساس ، وأن أعمدته الواهنة ترتفع ارتفاعاً شاهقاً وتعتمد على قباب مثقبة . وأن الناس الذين يجتمعون فى داخل هذا المبنى سمان ونحاف بلا عضل وبلا قوة ، وهم جميعاً سيئو التكوين تقريباً . وعندما يجتاز مانجوجول جماهيرهم ، يصل إلى منصة ارتفع فوقها نسيج العنكبوت على هيئة خيمة . وعلى هذه المنصة يقف شيخ ذو لحية بيضاء ينفث رغاء الصابون من خلال قشة ضغث لأن هذه هى طريقة العمل لدى النظريين الخلص . ولكنه يلمح على بعد طفلا يقترب شيئاً فشيئاً ، وفى كل خطوة تتضخم أعضاؤه وتستطيل ، وهو يتخذ مائة صورة أثناء تقدمه فى نموه ، فهو مثلا يوجه نحو السماء مرصداً عظيما ، وهو يقيس هُوِىَّ الأجسام بوساطة جهاز خاص ، ويلاحظ ثقل الهواء بوساطة أنبوبة زئبق . ثم يصير عملاقاً تلمس رأسه السماء ، وتختفى قدماه فى الهوة ، وتمتد ذراعاه من أحد القطبين إلى الآخر ، ويهز بيده اليمنى مشعلا يضىء أعماق البحار ، ويتغلغل إلى أحشاء الأرض . إن هذا الكائن هو التجربة وإن هذه التجربة تدنو من ذلك المبنى العتيق الذى ارتجت أعمدته وتهاوت قبابه وتشققت أراضيه وجعل حطامه يتساقط فى ضجيج مزعج وينهار فى الظلام .

إن العقل يكتفى بنفسه ، وإن من يملكه ويستعمله بلا تسرع لا ينخدع ألبتة . إنه يتبع » فى عصمة طريق الحقيقة ،وهو ليس فى حاجة إلى السلطة التى يوشك أن يكون مضاداً لها بالضبط ، والتى لا تبدو إلا رَبَّة للخطأ ، ولا إلى التقاليد ، ولا إلى القدماء ، ولا إلى المحدثين . ففى الواقع أن كل خطأ قد أتى من التصديق فى عمى ، بدلا من متابعة اختبار عقلى فى كل

---

(١) الهيبوجريف هو كائن مزعج من كائنات الأساطير الهيلينية له مقدم حصان ومؤخر تنين . (المترجم)

ظرف . ومما لا ريب فيه أن فى نفس الموضع الذى يوجد فيه رواق الفروض الذى تخيله ديديرو ، يوجد معبد الجهالة الذى تخيله پييترو ڤيرى[١] "Pietro Verri" والذى يصفه على النحو التالى : تقطن الجهالة قصراً متهدماً هندسته قوطية[٢] . وعلى بابه الأكبر نحت فم ضخم يتثاءب ، وقد ملأ ذلك المبنى الواسع جمهور مكون من مترددين وثرثارين وأغبياء لا يعرفون اسم الإلهة (أى الجهالة) ولا يعرفون موضع إقامتهم الخاصة . وكانت الحوائط مغطاة برسوم مفزعة كالغرائق والحروب المدنية والموت والإقحال . وفوق منصة عالية وقفت امرأة عجوز عجفاء ، وجعلت تردد فى كل لحظة ، وفى لهجة متعاظمة قولها : « أيها الشباب ، أيها الشباب استمعوا إلى ، لا تكلوا أموركم إلى أنفسكم لأن ما تشعرون به ليس سوى أوهام ، وليكن عندكم ثقة فى القدماء ، وآمنوا بأن كل ما فعلوه حسن » . وفى الوقت ذاته يهيج شيخ هرم ويصرخ قائلا : « أيها الشباب ، أيها الشباب إن العقل خرافة ، وإذا كنتم تريدون أن تتبينوا الحق من الباطل فاتبعوا آراء الكثرة ، أيها الشباب إن العقل خرافة » .

وهناك صور أخرى بنفس الأسلوب تبين لنا التجربة التى تهدم النظريات والجهالة التى تنصح بالاعتقاد فى الماضى ، وإقرار التعاليم القديمة وإطاعة التسرعات التى تتعارض مع الحكم الحر .

وإذا كان الفرد ، مع ذلك فى حاجة إلى أن يطمئن على قيمة عمليته العقلية ، فإن لديه أمارة لمعرفتها وهى الطابع العام للعقل ، إذ أن هذا الأخير فى الواقع متماثل لدى جميع بنى الإنسان ، وهو لا يقبل إمكان الاستثناء . ومن

(1) Pietro Verri, Il tempio dell'ignoranza, dans Revue "il Caffè" juin 1764

(٢) القوطية نسبة إلى قبيلة القوط أو الجوتيك وهى إحدى القبائل البربرية التى زحفت من الشمال واحتلت أوربا . وعندما يقال الهندسة القوطية يقصد بذلك هندسة العصور الوسيطة . (المترجم)

ثم فإن الرحالة الذين ادعوا أنهم لاحظوا فى البلاد النائية ، وجود تعارضات غير قابلة للنقص ، بين طرائق العمل المتباينة لنوعنا ، لم يكن أمامهم سوى فروق سطحية ، وأحداث خليقة بالإهمال أو أنهم أساءوا النظر ، أو أنهم كذبوا . أما ما هو غير عقلى ، فإنه ما لم يكن دائماً ، وما لم يكن فى كل موضع ، وإن مقياس الحقيقة هو امتدادها من حيث المكان والزمان .

لا ريب أن العقليين كان لديهم كثير من البواعث التى تسوغ سخطهم على المتحمسين الذين كانوا أعداءهم الشخصيين ، وأن أكثر هذه البواعث عمقا هو أن أولئك المتعصبين كانوا يثقون فى الانفعال وفى العاطفة ، وهما من الأمور الشخصية المحضة . ولهذا فإن فكرتهم وسلوكهم انتهيا إلى نوع من الخليط حيث إن من الحق أننا — من أكثر المواطنين العالميين مدنية إلى الهورونيين القاطنين على شاطئ بحيرة ميشيجان ، وإلى بؤساء هوتانتو الذين هم أدنى الدركات قبل المتوحشين — نشاهد أن الطبيعة من الشمال إلى الجنوب ،ومن الشرق إلى الغرب ، تعبر عن نفسها بوساطة صوت العقل .

إن سمو العقل ينتهى بأن يتبين بوساطة قوته النافعة . إذ أنه لما كان العقل هو الذى سيسير بالعلوم والفنون نحو الكمال ، وأن هذا سيضاعف يسر حياتنا وسهولتها . ولما كان هو الذى سيصير الحكم الذى سيعرفنا ما هى بالضبط قيم لذائذنا بصورة أكثر يقينا من الإحساس نفسه ، وبالتالى ما الذى ينبغى هجرانه ، وما الذى ينبغى اتخاذه . ولما لم تكن التعاسة سوى عدم المعرفة أو حكم خاطئ ، ولما كان هو الذى يداوى أحدهما ، ويصلح الآخر ، فإنه سيتمم ما وعده به الماضى دون أن يمنحه إياه . وسيجعلنا سعداء ، وسيحمل السلام ، وسيكون — كما يقول دومارسيه — لدى الفيلسوف بمثابة الغوث الإلهى عند القديس أوجوستان . وقصارى القول أنه هو الذى سينير كل إنسان يوجد فى هذا العالم مادام أنه هو النور .

• • •

إن النور أو بعبارة أفضل ، إن « الأنوار » مادام أن الأمر لايتعلق بشعاع واحد بل بباقة من أشعة تتجه نحو كتل الظلام العظمى التى لاتزال الأرض مغطاة بها — تلك هى الكلمة السحرية التى كان يروق العصر أن يقولها ويرددها مع بضع كلمات أخرى أيضاً سنراها . لقد كانت شيقة فى نظر الحكماء هذه «الأنوار» التى أشعلوا أقباسها هم أنفسهم،كم كانت جميلة وكانت قوية،وكم كانت مخوفة من جانب الخرافيين والمخادعين والخبثاء ! . وأخيراً جعلت تتلألأ وتنبثق من قوانين العقل الجليلة ، وطفقت ترافق ، أو على التحديد تتبع الفلسفة التى كانت تتقدم بخطوات العملاق . ولقد كان أبناء العصر مستنيرين لأن المجاز اللذيذ كان يمتد بلا حد . فمن ذلك مثلا أنهم كانوا هم المشاعل أو المصابيح التى كان وميضها يقتادهم فى أفكارهم وفى أعمالهم . أو الفجر المعلن : أو النهار ، أو الشمس الثابتة الدائمة . وأن الأناسى قبلهم قد ضلوا لأنهم كانوا منغمسين فى الظلام،ولأنهم لابد أن يكونوا قد عاشوا فى وسط دياجير الجهل وضبابه ، وبين السحب التى كانت تخفى الطريق المستقيم . ولأنهم قد أصيبت عيونهم . وهكذا كان الآباء عمياً ولكن الأولاد كانوا أبناء النور .

ولم يكن يعنيهم إلا قليلا أن تكون هذه الصورة مساوية للعالم فى القدم ، وأن من الممكن أن تكون قد نشأت فى الآونة التى كان فيها أبناء آدم منزعجين من الليل ، فاطمأنوا حين رأوا نشأة النهار ، بل إنه لم يكن يعنيهم إلا قليلا ، أنها كانت دينية كما ورد على لسان المسيح قوله : « إننى نور العالم ، وإن من يتبعنى لا يسير فى الظلمات » . فقد استولوا عليها كما لو كانوا قد استكشفوها ، وكان النور أوكانت الأنوار هى الشعار الذى ينقشونه على أعلامهم . لأن هذه هى المرة الأولى التى يختار فيها عصر اسمه . وفى الواقع أن الفرنسيين كانوا يبتدئون « قرن النور » ، حينما كان الألمان ، يبتدئون عصر « أوفكلارانج » أى عصر الأنوار .

وإذ ذاك جعل «كانْت» يتساءل ، ماهو عصر الأنوار هذا ؟ وعندما مضت تلك الحقبة رأى من الخير أن يجرى فى شأنها اختباراً مخلصاً ، وقد أجاب على هذا التساؤل بأنه كان بالنسبة إلى الإنسان بمثابة أزمة من أزمات نموه ، وإرادة لخروجه من طفولته ، لأنه إذا كان الإنسان فى العصور السالفة ، قد بقى تحت الوصاية ، فإن ذلك كان بسبب خطئه ، إذ لم يكن لديه من الشجاعة مايمكنه من استخدام عقله . وكان دائماً فى حاجة إلى أمر خارجى . ولكنه تنبه وبدأ يفكر بنفسه ، أوكما تقول الحكمة اللاتينية : اجترئ على أن تعرف "Sapere aude" .

بيد أن الكسل والجبن يدفعان جمهوراً من العقول إلى أن تظل قاصرة طول حياتها ، ويسمحان لفريق آخر بأن يتولى سيادة ميسورة . وفى الحق أنه إذا كان لدى كتاب فيه آراء تحل محل آرائى ، ومرشد لديه أخلاق توجهنى ، وطبيب لديه نظام يرسمه لى ، فإنى لا أكون فى حاجة إلى بذل مجهود شخصى مادام أن جاراً سيحل محلى ، وسينشغل بالعمل الشاق الذى ينحصر فى التفكير . ومن ثم فإن الحراس الذين بدأوا بجعل قطيعهم البشرى المستأنس حيوانات ، يسهرون على أن تكون الأكثرية الغالبة من المخلوقات فى رهبة من أن تصل إلى رشدها ، وهم يبينون لأولئك الأطفال الأبديين الخطر الذى يهددهم إذا ادعوا أنهم يسيرون وحدهم ، بحيث يكون من العسير على الأفراد أن يخرجوا من هذه الطبيعة الثانية التى انتهوا بأن أحبوها . ومع ذلك ، فمن الممكن بل مما لايمكن تجنبه أنه قد تكون رأى عام سما إلى الفلسفة ، لأن طائفة من النفوس القوية قد تخلصت وضربت المثل . ولكنه مثل لاتستطيع قوته أن تعمل إلا فى بطء ، لأن الشعب يحقق إصلاحاً عميقاً بوساطة التطور ، بينما أنه بوساطة الثورة يهزم الاستبداد ويقضى على الاضطهاد . ولكنه لايصل إلى شىء دائم بل إنه يخلق أوهاماً جديدة[1]

(١) هذا هو رأى الفيلسوف الألمانى «كانت» وهو رأى سطحى متسرع من باب إلقاء =

وعلى الضد من ذلك هو ينفذ إصلاحاً عميقاً بوساطة التطور وروح هذا التطور هي الحرية . والحرية في أصح مايتعين تحت هذا الاسم من صور ، أي حرية المرء في الاستعمال العام لعقله . ولكن صرخات لاتلبث أن ترتفع هنا قائلة : إن الضابط مثلا يقول لجنوده : « لاتتعقلوا واعملوا التمرين » . وإن رجل المالية يقول : « لاتتعقلوا وادفعوا » ، وإن القسيس يقول : « لاتتعقلوا وآمنوا » ، والواقع هو أن شيئاً من تحديد الحرية ضروري ،وأن هذا التحديد ، فضلا عن أنه بعيد عن أن يضر الأنوار «الأوفكلارانج» ، هو يعاونها "Aufklarung" .

حقاً إن حرية الفكر والقول هي غير محدودة عند الإنسان المثقف وعند العالم ، وإنها محدودة لدى أولئك الذين حينما يزاولون وظيفة من وظائف الكيان الاجتماعي ، يجب عليهم إتمامها بلا نقاش . لأنه سيكون من الخطر الفادح أن الضابط — عندما يتلقى أثناء مهمته ، أمراً من رئيسه — يشرع في استعمال عقله حول ملاءمة هذا الأمر ، وأن القسيس ، عندما يعرض قانون الإيمان على المؤمنين ؛ يشرع في أن يبين لهم ما في هذا القانون من عيب . وبالإيجاز إن سير أعضاء الجهاز الاجتماعي يجب أن يستمر بلا تغير مفاجئ ،

= الكلام على عواهنه لأن الثورة حقاً لاتنتج نتيجة دائمة إذا كانت ناشئة عن أهواء خاصة لدى زعمائها . أما إذا كانت منبعثة عن نار تتأجج في قلب كل فرد من أفراد الشعب — كثورتنا مثلا — فإنها تكون محققة الإنتاج ، يقينية الدوام والثبات . وفوق ذلك فإن الثورة إذا كانت بيضاء سلمية فإنها تظفر بكل مقومات التطور الذي يعزو إليه كانت ! إنتاجا محققاً . على أن هذا الفيلسوف قد كتب ذلك الرأي الفج في سنة ١٧٨٤ أي قبل اشتعال لهيب الثورة الفرنسية الخالدة التي كانت بمثابة نفخ في صور الوعي العالمي ، فأيقظت الأمم الخاملة أو كأنها قبس علوي أشعل جميع الثورات الشعبية الحقيقية التي كانت نتائجها النافعة الثابتة ردا مفحما على هذا الرأي الفطير الذي استلهمه صاحبه من شيطان الوهم عندما رأى فشل الثورة الإنجليزية التي لم تزد على أن استبدلت استبدادا باستبداد ، وأحلت طغيانا محل طغيان فالقياس هنا مع الفارق، والتعميم باطل كما يقول المناطقة . (المترجم)

ولكن يجب فى الوقت ذاته أن يَحْدُثَ تغير فى عقول من يديرونه ، تغير يؤثر فيهم على اعتبار أنهم كائنات مفكرة ، ويستبدل حالة الوصاية بحالة الحرية . وإذن فهناك محيطان مختلفان محيط العمل الذى يظل بلا تغير إلى حين ، ومحيط العقل الذى يتم فيه إعداد التطور الذى يسود الأفعال أخيراً لأن عمل الفكر عليه كواجب ، ألا يقف .

وإذن فحقل التحرير مفتوح ، وإننا لم نصل ولن نقف أبداً . ولكننا فى الطريق الجيد[1] . . .

هكذا كان عصر الأنوار فى أوربا فى أسمى صورة و مثله الأعلى .

* * *

فيما يتعلق بتاريخ الفكر ، نجد أن عدة وقائع قد ساهمت فى تثبيت سيادة الأنوار وهى : تأثير بيل ، وإخفاق ڤيكو "Vico" ونجاح ڤولف Wolff وانتصار لوك "Locke" – فأما بيل فلم يغتر عن التأثير ، وكان نقضه يعتبر عملا دينياً : ورغم أنه كان قد توفى منذ نصف قرن ، بل منذ ثلاثة أرباع قرن ، كان الكتاب يشتدون عليه كما كانوا فى اليوم الأول ، لأنه كان لا يزال يبدو فى الصف الأمامى من صفوف الارتيابيين ، فى الواقع أن قاموسه كان فى موضع الشرف من المكتبات ، إذ كان يعاد نشره ويترجم ، وسواء أكان يتضخم من طبعة إلى طبعة أخرى ، أم كان يقتصر منه على مختارات وتحليلات ، فقد كان هو المستودع الذى تستمد منه جميع الأسلحة عندما كان الأمر يتعلق باستبدال سلطان القدماء ، بالنقد . وكان هناك تلاميذ متفاوتون فى مباشرة الاتصال به ، يستغلون الفكرة المركزية لهذا العدو العظيم لأنصار الدين ، وهى أن الدين والحقيقة هما غير قابلين للاتفاق ، وأن الدين والأخلاق غير مرتبطين . ولقد راح هؤلاء التلاميذ يرددون أنه لا يلمح أحد أن المسيحيين كانوا أفضل من الجاحدين ، وأنه من الممكن أن

(1) Kant, Beantwortung der Frage : was ist Aufklarung., 1784.

تكون جمهورية من الملحدين أكثر فضيلة وأكثر نزاهة من جمهورية من الكاثوليكيين والبروتستانتيين . وأكثر من ذلك أن إحدى طرائقه المفضلة، كانت تستعمل لديهم بلا كلل ، وهي الطريقة التي تنحصر في القول بأنه حينما تكون هناك عقبة غير قابلة للحل بوساطة العقل ، ينبغي الالتجاء فيها إلى الإيمان ، للخروج من الحيرة ، بحيث تكون العقيدة بالنسبة إلى غير المعقول بمثابة الملجأ . وفي هذا يقول ڤولتير "Voltaire" : « إذا كانت كتبنا المقدسة قد قالت إن الخليط موجود ، وإذا كانت قد أقرت وجود الفوضى ، فإننا نصدق ذلك بلا ريب ، وبأشد الاعتقادات حيوية ، وإننا لا نتحدث هنا إلا تبعاً للوميض الخادع المنبعث عن عقلنا[1] . . . » نعم إن التلميذ أكثر خفة من أستاذه . ولكننا نعرف في هذا النص درس الأستاذ ؛ وقصارى القول إن هذا التأثير كان منتشراً ، وسواء أتعلق الأمر بالكواكب المذنبات أم باسپنوزا "Spinoza" ، أم بالتاريخ ، أم بالتوراة،فإن بيل هو الذي كان في الذاكرات ، وبيل هو الذي كان يوجه العقول .

وإذا أردنا أن نوجد هنا شيئاً من التلطيف ، فإننا نقول فقط إن هذا الإجلال لبيل كان منذ آونة معينة ، أقل حرارة . ففي الواقع أننا نشاهد من ناحية ، أن ما كان يبدو متطرفاً في الجرأة حوالى سنة ١٧٠٠ — جعل يظهر عادياً معتدلا حوالى سنة ١٧٥٠ . ومن ثم فإننا نكون إذ ذاك أقل حاجة إلى مثل ، قد تلطف عنفه مع الزمن ، فمنذ ظهر المقال الذى عنوانه « داوود » في ذلك القاموس ، قد سمع داوود مقالات أشد عنفاً ، واعتاد ذلك اللون — ومن ناحية أخرى كان كتاب الجيل التالى يرون أن الارتياب الذى هو خطة مبدئية ، واحتياط أولى ، يجب أن يتبع بنشاط واقعى كان بيل — وهو البيرونى بأكمل معانى هذه الكلمة — يأباه على نفسه . ومنذ

---

(1) Voltaire, le Philosophe ignorant, tout est-il éternel. ?

« القاموس التاريخى والنقدى إلى ظهور الموسوعة » أى منذ مجموعة الأخطاء إلى قائمة المعارف الإنسانية نشاهد تطوراً يستقر ويفوق بيير بيل :

* * *

وأما جامباتيستا ڤيكو ، فلو أن إيطاليا قد استمعت إليه ولو أنها — كما حدث فى عهد النهضة — كانت مرشداً لأوربا ، أفما كان مصيرنا العقلى يمكن أن يكون مبايناً لحالته الراهنة ؟ أجل لو كان الأمر كذلك لما كان أجدادنا أهل القرن الثامن عشر قد صدقوا أن كل ما كان واضحاً كان حقاً ، بل لآمنوا على الضـــد ، بأن « الوضوح هو منقصة للعقل البشرى أكثر من أن يكون محمدة له » لأن الفكرة الواضحة هى فكرة منتهية . ولَمّا كانوا قد صدقوا أن العقل كان ماكتنا الأولى ، بل لآمنوا على الضد بأنها هى الخيال . وحيث إن العقل الذى أتى متأخراً ، لم يصنع أكثر من أنه جفف نفسنا ، فقد يكون من الممكن أنهم قد أسفوا على فراديسنا المفقودة ، ولم يصدقوا أنه كان ينبغى أن تنار الأرض فوق سطحها ، بل لآمنوا على الضد بأن إيضاح الأشياء آت من أعماق الزمن ، ولما صدقوا بأننا كنا نتجه نحو مستقبل أفضل ، بل لآمنوا على الضد بأن الدول كانت خاضعة لتغيرات متعاقبة تخرجها من البربرية إلى المدنية وتعيدها من المدنية إلى البربرية . وبالإجمال لو كان الأمر كذلك لكانت جميع أفكارهم قد انقلبت كإدراكهم للعالم :

ينبغى الإعجاب بهذا البطل من أبطال الفكر ، هذا العبقرى المبتدع ، هذا الرجل الذى كان من الممكن أنه يستطيع أن يمنح نهر العصر ، مجرى جديداً . بيد أنه — بفضل المرض الذى أقصاه عن المدارس ، وبسبب العزة التى جعلته يقيس بغتة ، عدم كفاية الأساتذة الذين كانوا يعيدون ولا يفكرون — لم يخضع لتأثير « المدرسين » الذين كان لهم أوفياء لايزالون كثيرين ، وكذلك بفضل قوته الذاتية لم يخضع لتأثير مذاهب عصره كمذهب

ديكارت "Descartes" الذى هو، فى نظره، قد قلص العقول بإعفائه إياها من المعرفة، وبتعليمه إياها كيف تحتقر الجهود والصبر عندما كانت تركز ثقتها فى «الفكرة الجلية» التى ساعدت كسل طبيعتنا التى تريد أن تعرف كل شيء فى أقصر زمن، وبأقل عناء ممكن.

لم يخضع ڤيكو أيضاً لتأثير لوك الآتى حديثاً من لندرن والذى كان يمثل جِدّة الوقت الراهن. وكذلك خُلُقُهُ لم تنحن قناته لقوى العبودية، أى لسلطان العظماء، ولا للفقر، ولا لعدم نجاحه فى سلك الأستاذية. وإنما استمر فى وسط الضنك، يكد، ويبحث، وينغمس فى دراسة شد العلوم تبايناً. وظل كذلك إلى اليوم الذى رأى فيه أن دنوه من المعرفة، كان كافياً، ونشر الكتاب الذى يعتزم فيه أن يقدم مبادئ علم جديد عن طبيعة الدول وعن حقوق بنى الإنسان، وبعبارة أدنى إلى الحق عن القانون الذى يهيمن على تطور الإنسانية. وعنوان ذلك الكتاب: «مبادئ علم جديد على طبيعة الدول، به توجد المبادىء الأخر لحقوق بنى الإنسان» وقد نشر فى سنة ١٧٢٥. واستخلصت منه تلك الفكرة العظيمة، وهى أن موضوع المعرفة. وهدفها هما التاريخ الذى يخلقه كل شعب، بل جميع الشعوب، بلا شعور، عندما يحيون فيه، وبدافع الشعور عندما يدركونه كما لو كان هو نفس صيرورة نوعنا. وإذن فقد كان التاريخ عنده هو الواقع أثناء حياة الناس فيه، وكان لايزال بالنسبة إليه مجموعة الشهادات التى نتركها خلفنا والتى – قبل أن تكون ذكريات – كانت بعض طرائق الحياة أى أن التاريخ هو جميع المشيدات منذ الأحجار الأولى للكهوف إلى أشد منتجات المدنية انصقالا وجميع اللغات التى تُكُلِّمَ بها أو كتبت، وجميع المنظمات التى أسست. وجميع العادات والتطبعات، وجميع القوانين. وبالإجمال لم يكن موضوع مسه ڤيكو، دون أن يحوله إلى ذهب، وعنده أن اللغة لم تعد هى علم الكلمات المجرد ولكنها طائفة من المسجلات التى كان ينبغى أن تقرأ وأن يبحث فيها عن انعكاسات حالاتنا النفسية الماضية؛ والشعر لم يعد

نتيجة اصطناع أو عقبة ذللت ، أو نجاحاً كاملا بقدر ما يتطابق مع قواعد العقل ، ولكنه هو نفسنا التلقائية الساذجة . وعنده أن الإلياذة والأوديسا لم تعودا ملحمتين أنشأهما — على صورة فنية — جوال أعمى ، وملأهما فى الوقت ذاته بالجمال النادر ، والأخطاء الذوقية ، وهذه الأخيرة ناشئة من فظاظة زمانه ، ولكنهما كانتا صوتاً تحدثنا به، أو صورة من صور كينونتنا سجلت فى لحظة من لحظات الزمن وأتت إلينا . والعـلم الجديد لم يعد هو الهندسة أو علم الطبيعة ، بل هو شرح الإشارات التى يؤلف مجموعها الإنسانية والحياة .

عبثاً حاول چامباتيستافيكو أن يتجه إلى العلماء وإلى مواطنيه النابوليين ، وإلى چان ليكلير ، ذلك الذى كان — فى صحيفته الهولاندية — يوزع الشهرة على الكتاب الذين كان يوحى بهم إلى أوربا . ولكن أوربا بقيت صماء، وأولاها إيطاليا . ومع ذلك فقد خلع على هذه الأخيرة أحد عناوين شرفها حين أبان فى اللغة اللاتينية آثار مدنية بدائية فى رسالة عنوانها « عن أقدمية الحكمة الإيطالية » وهى حكمة ليست مدينـة بشىء إلا لشعب جدير بأن يستعيد كينونته .

لم تسمع هذه الدعوة ولم تقبل إلا فيا بعد فقط . أما فى آونتها فقد ظلت بلا صدى ، لأن هذا المجدد لم يكن له تلاميذ ، ولأن فكره كان بلا عمل ، بل إن عشيرته نفسها لم تكن لتستجيب له .

* * *

وأما كريستيان ڤولف ، فقد كان أستاذا متعاظما بالعلم ، ويستطيع المرء أن يتنبأ بهذا ، لا لشىء سوى النظر إلى صورته بشَعْره المستعار الرسمى ، ورباط رقبته السميك الذى كان عنقه يغوص فيه ، وعينيه البارزتين المميزتين لرجل أفرط فى القراءة والكتابة ، ومنظره المفعم بثقة المربى .

وكان يعلم فى جامعة هال التى ابتدأ فيها بالرياضة فى سنة ١٧٠٦ .

وظل يحتفظ منها بطابع الهندسة دائماً ، ثم صار فيلسوفاً بالمهنة : وفي سنة ١٧١٢ ، نشر كتابه الكبير الأول الذي عنوانه : « فكر معقولة عن قوى الفهم البشرى وعن حسن استعماله فى معرفة الحكمة » . ومنذ ذلك الحين لم يفتر عن التعليم ، وعن وضع مادة محاضراته فى مؤلفاته ، فأنشأ فيما بين سنتى ١٧٠٣ و ١٧٥٣ سبعة وستين كتابا ، بعضها فى عدة مجلدات ، وكثير بينها من القطع الكبير . وفى كل سنة ، كان يجتمع — حول منصته وفى لألاء شهرته — مريدون جدد ، وقد صار أستاذ الفكر فى ألمانيا .

حقاً إنه كان يريد أن يكون تلميذ ليبنيز Leibniz ، على شرط ألا تؤخذ هذه الكلمة فى معناها الضيق ، وألا يعتبر كأنه مذيع بسيط لمذهب رجل أعظم منه ، بل أن يعترف بصوت عال ، أنه حول ، وأصلح ، وحسّن التراث الذى صار هو بالنسبة إليه أكثر من مجرد مؤتمن عليه ، لأن الفلسفة الليبنيزية — الفولفية قسمان أفضلهما له ، فليبنيز قد قدم إليه نقطة الصدور التى قفز منها ليبدأ الطيران إلى ما هو أعلى .

غير أنه لم يلبث أن كون — من فكرة مؤلف كتاب « الإلهيات » الموفقة بين الوجهات بهيئة بديعة — فكرة مذهبية محددة ، وانتهى بها إلى توكيدات حاسمة ، توشك أن تكون جزما .

كانت الفلسفة بالنسبة إليه ، هى علم الممكنات بل علم كل ممكن . ومن ثم فإنه أدخل كل ممكن فى محيط مغلق بحيث لم يزد شىء ولم ينقص شىء ، وحصره فى حدود بلا شقوق . وفى هذا يقول مترجمه والمعجب به فورميه : « إن العلوم ليست علوماً ، ولا يمكن أن يطلق عليها هذا الاسم ، إلا إذا نتجت من مجموعة حقائق مرتبطة ارتباطاً متيناً وبلا أى مزيج من الأخطاء ، وإن السيد دى فولف قد أمضى حياته ، كأنه قصرها على العناية بأن يحول — إلى علوم واقعية وحقيقية — هذه الكتلة الثقيلة من المعارف الفلسفية التى كانت إذ ذاك قد كدست أكثر من أنها شُيِّدت » . حقاً ما أجمل

رقعة الشطرنج هذه التى كان يتخذها كمرآة ! لأن الكائن يوجد محصوراً ، ومحصوراً تماما فى مربعاتها على النحو التالى .

الفلسفة

١ — ينقسم الجانب النظرى منها إلى :

(١) المنطق

(٢) الميتافيزيقا الذى ينقسم إلى :

ا — علم الموجود

ب — علم النواميس الكونية

جـ — علم النفس الذى يتجزأ بدوره إلى :

١) التجريبى

٢) العقلى

د — علم الإلهيات الطبيعية

(٣) علم الطبيعة الذى يتفرع إلى :

ا — التجريبى

ب — الدوجماطيقى الذى تعتبر فيه العلتان :

١) الفاعلة

٢) الغائية

٢ — وينقسم الجانب العملى منها إلى :

١) الفلسفة العملية العامة

٢) الأخلاق

٣) الفلسفة الاقتصادية

٤) السياسة(١)

---

(1) Mémoire abrégé sur la vie et les ouvrages de M. Wolff, dans les principes du droit de la nature et des gens, par M. Formey, Amesterdam, 1758, 3 vol., tome 1, p XLVI.

كان هذا الإفراط فى الضبط الصورى موجوداً حين كان كريستيان ڤولف يحاول أن يقدم مقياساً للحق ، فالحق عنده هو كل ما لا يشتمل على تناقض من حيث ذاته ،والوضوح علامة الحقيقة،والغموض علامة الخطأ. وتعقل الأشياء نقى إذا لم يحتو تصورها على اختلاط ولا غموض . وهو غير نقى إذا كان يشتمل على الغموض والاختلاط . وليست حقيقة الواقعة هى التى تعتبر عنده وإنما هو تطبيق التعقل على الواقعة ، وسيره الدقيق ، وامتداده بلا نقص . وكذلك هو المطابقة بين الأجزاء المختلفة بجزم معين أكثر من مطابقة الكائن مع الجزم الذى يجب أن يعبر عنه . وهو إذ تحدث على هذا النحو ، قد أعجب بإنتاجه وألفاه كاملا .

كان لديه فكر معقولة عن الإله ، وعن العالم ، وعن النفس ، وفكر معقولة عن الإنسان ، وفكر معقولة عن المجتمع ، وبكل هذه الفكر المعقولة ، وبفلسفته العقلية التى وضعت بالألمانية للكافة وباللاتينية للعلماء قد غمر بلاده أولا ، ثم البلاد المجاورة بعد ذلك . حقاً أن سلكه كأستاذ قد أصابته حادثة مؤلمة ، ففى مدينة هال فى ١٢ يولية من سنة ١٧٢١ ، ألقى خطبة عن أخلاق الصينيين ، وقد اتخذ من جديد ، الخلقية السامية لتعاليم كونفوشيوس "Confucius" فاستأنف بهذا موضوعاً كان من الممكن أن يصيره الطَّرْقُ الطويل مأمون العاقبة ، ففى الواقع أن هذه التعاليم لا تقود إلى الخير ، نتيجة لوحى إلهى ، بل بحكمة إنسانية كان يلهمها العقل أى بحكمة معقولة . وعلى أثر هذا ، هب الأساتذة البييتست[1] زملاؤه وأعداؤه وصاحوا معلنين الفضيحة. وسرعان ما ألفينا الأمر ـ بعد أن هزّ الجامعة ـ قد حمل إلى الملك فريديريك ـ جيوم ،وتروى الخرافة أن أحد رجال القصر قد نقل إلى الملك أن هذا السيد ڤولف يعلم مذهب الانسجام المقرر فى الأقدار ، والذى ينتهى إلى الجبرية . وبناءاً على ذلك فإن جنود جلالته لم يعودوا

---

(١) البييتيست هم أشياع البييتيسم ، وهو مذهب دينى لطائفة من البروتستانتيين . (المترجم)

سوى آلات ، وأن من الخطأ معاقبتهم إذا فروا . وعلى أثر ذلك غضب الملك وأصدر الأمر بطرد السيد ڤولف ، وأنذر بشنقه إذا بقي في مدينة هال أربعاً وعشرين ساعة .

غير أن الأقدار قد ثأرت له ، فعندما صعد فريديريك الثاني على العرش ، دعا الأستاذ إلى مدينته وجامعته وكرسيه حيث كان لا يوشك أن يقوم بشيء أكثر من أن يعيد الحديث عن مجده . وقد استمر ذلك إلى وفاته في سنة ١٧٥٤ .

تلك كانت شهرة ضخمة حملتها الرياح ، إذ أن معاصريه كانوا يدعونه بالحكيم ، حيث كان لقب الفيلسوف ضئيلا بالنسبة إليه ، وكانت دول بأسرها معجبة به ، وقد عينه الفرنسيون في المجمع العلمي ، وذلك شرف رفيع . وقد ترجم الإنجليز عدداً من رسائله ، وكان ذلك علامة يقينية على الاستحسان من جانب شعب يعتقد في نفسه أنه وحده رَب التفكير والتفلسف . وقد شعر الإيطاليون مبكرين بميزاته ،وكانوا هم الأولين الذين أوصوا بمؤلفاته في روما وفي المدارس الإيطالية ، بل إن ملك نابولي قد أدخل — بأوامر رسمية — النظريات الڤولفية في جامعات مملكته ، ولم يكن الشمال متلجاً بإزائه ، فروسيا منحته لقب أستاذية الشرف في مجمعها الإمبراطوري ، وقد قدمت إليه الممالك الأخرى في ذلك المناخ براهين أعظم أنواع الاعتبارات امتيازاً .

ولكن هذا الضجيج الذي كان يسمع من حفيف أجنحة المجد ، لم يلبث أن خفَتَ ، وأصبح كريستيان ڤولف ، وليس يملك من شواهد الخلود سوى ماله في كتب تاريخ الفلسفة . ولكن هل كل إنسان عرف كيف يوصل هزاته إلى العقول يمكن أن يموت ؟ أو ليس يبقى قائماً بيننا بهيئة أبدية ؟

كان ڤولف دائماً مرتبطاً بالدين المسيحي[1] فنقض اسپينوزا ولوك

---

(١) عبارة المؤلف هنا هي دين واقعي ، أي دين مقرر . ولكننا لما كنا نخشى أن يلتبس ذلك —

وبيل،واحتج « على حرية الفكر الإنجليزية المقززة» بقدر ما احتج«على تأليهية "déisme" الفرنسيين الغازية ، وعلى ماديتهم وارتيابيتهم » .

وقبل موته بساعتين تقريباً ، عندما أحس بأنه دنا من النزع الأخير كشف رأسه ، وبعد أن بذل كل الجهد الذى كان ضعفه النهائى يسمح له به ، ضم يديه ثم قال : « والآن يا يسوع يا منقذى ، امنحنى القوة أثناء هذه الساعة . . . » تلك هى خطة المسيحى الذى يصلى ويؤمل . ومع ذلك فهو لم يكن مسيحياً فى أعماق فكره ، ما دام أن الأخلاق عنده كانت عقلية ، وأن الاعتقاد كان عملية عقلية لم تكن تصل إلى حد التصديق بالمعجزة وأن الإله بالاختصار ، لم يكن فى رأيه ، سوى أحد إنتاجات العقل البشرى . وبهذا المعنى وحده سيشرح كريستيان ڤولف بوساطة أخلاقه .

* * *

وأما چون لوك فعند ما يصل إليه المرء ، يستولى عليه الدهش ففى الواقع أن سيادته تبدو للوهلة الأولى بلا منازع ولا تعانى أى تمرد . وفى سنة ١٦٩٠ عرض فى كتابه : « محاولة عن العقل البشرى » اتجاهاً جديداً للفكر . وقد بقيت هذه المحاولة ، إلى عهد « كانت » ، على أنها هى الكتاب المرشد للفلسفة . ولا غرو فإن كلمة الفيلسوف هيلڤيسيوس فى كتابه : « عن الإنسان » — وهى « مماثلة آرائى لآراء لوك » — كانت تعبر إذ ذاك عن الأكثرية العظمى من معاصريه ، لأنه يمكن أن يعد على الأصابع أولئك الذين لم يقرأوا لوك ، ولم يعملوا بآرائه ، ولم يعجبوا به ، بينما أن جمهور أتباعه لا يحصى . ولست أدرى ما إذا كان قد وجد مستعرض للفكر صار أكثر من هذا الأخير تكييفاً لعصره . إنه قد تجاوز المدارس والجامعات والدوائر العلمية ، والمجامع ليذهب إلى الكافة ، وأضحى من التوابع الضرورية

= بدين أوجست كونت — ولو أنه لم يكن قد وجد بعد — من جهة ، وكنا نعلم أن ڤولف كان مرتبطا بالمسيحية من جهة ثانية ، فقد تصرفنا فى عبارة المؤلف هذا التصرف . (المترجم)

للبدعة العقلية . ومن آيات ذلك أن بوب يحدثنا أن شابة إنجليزية ، كانت قائمة برسم صورتها ، فأرادت أن يقدمها الرسام ممسكة بيدها مجلداً ضخماً هو منتجات لوك . وأن جولد سميث يروى لنا أن الشبان الفرنسيين المتأنقين لم يكونوا يكتفون بأن يسطعوا ، بوساطة رشاقة زينتهم ورقتها ، بل كانوا أيضاً يريدون أن تكون عقولهم مزدانة بلوك . وأن ديتوش فى مهزلته « أنييس الزائفة » قد وضع على المسرح فتاة تتظاهر بأنها مجنونة لكى تتخلص من دعى لا تحبه . وبعد أن يتم لها ذلك تبين أنها أكمل ما تكون عقلا ، إذ تشرح نظرية المعرفة كما عرضت فى كتاب المحاولة للوك . وفى أغلب الأحايين يشاهد أن إشارة ، أو استشهاداً ، أو استعادة — ولو أنها ليست من المؤلفات الرئيسية ، بل من أقل المنتجات شهرة — تبين أن الناس يحتفظون به فى مدخر الذاكرة كأنه قطعة من الذهب يسعد المرء بإبرازها ويجعلها تسطع إبان مروره .

حقاً إنهم نادرون ، أولئك المؤلفون الذين يتجهون بالغريزة إلى جميع المسائل الجوهرية ، وإليها وحدها ، وهى مسائل الإيمان والأخلاق والسياسة والتربية ، والذين يضعون — على كل هذه الموضوعات العظيمة — طوابعهم التى لا تقبل الزوال . ولقد كان چون لوك واحداً من هؤلاء . بل يضاف إلى ذلك ما اكتشف اليوم من أنه قد أحدث ثورة فى الأدب ، وليس ذلك فقط لأنه دمّر بضربة واحدة ، فنون الخطابة القديمة ، والقواعد العتيقة حين أبان أن فن الكتابة لا ينحصر فى تطبيق قواعد وحكم ، وأنه بالحرى يصدر من النشاط الروحى الباطنى . ولكن أيضاً لأنه منح الانفعال والشعور مكاناً لم يكن قد اعترف لها به حتى ذلك الحين . ومن آيات ذلك أن الكاتب الإنجليزى استيرن "Sterne" كان يقول مخاطباً سوار : « لست مديناً بشىء للطبيعة ، وإنما أنا مدين بكل شىء للدراسة المطولة لبعض الكتب كالعهد القديم ، والعهد الجديد ، ومنتجات لوك التى بدأت أطالعها فى شبابى ، والتى ظللت أقرؤها كل حياتى » وعندما سمع سوار هذا ،

جعل يتساءل عما إذا لم يكن ذلك الإنجليزى الغريب يسخر منه .

وإذن فنحن نلتقى بلوك فى أصل الأدب الذى يسجل ردود فعل الفردية ، سواء أكانت ملتئمة أم غير ملتئمة ، أمام الظواهر التى تؤثر فيه، وذلك هو أدب الانفعال أو أدب الشعور .

فمن أين يأتى الأثر المترامى والعميق إلى هذا الحد ؟ ومن أين يأتى ذلك العمل الذى يبدو فى كل مكان ؟ ذلك لأن لوك قد تصور قبل الأوان ، الخطة التى كان العصر يريد أن يتخذها بإزاء مشكلة الموجود ، ففى الواقع أن منه يتأتى التخلى الرسمى عما لا تمكن معرفته ، وأن عنه صدر المرسوم الإمبراطورى : « الإكراه فى داخل حدود الإمبراطورية "De coercendo intra fines imperió" ، وأنها فكرته تلك التى مؤداها أن ما لا ينفعنا ، ليس ضرورياً لنا ، وأن البحّار ليس فى حاجة إلى أن يغوص فى هوة المحيط ، بل حسبه أن يقيد فى خريطته : الصخور ، والتيارات ، والمرافئ ، وأنها فكرته ــ أيا كان مستقاها ــ تلك التى تنص على أنه لا يوجد فى النفس شىء فطرى ، وأن فكرنا المجردة وعقلنا نفسه هما نتيجة لأحاسيس تسجلها النفس ، وعمل تجربة عليها . وأنها فكرته تلك التى مؤداها أن المعرفة ليست سوى العلاقة التى تقتنصها ، وأنها فكرته تلك التى تحصر الإنسان فى الإنسان . وبالإجمال إننا نلتقى بلوك عند منبع التجريبية .

وإذن فقد كان حملة المشاعل يتقدمون ، وكانت الحقيقة ستبرز من مكامنها ، وكان هؤلاء يدعون فى عزة « بأصدقاء الحق » . ولقد نقشوا ميداليا ، كان وجهها يمثل صورة « مينيرڤا «Minerve[1] شعارهم الذى هو : « إجترئ على أن تعرف » . وكانوا يسيرون « ونظراتهم حرة ، وعقولهم مليئة بالنور[2] » .

« والذى كان الجهل الفظ قد أنتجه ، اختفى فى رائعة النهار فى عصر النور[3] » .

(١) هى إلهة الحكمة عند الرومان واسمها باللغة الهيلينية پالاس ــ أثينية . (المترجم)

(2) Wieland, Die Natur der Dingó, Erstes Buch, vers 77 et 78.

(3). Chabanon, sur le sort de la poésie, 1764.

الفصل الرابع

إله المسيحيين موضوع قضية

بيد أن المكان كان مشغولا ، وأن أولئك الجرآء كانوا قد وجدوا أمامهم فكرة عن الحياة اختلطت منذ ثمانية عشر قرناً ، بمدنية أوربا ، ففي الواقع أن المسيحية كانت تقدّم إلى الناس منذ مولدهم ، فكانت تشكلهم ، وتعلمهم ، وتجازى كل فعل من عظائم أفعال وجودهم ، وتضع علامات للفصول والأيام والساعات ، وتحول لحظة وفاتهم إلى خلاص ، وكانوا فى كل مرة يرفعون فيها عيونهم ، يرون على الكنائس والمعابد نفس الصليب الذى قد انتصب فوق جبل الجلجلة . وكان الدين جزءاً من أنفسهم بهيئة عميقة إلى حد الامتزاج بكينونتهم ، وكان يطالب بكيان كل فرد كاملا ، ولا يحتمل التجزئة . ويصور هذه الحالة قول السيد المسيح : « من ليس معى هو ضدى » .

كانت العقيدة المسيحية هناك قائمة وفعالة ، وكان أولئك القادمون يصطدمون بقوتها المتأصلة ، وكانت تعلم الناس أن الحياة ليست ممر أو إعداد ، أوأنها هى الطريق العسير الذى ينتهى إلى السماء ، بينما أن أولئك القادمين كانوا يكلون إلى الآونة الراهنة كل حظوظهم ، وكل مسراتهم .

وكانت العقيدة أيضاً تقول إن العقل يقتادنا إلى نقطة معينة من المعرفة . ولكنه ينتهى دائماً بأن يلتقى ببعض الأسرار . ومن ثم فإن الوسيلة الوحيدة هى وضع ثقتنا فى العقل الأسمى الذى يساعدنا من الآن ، والذى سيسمح لنا يوماً بأن نخترق الحجاب الذى يعترض بين عيوننا المادية والحقيقة ، بينما أن أولئك كانوا يضعون ثقتهم فى عقل إنسانى بحت . وكانت العقيدة كذلك تقول إن لعنة كانت مرتبطة بجنسنا بحيث إن انعطافاً إلى الشر بقى حتى لدى أكثرنا نبلا ، وإن توقاناتنا الرفيعة يختلط بها ميل فظيع إلى الخطايا . ومن ثم

فإن الوسيلة الوحيدة هي الإقرار بالخطيئة الأصلية التي كان من الممكن أن نتطهر منها لو أظهرنا أننا جديرون بالدعوة الإلهية . بينما أن أولئك لم يكونوا يرون هذه اللعنة ، وتلك الوصمة الأولى . وأخيراً كانت العقيدة تلتجئ إلى السلطة ، وإلى التقاليد ، بينما أن أولئك كانوا يرون فى إحداهما سوء استعمال ، وفى الأخرى خطأ .

وإذ وصلت الحالة إلى هذا الحد ، اشتبكت معركة لم ير لها نظير من قبل ، لأن الأمر لم يعد يتعلق بتهديدات محجبة ، أو بمطالب جزئية ، أو بزندقات ، أو بانشقاقات ، وهى غصون تمكن تضحيتها للاحتفاظ بالدوحة . وإنما هى جذور تلك التى كان الأعداء يهاجمونها . ولم يكن الأمر يتعلق أيضاً بتمردات منعزلة أو بعصيات مقصورة على فرد ، أو على طائفة ، أو بمشاجرات بين اللاهوتيين ، لأن الرغبة فى السيادة التامة كانت قد استيقظت وأرادت أن ترضى نفسها .

كان الاصطدام يحدث فى رائعة النهار ، أمام الجمهور ، ومن أجل الجمهور ، وكانت المعركة الهائجة من الجانبين ، تخلع على العصر طابعها الحاد .

وليس معنى هـــذا أن الدين المسيحى وفلسفة الأنوار متعارضان فى حالتيهما النقيتين فقد كان الفاريسيون . وباعة المعابد ، من بين المدافعين عن المسيح[1] . وكانوا من طائفة الأقوياء والأثرياء المقتنعين بأن الأمور لم تكن فى أية حاجة إلى التغيير ما دام أنها كانت منتظمة حسب فائدتهم . ومن طائفة المعاندين وضيق الأفق الذين كانوا يجدون أن من الإصلاح أن يدينوا ويعاقبوا بدلا من يتغلغلوا إلى أعماق النقاش . ومن طائفة الأتقياء الزائفين الذين كانوا يعتقدون أنهم يحققون نجاة أرواحهم بوساطة قيامهم

---

(١) يشير المؤلف بهذا التشبيه إلى أن المدافعين عن المسيحية فى ذلك الحين كانوا يشبهون معاصرى المسيح من الفاريسيين المنافقين وباعة المعابد الجشعين أى أن أولئك وهؤلاء لم يكونوا من الأتقياء المخلصين . (المترجم)

بطقوس عملية خارجية ،وكانوا يصيحون بالفضيحة إذا مست إحدى الخرافات الواضحة . وبالإيجاز كانوا من المسيحيين اسماً . ولكنهم أشد وثنية من المشركين وعبدة الأصنام . وقصارى القول أنهم طوائف خلت قلوبهم من محبة الغير .

وكذلك كان فى الجبهة الأخرى أرواح خلو من العاطفة الدينية إلى حد أنهم لم يكونوا يفهمون ، ولا يستطيعون أن يفهموا قلق الذين يبحثون ، وسكينة الذين يرجون . وعند هذه الأرواح لم يكن المسيحيون إلا ضعفاء أو مزورين . ولما كانوا لا يشعرون بالحاجة إلى الإيمان ، فإنهم كانوا يشوهون الدين ويرسمون له صورة مزيفة ،وكانت المسيحية فى نظرهم ، مؤامرة فظة إلى حد يجعل من العسير أن يتخيل المرء أنها استطاعت أن تنشأ وأن تبقى بين الاضطهادين اللذين اتحدا ليحققا لنفسيهما اقتسام الأرض ، وهما اضطهاد القسس واضطهاد الملوك .

وعندهم أن المسيحية لم تنتج إلا أكاذيب وجرائم عبر التاريخ ، وأن جميع البلايا التى نألم منها ، ستختفى فى اليوم الذى تختفى فيه المسيحية . وكانوا يعلنون أن أهم ما فى العقيدة هو الإفراط الذى سمحت به الكنيسة ، واشتركت فيه أحياناً . أما العقيدة نفسها ،فإنها فى رأيهم سذاجة غير متعقلة خصصت للجهلاء والأغبياء وهى لا تنحصر فى تصديق ما يبدو أنه حق ، بل ما يبدو أنه باطل أمام العقل . ولقد استبدلوا عبادة إله إسرائيل وإبراهيم ويعقوب بعبادة خرافية للطبيعة البشرية[1] أو الطبيعة البشرية المشوّهة[2] . كما لو أن بأساءنا لم تكن قد أتت من حالتنا ، بل من الدين الذى أراد أن يؤولها وأن يجعلها نبيلة .

غير أنه من خلال أحداث المعركة المختلطة والمفعمة غالباً بالمقت ــ وذلك

---

(1) Correspondance littéraire, III, p. 449, décembre 1757.

(2) Thomas Chubb, Human nature vindicated, 1726.

كالحجج التى لا تصيب فلا تتلاقى ،وكالنقد الذى لا يلحق الدفاع ، وكالدفاع الذى لا يرد على النقد ، وكالسخط والعنف – وعلى الرغم من الانحرافات والأخطاء التى تتخذها المناقشات حين تطرح أمام الجماهير ، فإنه يبقى أن المسألة التى تعرض هى معرفة ما إذا كانت أوربا ستبقى مسيحية ، أو سوف لا تكون كذلك .

* * *

على هذه الأوضاع نشأت قضية لم يسبق لها نظير ، وهى قضية الإله . وكان الأمر فيها يتعلق بإله البروتستانت كما يتعلق بإله الكاثوليك مع بضعة ظروف مختلفة بالنسبة إلى الأول،لأنه كان يعتبر أدنى إلى العقل ، وأميل إلى النور . ولكن فى العموم لم يكن أحد يريد التمييز بين چنيف وروما ، أو بين كالڤان Calvin والقديس أوجوستان St. Augustin ، لأن الأصل مشترك ، وكذلك الإيمان والوحى .

وفى هذا يقول أحد النقاد ، ونحن ننقل هنا عباراته نفسها : إن الحالة كانت كما لو أن شائعة – لا يدرى أحد متى نشأت – قد صارت مفرطة الإلحاح إلى حد لا يسمح بإهمالها وقتاً طويلا ، وكان مؤدى هذه الشائعة أن الإله الذى ارتحل فى الليل سراً كان متأهباً لاجتياز حدود العالم المعروف، ولهجران الإنسانية . ولنلاحظ أن الإله فى ذلك الحين كان أمام المحاكمة ، وأن هذه المسألة كانت فى السلك العقلى هى قضية العصر الشهيرة ، وكانت تثير انفعالات الناس إلى درجة لا نستطيع أن نفهمها إلا فى صعوبة . وكان كل فرد – سواء أكان من القراء أم من المؤلفين – مشغوفاً بمعرفة ما إذا كان هناك إله ، لكى يعتنى بنفسه الخالدة أو لم يكن هناك إله ولا نفس خالدة يجب أن يعتنى بها . تلك كانت مشكلة الكافة من الناس أى أنهم كانوا يتساءلون أيعيشون فى عالم يحكمه عقل خيرّ أم فى عالم تسوده قوة لا اختيار لها ؟ تلك هى المشكلة التى كانت تثير العقول ، وهى التى كانت موضع

النقاش فى كل مكان ، فى الكتب ، وعلى المنصات ، وفى المنتديات ، وعلى الموائد بعد أن يخرج الخدم . ولا نستطيع أن نتصور إذ ذاك فيلسوفاً يجهل ، أو يهمل هذه المسألة أكثر من أن نتصور فيلسوفاً عصرياً يجهل أو يهمل نظرية الكوانتا[1] . . . [2] .

هذه الملاحظة دقيقة فى صورتها الشاذة بشرط تحديد أن المتهم كان هو إله المسيحيين ، ففى الواقع أن الناس كانوا يتحدثون عن هذه القضية فى مكاتباتهم التى كانوا يتبادلونها خلال أوربا ، وكانوا يتحدثون عنها فى الصحف والرسائل والقصائد الطويلة ، والمدائح ، بل فى المخطوطات الصغيرة الخفيفة التى كانوا يخلطون بها النثر ، وكانوا يتحدثون عنها فى حضرة الملوك والملكات . فمثلا فى «هرميتاج» الذى شيدته كارولين دى انسباخ ملكة إنجلترا فى مدينة ريشمون وزينته بتماثيل وولاستون ، وكلارك ، ولوك ، ونيوتون "Wollaston, Clarke, Locke, Newton" والذى كان الأسقف بوتلر يأتى إليه فى كل مساء بين الساعتين السابعة والتاسعة ، ليعرض حقائق الدين . وعند ملك البروسيين فى قصرى رانسبورج ، وپوسـدام ، وفى بلاط استانيسلاس — أوجوست ملك پولونيا ، وأمام كاترين إمبراطورة روسيا . وكانت أنباء تلك القضية تتناقل فى المنتديات التى كانت تديرها مدام دى تانسان ومدام دو ديفان ، ومادموازيل دى ليسپيناس "Mme de Tencin, Mme du Deffand, Mlle de Lespinasse" وكان يشار إليها فى الجلسات المجمعية ، وكانت تستأنف فى مكاتب دائرة المعارف فى باريس . وفى برلين كان عدد من الرفاق الذين يجمعهم نفس الانشغال بمعرفة الحكم النهائى ، يتحدثون عن القضية فوق مقاعد المقاصف ، وفى وسط سحب دخان التبغ

---

(١) يرى بعض الطبيعيين المعاصرين تنوع القوة فى الظواهر ، ويطلقون على الوحدات التى تستعمل لقياس ذلك التنوع اسم كوانتا وقد وضع هذه النظرية هانرى پوانكاريه . (المترجم)

(2) The Heavenly city of the Eighteenth Century Philosophers, by Carl Becker, New-Haven, Yale university Press, 1932.

ورنين الأكواب ؛ وكان العلماء فى معاملهم ، ينحنون على مناظيرهم المعظمة على أمل أن يستكشفوا فى الطبيعة مستنداً جديداً يضيفونه إلى أضبور القضية ؛ وكان الرحالة الذين يذهبون إلى البلاد الأجنبية ينقبون عن معرفة ما إذا كان هناك طريقة لمجابهتها وحلها . ولقد كان ديديرو فى منزل صديقه دى هولباك بالريف ، وبعد أن أكل المدعوون وشربوا فى سعة ، جعلوا يضحكون ويمزحون ، وكان كل ما لا يمس تلك القضية كأنه لم يكن سوى لَهْوٍ حائل محدود بلحظة من لحظات النسيان فطفقوا يعودون ، بالرغم منهم ، وبوساطة انعطاف غير محسوس ، إلى المسائل التى لا يستهان بها . وفى هـــذا يقول ديديرو : « إن الحساسية العامة ، وتكوين الكائن الحساس ، ووحدته ، وأصل الحيوانات وبقاءها وكل المسائل التى يتعلق بها ذلك ليست من المسائل التى لا يكترث بها ، إذ ليس من الهين أن يجمد الإنسان أو أن يقر عقلا أعلى[1] . . . »

ولا جرم أن هناك دائماً لدى الذين بدأوا القضية شيئاً من المرارة والحفيظة ، وفكرة المسئولية التى أخذت تنمو من قرن إلى قرن ، ولذا كان الوقت أكثر من ملائم لطلب تقديم الحساب ، إذ أن إله المسيحيين — فيما يرون — كان لديه جميع السلطان ، وأنه كان قد أساء استعماله ، وأن الناس قد وثقوا به ، وأنه خدعهم ، وأنهم قاموا بتجربة لم تنته إلا إلى التعاسة . ولقد جعلوا يسألون لماذا كان المسيح منقبضاً وحزيناً ؟ ولولا ذلك الدين لكنا أكثر مرحا بعض الشىء[2] ، ولماذا لم تكن مملكته من هذا العالم ؟ « فبدلا من أن يحارب الدين الارتباط بالأمور الأرضية ، ينبغى أن يقويه لدى الإنسان[3] » . ولمـــاذا نصح بإهانة البدن ؟ وفى هذا يقول ڤولتير :

---

(1) Diderot, Rève de d'Alembert, ed. Tourneux, t. 2, p. 135.

(2) Diderot, Entretien avec la Maréchale, oeuvres, ed. Tourneux tome 2, p. 514.

(3) Helvétius, De l'homme, section 1, Chap. 13.

« أى انتصار مرهق وأية غلبة حقيرة ، هل تبحثين فى حزن عن الفوز ضد نفسك ؟ وهل عقلك المستنير يستطيع أن يؤمن بالتاريخ الوهمى للعهدين القديم والجديد ، وبالأحلام المقدسة لأولئك المتنسكين المجانين الذين — إذا كانوا مؤمنين كسالى، وغيلانا حمقا أتقياء — يتركون اللذة الحقيقية من أجل مجد زائف ؟ لأن اللذة هى موضوع جميع الكائنات العاقلة وواجبها وغايتها . . .

والعقل عندهم ليس من خصائص الإله بل إنه فى رأيهم غير منطقى ، ففى الواقع إن برنامج عنايته لو حكم عليه حسب قوانين منطقنا وعقلنا ، لكان غير متسق » .

هذا هو ما كان ڤولتير يقوله ضمن قصيدته التى عنوانها « رسالة إلى أورانى» والتى تحتوى على مآخذه ، والتى كان يتابعها على النحو التالى: « إننى أريد أن أجد هذا الإله ، وإننى أبحث فيه عن أبى ولكنهم يظهرونه لى طاغية يجب علينا أن نمقُتَه ، إنه خلَق الأناسى يشبهونه ، لكى يمعن فى تصييرهم سفلة ، وقد منحنا قلوباً مذنبة ليكون له الحق فى أن يعاقبها ، وقد حبب إلينا اللذة ، ليزيد فى تعذيبنا بالبلايا المرعبة التى تمنعها معجزة خالدة من الانتهاء . وقد خلق الإنسان على صورته ، وفجأة يرى وقد قدم على فعلته ، كما لو كان الصانع لم يشعر بعيب صنعته الخاصة ... »

ولكى نوجز كل المآخذ فى مأخذ واحد نقول إنه قد عرض علينا لغزاً ، وكان يستطيع أن يشرحه ولكنه لم يرد . وفى أحد الأيام ألف لاكوندامين لغزاً وقرأه على أصدقائه المجتمعين حوله كأنهم دائرة ، وفى دهشة منـــه لم يلبث هؤلاء أن وجدوا كلمة السر لأنه كان قد كتبها بأحرف ضخمة على ظهر ورقته . آه ! لماذا لم يصنع الإله مثل ذلك : « ولو أن الإله كان قد عاملنا كما عاملنا لاكوندامين الخيِّر الذاهل ، لما حطمنا رؤوسنا منذ خمسة أو ستة آلاف سنة . ولكن من السخرية من الناس أن يبعثهم إلى

ميركور(١) العالم الآخر لكي يعرفوا كلمة السر »(٢) .

هكذا كان الجو السائد . وقبل أن نرسم تاريخ هذه المعركة فى خطوطه العريضة : ينبغى أن ننظر إلى عدد من هذه النفوس الكليمة المتمردة التى كانت بين الأولين الذين منحوا الزمن لونه . وقد اخترنا منها مُثلا ثلاثة ، أولها إيطالى ، وثانيها فرنسى ، وثالثها ألمانى

* * *

لم يكن من الجديد أن تدافع السلطة الدنيوية عن نفسها ضد زحف السلطة الدينية ، بل كان ذلك نهاية لمعركة طويلة وهاك المظهر الذى اتخذه هذا الدفاع .

ولد بييترو چيانون Pietro Giannone فى پوى إحدى مقاطعات إيطاليا الجنوبية فى سبعة مايو من سنة ١٦٧٦ ، وقد درس مذاهب « المدرسيين » ، ثم اتجه إلى ناپولى ليدرس فيها الحقوق أى القانون الرومانى والقانون الدينى ، والقانون الإقطاعى ، والتاريخ العام ، والتاريخ الدينى ، والفلسفة ، فكان جاسانديًا ، ثم صار ديكارتيا ، فتعلم بكل شىء . ولم يكن شريراً ، وكان فى أخلاقه استقامة وشرف ، ولديه ثقة فى العدالة ، ولكنه لم يكن مسالما ، بل كان شائكاً وعنيداً ، ومغرماً بالنضال ، وكان أسيراً لفكرة واحدة استولت عليه فخصص لها حياته وهى أن رجال الدين فى رأيه ، قد أرادوا منذ البدء أن يغتصبوا امتيازات الحكم ، وأن دعاواهم لم تكن مشروعة . هذا هو مكان چيانون يريد أن يبديه فى ناپولى وفى إيطاليا بل فى أوربا . ومن ثم فقد ألف على عجل وفى حُمَّى « التاريخ المدنى لحكم ناپولى » الذى ظهر فى سنة ١٧٢٣ .

---

(١) يريد المؤلف أن يقول إننا لكى نحل لغز الألوهية فى حاجة إلى ميركور العالم الآخر كما كان ميركور فرنسا يحل ألغاز العصر . (المترجم)

(2) Grimm, Correspondance littéraire, t. 7, p. 119 septembre 1770.

لم يكن ذلك الكتاب من التاريخ بالمعنى الكامل ، لأن المؤلف لم يكن ينظر عن قرب إلى ضبط المصادر ، وفى أثناء تهيجه فى التدليل ، كان يستولى فى يسر ، على إنتاج الآخرين . كان حقاً يجب أن يفهم چيانون جيداً ، ولم يكن ينبغى أن ينتظر منه قصص عن المجد والمعامع ، ولا رسوم لمناظر الطبيعة ، ولا آراء فنية ، وكان مشروعه كله اجتماعياً إذ كان ـ بصعوده نحو الماضى إلى أبعد ما ينبغى ، وبإمعانه إلى الحقبة المعاصرة ـ يريد أن يبرهن على أن كفاحاً واحداً هو الذى نشأ ونما خلال أحداث متباينة وهو كفاح أخلاف القديس بطرس ضد ممثلى قيصر . وأن الكنيسة ـ وهى دائما نفعية ، ودائماً مستعدة للاستفادة من الضعف البشرى ، ولإغواء القلوب المزعزعة ، وللاستفادة من مخاوف ما بعد هذا العالم أمام سرير المريض ، ولتكديس الأموال والأملاك والفوائد على اختلاف أنواعها ـ قد خانت رسالتها على مر العصور .

لا جرم أن الحركة التى تقتاد ذلك الكتاب منبعثة عن الهوى ، وأن لهجته مرة ، وأن طريقته العادية هى التكرار ، فنحن نشاهد مثلا أن چيانون يقول فى الفصل الذى عنوانه : « السياسة الدينية ، الرهبان والثروات الدنيوية » ما نصه : « إنك ترى خلال العصور أن السياسة الدينية تظل كما هى ، وترى خلال العصور أن الرهبان يميلون إلى الاستيلاء على الثروات » . وفيه حجج متماثلة تستأنف فى غضب متزايد ، ونرى چيانون ـ وهو المدافع عن الدولة ـ قد صار من الذين ينبذون قداسة الصور والرسوم وهو فى هذا يعمل بغضبه ، وكان النـــاس يدركون ذلك من الطريقة التى يتحدث بها عن الصور المقدسة ، وعن البقايا والآثار السلفية ، وعن الحج والمعجزات ، وعن مقته للرهبان ، واحتقاره لنظام الدرجات الكهنوتية . وكانت السخرية هى وسيلته إلى الدفاع ضد المهاجمات التى كان هو موضوعها ، فمثلا لكى يرضى معارضيه ، كان يعلن أنه مستعد للإيمان بأن البابا سيد العالم أجمع ،

وأن له الحق فى أن يستعمل جميع الوسـائل كالتغريم والحبس والسجن الانفرادى والنفى ، لكى يحقق النجاة الأبدية للنوع الإنسانى وللإيمان بأن السلطة البابوية لا تتحدد على سطح الأرض والبحر ولكنها تمتد إلى الجحيم والأعراف والفردوس بحيث إنه يستطيع فى الممالك السماوية ، أن يأمر الملائكة . . .

إن بييترو جيانون — وهو الذى لا يكبح جماحه — قد استمر يدافع عن فكرته ولكن ذلك لم يكن دون أن يطلق عقال اضطهادات السلطات التى كان يجابهها ، فضاعف بذلك المجادلات الكتابية قصد إنقاذ كتابه ونشره وهكذا كان يهاجم دائماً ، فأقصى ردحاً من الزمن ، وسجل كتابه فى قائمة المحظورات ، فالتجأ إلى ڤيينا حيث وجد ملجأ فى كنف الأمبراطور الذى كان يؤيد سلطانه .

غير أن نابولى فى سنة ١٧٣٤ انفصلت عن النمسا ، وأن الأمبراطور ، بسبب ذلك نفسه ، قد تخلى عن الاهتمام بجيانون الذى صمم على العودة إلى إيطاليا ، وعندما وصل إلى البندقية ، أقصِيَ عنها ، فاتجه إلى ميلانو ، وسرعان ما طُرِد منها ، وحينئذ ذهب إلى چنيف حيث استقبل استقبالا حسناً ، ولكن البيت الحاكم فى سَفوا قد اعتبر أن إقامته فى تلك المدينة خطرة بالعدوى فاجتذبه فى فخ مجمله أنه — تلبية لدعوة رجل كان يظن أنه أحد أصدقائه — اتجه إلى قرية وفى نفس ليلة وصوله إليها اعتقل ، وجعل ينقل من سجن إلى سجن حتى توفى فى قلعة توران فى سنة ١٧٤٨ .

وقد ترك مخطوطاً لم ينشر فى حياته ، وكانت محتوياته متممة لوسم فكرته ، وكان عنوانه « الحدود الثلاثة » وملخصه أنه قد وجد فى العالم ثلاث ممالك متتابعة ، كانت أولاها مملكة الأرض ، إذ أن المدنية العبرية كانت كلها أرضية ، ولم تكن عقائدها تتضمن أية فكرة عن البقاء ، ولا أى أمل فى الخلود ، وأن موسى لم يَعِدْ أولئك الذين أطاعوا قانونه

إلا بمكافأة مادية كخصوبة الحقول ووفرة القطعان ، والصحة والرغد ولم يدرك النفس ألبتة على أنها يجب أن تنجو من الموت ، وأن المصريين قد قدموا إلى الإغريق – وهم جنس ماهر – أخيلة لم يكن لهؤلاء الأخيرين بد من أن يروقهم إنماؤها فى أساطيرهم ، وذلك مثل « الأكيرون » و « الشان إيليزيه »[١] بل إنه فى تلك التنميات لم يكن يوجد سوى استمرار مجازى للأشياء الأرضية .

وعلى أثر ذلك جاءت المملكة السماوية ، فالأناجيل تحدثنا كيف أن لإله أرسل « كلمته » إلى العالم حتى يستطيع المسيح أن يكون مرشداً على الأرض حيث الأناسى الذين هم أرضيون وفانون كما كانوا إلى ذلك العهد يصيرون سماويين وخالدين . إنه من المفهوم أن النجاة تُنال بالإيمان أقل مما تنال بالعمل ببعض فضائل جد بسيطة إلى حد أن كل رجل جلف ، وامرأة فظة يستطيعان أن يزاولاها .

وفى المحل الثالث جاء حكم البابا . ومأتاه أن رجالا قد استولوا على تلك المسيحية البدائية . وعلى أسسها أقاموا مبنى متعارضاً أتم التعارض مع روحها . واستولوا على قانون العدل والجور ، ونعتوا الأعمـــال بنعوت المباحات أو المحظورات حسب أهوائهم ، وحملوا الجماهير على الإيمان بأن لديهم القدرة على فتح أو إغلاق الأبواب السماوية . وقد استغلوا جهل الأمراء ، وحمق الشعوب فعلموا الناس أنه من الممكن استبدال الثروات المادية بثروات روحية وأن الهبات والوصايا لها القدرة على افتداء النفوس ، وأنه بالمال المقبوض ، يدفع ثمن الفردوس . وبهذا يكون الناس قد عادوا

---

(١) الأكيرون هو فى الأساطير الهيلينية، نهر يمر فى الجحيم ، ولكى تذهب نفوس الموتى إلى مقرها لا بد من اجتياز هذا النهر ؛ أما الشان إيليزيه فى نفس تلك الأساطير فهو موضع إقامة نفوس الموتى الذين كانوا من ذوى الفضيلة . (المترجم)

إلى عهد الحكم الأرضى . ولكى يظفروا بالعهد السماوى ، كان ينبغى القضاء على الكنيسة .

* * *

لم يكن يحدث للمرة الأولى أن عضواً من الإكليروس الأدنى يكون متذمراً من حظه، فيتظلم من بأسائه ، ويتألم من احتقار العظماء . وهاك المظهر الذى اتخذه هذا الاحتجاج عند أحدهم :

كان چان ميلييه Jean Meslier يعيش فى إيتربيتى بمقاطعة شانپانيا ، وكان قسيساً خيراً، أو كان على الأقل قسيساً لا بأس به إذا حكم عليه بمقتضى الظاهر . وكان من أسرة ذات سعة وكانت قد قدمت عدة علماء من أبنائها إلى الكنيسة . وكان هذا القسيس مثقفاً، وكان الناس يرونه مشغولا بمطالعة مؤلفات مكتبته ، وإعادة قراءتها . حقاً إنه كان بينه وبين مولى الإقطاعية خلافاً ، وأنه قد رفض أن يزكيه فى الوعظ ، وأن رئيس أساقفة رانس قد خطأه ، وطالبه بالندم فى جلسة عامة . وإذ ذاك صعد على المنصة يوم الأحد الذى تلا هذا الأمر وأعلن ما يلى : « ها هو ذا المصير العادى لقساوسة الريف المساكين ، فرؤساء الأساقفة الذين هم من كبار الأشراف ، يحتقرونهم ، ولا يستمعون إليهم، إذ ليس لديهم آذان إلا للأشراف . وإذن فلنتشفع للسيد دى كليرى مولى هذا الإقليم ، ولندع له ، ولنسأل الله أن يهديه ، وأن ينعم عليه بأن لا يسلب الأيتام ثروتهم » .

من المفهوم أن هذا التصريح لم يصلح الأمور وأن الكفاح غير المتوازى قد استأنف سيره ، فقد روى أن ذلك المولى الإقطاعى كان يطلق البوق تحت نوافذ الكنيسة يوم الأحد أثناء وعظ القسيس .

وإذن فلم يكن چان ميلييه ذا سجل حسن ، ولكنه لما كان مثابراً على تأدية وظائفه ، وكان يقوم بعظاته ، فإنه قد توفى فى سنة ١٧٢٩ دون حادث آخر ؟

غير أنه ترك ثلاثة نسخ من وصية مفعمة بالسُّخْط إلى حد أنه بعد مرور مائة سنة ، لا يستطيع أحد قراءتها دون أن ينتفض ، لأنها كانت مرارة تنبجس وفيرة ، وكتلة من الحقد والمقت هيجها عدم المقدرة ، ودعوة إلى التمرد الذى لم يجرؤ ميلييه على أن يزاوله فى صورة واضحة . ولقد كان اللوم الذى يوجهه إلى نفسه من أجل هذه الوضاعة يدخل جزء منه فى عنف الشتائم التى كان يصوبها إلى الدين . وكذلك كان القارئ يحس فيها بالغيظ من أنه ترك نفسه يقاد إلى الحالة الكنيسية ، ومن أنه كان يبدو فى مظهر القسيس الخير ، ومن أنه اضطهد . ومن أنه نبذ كل إيمان وصمت . ولقد كان مائة مرة على أهبة أن يفجر ذلك الغضب الذى كظمه طول حياته ، ولكنه لم يرد أن يعرض نفسه لسخط القسس ، وقسوة الطغاة الذين لو فعل ، لما وجدوا له عذاباً قوياً إلى الحد الكافى لعقاب تهوره .

كانت وصية القس ميلييه تصدر عن اشتهاء السعادة الذى يوجد فى قلوب بنى الإنسان . ولماذا كان ذلك الاشتهاء دائماً مخدوعاً ، لأن البعض يريد أن يأمر ، والبعض الآخر يريد أن يظفر بشهرة القدسية ، أى أن هناك سلطتين قد تثبتتا ، إحداهما سياسية ، والأخرى دينية ، وعندما تحالفت هاتان السلطتان كان شقاء العالم قد استقر إلى الأبد . وكان الملوك والقسس قد أتموا ظلمهم معاً .

حملت ميلييه موجة من الهوى ، فكان يقول إن الأديان ليست سوى تزويرات ، وإنها هى المنبع المحتوم للاضطرابات والانقسامات والحروب . وإذن فهى ليست من التنظيم الإلهى فى شىء ، وإن البراهين التى تأتى بها الكاثوليكية لإثبات الميزة الاستثنائية لرسالتها ، هى كلها زائفة ، وإذن فهى ليست من التنظيم الإلهى . وإن تعاليمها مضادة لتعاليم الطبيعة ما دام أنها تجعل الألم مقدساً ، ومضادة لتعاليم العقل ما دام أنها تتطلب الاعتقـــاد ، وإذن فهى ليست من التنظيم الإلهى . وأنها تسمح بفقدان النسبة بين الأناسى ، وإذن فهى ليست من التنظيم الإلهى وأنها تأمر

بترتيل عبارة : « أيها المولى « تى ديوم »[1] "Te Deum" » .

لكى تمجد المذابح والمجازر . وإذن فهى ليست من التنظيم الإلهى .

ولقد جعل چان ميلييه يستمر فى هـــذه اللهجة لأن نفسه كانت أقل النفوس رحمة ، وأقلها محبة للغير ، وأكثرها تعصباً ، ولو أنه كان يكره التعصب . وإن نداء الإله الذى كان يقيم فى قلب أشد القرويين الذين يختلفون إلى كنيسته ، تواضعاً لم يسمعه هو شخصياً ألبتة . إنه لم يعرف قط سوى حرفية الكتب المقدسة ، وإنه لم يعرف مطلقاً ما هو الرمزى ، ويستطيع المرء أن يعتقد أنه لم يصل ألبتة .

وكذلك يمكن الاعتقاد بأنه لم يعتقد قط أن تطبيق السلطة يمكن أن يتجاوب مع ضرورة اجتماعية . ومن ثم فإنه أعلن أن كل الأمراء والملوك ينبغى محوهم ، ولبدء هذا يجب التمرد ، ورفض دفع الضريبة ، والضرب على رؤوس الوحوش الذين أعطوا أجزاءاً من السلطة وهو فى هذا يقول : « إننى أذكر الأمنيـــة التى كان يتمناها فى الماضى رجل لم يكن لديه علم ولا دراسة ، ولكنه لم يكن ينقص الفطرة السليمة ، حسب الظاهر لكى يحكم حكماً صحيحاً على كل الإفراطات البغيضة وكل الرسميات المقيتة التى أعيبها هنا . . . وكان يتمنى أن الأشراف وجميع عظماء الأرض يشنقون ويخنقون بأمعاء القسس » . وبعد هذه الكلمات المفزعة ، جعل يهتف بأسماء بروتوس[2] وكاسيوس[3] وچاك كليمان[4] ورافاياك[5] والذين سيكونون على غرارهم فى المستقبل كان يأخذ على الإله نفسه تعاسته الشخصية ، لأنه

(١) تى ديوم هو نشيد دينى يرتل فى الكنائس للشكر عند الانتصار فى الحروب، وقد عزى ابتداعه إلى القديس أمبرواز والقديس أوجوستان . (المترجم)

(٢) و (٣) و (٤) و (٥) بروتوس وكاسيوس هما قاتلا يوليوس قيصر فى روما ، وچاك كليمان هو قاتل هنرى الثالث ملك فرنسا، ورافاياك هو قاتل هنرى الرابع ملك فرنسا . (المترجم)

كان فى نظره هو المسئول الأخير أو بالحرى تلك هى الفكرة الزائفة التى كان الأناسى يتخذونها لأنفسهم عن وجود الإله وهكذا كان ميلييه يعلن أنه ملحد . وعندما وصل إلى أقصى حدود سخطه وثمل بإهانته للمقدسات ، لم يلبث — حين لم يبق أمامه شيء يهدمه — أن أفاق من ثمَلِه وأصبح لا يشعر إلا بحزن وإرهاق وإذ ذاك أودع سره الأخير فى ذلك المخطوط الذى أنشأه ونسخه ثم أعاد نسخه فى بقية أيامه ولياليه الساهرة . وذلك هو السر اليائس لرجل لم يعد أمامه سوى الفناء ، وهو فى هذا يقول : « وبعد ذلك فكل ما يعتقده الناس ، وما يحكمون به ، وما يقولونه وما يفعلونه مما يشاؤون فى العالم ، فإننى لا أكاد أنشغل به فَلْيُسَوِّ الناس أمورهم ، وليحكموا أنفسهم كما يريدون ، وليكونوا حكماء أو مجانين ، وليكونوا أخياراً أو أشراراً ، وليقولوا عنى أو يفعلوا بى بعد موتى فإننى لا أعبأ بذلك إلا قليلا . إذ إننى لا أكاد أساهم فيما يحدث فى العالم وأن الموتى الذين أنا على أهبة الذهاب إليهم ، لم يعودوا يتحيرون من شيء ولا ينشغلون بشيء ، وإذن فسأنهى هذا المخطوط بألا شيء ما دمت لا أوشك أن أكون شيئاً ، وإنى ، عما قريب ، سأصير لا شيء . . . » .

* * *

ولم يكن يحدث للمرة الأولى كذلك أن لوثيرياً يهجر إيمانه ويتجه نحو الفكر الحر ، وإليك المظهر الذى اتخذه هذا التطور عند رجل من ذلك العصر وهو چوان كريستيان أيديلمان ، "Johann Christian Edelmann"

لم يتخذ جذوره من أعماق القرن السابع عشر بالقدر الذى كان چيانون وميلييه يتخذانه ما دام أنه ولد فى سنة ١٦٩٨ . وأيا ما كان فقد اتجه بديا نحو السلك الدينى ، وبعد أن اجتاز عدة مدارس ، أتم دراسته الدينية فى جامعة يينا فى سنة ١٧٢٠ ، ثم بدأ يعظ ، بل قد حدث له أنه كان يعظ ضد الهرطقة السوسانية بحرارة كانت موضع ملاحظة ، ولكنه قد احتفظ

لنفسه بأسوأ الفكر عن أساتذته إذ ألفى أن ما تعلمه منهم لم يكن يساوى شيئاً ، وأن رجال الدين لم يعلموه إلا حماقات مجمعية ، وكان سعيداً بأن يفر منهم لأنه لم يكن معجلا لأن يصير راعياً . ومن ثم فإنه — لكى يعرف العالم — قد انخرط فى سلك مهنة المربين . وهنا أيضاً كان من الممكن أن يستقر لأنه لم يكن ينقصه شىء مما كان ضرورياً فى مهمته وهو المعارف والسلطة ، وحب للاطلاع شديد اليقظة . وكان بينه وبين بعض الأشراف ألفة جعلته سعيداً بأن يستفيد من ملاهيهم كالصيد فى الخريف ، وكالمراقص والتزحلق على الجليد فى الشتاء ، ولم يكن يخشى أن يصوب نظراته إلى « كونتة » جميلة لا تلبث أن تنظر إليه بدورها . وكان من الممكن أن تستمر حياته على هـذا النحو ، ولكنه لم يكن ثابتاً ، وإن الثبات بالضبط هو الذى كان ينقصه أكثر من غيره . وفوق ذلك فقد كان محترقاً بالكبرياء .

وقع بين يديه كتاب عنوانه « الكنائس المحايدة وتاريخ الهرطقات » تأليف جوتفريد أرنولد فأحدث فى نفسه انفعالا حاسما . وفى الواقع أن أرنولد هو الذى كان محقاً ، فالهراطقة هم الذين كان لديهم العقيدة الحقة ولم يكونوا هم الأرتودوكس . وما دام الأمر كذلك فوداعاً أيهـا المذهب اللوثيرى ، لكل كنيسة ! »

وفى صباح أحد الأيام ، وبينما كان فى مدينة دريسد سمع صوتاً يقول له : اكتب حقائق بريئة . ولكى يلبى ذلك النداء الخفى ، جلس إلى مكتبه وبدأ كتابة أولى الرسـائل التى ستؤلف سلسلة ، وكان ذلك للتدليل على وجوب عدم الاكتراث بالأديان .

ولما لم تكن الحقيقة موجودة فى الأرتودوكسية ، فقد جعل ينقب عنها ، وانتسب إلى شعبة « الملهمين » وكان أعضاء هذه الشعبة يجتمعون ، ويصلون ، وينشدون نشائد تتعلق ببابل ، وبسكانها التعساء ، ثم يركعون ويسجدون ،

وينتظرون الإلهام الإلهى . وعلى هذا النحو صلى إيديلهان ، وأنشد ، وانتظر الإلهام ، وكان بين المتحمسين إلى اليوم الذى تعلم فيه كيف يعرف رئيس الطائفة الذى أتى بنفسه ليرى العضو الجديد فأحس بأنه لا يحبه . ولا جرم أن الحقيقة كانت لا تزال عند الهراطقة ، ولم تكن عند الملهمين .

وفى أحد الأيام استرعت انتباهه فى إنجيل القديس چان هذه الكلمة : « إن الإله هو العقل. » أى سرور وأى يقين غزاه عندما قرأ هذه الكلمة ! إن الإله كان هو العقل ! الإله هو العقل ! إن العقل الذى لم يسمع إيديلهان نداءه حتى الآن ، قد فرض نفسه عليه أخيراً بطريقة نهائية . كل ذلك قد مر ، كما لو كان قد نقل إلى قمة جبل شاهق واستكشف فيه فجأة ، آفاقاً هائلة ، أو كما لو كان رقيقاً سجيناً موثقاً ، ثم رد بغتة إلى الحرية والنور والشمس ؛ أو كما لو كان باب رمس قد فتح للبعث ولن يكون له بعد الآن مهمة أخرى غير التبشير لعبـــادة العقل بين الأناسى . وعلى أثر ذلك يقذف بقبعته المثلثة ، وشعره المستعار ، ويتخلى عن أكمامه الإضافية ، ورباط عنقه المصنوع من القماش الرقيق ويرسل لحيته ويرتدى المسوح ويخرج إلى الطريق العام فيكون موضع سخرية الكافة ، ومع ذلك فقد كانت هناك جملة لا تزال تشغل عقله إذ تشتمل على فكرة أثرت عن اسپينوزا وهى : « إن الإله هو الجوهر الكامن للعالم » ولذا يرى أن واجبه هو أن يعرف على وجه أفضل، اسپينوزا الذى كان رجال الدين يتحدثون إليه عنه كما يتحدثون عن أحد الجناة . ومن ثم فقد كتب إلى صديق من برلين ليطلب إليه أن يشترى منتجات الفيلسوف حين تمر فى فرصة ، بأحد البيوع ، ولقد كانت مفاجأة جديدة وسرور جديد ينتظرانه فى هذا الشأن ، إذ أن اسپينوزا — فضلا عن أنه بعيد عن أن يكون أحقر الناس — كان هو الوحيد الذى خلع الإيضاح الحق على الأشياء :

ولما كان إيديلهان قد شجعته مطالعة « الرسالة اللاهوتية والسياسية » ،

فإنه قد شرع فى التدليل على زيف الكتب المقدسة ، وعلى إزالة النقاب عن موسى ، ثم نشر كتابه « ألوهية العقل » فى سنة ١٧٤١ .

وفى هذا التاريخ تحدد دوره لأن المجتمع قد لفظه وصار كافراً بأجلى معانى هذه الكلمة ، وأصبح ذنباً من أذناب الشيطان . وقد استولى على كتبه ، وأحرقت ، وقضى بغرامة على من يحاول أن يجعلها متداولة . فطفق يتيه فى شمال ألمانيا ، وانتهى بأن يعود إلى برلين حيث سمح له بذلك على شريطة ألا ينشر بعد الآن شيئاً . وكان ذلك بالنسبة إليه ، أشق أنواع الإهانة ، وكانت الظلمة التى أمضى فيها سنينه الأخيرة ، بلا ريب أيضاً أعظم أحزانه .

الفصل الخامس

ضد الدين الموحى

إن الدين الموحى ، كان منظوراً إليه على أنه عدو من جانب فلاسفة ذلك العصر الذين كانوا يعتقدون أنهم لن يعملوا شيئاً ، ما لم يدللوا للمؤمنين على أن هذا الدين لم يستطع البرهنة على كيانه نظرياً ، وأنه لم يظهر وجوده واقعياً ، وما لم يثبتوا أنه منطقياً ، لم يحتمل الاختبار ، وأن الشواهد التى كان يعتمد عليها ، لم تكن — من الحقيقة التاريخية — تستحق الإيمان .

فني الواقع أن الوحى ، فيما يرون ، يعزى إلى محيط المعجزات ، أو أن العقل لايغير المعجزات أو أن الوحى يعزى إلى محيط الما فوق الطبيعى ، وأن العقل لا يقر إلا الحقائق الطبيعية ، وأن العقل عندما يختبر الوحى ، يجد فيه تناقضاً ، وبالتالى يجد فيه زيفاً . وأن ما هو دينى حقاً فى الدين ليس إلا خرافياً ، وبالتالى ينبغى أن يهاجم العقل تلك الخرافات وأن يحطمها ، لأنه لا إيمان إلا بما هو عقلى ، وأن الإلهى نفســـه يجب أن يرتد إلى العقلى . تلك هى الموضوعات التى كانت مطروقة بوجه عام لدى كبار المفكرين فى جميع اللغات . ولم يكن عسيراً على الناظر فى خريطة أوربا أن يميز المراكز الأساسية التى صدرت عنها هذه الآراء ، وهاكها :

ها هو ذا بديا المظهر للذى قدمته إنجلترا التى كانت مصدر المثل فى التمرد منذ زمن بعيد . وكان هناك كثير من الضجيج والفضائح المتتابعة التى كانت كل واحدة منها تبدو قوية إلى حد أنه لم يكن فى الإمكان تجاوز ضوضائها . ومع ذلك فقد تُجُوزت . وكانت هناك سلسلة من المؤلفات المتحدية التى كانت نتائجها تثير فى كل مرة السخط والهرج ، وكانت هناك طائفة من الأفراد يأتون من أمكنة جد متباينة لكى يتعاقبوا فى القيام بنفس التحدى على النحو التالى :

فى سنة ١٧١٥ ، لم يكن تولاند "Tolland" مؤلف كتاب « النصرانى » ولا كولينس "Collins" ولا الأخ ثينكير "Thincker" قد انتهوا من مهمتهم بعد ولكن آخرين — دون أن ينتظروا ذلك — « كانوا يزلزلون أعمدة القسوسة والأورتودوكسية » . وأول هؤلاء توماس جوردون Thomas Gordon ثم وولستون Wolston وهو رجل دراسة نال ألقابه العلمية من كامبريدج ، والتحق بالسلك الدينى . ولما كان ساطعاً وفصيحاً ، فقد كان أمامه مستقبل جميل . ولكنه قذف بنفسه فى محاربة الأورتودوكسية ، ثم ميديلتون وقد ربى هو أيضاً فى كامبريدج فصار دكتوراً فى الإلهيات وأميناً لمكتبة الجامعة . ثم تانداك Tindall وهو خريج أوكسفورد ، وكان أول الأمر قد اهتدى إلى الكاثوليكية ثم عاد إلى البروتستانتية . ثم مرق من البروتستانتية إلى « التألهية » المقاتلة . وفى الوقت ذاته ظهر بغتة توماس شوب ، وهو رجل بدين قصير سيئ التربية ، يتعذر عليه أن يكتب كتابة صحيحة ، وكان صانع شموع بعد أن كان عاملا فى صناعة القفازات . ثم أتى بعد ذلك توماس مورجان Thomas Morgan ، ثم بيتير أنيت Peter Anet وكان هذا الأخير معلما فى إحدى المدارس ، وكاتباً من كتاب الدهماء . . . ولقد كان هؤلاء جميعاً يغمرون السوق بنثرهم الساخط أى بهجاءاتهم القصيرة ورسائلهم ومؤلفاتهم العالمة وقد طردوا من أعمالهم ، وأحرقت منتجاتهم ، وزج بهم فى غياهب السجون ولكن ذلك كان عبثاً . وكانوا فى كل مرة يشنون هجوماً جديداً ضد الكنيسة الإنجليزية الرسمية ودرجاتها ودخلها ، وضد كل كنيسة ، وضد المعجزات ، وضد التأويل الذى أتى به الإنجيل عن حياة المسيح ، إذ أن هذه الحياة ليست سوى رمز للحياة الروحية وللبعث الخلقى لكل فرد ، وعلى الأخص ضد الوساطة الإلهية . وفى الواقع إن أساس الدين كان إما الاتساق الأخلاقى بين الأشياء وإما الإرادة الإلهية الاستبدادية ، فإذا تطابقا الإله مع الاتساق الأخلاقى كان حكيما وخيراً ؛

وإذا كان له إرادة استبدادية فإنه لا يكون حكيماً ولا خيراً ، وإنما هو يجرى اختياراً خاضعاً للهوى بين الخير والشر ، ولكن الإله بإذعانه للاتساق الأخلاقى للأشياء تصير وساطته عبثاً ، لأن الإنسان المزود بملكة الفهم ، يصل بنفسه إلى تمييز الخير من الشر وإلى شرعية الخضوع لقاعدة الاتساق الأخلاقى بين الأشياء . وإذن فينبغى الرجوع فى ذلك إلى الدين الطبيعى ، ما دام أن المسيحية لا يفترض أنها ضرورية إلا فى الحالة التى يفترض فيها الإله غير معقول أو شريراً .

ولقد كانوا يهاجمون الحصن من جميع الجوانب ، فهذا يتشبث بأن يبرهن على زيف العهد القديم ، وذلك كان يقول إنه كان ينبغى أن يعزى إلى القديس پولس الدور الذى احتفظ به للمسيح . وآخر كان يثبت التشابه الدقيق الذى كان يعتقد أنه يراه بين الكنيسة الرومانية ، والوثنية . وآخر أيضاً كان يتهم داوود — وهو الرجل الذى كان كما يود القلب الإلهى — بأنه لم يكن سوى مجرم مهين » وبالإجمال كانوا كلهم يحلون العقل محل الوحى .

ومن الممكن أن تكون أكثر الرسائل دلالة فى هذا المعنى ، هى رسالة تاندال التى عنوانها : « المسيحية قديمة بقدم الخلق ، والإنجيل ليس سوى نشرة جديدة من قانون الطبيعة » (١٧٣٠) :

جعل تاندال يشرح فى هذه الرسالة أنه ليس فى الإمكان أن يكون غير ذلك لأن الإله الكامل قد منح العالم قانوناً كاملا وأنه لا يسمح لا بإضافة ولا بإنقاص ولا بتغيير — ومن ثم فإن القانون المسيحى — ومن الممكن أنه كان مفيداً فى وقت ظهوره لإعادة المعنى الذى كان قد ضعف فى الدين الطبيعى — لم يكن يستطيع إيجاد جوهر جديد ، ولم يكن يستطيع أن يكون سوى إعادة للقانون الأول الوحيد . وأن فكرة الوحى هى غير قابلة للإدراك ، وخطرة ومنبع الخرافات والإفراطات التى آن الأوان للرجوع

عنها بفضل التربية الفلسفية التى حلت محل التربية الدينية .

انطفأ هذا الحريق حوالى سنة ١٧٦٠ وكان قد بدأ يخبو منذ سنة ١٧٤٠ تقريباً . وفى هذا التاريخ كان الجو قد تغير فى إنجلترا فالرأى العام قد تحول ونمت فى النفوس قوى أخرى غير قوة العقل التى أهانت الدين .

بيد أن هذه الفكرة العنيفة قد استمرت فى تغذية الأجانب ، ففولتير قد استكشفها وانتفع بها فى سعة ، والبارون دى هولباك "d' Holbach" نشرها بوساطة تراجمه . ولكن تأثير المؤلفين الإنجليز كان أكثر بروزاً فى الفكر الألمانى الذى كان ينقب عندهم عن قوة دافعة بدلا من التنقيب عن نصوص وشهادات وعلائم على الجرأة وعدم الاحترام وكانت منتجات أولئك المؤلفين فى مكتبات المؤرخين والشراح وكان الأساتذة يقدمونها إلى الطلاب ليدرسوها ، وكانت توجد فى تقارير المجلات العالمة ، وكان الألمان الذين يرتحلون إلى لوندن يطالعونها فى مكانها . ومن ثم فإنه فى سنة ١٧٤١ حين قام جوان لورانز شميت — وهو الذى أراد أن يخضع التوراة للعقل — بترجمة كتاب تاندال الذى عنوانه : « المسيحية قديمة بقدم الخلق » يمكن أن يقال أن التيار الآتى من إنجلترا قد انضم إلى تيار الفكر الألمانى ، ولم يكن ذلك لكى يمتزج به ، بل ليعجل بنتائجه :

* * *

أما الفرنسيون فقد كانوا يسلكون نهجاً آخر إذ لم يورطوا أنفسهم فى دراسات تأويلية ، ولا يكاد المرء يرى بين الكتاب المعروفين مؤلفاً قد انحنى على النصوص المقدســة أو أتعب نفسه فى أن يتعلم اللغة العبرية أو حتى الإغريقية أو تعلم مهنة النقد بصورة جدية ، وإنما كان حسبهم أن يجمعوا ، فى مؤلفات مختلفة ، الحجج التى كان يبدو لهم أنها ناجعة وكانوا يستعملونها . حقاً إنهم كانوا يهدفون إلى بيئة غير بيئة العلماء وهى الطبقة العالية ، والمتوسطون ، والنساء ، والسواد الأعظم ، وكان الحكم الذى يلجأون

إليه غالباً هو الفطر السليمة وكانوا يتعمدون أن يصطدموا بالعقبات ، على طريقتهم الحية السريعة ، لكى يبينوا أنها غير قابلة للتذليل . ولم يكونوا يستعملون مبهمات ميتافيزيقية ، ولا بحوثاً طويلة قمينة بإيآس القراء ولا بسطا لسعة الاطلاع ، بل كان لديهم إنشاء معتنى به ، وأسلوب لطيف وصورة نشيطة .

كانوا – بفضل وضوحهم – يمنحون جميع الموضوعات مظاهر بساطة ساطعة . وكان المرء يلمح خلف ظواهرهم المازحة ، الشواغل الجدية الدائمة التى كانت تقيم فى أعماق أفكارهم ، فڤولتير مثلا كان قد عاد من إنجلترا وجعل يروى استكشافه ، وكان من الممكن ألا تكون قصته سوى وصف لرحلة بعد أوصاف كثيرة أخرى ، مع تعمق أشد ونكت أكثر . غير أن هذه الرسائل الإنجليزية لم تلبث أن صارت رسائل فلسفية تعالج حرية المذاهب ، وعدم الاكتراث بالأديان ، وبذلك الأمر التافه المتعلق بخلود النفس كما يقول المؤلف . كتب مونتيسكيو تاريخاً رومانياً بعد كثيرين آخرين ، وبمناسبة إحدى الحالات الخاصة ، استبدل الإرادة الإلهية بأسباب داخلية ، لكى يشرح عظمة الدول ، وتدهورها ، أو ألف كتاباً قانونياً ولكن الذى عرض له فى هذا السفر هو سلطة الحق الإلهى[1] .

ولقد كان الأمر كذلك بالنسبة إلى كثيرين من مؤلفى الطبقة الثانية ، فتوسان مثلا قد درس طباع عصره . ولكنه ، بدلا من أن يصور مجرد مظهر للمهزلة الإنسانية الخالدة كانت دراسته تنعطف نحو فصل الأخلاق عن الدين . وهيلڤيسيوس قد درس الإنسان ، ولكن بلا سر ولا غد .

كان الكتاب الفرنسيون أكثر عدداً منهم فى أى بلد آخر ،وكانوا رغم منازعاتهم ، يتكتلون ضد العدو المشترك .وكان بين طوائفهم كثيرون من

(١) يقصد المؤلف بالحق الإلهى (تلك العقيدة العتيقة التى كانت سائدة فى العصور الوسيطة وهى أن الملوك كانوا يتلقون سلطاتهم من الإله مباشرة) . (المترجم)

ذوى المواهب ، وبعض العباقرة . ولا جرم أن الأخ توماس والأخ جريترى والأخت نيكير والأخت دى ليسپيناس ، والأم چوفران "Mme Geoffrin" – كما كان جريم يدعوهم فى عظته الفلسفية التى ألقاها فى سنة ١٧٧٠ بمناسبة عيد رأس السنة – كانوا ، لأقل إشارة ، وعند الحاجة إليهم ، يهبون للمساعدة . وكان تقدمهم يلاحظ بوساطة أحداث رنانة كانوا فى كل مرة ينهزمون فيها عن طريق السلطة العامة وينتصرون أمام الرأى العام . وذلك مثل رسالة الأب دى پراد ، وحظر دائرة المعارف ، وإدانة الكتاب الذى عنوانه « الروح » ورقابة السوربون ضـــد رواية « بيليزير » تأليف مارمونتيل الذى كتب إلى ممثل كلية اللاهوت ما يلى : « اعترف يا سيدى أنه يحكم على حسب روح عصرى أكثر مما يحكم حسب روحى الخاصة » .

كان الناس يتتبعون كل تلك المجادلات بالفضول الذى لا يفتر والذى كانت أحداث فرنسا تثيره ، لأن الناس فى الواقع كانوا يشعرون بأن روح العصر – وهى الممثلة فى شعب ليس له هوى أكثر حرارة من هوى الفكر الواضحة – كانت هى المقصودة فى كل مرة .

وكان أولئك الكتاب يدعون لمعونتهم كل من كانوا فى المكان أو فى الزمان ، قد أظهروا أن الناس يستطيعون أن يحيوا حياة حسنة دون أن يعرفوا الدين الموحى أو الذين لم يتمردوا قط ضد أى دين كان ، وكانوا يستشهدون على ذلك بالصينيين والمصريين والمسلمين ، أما الإغريق فقد كانوا يتطلبون منهم فى الوقت ذاته صورة سقراط وصورة إبيقور ، ومن اللاتين كانوا يستعيرون لوكريس ذلك الحوارى ، وشيشيرون ذلك الحتمى ، والمبشر الذى عرف كيف يرى أن عبادة الإله هى عبادة العقل العام . وأخيراً سينيك الفيلسوف . وكانوا يبعثون چوليان الصابئ حين كانوا يرجمون خطبته ضد المسيحيين ، وكانوا يلعنون كونستانتان الذى كانوا

يدعونه بالأمبراطور الشرير الذى كان يسخر من الإله والناس » وكانوا يثنون على كبار العقليين الإيطاليين الذين ، والحق يقال ، لم يكونوا يعرفونهم معرفة جيدة . ولكن كان من المفيد ومن المجد أن يسردوا أسماءهم : كچيوردانو برونو وكاردان وكامپانيلا وپومبونازى وخلفهم ڤانينى Giordano Bruno, Cardan, Campanella, Pomponazzi, Vanini وكل أولئك كانوا من أحرار الفكر الذين تألموا من أجل قضية الحق . وكذلك كانوا يثنون على أحرار الفكر من أسلافهم، وعلى الإنجليز جيرانهم .

أما « الضديات » فقد كانت عندهم تستأنف بلهجة أخرى ، على النحو التـــالى :

ضد الوحى الأول ، وضد اليهود ذلك الجنس الحقير غير الجدير بالرسالة المقدسة ؛ وضد التوراة التى كانوا يعتقدون أنها من تلفيق إدريس وضد العهد القديم ، وضد المعجزات ، وضد شهودها ، وضد الأنبياء الذين لم ينطقوا قط إلا زيفاً [١] بل الذين لم يكن فى نيتهم أن يدعوا النبوة ؛ وضد « چيوڤا » [٢] الحقود القاسى الظالم الذى لم يكن ما فيه من خير إلا آتياً من الأجانب أى من شعوب شرقية أكثر تقدماً فى المدنية ، وضد الإنجيليين أولئك الصيادين المساكين الجهلاء ، وضد الإنجيل بل ضد شخص المسيح ، وضد الكنيسة ، وضد تعاليمها ، وضد الأسرار ، وضد فكرة الخطيئة العنصرية التى تدعى أنها دمغت جميع أبناء آدم ، وضد أنظمة الكنيسة ، وضد السر والتعميد والاعتراف والصلاة ، وضد الرهبان والراهبات ، وضد القسس ، وضد البابا ، وضـــد الأخلاق المسيحية ، وضد القديسين ، وضد الفضائل المسيحية ، وضد محبة الغير ، وضد

(١) يقصد أولئك المتمردون أنبياء بنى إسرائيل الذين وردوا فى العهد القديم . (المترجم)

(٢) چيوڤا هو إله العهد القديم الذى أحيط بأوصاف أدنته فى نظر أولئك المتمردين من البشر الذين يقسون ويحقدون . (المترجم)

المدنية المسيحية ، وضد العصور الوسيطة وهى عصور الجوتية المظلمة ، وضد الحروب الصليبية ذلك الجنون .

وكانوا يخترعون رسوماً كاريكاتورية ، وعظات ، وحكايات إباحية ، ونكتاً داعرة ، لأن طرفاً من الفجور كان يمتزج بمجادلاتهم فى سهولة . وكانوا يتخذون بغتة خطة آباء الكنيسة ليلوموا على المسيحيين أنهم لا يعيشون حسب قانونهم الخاص ، وبعد ذلك بلحظة كانوا يسخرون من هذا القانون .

وقصارى القول أنهم لم يكونوا يتركون شيئاً للمسيحية ، ولا أثراً آخر فى التاريخ سوى أثر سوئها ، ولا قيمة يمكن نقاشها فحسب ، بل حتى ولا مظهر فضيلة .

* * *

وفى ألمانيا تحققت نفس الغاية بوساطة تطور أكثر تأخراً ، ما دام أنه كان ينبغى الانتظار إلى أوائل سنة ١٧٨٠ لكى يظفر بنتائجه الجوهرية ، وأشد تعقداً أيضاً لأنه كان مزدوجاً ، أحد طرفيه يتصل بطبقة الأشراف ، ومصدر جزء كبير منه ، هو البلاد الأجنبية وآخر عميق وهو يتصل بنفس كيان الوجدان اللوثرى .

وفى الحق أنه إذا كان الأمر يتعلق بحالة وحيدة من نوعها ، فإنه يكون من المتوغل فى الغرابة تلك الدعوة التى وجهها ولى عهد پروسيا للمرة الأولى إلى ڤولتير فى رسالته التى بعث بها إليه فى شهر أغسطس من سنة ١٧٣٦ ليطلب إليه فيها أن يكون مرشده وأستاذه .

غير أنه فى الواقع — فى وسط التخمر العام ، وفى وسط الاحتياج إلى التجديد الذى كانت ألمانيا تشعر به — كانت برلين قد اتجهت فعلاً نحو البلد الذى كان يمثل المدنية بكل ما كان فيها إذ ذاك من أشد الأشياء عصرية ، أي نحو فرنسا ، وليست برلين فحسب بل كل الدولة ، لأن الأمراء والنبلاء — على نفس النحو الذى كان آباؤهم ينظرون به فى إعجاب إلى ڤيرساى — كانوا

ينظرون إذ ذاك إلى باريس بنفس الإعجاب : ولنذكر مثلا ذلك التغيير الذى حدث فى حياة ڤيلاند الشاب ، فإنه كان بديا يتجه إلى العاطفة ، وكان يتبع مدرسة سويسرا التى كانت توصيه بحب الطبيعة وبشعر القلب ، ثم لم يلبث أن تغير فأدار ظهره لأصدقائه القدماء ، واتجه نحو الأنوار ، وذلك لأنه كان يختلف إلى قصر ڤارتوسان الذى كان سيده الكونت أستاديون قد علمه اللهجة الشائقة إذ ذاك ، وقال له إن من المهم أن يفكر المرء وأن يكتب كما يفعل الناس فى فرنسا ، إذا كان يريد أن يكون على ذوق العصر. وتحت هذا التأثير وجد ڤيلاند الحقيقى نفسه أى ڤيلاند الڤولتيرى .

وفى بعض الأحايين ، عندما يقرأ الإنسان سفر أحد كُتَّاب حركة الأنوار ، يخيل إليه أنه يسمع صدى ، لأن الموضوعات التى يرددها المؤلف الألمانى قد عولجت بالفعل فى لوندن وباريس ، فنحن نشاهد مثلا أن فى الكتاب الذى نشره فى سنة ١٧٥٠ ، ميكائيل ڤون لون — وهو ابن تاجر ثرى ، وأحد أفراد المجتمع العالى — والذى فى سنة ١٧٥١ ، لحذره من المترجمين ، قد عنى بأن ينقله هو نفسه إلى الفرنسية .

فى هذا الكتاب الذى عنوانه « الدين الحقيقى ، الوحيد فى نوعه ، العالمى فى مبادئه الذى أفسدته منازعات رجال اللاهوت وانقسم إلى عدة مذاهب اجتمعت فى المسيح » أعلن على القراء ما يلى : « لا ينبغى أن يدهش المرء من أن يرى أنى أدرس المسألة الدينية دون أن أنتسب إلى الكنيسة ، لأن الموضوع يعنى كل مسيحى ، ويهم الصالح العام والسعادة البشرية . وإذا نظرت فى تاريخ الشعوب القديمة فإننى أجد فى كل مكان تصورات بسيطة وعامة ، بإزاء الفضيلة كما بإزاء ذلك الذى يدعى بالإله . أجل إن الإله يبدو فى الطبيعة وبوساطة الوحى ، وإن حقيقة واحدة هى نفسها التى تربط بين أحدهما والآخر ، وإنه لا يمكن أن يوجد بينهما تناقض أو اختلاف ، لأن الوحى لو كان يناقض قانون الطبيعة أو يختلف معها لكان خارجاً عن

الحقيقة . وكذلك الفضيلة هي من نوع فريد تتلخص في أمر لم يتغير قط وهو : « أحببْ المولى إلهك من كل قلبك ، ومن كل نفسك وبكل قوتك ، وبكل فكرك ، وأحببْ غيرك كما تحب نفسك » لا جرم أنه لا يوجد شيء جوهري جديد في هذه الطريقة من طرق التعقل ، وأن بضعة مؤهلين على شواطئ التاميز والسين كان من الممكن أن يوقعوا على هذا السفر .

ولكن الذي لم نره ، والذي لا نستطيع أن نراه هو ذلك العمل الصبور الذي قام به العلماء الذين اختبروا نص الكتاب المقدس ، والذين لا يزالون يبتعدون شيئاً فشيئاً عن الإدراك الأورتودوكسي للوحي . وكم من أبناء الرعاة الدينيين — بعد أن تابعوا دروس المدرسة الثانوية المجاورة لبلدهم ، وبعد أن انتسبوا إلى الجامعة — قد صاروا دكاترة وأساتذة وطلبوا إلى علم تفسير الكتاب المقدس أن يؤيد أو يهدم عقيدتهم .

كانوا يعرفون اللغة العبرية ، وكانوا يعرفون إلى جانب ذلك بضع لغات شرقية أخرى ، وكانوا يكتبون بحوثاً ورسائل ومجلدات ضخمة للمختصين إخوتهم . ولم يكونوا يقذفون الدين بالإزدراء الملقى على عواهنه ، بل كان لديهم ، على الضد من ذلك احترام ثابت وأسف بل آمل في أن العقل — أمام كثرة المنشقين وكثرة الفاسقين — سيقدم مبدأ للحكم الذي يقود إلى الوحدة المفقودة .

ذلك هو ما يدعى «أوفد كلارانج» أو حركة الأنوار في الجامعات الألمانية . وكانت أكثر علما وأدنى إلى الاعتدال من التمرد الإنجليزي الذي كانوا يقبلون منه بعض المبادئ ، ولكنهم كانوا يستهجنون منه الاستشاطات . ولقد كانت هذه الحركة أقل إيغالا في عدم الاحترام من حركة الفرنسيين التي كان الألمان يقبلون معونتها ولكن روحهم ومزاجهم يبدوان أنهما ناشئان عن سوء الذوق ، «فسيجموند جاكوب بومجارتان» مثلا قد صار في سنة ١٧٣٠ أستاذا مساعدا ، ثم في سنة ١٧٤٣ أستاذاً عادياً للإلهيات في

جامعة هال ، وكان الطلاب يستمعون إليه ولم يكن ذلك لسحر تعليمه — لأن لهجته لا تتغير ، وصوته ضعيف ومحاضراته متعبة فى اتباعها — بل لكرامته الشخصية ، ولسعة اطلاعه العجيب . وكان كفولف ينطق فى ثمل كلمة العقل الذى يجب أن يقدم إليه مفتاح المسيحية النقية . ومن ثم فإنه يعلن أنه يتجه إلى عقلاء القراء وإلى المسيحيين ، وكان يزاول مهمة التعليم ثم كتب تاريخاً للكنيسة كان فى نظره يجب أن يكون قصة معتمدة على النصوص ولكن معتمده هو النص كما هو ، وليس كما يفترض أنه يجب أن يكون ، ذلك هو قانونه ، وقد جعل يبدى بإزاء الهراطقة اهتماماً دائماً دون أن يصل مع ذلك إلى حد التفضيل الذى كان أرنولد يظهره نحوهم ، وقد كتب هو أيضا تاريخا للهراطقة عنوانه : « هيكل لتاريخ الأحزاب الدينية أو جمعيات الخدمة الإلهية ، واختلافاتهم وانقساماتهم فى خارج المسيحية وداخلها »[1] . ولقد درس منتجات الهراطقة فى مجلتين نشرهما Nachrichten voneiner Hallischen Bibliothek (1748 — 1751), Nachrichten von merkwurdigen Bucher (1752—1758) وكانت تلك المنتجات عشرين مجلدا ، فما هى تلك الكتب التى نبش عليها فاستخرجها إذا لم يكن أكثرها كتب زندقة ؟ حقا إنه ينقضها ، وحقا إنه يعين المؤلفين الأخيار الذين ينبغى إبداء تعارضهم مع أعداء الدين ولكنه يبقى مع ذلك أن المؤلف كان يحيى فى الرفقة العقلية ، مع أولئك الذين كانوا يريدون تدمير الدين .

لنتخيل أننا دخلنا القاعة التى يعلم فيها زميله كريستيان بينيديكت ميكائيليس، حيث كان هذا الأخير يشرح سيرة النبى ارميا "Jérémie"[2] ، فيقول إن أول شىء يجب عمله لفهمه جيدا هو وضعه فى عصره ، لأن

(1) S. J. Baumgarten, abris einer Geschichte der Religions Fartheyen, oder Gottesdienstlichen gesellschaften und der selben Streitigkeiten so wohl als spaltungen, ausser und in der Christenheit (1775).

(2) Ch. B. Michaelis S. Théologiae ac Ph. Prof. Halensis prolègomena in Jéremiam, Halae Magdeburgicae, 4e éd., 1738.

الظروف الزمانية هي النور الذي يوضح النبوة . وبين هذه الفكرة وفكرة اعتبار النبوة كأنها واقعة تاريخية بسيطة تنشأ بلا تدخل للعناية الإلهية لايوجد بون شاسع . أو كان يشرح العهد الجديد كما لو كان الأمر يتعلق بهيرودوت أو بوليب[1] .

نعم إن العهد الجديد يقدم إلينا عدة روايات وذلك جد طبيعي إذا فكر المرء أن مؤلفيه كانوا ملهمين بلا ريب ؛ ولكن أولئك الذين نسخوا نصوصهم لم يكونوا كذلك ؛ وعن هذا نجم كثير من الأخطاء المرادة أو غير المرادة ، والتي يمكن أن تصل إلى حد الخداع . ولكي يختار المرء بين هذه الروايات ينبغي له منهج . وعند ميكائيليس أن روايات آباء الكنيسة أقل قيمة من روايات المترجمين ؛ وأن روايات المترجمين أقل قيمة من روايات النصوص لأن نفس قوانين العلم التي هي مشروعة بإزاء المؤلفين العاديين ، هي مشروعة أيضاً بالنسبة إلى المؤلفين المقدسين :

ذلك ما يقوله أيضاً چوان أوجست إيرنيستي Johan-August Ernesti فقيه ليبزيج اللغوى ؛ أو العالم اللاتيني الشهير الملقب بشيشرون الجرماني إذ يعلن أن كل نص له معنى واحد لاعدة معان أي لا يوجد معنى مجازى وإنما يوجد معنى محدد يتعلق بالاستعمال لأن الصلة بالاختصار بين الألفاظ والمعنى هي تأسيس إنساني ؛ وهي خاضعة للاستعمالات البشرية لا لشيء آخر ؛ وإذن فالمسألة مسألة قواعد نحوية ، والكتب الإنسانية ؛ والكتب المقدسة ؛ يجب أن تعامل بطريقة واحدة . ومن ثم فإن الكتب المقدسة لا يمكن أن تفهم من الحيثية الدينية ؛ إذا لم تكن قد فهمت من الحيثية النحوية : nullus alius sensus est nisi grammaticus, eumque grammatici tradunt. وبالتالي يجب أن يكون النقد لغوياً أو لايكون ألبتة[2] .

---

(1) D. Ch. B. Michaelis... tractatico critica De Variis lectionibus novi testamenti caute colligendis et dijudicantis, Halae Magd., 1749.

(2) To. Augusti Ernesti Institutio interpretis novi Testamenti ad usus lectionum, 1761.

حقاً إنها لعجيبة عقلية أولئك العلماء ، لأنهم كانوا يعدون أشد أنواع الجرأة دون أن يعترفوا بذلك حتى لأنفسهم ، وإنما أخلافهم هم الذين رأوا فى وضوح ، نتائج أعمالهم لأنهم هم أنفسهم كانوا لا يزالون يرتبطون بالتقاليد ، فنى الواقع أن شغف بوجمارتان بالاطلاع ، وعمله التاريخى والعلمى لم ينتهيا به إلى القطيعة مع الدين الموحى ، إذ أنه محافظ بالعادة وبالمزاج ، وبالإرادة ، وهو مجدد فقط بالطرف النهائى من عقله ، وأن ايرنيسيتى — ولو أنه ينصح كما رأينا آنفا باستعمال أضيق المناهج اللغوية — يعتبر ، ولكن لا بلا تناقض ، أن ذلك المنهج يجب ألا ينسى صاحبه ، الوحى الإلهى ، ولا العصمة من الزلل التى هى نتيجة ذلك الوحي . ولقد وصف لنا رجل الدين الكامل بأنه هو الرجل الذى يستطيع أن يقوم بدورين فى الوقت ذاته أحدهما يشترك فيه مع النحويين ، والآخر خاص به ولا يعزى إلا إليه . ولا جرم أن هذه الجملة تترجم عن إرادة تحتفظ بالاعتدال الذى كان مؤلفون آخرون يعتبرون أن من المستحيل الاحتفاظ به ، لأن النقد قد انحل عقاله ، فجوان داوود ميكائيليس ، كان ابن كرستيان بينيديكت ، وكان أستاذا فى مدينة جوتانجان ، كما كان والده أستاذا فى هال ، ولكنه كان أستاذا للفلسفة لا للاهوت ، لأن أستاذ اللاهوت لم يكن له بد من أن يخضع لاعتراف أوسبور[1] "La Confession d' Augsbourg" وذلك هو ما لم يكن يريد أن يفعله .

كان مخلصا إلى حد الوسوسة ، ومستقلا إلى درجة أنه أراد إعادة تشييد جميع المناهج العلمية بنفسه ، وكان نحويا ولغويا ومؤرخا وشارحا للكتب المقدسة وقد منح الدراسات الشرقية ثوبا جديداً ، وقد أثبت بطريقة قاطعة ، ما كانت مدرسته تطالب به للعلم . وفى سنة ١٧٥٠ ،

---

(١) اعتراف أسبور هو عرض مشهور كتبه ميلنكتون تلميذ لوثير وهو يحتوى على قواعد عقيدة اللوثيريين مصوغة فى ٢٨ مادة وقد قدمت وقبلت بصورة رسمية فى سنة ١٥٣٠ . (المترجم)

طبع مقدمة عن قراءة كتب « العهد الجديد »[1] ، ثم تناولها فنقحها وأضاف إليها ، واتجه بها إلى طبعة رابعة فى سنتى ١٧٨٧ و ١٧٨٨ . وهو يقول إن مسألة وحى كتب العهد الجديد هى أقل أهمية من حقيتها . وأنه — حتى إذا كانت الألوهية لم توح كتابا واحدا من هذه الكتب وحتى لولم يكن للحواريين وللإنجيليين عون آخر سوى كتابة ما كانوا يعرفون — عندما تقبل كتبهم على أنها حقيقية ، وعلى أن لديها درجات كافية من مقتضيات التصديق ، يكون الدين المسيحى لا يزال هو الحق ، لأن المرء يستطيع أن يرتاب فى وحى « العهد الجديد » ، بل يستطيع أن يجحده وأن يكون مقتنعاً بحقيقته ، إذ فى الواقع أن هذا الحدث التاريخى يظل قائما ، وأن عدة أشخاص قد صرحوا علناً بهذا الرأى ، أو أنه كان لديهم بنوع خاص ، وأن من الظلم وضع أولئك الأشخاص فى صف الذين لا يصدقون شيئاً وإذن فيجب ألا يحسب فى عداد الكتب المقدسة سوى الكتب التى يمكن إثبات أنها كتبت حقاً بوساطة الحواريين ، وعلى أثر وضع هذا المبدأ هو يميز بين فريقين ، فأما كتب الفريق الأول منهما ، فهى تحمل أسماء الحواريين وهم متى ويوحنا وبولس وجاك وجود ، وأما الكتب الأخرى فلم يكتبها الحواريون بل كتبها أعوانهم وأصحابهم وهى إنجيل القديس مرقص والقديس لوقا وأفعال الحواريين . ولم يكن ميكائيليس ، ينبذ كتب الفريق الثانى عندما شرع فى دراستها ، ولكنه بقدر ما كان يتعمق فى الموضوع ، وكان يشبهها بكتب الفريق الأول ، كانت شكوكه تتزايد فى قوة ، وفى الطبعة الثالثة من كتابه ، كان لا يزال يقدم حججا لهذا الرأى أو عليه ؛ لأنه لم يكن موقناً بالنتيجة التى كان يجب أن ينتهى إليها . وفى

---

(1) J. O. Michaelis, Einleitung in die Gottlichen Schriften ues nuen Bundes.

الطبعة الرابعة مال إلى الجحود ، لأنه إذا لم تكن هذه الكتب حقيقية فينبغى نبذها . ولا تستطيع إذ ذاك سلطة الكنيسة ، ولا الشعور الباطنى للوجدان ، ولا بعض خصائص النفعية الخلقية ، أن تتخذ عونا ضد هذا النبذ ، ما دام أن المسألة مجرد مسألة أسس واشتقاق ، وتاريخ . وإذن فقد أقصى ج . د . ميكائيليس إنجيلى القديس لوقا والقديس مرقص ، وعندما فعل ذلك شعر أنه قد أفاد المسيحية ، لأن تفكيره كان على النحو التالى : إن الاعتراضات الجوهرية التى يثيرها خصوم الدين ضد الإنجيل ؛ تتجه إلى القديس لوقا ، فاهجروا القديس لوقا . وكذلك القديس مرقص فهو معرض لنفس الشكوك ، فإذا فعلتم فإنكم ستنتزعون سلاح أولئك الخصوم ، بانتزاعكم منهم إمكان إبداء التناقضات التى لا يمكن فى الواقع محوها نهائيا .

وختاما إليك هذه الحالة الأخيرة التى أصيب فيها جوهر المسيحية نفسه ، وغُيِّر بوساطة أحد رجال الدين وهوچوان سالومو سيلمير الذى كان يحسب أنه عزى إليه ما هو منه براء ، وسُب عندما كان يقال له إنه لم يعد مسيحيا حقاً .

كان چوان سالومو سيملير هو التلميذ ذو الحظوة لبومجارتان الذى طالما أبدى نحوه إعجاباً واعترافاً بالجميل . ولقد سلك نفس الطريق الذى سلكه أستاذه ، ما دام أنه قد صار فى سنة ١٧٥٢ أستاذاً للإلهيات فى جامعة هال ، وأنه كان جريئاً وساطعاً ، وأن صوته كان يجلجل قوياً فى المناقشات العظمى فى عصره . وعنده أن الدين هو خلقية ، وأن تاريخه هو تاريخ التحسن الخلقى للإنسان . وأن الدين هو حياة باطنية تتفاوت شدتها حسب صفة الفرد . إنه نبع متفجر ، وقوة تلقائية ، وقوة حرة ، فإذا تدخلت فيه من الخارج ، لتنظمه ، فإنك تفسد طبيعته ، وتحد انتشار قوته . وإن السلطة هى عدوته الكبرى ، ومع ذلك فماذا يصنع البوجماطيقيون ؟ وكيف يفعل رجال الدين ؟ : لا جرم أنهم يعملون فى اتجاه مضاد لأن أولئك

القوم ذوى النظر القصير ، قد فصلوا من الزمن ، هنيهة عابرة ، أو واقعة انتقالية . ومن ثم فإنهم — فى مدنية مقضى عليها بالفناء أى فى الدين اليهودى وفى الدين المسيحى — قد أرادوا أن يروا الدين الوحيد ، وقد طبعوا قيمه النسبية بطابع مطلق . وتلك كانت كبوتهم ، لأنهم ، من تعبير معين عن العاطفة الدينية ، قد صنعوا الدين الثابت ، ومن صورة محلية ، قد انتزعوا قانوناً بلا استئناف أعلنوا أن هو الشرعى الوحيد لجميع الأزمان وجميع الأصقاع . وبالإجمال ، مما كان يجب أن يتغير ، قد صنعوا ما لا ينبغى أن يتغير ألبتة ، كما لو كانوا قد فرضوا على جميع الأجسام إلى الأبد ملابس جعلتها بدعة اليوم صالحة للاستعمال ، وستذهب بها بدعة الغد ، كذلك فرضوا على جميع النفوس هـذا الارتداء الذى لا يلبث أن يصير نوعاً من التنكر ، وكانت تلك عملية مشئومة فيما يقول سيملير لأنهم قد أخذوا بها جوهر العقيدة تحت كومة من القواعد والطقوس . ولقد حولوا إرادة الخير التى هى القوة العميقة للعقيدة ، إلى أفعال عملية خارجية ، وإلى طقوس فات أوانها . ولقد وصل أعلام الكنيسة أولئك بهذا ، إلى حد أن خلعوا على لاهوت محلى أو على مظهر فرصى أو على نظام اجتماعى مدين بوجوده إلى ظرف معين ، منزلة الإيمان المطلق وميزة جعلها الشرط الوحيد للنجاة .

لم يكن سيملير يحسب نفسه زنديقاً ، وكان يعتقد أن المسيحيين الأردياء هم لاهوتيو المدرسة القديمة أو الأورتودوكسيون الذين كانوا يسمحون لأنفسهم بأن يقصوا من جماعتهم هذا الهرطيق أو ذاك ، كما لو أن الهرطقة هى نفسها لم تكن رداءاً عابراً للعقيدة ، أو مظهراً حائلا من مظاهر الإيمان الأبدى . وعنده أن أعداء المسيحية هم الذين جحدوا كل فكرة عن الوحى الذى كان واقعة ، أبرز سيملير معناها الحقيقى ، وهو اتصال بين الله والإنسان مجدد بلا انقطاع . وكان يظهر ، باسم النقد ، كيف يريد أن يفهم هذا الاتصال منذ الآن ، وكان يجتهد فى دراسة العهد الجديد ، وكان يجزم بأنه لا يوجد سبب عميق لكى يحتفظ المرء ببعض النصوص أو أن ينبذ البعض

الآخر ، ولا يوجد سبب للتمييز بين تلك النصوص ما دام أنها جميعها تمثل إلى حد ما ، صورة محلية وموقتة ، من صور العقيدة ، قابلة للشرح من الحيثية التاريخية .

وكذلك كان يجتهد فى دراسة العهد القديم حسب أضيق المناهج التى كان يعتقد أنه يطبقها بلا أى تحيز ، وقد حكم بأن الأمر فى هذا الكتاب يتعلق بإنتاج قومى يهودى ، ولا شىء أكثر من ذلك ، وبأن التوراة لم تكتب لتوحى ديناً ، ما دام أنها قد اشتملت على توكيدات متعارضة مع حقائق الوحى الأزلى ، الذى كان يرجع إليه دائماً . ولم يكن إله اليهود ، فى رأيه هو إله الطبيعة ، ولم تكن الفضـــيلة اليهودية هى الخلقية التى تنبثق من نواميس الطبيعة ، إذ أن اليهود لم يكونوا يؤمنون بخلود النفس ، وأن هذه الفكرة لم تأت إليهم إلا متأخرة وبعد تأثيرات أجنبية أى بعـــد أسْرِ بابل وفارس . وإذن فمن الاتجاهات المضادة للواقع ، أن يراد تقديم التوراة على أنها هى الحقيقة والحياة ما دام أنها صورة أو انعكاس له من القيمة ، ما للكثير من الانعكاسات الأخر التى يمكن أن يلتقى بها المرء أثناء صعوده خلال تيارات العصور ، كما هى الحالة عند الوثنيين مثلا ، لأن أولئك الوثنيين قد مثلوا هم أيضاً آناً من آوان الوحى الأزلى ، ولقد كان عندهم دين حقيقى فى كل مرة كانت فيها لديهم خلقية حقيقية .

الفصل السادس

الدفاع

في كل مكان كانت فيه المسيحية مرتبطة بالدولة ، كانت الدولة تهب لمناصرتها ، ففي إسبانيا كان نشر الكتب المتزندقة بل إذاعتها عسيرة بصورة خاصة ، لأن محاكم التفتيش — إلى جانب السلطة الملكية بل فوقها — كانت ساهرة . وكذلك كانت الحالة في البورتوغال ، ففي ١٨ أكتوبر من سنة ١٧٣٨ مثلا قد خنق جوزيه داسيلفا ثم أحرق بمدينة ليسبوا في « عمل عقيدي »[1] "auto da fé"

وفي سنة ١٧٧٨ اتهم أيضاً فرانشيسكو مانويل دونا شيميانتو بأنه لا يؤمن بالطوفان ، وبأنه كان يجلب السخرية إلى مسألة الخطيئة العنصرية ، فسجن ، ولم ينج من قضيته إلا بفراره .

وفي فرنسا — وقد كان كل هجوم فيها ضد الحق الإلهي يعتبر جريمة عيب في الذات الملكية — كانت الرقابة ، وامتياز أصحاب المكتبات والإدانات الصادرة عن الأساقفة ، وتدخلات البرلمان ، والجزاءات الملكية ، كان كل ذلك يحاول وضع حد لأمواج الإلحاد الجارفة .

أما إيطاليا المفككة فقد كانت الأحوال فيها مختلفة ، إذ أن ولاية توسكانا ، كانت رحيمة ، وكانت تترك دائرة المعارف يعاد طبعها فيها ، وأن دوقية پارما المتفرنسة لم تكن تبدى من القسوة إلا قليلا . وفي البندقية ، وهي المدينة التجارية ، كان الناس يغمضون عيونهم في سهولة عن طبيعة التجارة . بينما أن روما كانت قاسية ، وأن ولاية پيمون كانت تتخذ إجراءات متعبة أو عنيفة .

---

(١) العمل العقيدى هو اسم كان يطلق على الاجتماع الرسمى الذى كان يعقد من حين إلى آخر لإحراق الذين كانت محاكم التفتيش تقضى عليهم بالإعدام لاتهامهم بالزندقة . (المترجم)

وأما فى النمسا فإن الامبراطورة مارى — تيريز كانت سيئة الظن بصورة خاصة . ومن ثم فإن الرقابة فى ڤيينا قد أمرت بحظر قائمة الكتب المقضى عليها لأن الامبراطورة كانت تعتقد أن مجرد قراءة عناوينها كان يمكن أن يوجد الرغبة فى مطالعة تلك المؤلفات التى ينبغى أن يظل وجودها نفسه مجهولا . وكانت القسوة تزيد بمقدار ما كانت الدعاية الفلسفية تسير أكثر نشاطا . وكان الحظر والمنع يزدادان خطورة فى البلاد التى كان الناس فيها يغمضون عيونهم فى أول القرن .

وعند البروتيستانتيين كان من المقبول أن الفكر له الحق فى أن يعبر عن نفسه فى حرية . ولكن ذلك لم يكن يمنع من أن يقصى ڤولف فى ألمانيا عن كرسيه بجامعة هال ، وأن يبعد من الولايات البروسية ، كما لم يمنع ذلك من أن يسجن چوان لورانز شميت ، وأن يطرد كارل فريدريك بارت من وظائفه . نعم إن برلين كانت من حيث المبدأ ، أكثر المدن تسامحا ، وكانت تتلقى جميع المبعدين الذين كانت بلادهم تتعقبهم بسبب اللادينية . ولكن عندما كان الأمر يتعلق بالسياسة ، كان له شأن آخر إذا صدقنا ليسينج ، وهو شاهد غير متهم إذ يتجه إلى القارئ بهذه العبارة : « قل فى برلين ، فيما يتعلق بالعقيدة ، جميع الحماقات التى تريدها ، فإنك ستترك فى سلام ، ولكنك إذا هممت أن تمس السياسة فإنك سترى أن هذه الحرية المزعومة هى عبودية » . وليس هذا فحسب بل حتى فى انجلترا كانت السلطة تعاقب أحيانا وإلى سنة ١٧٧٩ كان الكاتوليك لا يزالون مُبْعَدين عن قانون التسامح .

إننا نشير إلى هـــذه الحالة لمجرد التذكرة إذ أننا نقر أنه لو لم يكن للمسيحية من حماية سوى تدخل الحكومات لسوغ ذلك جزءاً من التهم التى وجهت إليها .

* * *

ما دام أن الفلسفة قد صارت إحدى مسائل الرأى العام لا سيما فى فرنسا ، فإن خصوم الفلسفة ، خصوصاً فى فرنسا ، قد قبلوا الكفاح فى نفس الميدان ، أو على الأقل جعلوا يحاولون ذلك . وكانوا ينجحون أحياناً ، فقد عثروا مثلا على اسم لكى يسخروا من خصومهم وهو « كاكواك »[١] وقد وضعوا إذ ذاك كتاباً عنوانه « تاريخ الكاكواك » بدأ يجوس باريس فى سنة ١٧٥٧ .

روى هذا الكتاب أنه قد اكتشفت — حديثاً فى جنوب خط الاستواء — قبيلة الكاكواك التى كان الناس يجهلونها أكثر من جهلهم بقبيلة كربيان . وكان لدى هؤلاء الكاكواك كسلاح ، سم يخفونه تحت ألسنتهم ، وفى كل كلمة كانوا ينطقونها ، حتى بأعذب اللهجات ، كان ذلك السم يسيل وينتشر بعيداً ، ولم يكن هؤلاء القوم ، يعترفون بأية سلطة ، وكانوا يدعون إلى النسبية فى كل شىء ، ويرددون بلا انقطاع ، كلمة الحقيقة . وكان أولئك المتكبرون يعتقدون أن الكون أمام أقدامهم . ولما كانوا يحتقرون الحكمة الإلهية ، فقد ألهوا الطبيعة ، وعن طريق عباراتهم الماهرة الزائفة ، كانوا يتقدمون فى زحفهم شيئاً فشيئاً . ولكن شعباً مكوناً من رجال شجعان ولو أنهم قليلو العدد قد أعلنوا عليهم الحرب ولم تلبث المعركة أن اشتبكت ، فجعل الكاكواك يتقدمون فى جلبة ضخمة . وقد كان من الممكن أن تكون لهم الغلبة لو لم يكن لدى الآخرين أداة مخيفة وهى أداة الصفير[٢] ، فلم يكادوا يصفرون حتى جعل الكاكواك المنهزمون يفرون فى فوضى .

ولا جرم أن بعض هذه الملاحظات كانت مضبوطة ، فمثلا : « إن

---

(١) هو تذكير بنعيق الغراب وهو من أسماء الأصوات التى ترمز إلى فقدان الانسجام ، ويضرب به المثل لمغنى أو الموسيقى الذى ينحرف عن الاتساق فى الأنغام . (المترجم)

(٢) عادة الصفير هى فى فرنسا إحدى وسائل السخرية والاستهجان ، والتقريع . ومن ثم فإن الممثل الذى يقابل بصفير الجمهور يعتبر رديئا . (المترجم)

أصل الكاكواك ، إذا صدقنا قولهم يصعد إلى التيتان الذين يريدون أن يتسلقوا السماوات » أو « إن الكاكواك يدرسون الطبيعة فى كل شىء ، ولا يبنون معابد ، لأن ذلك لو حدث لكان عليه مظهر العبادة ، ولأن التيتان قد تركوا لهم من الأمثلة ، أنه ينبغى أن يعرفوا ، لا أن يعبدوا » وأيضاً إن فى العنوان المتخيل لأحد كتبهم وهو : « برنامج الدين العـام ، لمن يستطيعون الاستغناء عنه والذى فيه يمكن إقرار إله ، بشرط ألا يتدخل فى أى شىء » .

وإذا أضفت ، إلى ذلك الكتاب ، المضحكات ، والمحاكاة الساخرة ، والنصوص المختارة للتعاظم كقول ديديرو : « أيها الشاب هاك فاقرأ » ، فإنك ستظفر بمثل من نوع چاكوب نيكولا مورو فى مؤلفه الذى عنوانه « رأى نافع » وفى مذكرة جديدة لخدمة تاريخ الكاكواك » .

ظفر هذا المؤلف بنجاح ، وحوكى ، وحل عقال غضب الفلاسفة الذين كانوا يريدون أن يستعملوا المضحكات ، ولكنهم لم يكونوا يتسامحون فى أن تستعمل ضدهم .

لم يلبث الفلاسفة بعد ذلك أن وضعوا على المسرح . وكل الناس يعرفون تلك المهزلة التى عنوانها « الفلاسفة » والتى ظهرت فى سنة ١٧٦٠ والتى رسم فيها مؤلفها پاليسو ، ساخراً : جريم وهيلڤيسيوس ، وديديرو والآنسة كليرون ، وعلى الأخص چان چاك روسو الذى ظهر على المسرح يمشى على أربع ، ويستخرج من جيبه خَصّة[1] .

غير أن الناس كانوا يعرفون أقل من هذا ، مجموعة من الإنتاج خصصت

---

(١) من المعروف أن چان چاك روسو ، يرى أن الطبيعة قد وصلت فى صنعها إلى أسمى أوج الجمال والانسجام ، وأن يد الإنسان هى التى أحالت الجمال دمامة (والانسجام تنافرا حتى قال عنه ڤولتير : إن من يقرأ روسو ، يشتهى أن يمشى على أربع وأن يقضم الأعشاب ، وهذه الصورة هى التى وسمها مؤلف تلك المهزلة الساخرة . (المترجم)

للمقاومة ، وللمهاجمة فمثلا قد هاجم أبرهام شوميكس ، دائرة المعارف » فكان ذلك كأنه الحرب الصليبية بالنسبة إلى حياته . ولقد كان ذلك المؤلف مفعما بالنكات الوفيرة اللاذعة ، وكان يعرف كيف يتبين النقط الضعيفة ، وكان يعين الروح التى كانت تحرك تلك المجموعة على النحو التالى « إننى لم أتعب نفسى بأن أستعلم عما إذا كان السيد ديديرو قد وضع رسماً دقيقاً لمهنة صنع الجوارب أو للطرائق المختلفة لقص القميص ولكننى وقفت عند التساؤل عن أى الفكر تعطينى دائرة المعارف إياها عن الإنسان ، وعن طبيعته ونهايته وسعادته » . أو كان يمزق كتاب « عن الروح » لهيلفيسيوس تحليلا ونقداً ولم يكن يلقى فى ذلك عناءاً كبيراً .

هناك مؤلف آخر وهو لانجيه ، قد صوب ضربات قاسية إذ كان يتساءل قائلا: « الفلسفة ؟ حقاً إن اسمها معناه حب الحكمة ، وإنها تستولى عليها فى عزة ، ولكن على نفس النحو الذى توضع به مواضع الشعار ، رموز ليس بينها وبين أعمال من يحملونها أية صلة ، ففى أغلب الأحايين نشاهد أن جبانا يرسم أسدا فى موضع شعاره » . وكذلك « إن التعصب الدينى يريق الدماء على الأرض ، ولكن التعصب الفلسفى ؛ ينتزع من الأنامى قوتهم وفضيلتهم » . وأخيراً : « إن الفيلسوف المتعقل الذى يناقش ، ويزن حقوق السلطات ، والذى يتناول بالبحث ، الفضائل والرذائل هو أجبن من أن يعرف كيف يطيع ، وإن قلبه الذى أذبلته أنواره المدعاة لا يلحقه سوى الخوف . ولما كان قد اعتاد تشريح كلمات الوطن والشرف والواجب فلم يعد يؤمن بها ، ولم يعد يعرف قوتها ، ولا عذوبتها »

كان أشد أولئك الكتاب نضالا فريرون "Fréron" وكان من بريطانيا الفرنسية وكان ذا رأس صلب وكان ينهض فى كل مرة من انهزاماته . ولقد أودع غياهب السجون فى الباستيل وفى ڤانسين وفور — ليفيك لأنه

كان يوزع ضربات أدبية ذات اليمين وذات الشمال ، وكان فى هذا ، يفضل ، الأقوياء . وعندما تحرر من سجنه ، ودون أن يستريح تقريبا استأنف الكتابة ، ولم يكد كتاباه اللذان عنواناهما « رسائل الكونتات » و « رسائل عن بعض منتجات هذا الزمان » يظهران حتى وقفا . ولكن ذلك لم يكن يعنيه إلا قليلا ، ثم شرع يحرر مجلة « السنة الأدبية » وظل يحتمل عبأها طوعا أو كرها حتى توفى . غير أنه لم يكن فى هذا دعيا لأنه كان ذا أسلوب قيم ، وكان شديد التأثر بالمواهب الأدبية ، وكان ذا ذوق ومحبا للتجديد ، وكان يرى آلام المجتمع ويطالب بالإصلاح وأخيراً كان صديقاً للذات الحياة ، كريماً بل مسرفاً ، وكانت شخصيته تتجاوز الأمور العـــادية ، ولكنه عند ما يرى فيلسوفاً كان يستشيط غضباً . ولم تخل صفحات مؤلفاته من اسم أى واحد منهم ، بل إن ڤولتير نفسه لم يكن يخيفه ، وكان يقول : « إننى سأعود إلى الظهور فى الميدان بحماس المقاتل الذى لاتزيده بضعة جروح أثخنه بها الجبناء غدراً ، إلا إذكاءاً لشجاعته بدلا من القضاء عليه » .

حقاً إنه كان يعرف ما ينتظره . وهو الكلمات الوحشية ، واللذعات العنيدة ، والدسائس الخبيثة . ولكنه كان يجد لذة فى انتقاماته لأنه كان لديه رسالة ينبغى أن يؤديها ، ففى الواقع أن الفلاسفة ، لم يكن يلوح عليهم أنهم يفهمون أنهم قد استبدلوا بمواساة المسيحية ، الاضطراب والمرارة واليأس ، وأن فريرون كان يكشف ضلالهم إذ أنه كان سيظهر لهم أنهم يكونون مجانين لو فكروا أن الشعب الذى يحطم نيراً مقدساً ، سيظل يحتمل نيراً بشرياً ، وكان يدافع عما تشتمل عليه التقاليد من إنقاذ حين كان يقول : « لم يكن هناك عصر أكثر خصوبة من عصرنا فى الكتاب المؤلبين الذين – على غرار الشاعر لينير – ليس لديهم نكت إلا ضد الإله .

إنهم يعلنون أنهم حواريو الإنسانية ، وهم لا يرون أن المرء يكون

مواطنا سيئاً وأنه يقدم الشر الواقعي إلى الناس بانتزاعه منهم الآمال التي هي وحدها تلطف آلام هذه الحياة ، وأن التصرف على هذا النحو هو قلب لنظام المجتمع وإثارة للفقراء ضد الأثرياء والضعفاء ضد الأقوياء وتسليح ملايين من السواعد قد كبح جماحها بزمام مقدس بقـدر ما كبح بالقوانين . . . على أن هذا الهياج ضد الدين يدل على ضعف في العقل ، أكثر مما يدل على قوة ، لأن الكتاب لم يكونوا ليتحدثوا أو ليكتبوا ضده لو لم يكونوا يرهبونه في الداخل . وإن الناثرين والشعراء الذين يتخذون من الدين موضوعاً لهجائهم ، يشبهون أولئك الرحل المضطربين الذين يخشون اللصوص ، والذين يتغنون بكل قواهم لكي يخفوا مخاوفهم » .

وإذن فإن أولئك الذين يؤلفون جيش أعـداء الفلاسفة ، كانوا يحسبون أن خصومهم قد أشعلوا النـار في الدار العتيقة بحجة أنهم يمنحونها النور .

* * *

ونحن لو أردنا أن نستعير أحد الأخيلة التي كانت مستعملة في ذلك العصر ، لكي نرسم معركة من معارك المؤلفات بجميع صفحاتها المتطايرة في الهواء ، لكان ذلك ميسوراً لأنه لا يكاد يكون صورة خيالية ، ففي الواقع أنه لم ينشأ قط مثل هذا القدر من الكتب ضد الدين — ولم ينشر كذلك مثله لصالحه ، ولهذا كان المعاصرون يقولون إنه يوشك أن تتكون من ذلك مكتبة كاملة .

وهناك في صحف ذلك العصر في أوربا قد تمثل نوع بهيئة أكثر اتساعاً من أنواع الرسائل الهجومية ، وهو نوع الرسائل التي كانت تدافع عن المسيحية .

ولقد كان المدافعون عن الدين ينقلون آراء القدماء الذين كان الآخرون يستشهدون بهم لصالح المبادية ، وكان هؤلاء الآخرون يستعينون بجميع

أحرار العالم ، كذلك كان المدافعون يستنجدون بمشاهير المدافعين عن العقيدة ، ولطالما كانوا يبعثون صوت بوسويه الجهورى ليعيد دعوة النفوس إلى الإله . أكانوا يهاجمون التوراة ؟ إن الأب « كالميت » كان يقضى حياته فى الدفاع عنها . أكانوا يقولون إن الأسفار الخمسة لم ترد عن موسى ؟ إن استروك الطبيب كان يرد على ذلك بأن الكتاب يبدو أنه ينم عن منابع مختلفة ، وأنه توجد فيه رواية ، يدعى الإله بمقتضاها « إيلوهيم » ، وأخرى ، يدعى بمقتضاها ، « جيهوفا » ، وأخريات إذا أريد ذلك . ولكن هذه العقبات تختفى إذا ووفق على أن موسى قد اعتمد على عدة ذاكرات انتهت إليه .

وهناك حجة من الحجج المفضلة عند الخصوم تنحصر فى أن تتدعى أن القيم الروحية التى يعترف بها فى التقاليد اليهودية ، قد أتت من الأديان الشرقية الأخر . وإذن فقد كان « المدافعون على الضد من ذلك ، يعلنون أن خرافات الوثنية الكبرى ، وعبادتها ، وأسرارها ، ليست سوى نسخ مشوهة من تواريخ العبرانيين وعاداتهم وتقاليدهم » . وهناك نقاد كانوا يعترضون على تاريخ الاستقرار الأول للكنيسة ، وعلى جميع التقاليد الكنيسية وإذ ذاك أخرج المدافعون ، « التاريخ الكنيسى » تأليف الأب فلورى الذى روى الفيرى أنه قرأ فى شبابه مجلداته الستة والثلاثين . ولقد ظهر عند اللوثريين فى سنة ١٧٢٦ كتاب ممتاز من تأليف ج . ل . فون موشيم J. L. Von Mosheim وهو خصم تولاند وعنوانه « التنظيمات التاريخية والكنيسية القديمة والحديثة » وهو فى أربعة مجلدات .

أما الفلاسفة فقد كانوا ينتهلون جهودهم من مجموعة مؤلفات المراطقة . وللرد على ذلك قد نشرت مجموعة أخرى أو مختارات أخرى كان المؤمنون يجدون فيها ما يقوون به يقينهم ومن أمثلة ذلك كتاب جوان البر فابريسيوس

الذى عنوانه « اختيار الحجج وقائمة الكتاب الذين جزموا بحقيقة الدين المسيحى » (١٧٢٥) وأخيراً مادام أن الهرطقة كانت تتخذ طريق الجامعات لكى تنتشر ، فإن الخطب الجاميعة ، والبحوث ، والرسائل كان ينبغى أن تعيد الطلاب إلى الأورتودكسية وإذن فلم تكن هناك أية خطوة تتخذ دون أن تقتضى سعياً مضاداً وكان المدافعون يقولون لنعلن الحرب على السوسنيين المراطقة ، والمؤلهين ولنحطم الملحدين ، وما دام أن الشر العميق قد أتى من لوك ، فلننقضه آراء هـذا الفيلسوف بالفلسفة ، وما دام أن الناس لا يتحدثون إلا عن البراهين الهندسية فلنبرهن هندسـياً على حقيقة الدين المسيحى .

وقصارى القول إن الدوريات كانت ضد الدوريات ، والرسائل ضد الرسائل ، والقواميس ضد القواميس ، والشعر ضد الشعر . . . وهاك مثلا عنوانين من عناوين منتجات ذلك العصر « الفيلسوف المسيحى » أو « الدين المنتقم له » .

* * *

إن الدفاع[1] عن الدين قد عمل بدياً على تقوية وضعه وعلى إجراء اختبار منتبه لحججه التقليدية وعلى طمأنة نفسه ، إذا أمكن أن يقال ذلك . وقد قرأ منتجات آباء الكنيسة وعظماء لاهوتيي الماضى ثم جمع قواه الباطنية . ومن أمثلة ذلك أن أسقف سواسون مولاى دى فيز — چيمس ، كتب إلى مونتيسكيو فى ٢٩ سبتمبر من سنة ١٧٥٠ . يقول : « لكى يستأصل المرء جذور الشر ، ينبغى له أن يفكر جدياً فى أن يحيى دراسات اللاهوت التى هوت نهائياً ، وأن يجتهد فى تكوين خدام للدين يعرفونه ،

---

(١) المراد بالدفاع هنا هو هيئة الدفاع أو جماعة المدافعين لا المصدر المعنوى من كلمة دافع دفاعا . (المترجم)

ويكونون قادرين على الدفاع عنه . إن الدين المسيحى جميل إلى حد أنى لا أحسب أنه لا يستطيع أحد أن يعرفه دون أن يحبه ، وإن أولئك الذين يسبونه ، إنما يجهلونه . ولو استطعنا أن نعيد إلى الحياة رجالا كبوسويه ؛ وپاسكال ونيكول وفينيلون Bossuet, Pascal, Nicole, Fénelon لكان مجرد النظر إلى مذاهبهم وأشخاصهم يحدث خيراً أكثر من ألف رقابة » .

كان الدفاع إذن يتحدث بلغة « المدرسيين » إلى أولئك الذين كانوا لايزالون يفهمونها ، ولكنه عرف كيف يتحدث بلغة أخرى إلى الذين لم يعودوا يفهمونها . وتلك هى لغة العقل ؟ ولماذا ؟ هل العقل والدين عدوان بالضرورة ؟ كلا ، إن الكنيسة على الضد من ذلك قد وحدت بينهما . حقاً إننا لانستطيع أن نعرف الأشياء إلا إذا تتبعنا الفكر التى لدينا عنها ، وإن حكمنا لايكون يقينياً إلا بقدر ماتكون فكرنا واضحة ، إننا فى هذا متفقون . ومع ذلك فإنه يبقى محيط لا تسيطيع أفكارنا الغامضة المحدودة والمخطئة غالباً ، أن تتدركه ، وذلك شىء لايجحده أحد . وفوق ذلك فإن المؤلهين يوافقون فى سهولة على أن الإله لايمكن أن يخدعنا ، وما دام أن الإله قد أوحى إلينا حقائق لولا ذلك لكانت ستظل بالنسبة إلينا غير ممكنة الإدراك ، وينبغى تصديق ذلك . وإذن فالإيمان بالأسرار ليس ألبتة ضد العقل بل بالعكس إن العقل يأمرنا بهذا الخضوع للسلطة الإلهية . هكذا كان يتحدث أحد المدافعين الأكثر خصوبة من بين أهل العصر ، وهو الأب برچييه الذى كان يذكر قراءه بكلمة القديس بولس ، وهى : "Rationabile obsequium:" [١] أى أنه قبول متعقل .

هل نريد الوقائع ولم لا ؟ إن الدفاع لايجب أن يظل فى صمت ، ولا يجب أيضاً أن يستعمل الإكراه ولكن يستعمل الإقناع والمحبة والوداعة ،

(1) Apologie de la Religion chrétienne, 1769, Ch. 5. — Le Déisme réfuté par lui — même, 1765.

لأنه لايوجد دين حقيقى إلا الدين الاختيارى ، ولا توجد قوة بشرية تستطيع أن تقتحم مأوى الحرية الذى لايمكن التغلغل إلى أعماقه ، وإذن فواجبه هو أن يستمع إلى حجج خصومه ، وأن يرد عليهم فى محيطهم الخاص . ولقد اتخذ هذه الخطة مؤلف آخر وهو الأب هوتيفيل الذى نشر كتابه « الدين المسيحى مثبتاً بالوقائع » فى سنة ١٧٢٢ ، وأعيد نشره ، إلى نهاية القرن عدة مرات .

عنى هذا المؤلف بدياً بأن يثبت — عن طريق منهج جيد — المميزات التى تضمن يقينية الوقائع . وبعد ذلك أبان أن المعجزات الواردة فى الكتاب المقدس والمروية عن شهود عيان أو معاصرين ، مخلصين وحقيقيين ، والمتعلقة بوقائع قد أذيعت من قبل ، ومرتبطة بوقائع متأخرة ، والمعترف بها حتى من الذين لهم مصلحة فى إنكارها . إن المعجزات التى هذا شأنها ، لها ميزة الوقائع التى لاتقبل الاعتراض . والتى ينبغى الانحناء أمامها ، وسواء أكانت متناقضة مع نواميس الطبيعة أم غير متناقضة ، فإنه كان ينبغى إقرارها . على أن هذا تناقض ليس له وجود إلا بالنسبة إلى عقولنا الضعيفة وأنه يختفى بإزاء العقل الإلهى القدير على أن يرى روابط كل شىء وأن يلاشى فى وحدة وحيدة ماهو بالنسبة إلينا متباين » .

هناك أيضاً قوة أخرى تنشأ من العقل الذى يلاحظ الوقائع ، ثم تتجاوزه فتصير إنفعالا ، وتصير عاطفة . وإذ ذاك اكتشفت عجائب الطبيعة ، ففى الواقع أليست هذه القوى المترابطة التى تخضع للنظام ، وهذا الانسجام الذى ينسق اللامتناهى فى العظم واللامتناهى فى الأسرار وهذا الجمال المتناثر فى الكائنات وفى الأشياء ، أليس كل ذلك يتطلب أن يصعد اعترافنا بالجميل إلى صانعه ؟ ولا جرم أن مجرد ملاحظة الظواهر لايكفى لالتزامنا نحو الخالق وينبغى أن يصعد من جانبنا نشيد نحو الإله ، لأن من المفرط فى الضآلة أن يلاحظ الإنسان وجود الإله فحسب . وإنما الملائم هو أن يدع التعبير للقلب الذى ينفعل والذى هو على وئام مع العقل .

ومن ثم فإن انجلترا بوساطة ديرهام ، ثم هولندا عن طريق نيوفينتيد قد بدأتا صلوات الشكر على النعمة ، ومظاهر العاطفة ، والوثبات الحماسية . وهكذا لم تلبث الإشارة أن لحت من جانب العقول التي كانت تتطلبها في سرعة إلى حد أنها جعلت تتناقل من جار إلى جار ، وأنه لم يمض إلا وقت قصير حتى كانت كل بلاد أوربا تردد في لغاتها أن السموات تروى مجد المولى .

حقاً إنه ليس من موضوعنا هنا أن نكتب تاريخ هذه العاطفة الإجماعية مادمنا قد حددنا لأنفسنا نطاق العقل ، ولكن لنذكر أن هذه العاطفة قد استخلصت من ملاحظة عقلية وأن الدفاع قد استفاد منها ، واتخذ الحقيقة حجة من الخيرية والجمال ، فمنذ سنة ١٧٤١ نشاهد أن الأب أندريه في « رسالة عن الجمال » قد عبر عن الفكرة التي كانت قد وجدت عند المؤلفين الخاملين والتي نضجت تحت تأثير الأحداث والأناسي حتى كتاب « عبقرية المسيحية »[1] . وهاك كيف عبر عنها : « لقد تحدثنا عن الإله كما يلتئم مع فيلسوف مسيحي ، فبرهنا على وجوده ، وشرحنا طبيعته ، ووصفنا فعله ، مظهرين في كل موضع الوفاق الوثيق بين الدين والاعتقاد فيما يتعلق بالإله الأعلى ، فمن ناحية عندما تأملنا الإله في ذاته بطريقة أعمق رأينا أنه لاشيء أعظم ، ولا أدعى إلى الإعجاب ولا أشد إرهاباً من الألوهية مقدمة إلينا ، كأنها في مشهد . ومن ناحية أخرى عندما نظرنا عن كثب كيف يعمل الإله بإزائنا ، ألفينا أنه لا يوجد شيء أفضل ولا أحب من نفس هذا المظهر الإلهي . وبهذا أحسسنا بصعوبة في رؤيته أقل منها في شرحه » .

* * *

: استعمل المدافعون الإنجليكانيون لباقتهم ، فنزل بيركليه "Berkeley"

---

(١) عبقرية المسيحية هو أحد مؤلفات شاتو بريان التي ظفرت بشهرة عظيمة . (المترجم)

إلى الميدان ، وتحدى « الفلاسفة الأصاغر » الذين كانوا يحسبون أنفسهم من عظماء المفكرين[١] .

حقاً إن الزنادقة قد ذهبوا جد بعيد وأفرطوا فى السرعة ، وعندما كان سويفت يقول لهم إنهم يستطيعون أن يهاجموا المسيحية ولكنهم لا يستطيعون القضاء عليها ، كان جمهور من الناس يدعى أنها ليست سوى كذب ، بل إنها لاتساوى أن تكون موضوع تحقيق ، وأنه لم يبق إلا الضحك منها كطريقة للانتقام ، لأنها قطعت لذائذ العالم زمناً طويلا .

غير أن ذلك لم يكن سبباً فى هجرانها بل بالحرى كان سبباً فى إرجاع قيمتها الحقيقية ، وما دام أن بدعة العصر كانت هى جعل المسيحيين الأخيار مضحكين ودفعهم إلى فقدان التوازن ، فإنه كان ينبغى — بوساطة أسباب ملتئمة مع العصر — أن يُطَمْأَنُوا وأن ترد إليهم الثقة . ومادام أنه كانت هناك قضية فقد كان ينبغى الحكم ، ولم يكن ذلك مجازاً لأن أحد أولئك المدافعين وهو الأسقف شيرلوك ، خطرت له فكرة تكوين قضية فى أتم صورها أى يوجد فيها قاض ، ومحلفون ، ورئيس للمحلفين ، وبالإجمال كانت قضية كالقضايا التى كانت ترى كل يوم فى لندن وفى الأقاليم ، مع ذلك الفرق الذى هو أن الشهود المستدعين كانوا هم الذين يجزمون ببعث المسيح[٢] : وإليك نتيجة هذه القضية .

القاضى — أيها السادة المحلفون ، إنى أعرض عليكم بصـــورة جوهرية ما ترافع به الخصمان ، وعليكم أنتم الآن أن تفكروا فيه وأن تصدروا حكمكم .

---

(1) Alciphron, or the minute Philosopher, in seven Dialogues, containing an apology for the Christian Religion, against these who are called Freethinkers, London, 1732.

(2) The trial of the Witnesses of the Résurrection of Jésus, London, 1729.

(وبعد أن يتداول المحلفون يقف رئيسهم ويقول) :

رئيس المحلفين – سيدى اللورد ، إننا على استعداد لأن نصدر حكمنا .

القاضى ، متجها إلى المحلفين – أأنتم على وفاق ؟

المحلفون – نعم .

القاضى – من الذى سيتناول الكلام ؟

المحلفون – رئيسنا .

القاضى – ماذا تقولون إذن ؟ هل الحواريون مذنبون أو غير مذنبين فى تزوير الشهادة على موضوع بعث المسيح ؟

رئيس المحلفين – إنهم غير مذنبين .

وإذ ذاك يبرز فى وضوح رجلان من بين المفسرين واللاهوتيين ، والمؤرخين ، والوعاظ ، أولهما واربورتون "Warburton" أسقف جلوسيستير وهو ذو خلق غريب ، وكان قوياً جافاً كثير القراءة عظيم العمل ، شديد المشاغبة وقد قرأ أصول الدعاوى قبل أن ينخرط فى السلك الدينى واحتفظ بشىء من النضال العملى . ولما كان حديثاً فلم يكن يخشى من أن يستلهم من مؤلفات لوك عن الفلسفة الجديدة ، ومن مؤلفات بيل عن الارتيابية . ولما كان شاذاً ، فقد كان له طريقة خاصة ليست لغيره ، فكان يبدو أول الأمر أنه يسلم لخصومه بكل شىء حتى إذا لاح عليهم أنهم ينتصرون ، كر عليهم فهزمهم بغتة . ومن أمثلة ذلك أنه فى كتابه « حلف بين الكنيسة والدولة » (١٧٣٦) يعلن بديا أن الكنيسة هى كيان على حدة ليس لها حقوق على الدولة ، وأن الدولة هى أيضاً مؤسسة على حدة ، ليس لها حقوق على الكنيسة ، فكيف لم يستمتع المنشقون بهذه التوكيدات الأولى ، وكيف لم يصدق الفلاسفة أنهم قد وجدوا

صديقاً جديداً بين رجال الدين أنفسهم . بيد أن واربورتون قد استمر على النحو التالى يقول : « إن الدين فى حاجة إلى الدولة ، وإن الدولة فى حاجة إلى الدين ، وإذا لم تكن الدولة تريد أن تكون فاسدة ، فإنها لا تستطيع أن تسمح لخدامها بجحود المبادئ التى تضمن استقرارها كالتمييز الطبيعى والجوهرى بين الخير والشر ، وإن من المشروع أنها تتطلب منهم هـــذا الضمان . وإذن فبين هاتين السلطتين لا يوجد خضوع بل يوجد حلف غير قابل للانحلال ، وأخيراً اختتم واربورتون كلامه فى الدفاع عن دين — سمى باسم قواعد أساسية لناموس الطبيعة ، ولحقوق الآناسى :

ولقد كان الإنتاج الذى نشره بعد عامين من ذلك ، والذى عنوانه « التشريع الإلهى لموسى » أكثر من هذا تلألؤا . ولا جرم أن الجميع كانوا يقرون المصادرة التالية التى وردت فيه والتى مجملها أنه حين يثبت مشرع ماهر ديناً وحكومة مدنية ، فإنه لا يتصرف عن الهوى ولا بالمصادفة بل على الضد لديه أسبابه وغاياته . ومن جانب آخر أن الدين العادى هو — لكى يؤيد — فى حاجة إلى الإيمان وبدولة مستقبلة ، وإن الحكومة العادية ، لكى تحقق السير الجيد للمجتمع ، هى فى حاجة إلى الإيمـان بمذهب المثوبات والعقوبات . غير أن الإيمان بالدولة المستقبلة ، ومذهب المثوبات والعقوبات لا يوجدان فى القانون الموســوى ، فماذا يجب على المرء أن يستنتج من ذلك ، ولو أنه من المقرر أن موسى بلا أى ريب ، مشرع ماهر ؟ إنه لم يكن يؤسس تشريعه على قيم عادية كافية لدين بشرى خالص ، ولكنه كان يؤسسه على قيم غير عادية اســـتثنائية أسمى من الإنسانية . . . بل إلهية حقاً يمكن أن يعترض على أن أقيسة واربورتون مثبتة ، ولكن لا يعترض على أنها عملت عملها ، لأن هــذا هو ما تدل عليه ردود ڤولتير .

يختلف عن هذا كل الاختلاف چوزيف بوتلير «J. Butler» الذى

ولد من أب پريسبيتيرى والذى توفى أسقفاً أنجليكانيا ، وإذن فقد يدأ فى الانشقاق وانتهى فى الدين الرسمى . ولم يكن ذلك بدافع الطموح لأنه كان بسيطاً وقنوعاً وبلا تظاهر بل بلا أية غاية أخرى فى الحياة غير البحث عن الحقيقة وتطبيق الفضائل المسيحية . وكان يرتضى الطبيعة والعقل كنقطة لصدوره . وما دام أن أهل العصر على أثر لوك ، لم يكونوا يريدون أن يقبلوا شيئاً قد تعدى ملاحظة النفس البشرية ، فقد أسس استدلالاته على التجريبية ومن هذا أتت ملاءمة كتابه لعصره وقوته والنجاح الضخم الذى ظفر به كتابه الذى عنوانه : « مشابهة الدين للطبيعى والموحى به للموجود وسير الطبيعة » (١٧٣٦) .

كان بوتلير يقول إن أسمى درجات الحقيقة بكل توكيد ، هو اليقين البرهانى ، غير أنه فى حياتنا اليومية ، ليس هو الذى نلجأ إليه وأنه يجب علينا أن نكتفى باليقين الراجح ، وهو الذى يسير فى سلسلة من الدرجات منذ الرجم الخفيف إلى أقوى التوكيدات المعنوية ، فمثلا يمكن أن يفترض أنه سيوجد ضباب فى انجلترا فى يوم محدد من شهر يناير ، وأكثر من ذلك رجحاناً ، أنه سيوجد ذلك فى أى يوم كان من نفس الشهر . ومن الموقن به معنوياً ، أنه يوجد إبان الشتاء . وكذلك الإنسان الذى يلاحظ المد والجزر على شاطئ البحر ، والذى يجزم بأن نفس الظاهرة ستتكرر لا يضع سوى فرض ، ولكن من حيث إن المد والجزر قد تتجا أثناء أيام وأسابيع وشهور وأعوام وقرون ، فإننا نستطيع أن نقول بالتأكيد إنهما سيحدثان غداً . لا جرم أن هذا التعقل الذى لا يساوى شيئاً أمام العقل الكامل القادر على معرفة مجموع الأسـباب والمسببات له قيمة على الأقل بالنسـبة إلى عقولنا المحدودة . غير أننا من حيث الواقع نجد أن القياس هو الذى يحدد حكمنا ويوجه تصرفاتنا كما تثبت ذلك التجربة .

وعلى نفس النحو يؤكد القياس شرعية الدين الطبيعى ، وبيان ذلك أن الإيمان بخلود النفس ، فى أبسط حدوده هو اجتياز حالة معروفة ، إلى حالة غير معروفة . ولكن فكرة الاجتياز هذه ، أليست مشابهة لعملية الطبيعة كما تنتج أمامنا ؟ على نفس النحو الذى تتحول به دورة الفراشة ، والذى تصير به الكائنات الزاحفة ، كائنات ذوات أجنحة ، وتثقب به الديدان أغلفتها ، وتكسر به الطيور الصغيرة قشور البيض لتحتمل أشد التحولات إدهاشاً ، كذلك قياساً على هذا يكون من المحتمل أننا ، بعد موتنا البدنى سندخل فى حياة جديدة .

إن الدين يخيفنا من آلام ستكون عقوبة عن جرائم ، ويجعلنا نؤمل فى ملذات ستكون مثوبة على فضائل ، فعلى نفس النحو الذى يجتاز بنا عليه عدم الاعتدال فى آونة معينة من صحة مزدهرة إلى صحة بائسة ، والذى عليه ينتهى سلوكنا الحسَن إلى أن يجلب إلينا القوة والشجاعة ، كذلك يكون من الممكن بل من الراجح ، بل من اليقين معنوياً أن تقصيراتنا نحو الخالق ستترجم بآلام وأن ملاحظتنا للقانون الأخلاقى ستترجم بمسرات .

أما الدين الموحى به — وهو لا يختلف عن الدين الطبيعى إلا بأنه يرضى حاجتنا إلى التحديد — فإن العقبة التى يصطدم بها غير المؤمنين هى وساطة المسيح . ومع ذلك أفليست هذه الوساطة هى إحدى الوقائع التى تسود حياتنا والتى نقبلها معترفين بالجميل ؟ إذ أن جميع المخلوقين ينشأون بوساطة مخلوقين آخرين ، وأن هؤلاء يطعمون أولئك ويدافعون عنهم ويحمونهم ، وأن كل الترضيات قد جلبت إلينا بوساطة مخلوقين آخرين وإذن فإتيان وسيط بين الإله والإنسان أى مجىء المسيح الذى تجسد ليطهرنا من دنسنا ، يجب أن ينتظر وأن يصدق عن طريق القياس . كان ذلك صوتاً مقنعاً أعجب المؤمنين لأنه كان يفهمهم أنهم ليسوا متأخرين ، وأنهم يستطيعون هم أيضاً أن يدعوا أن لهم الحق فى أن يسموا محدثين . ولا جرم أن هذا الصوت قد

فاجأ غير المؤمنين من حيثية أنهم كانوا يجدون فيه بعض نبراتهم ، وأن تعقل بوتلير قد اتبع المنهج المقدم على أنه هو الحسن الوحيد وهو الملاحظة والتجربة . ولقد أحس چوزيف بوتلير أسقف دورهام بالرضى فى أن يقدم إلى الرأى العام نوعاً من الاطمئنان الفلسفى .

* * *

وهنا يلمح شىء ، كأنه تجديد لم يسجل بعد فى التاريخ ، ولكى نتحدث عنه بلغة العصر نقول إنه مسيحية « مستنيرة » أى حركة أوربية ، حركة مسيحية تتجه إلى أن تخلص الدين من الرواسب الأجنبية التى تراكمت حوله ، وإلى أن تقدم عقيدة حرة فى مذهبها إلى حد أنه لا يوجد أحد يستطيع أن يتهمها بالبقاء فى ظلمة الجهل عقيدة نقية فى أخلاقها إلى حد أنه لا يستطيع أحد أن يجحد أثرها العملى ولا ريب أن ذلك توكيد متين بأن نفس القيم التى أسست المدنية أثناء ثمانية عشر قرناً ، كانت لا تزال قيمة وستظل كذلك دائماً .

ولو حاول المرء أن يرسم هيكلا لذلك المجهود العظيم ، لبدأه بذكر المفكرين الذين فهموا أن الأرسطوطاليسية كانت تعزى إلى عصر آخر ، والذين ارتضوا ديكارت بينما أن الجيل السالف قد أقصاه — وانتهلوا منه حججاً لصالح روحانية النفس ، وكذلك ذكر مفكرين مسيحيين كانوا يطالعون لوك ويعجبون به ، رافضين أن يتبعوه فى « جحوده إمكان إدراك المطلق » ، ولكنهم استغلوا تلك الثروات النفسية التى استكشفها . ثم لسرد بعد ذلك أسماء علماء ذوى مميزات على أرفع الدرجات ، كالأب بوسكوفيتش فى راجوزا ، وهالير وبونيه فى سوسرا ، وريومور فى باريس ، وأولير فى ألمانيا قد أبانوا أن المنهج التجريبى — فضلا عن أنه بعيد عن أن ينتهى إلى عدم الإيمان — كان يقوى فكرة الغائية . ولاستنجد بالأخلاقيين الذين طالما ذكّروا الأمير بأن قوته لم تكن مؤسسة إلا على أشد الواجبات

ضيقاً ، والذين كانوا يتطلبون منه أكثر كثيراً مما كان الفلاسفة يطلبونه ، وذلك مثل الحكيم التقى موراتورى الذى لم يكن منغمساً فى التبحر العرفانى إلى حد ألا يلحقه الشك أحياناً ، والذى التجأ إلى إيمانه .

وعند هؤلاء الأخلاقيين أن الحكماء يجب ألا تكون لهم غاية سوى خير الدولة ، وأن يتبعوا فى كل شيء ، القانون الإلهى الذى يحظر اقتراف الشر ، والذى يأمر بالمساهمة فى خير الجميع حتى فى خير الأعداء : إعمل بإزاء الآخرين ما تريد أن يعمل بإزائك ، لأن خير دواء للآلام الاجتماعية هو دائماً محبة الغير ، إذ أن القاعدة الوحيـــدة التى يتطلبهما المؤلهون — وهى : تحابوا فيما بينكم — ليست لهم وإنما أنت من المسيح . ولأخرج من الظلام شخصيات القسس والأساقفة الذين بشروا بالتسامح وكشفوا النقاب عن الخرافات . ولنذكر عدد القديسين الذين شاهد القرن الثامن عشر نشاطهم .

ولما نسىَ مجهودات الجمعيات الدينية ويمكن أن يتخذ مثلا لذلك الأب بوفييه اليسوعى الذى كان ، زهاء أربعين سنة ، أستاذاً فى مدرسة لويس الأكبر ، ومساهماً فى مجلة « مذكرات تريفو » . وعندما نقرؤه نعلم أن السيد لوك هو الأول الذى زاول فى ذلك العصر إيضاح عملية العقل البشرى والذى لم يدع نفسه ينقاد إلى نظريات غير واقعية . ويبدو أن فلسفته فى هذه النقطة ، بالنسبة إلى فلسفتى ديكارت ومالبرانش كانت هى منزلة التاريخ بالنسبة إلى الرواية . ولقد كانت فلسفة الأب بوفييه المعقولة هى الفلسفة الدارجة ، وكانت مخصبة بصورة دفعت توماس ريد Thomas Reid بانجلترا فيما بعد ، إلى أن يعتنقها وأن ينميها ، لأن تصوراته للحياة الاجتماعية لم تكن هيابة ولا رجعية ، إذ أن مساواة الطبيعة البشرية كانت مبدأ لا ينبغى الإغضاء عنه ألبتة ، وإنما الوظائف هى التى كانت غير متساوية أى وظائف الرعايا والأمراء ، لا الأناسى . وبالإجمـــال كان الأب

بوفييه يريد أن يتبع ، فى كل شىء ، الوضوح الأقـــل اشتباهاً لدى العقل البشرى .

هل سنتخذ مثلا من أحد البينيديكيين ؟ لا جرم أن من الصعب ألا يكون لدى المرء انعطاف نحو الأب فيجو الذى كان جد بسيط وجد صريح وجد قوى ، والذى كان يطلق على نفسه اسم المواطن الحر لجمهورية الأدب وهو اسم فى موضعه . فى النصف الأول من القرن الثامن عشر كان تأخر إسبانيا فى طريق « الأنوار » موضوعاً شيقاً لدى الفلاسفة ، وكان الأب فيجو بالضبط هو الرجل الذى اجتذب من داخل خلوته ، تلك البلاد إلى التقدم .

لم تكن روح النقد تعوزه ، بل كان يزاولها فى كل مناسبة وهاك أمثلة من نقده يقال إن الموجة العاشرة هى دائماً أقوى الموجات ، فلنر هذا ، إنه ليس حقاً ، وهو وهم عامى . ويقال إن نبتة الرقيب تدير زهرتها دائماً نحو الشمس وذلك زائف . ويقال إن من الخطر أن يتعاطى المرء طعاماً على أثر شرب الشوكولاته ، وذلك أيضاً واحد مما يقال وهو لا يصمد أمام الاختبار ، فلننبذ كل هذا الذى « يقال » ولا نؤمن إلا بالوقائع التى ثبتت تماماً .

كان فيجو موسوعيا أى أنه كان لاهوتيا مؤرخا ، ورجل أدب وعلم ، وكان معجبا بيبكون ونيوتون «Bacon, Newton» للذين كانا يمثلان فى رأيه الحقيقة التجريبية . وكان ديكارت يبدوله عبقرية متهورة ولكنه على كل حال عبقرية ، وكان يحطم الحربة لصالحه إذا عنت الفرصة[1] . ولما كان مصلحا فإنه لم يكن يخشى أن يكتب ضـــد الأشراف الذين لا يسوغون

(١) يقال إن فلانا قد حطم الحربة من أجل فلان أى دافع عنه إلى أقصى حد ، حتى حطم حربته فى سبيل هذا الدفاع وهو تعبير مستعار من فرسان العصور الوسيطة وعصر النهضة الذين كانوا يحطمون أسلحتهم فى سبيل الدفاع عن يحبونهم أو يعجبون بهم . (المترجم)

امتيازاتهم ، وضد بطء العدالة ، وضد التعذيب . ولما كان وطنياً لم يكن لديه فى العالم أعز من بلاده ، ولما كان عالميا أو « كوسموبوليت » فقد كان من أنصار أشد الاتصالات بين الشعوب اتساعا ، ومن أنصار محو الحزبية ، وأنصار السلام العالمى ، ولأنه كان كل هذا مجتمعاً فقد كان مسيحياً بصورة عميقة : وكان يعتبر أن المؤمنين قد أنزلوا الدين بسبب الإيمان بالمعجزات الزائفة وبسبب الأعمال الظاهرية السادجة ، وبوساطة الطريقة التى كانوا يستعملونها لربطه بالماضى . وكان يقول ليست المعتقدات المقدسة هى التى تقيد الفكر وتكتم أنفاس العلم ، وإنما هى السلطات المغتصبة ، وإذن فقد كان يحارب الأرسطوطاليسية المزيفة التى شلت الفكر الإسبانى والتى أرادت أيضا أن تحتفظ به متقلصاً فى وسط القرن الثامن عشر ، ومن عباراته ما يلى : أثناء قرون وقرون كان من يدعون بالفلاسفة يرهقون رؤوسهم أمام نصوص أرسطو ، أى خطأ ! وكم كانوا يحسنون صنعاً لو أنهم درسوا الطبيعة ! لأن من لا يستعمل منهجاً آخر غير منهج المجادلات المدرسية ، يعمل ما يرضى كاكوس الوضيع الذى يجتذب، بوساطة الحيلة هيراكليس إلى كهفه لكى يجعل أسلحته عابثة إذ يعميه بالدخان الذى يتقايؤه . أما هو فلن يقع فى هذا الفخ وسيخلص الكاثوليكية من تجارات العصابات التى جلبت إلى المعابد . وهكذا كان فيجو يشعر بأنه مستريح تماما فى التقاليد وفى التجديد فى الوقت ذاته .

إنها لرسالة كبرى أن يجتلب المرء التجديد إلى التقاليد ، وأن يجرد التعليم من « قدم المدرسة » وأن يوجه العقول نحو ملاحظة الوقائع ، وأن يوصى بإجلال بيكون ونيوتون ، وأن يحرر البرتوغاليين من نرسيسيتهم[١] ،

---

(١) النارسيسية هى نسبة إلى نارسيس وهو فى الأساطير الميلينية ابن النهرسفيز وقد نظر إلى وجهه فى أحدا الجداول فعشق نفسه فأراد الاتصال بصورته فيسقط فى الجدول وغرق وقد صار مثلا يضرب المفتون بنفسه أو الذى لا يعنى إلا بذاته كأنه محور الوجود . (المترجم)

وأن يعودهم على النقد وعلى الحكم الشخصي ، وأن يوقظهم وأن يدفعهم إلى أن يتخذوا لهم مكاناً فى الحياة العقلية لأوروبا . تلك كانت رسالة الأب لويس أنتونيو ڤيرنيه الفرانسيسكانى مؤلف كتاب « المنهج الحقيقى للدراسة » (١٧٤٦ — ١٧٤٧) . وكان أخلافه كذلك من رهابنة « الأوراتوريين » بيد أنه إذا أريد إبراز أشد الصور تمثيلا لهذه الكاثوليكية المستنيرة ، فإنه ينبغى اختيار القسيس أنتونيو چينوفيزى Antonio Génovési ، وقد أتت جدارته بذلك من متانة موقفه الفكرى الأول وهو أن المفكرين الذين يهاجمون الدين المسيحى يسيئون معرفتــه . ومن ثم هم يشوهونه ، ولذا ، يكون من الضرورى أن يتقدم لنقضهم شخص يعرفه معرفة داخلية ، ويطبقه فى حزم ويستخلص روحه . وعلى أثر هذا الوضع الأساسى يشرع فى العمل ، فيتعرف منتجات أولئك الذين خاصموا الدين الموحى به ويستشهد بهم عند الحاجة ، ولذا كانت صفحاته مفعمة بذكرياتهم . وكذلك قرأ جميع منتجات « المدافعين » وكل المشــكلات التى راق العصر أن يضعها وأن يستأنفها ، فجابهها مجابهة شخصية وهى مشكلات أصل الفكر ، والناموس الطبيعى ، والمذاهب العقلية والتجريبية والتفاعل . وقد جعل يدافع عن الديانة المسيحية بوساطة المعرفة العميقة التى لديه عن أعدائها وعنها هى ذاتها ، وطفق يدافع عنها أيضاً بأعماله .

كان فى شبابه مشائيا وكان مجادلا جيدا « للموضوع وعليه » كما كان المدرسيون يعبرون . وفى سنة ١٧٣٦ رسم قسيساً ثم عين فى السنة التالية فى نابولى ، وكان ذلك فى الحقبة التى كان فيها مولاى جاليانى يزاول إصلاح الدراسات فالتحق بحزب المصلحين . وكان فى أول الأمر ديكارتياً ثم عرف أفكار لوك وارتضى جزءاً منها . وقد عين أستاذاً لما بعد الطبيعة ثم للأخلاق فى الجامعة وجعل ينشر منذ سنة ١٧٤٣ كتابه « عناصر ما بعد الطبيعة » الذى عد من لوامع منتجات العصر : ومنذ ذلك الحين لم يفتر عن استعمال

أوكد الوسائل من بين التى تؤثر فى الحياة أى التى تمس نفوس الشباب ؛ وكان يردد على طلابه أنه لا ينبغى الاستيقان بأى شىء اعتماداً على أن الأساتذة قالوا به ، وأن الإيمان يجب أن يتوقف على اختبار عقلى ، وأنه يجب ألا يختلط بالطقوس الظاهرية الضيقة التى تخمد اللهيب الداخلى ، وأن الكاثوليكية لا ترهب أن تجابه الفلسفة الحديثة سواء أكان ذلك لكى تنقضها حين تنخدع أم لكى تستفيد منها حين تطابق الحكمة .

استأنف نشاطه بعد ذلك فى المحيط السياسى ولكن بصورة أكثر حيوية لأن چينوفيزى قد ساهم فى تحويل فائدة هى جوهرية بالنسبة إلى ناپولى خاصة ، وإلى أوربا عامة ، ففى الواقع إن الأمر يتعلق هنا بتوكيد حقوق الرعايا وبالمطالبة بإصلاحات يجب أن تضمن سعادتهم بدلا من أن تجعل صالح الدولة شرعياً ، وأن تقوى كيان السلطة المستقرة .

حدث فى أرض ناپولى التى كانت الإقطاعية تنوء عليها بكلكلها ، أن نوعاً من الاتفاق قد تم بين الأمير ورعاياه ضد القوة المتوسطة التى كانت معادية لفوائد الفريقين كليهما . وكان چينوفيزى أحد أولئك الذين ساهموا بقوة فى تشييد هذا الاتفاق . ومن ثم فإنه عانى ، بسبب آرائه شيئاً من القلق والمشقة إذ أبلغ أمره إلى روما ، فلم يظفر بكرسى الإلهيات الذى كان يتوق إليه . غير أنه لم يخرج ألبتة عن الأورثوذوكسية . حقاً إنه لم يكن زاهدا ، بل كان ملىء الجسم وكان يشرب فى غبطة نبيذ ساليرنا الجيد . ولكنه فى روحه قد بقى مسيحيا بصورة عميقة وفيا لأنقى جميع الفضائل المسيحية وهى محبة الآخرين . وكان معتادا على أن يقول : « إنى أعبد الإنجيل الذى جوهره الحب ، كم هى جذبة كلمة الحب ! وكم كانت حياتنا تكون سعيدة لو أنها هى وحدها التى كانت سائدة !... »

وأخيراً ينبغى تعقب انتقال الفكر المسيحى على نفس النحو الذى ينتقل

عليه الفكر الفلسفى من دولة إلى أخرى . وكان أحد هذه الانتقالات العجيبة عمل مدرسة « البياريست » التقية بإيطاليا ، وفى دول عديدة بأوربا ، سواء أكان هذا العمل يتحقق بصورة مباشرة ، أن يتسرب بوساطة الأجانب الذين كانوا يأتون ليتمموا أوليستأنفوا دراستهم فى روما . وقد امتد أثرهم التجديدى إلى هونغاريا ، وإلى ألمانيا الجنوبية ، وإلى النمسا وإلى ممتلكاتها وإلى پولونيا . وحين صارت هذه الأخيرة حديثة بدورها حوالى منتصف القرن ، وأحست الحاجة إلى تجديد مناهج مدارسها ، كان الأب كونارسكى البيارستى هو الذى أمر بدراسة بيكون وجاسندى وديكارت وماليبرانش ولوك وچينوڤيزى على أشد الأرواح اتساعاً .

رأينا أن شعار المجددين الذين كانوا يريدون أن يتخذوا من البحث عن الحقيقة قانون حياتهم الوحيد ، كان هو « تَـجَـرَّأْ على المعرفة » وأن ملك بولونيا استانيسلاس أوجوست قد أمر بصنع وسام يحمل صورة كونارسكى مع هذا الشعار ، وهو : « إننى أجرؤ أن أعرف » «Sapere auso» .

* * *

والآن لنجمع بوساطة الفكر عمال الكرم[1] ولنتخيل ذلك النشاط من جانب ذوى المعاطف السود ، والمعاطف البيض ، ولنذكر القساوسة والأساقفة الأنجليكانيين ، والرعاة والأساتذة اللوثريين ؛ والرعاة الفرنسيين والمدنيين أيضا ، وينبغى ألا ننسى الحلم الذى يستأنف دائماً ، بالتوفيق بين الكاثوليكيين والبروتيستنتيين وباتحاد بين الكنائس يجمع تلاميذ المسيح ، عند ذلك نستطيع — بعد أن رأينا حيوية الهجوم — أن نتصور حرارة الدفاع .

---

(١) يريد المؤلف هنا أن يشير إلى عبارة الإنجيل التى تشبه خدام الدين بعمال الكرم . (المترجم)

الفصل السابع

تقدمات عدم الإيمان

الجانسينية

إقصاء اليسوعيين

لم يأت بوسويه جديد ، ولا فينيلون جديد ، ولا باسكال جديد .

حقاً إن الأب چيرديل الذى كان كاردنالا ، قد نقض لوك ، ولكن ماذا كان يستطيع ضد انتشاره ؟ وماذا كان كروزاز يستطيع ضد پوپ ؟ وحقاً إن چون ليلاند كان يدافع عن العهدين القديم والجديد وعن الوحى ولكنه لم يكن يمحو ابتسامة هيوم . إنهم كانوا جميعاً مدافعين أقوياء بينما كان ينبغى وجود عباقرة .

على أن المتجادلين غالباً – رغم نياتهم – قد ظلوا سمجين ومضجرين . ومن ثم فإن مقدماتهم الطويلة وبحوثهم المتعالمة ، وعباراتهم السميكة لم تكن تمس الرأى العام .

كانوا يتعقلون كأجدادهم ، ولم يكن العصر الراهن يستمع إليهم أو أنهم حين كانوا يبحثون عن الجديد لم يكونوا يظفرون إلا بالمضحكات ، فهل كان الأب پيليجرين يحسب أنه نجح حينما لحن الحقائق المسيحية على نغمة عصرية ؟ وهاك بعض عناوينها :

١ – شرح الصلاة الربانية موقعاً على نغمة أغنية : « مولاى لقد أردت أن تمنحنى زوجة » . ٢ – شرح الصلاة المسماة « رمز الحواريين » موقعاً على نغمة أغنية « إستيقظى أيتها الجميلة النائمة » . ٣ – ضد الخطيئة بوجه عام موقعاً على نغمة أوپرا عنوانها « أيها الحب ماذا تريد منى ؟ » .

٤ – عن ضرورة التفكير موقعاً على نغمة أغنية « للدائد إسبانيا » .
وليسير ، هل حسب أنه قد قام بإنتاج جدير بالبقاء حين نشر كتابه الذى عنوانه « الحشرات واللاهوت » والذى قال فيه : « إن الإله قد تصرف بحيث جعل أشد الحشرات ضرراً تنتسب إلى الأنواع الأقل خصوبة . وهو يريد أن تكون الحشرات نافعة مادام أنها فى بعض البلاد تستعمل أطعمة ، وأن القديس يوحنا كان سيموت جوعا فى صحرائه لو لم يظفر بالجراد . وإذن فللحشرات قيمة لاهوتية ، وقد كانت أدوات للعقوبات التى يعاقب بها الإله الجناة ، وهى مخيفة إلى حد أنه لا توجد وسيلة لاتقائها . وللحشرات أيضاً قيمة قانونية لأنها قد عاقبت الزناة إذ أرادت القوانين القديمة أن تعرضهم عارين أمام مساكن النمل أو تدعهم للسعات مجمع النحل . . . . » .

ومهما يكن من الأمر فإن أعداء الكاكواك كانوا يسيئون استعمال الصفير ، ولكن الكاكواك كانوا يستعملونه بصورة فائقة . ومن ثم فإن خصومهم مهما كانوا محترمين ، قد صاروا سخرياً ، وهكذا عندما يريد المرء إبراز مميزات فريرون فإنه ، بالرغم منه ، يتخيل أنه يسمع اللذع الوحشى الذى وصله ڤولتير باسمه وهو :

فى أحد الأيام وفى أعماق واد صغير ، لدغ ثعبان چان فريرون ، فماذا حدث فيما تظنون ؟ لا جرم أن الثعبان هو الذى هلك .

وكذلك چان چاك ليفران ماركيز دى پومپينيان – وكان قاضياً مبجلا ، وأديباً غير محظوظ – قد هاجم الفلاسفة فى خطبة استقباله فى المجمع اللغوى الفرنسى ، فأمسك ڤولتير بخناقه ولم يفلته ، ومنذ ذلك الحين صار ليفران دى پومپينيان هدفاً لسخريته وهاك أحدَّ لذعاته :

هل تعرفون لماذا بكى إرميا إلى هذا الحد فى حياته ؟ ذلك لأنه – باعتباره نبياً – كان يتنبأ بأن ليفران سيترجمه يوماً ما .

ظلت الرسائل والهجاءآت ترهقه إلى حـــد أنه لم يكن يجرؤ على الخروج من منزله ، أى أن فولتير قد محا ليفران دى پومپينيان .

* * *

ومن الذى كان يستطيع أن يقف الجانب غير المكتوب من حياة العقل وهو المحادثات والتأملات والكلمات المعادة ؟ ففى الواقع أن الفلسفة كانت فى النوادى والجمعيات وفى المقاهى وحول موائد الشاى وكانت تنتشر فى الهواء وتنزلق إلى كل مكان ، فأين تؤخذ ومنذا الذى سيستولى عليها ؟

كان رجال الشرطة يختلطون ، فى براءة ، بالمتنزهين الذين كانوا يثرثرون تحت أشجار القصر الملكى ، وفى حديقة لوكسانبور وكانوا يسجلون فى تقريراتهم أنهم سمعوا محادثات ضد الدين ومحادثات إلحادية يتناولها حتى القسس ولم يكن من الممكن اعتقال كل هؤلاء الزنادقة .

كان نيكولا بواندان — وهو أحد رجال الأدب وعضو فى مجمع الآثار — يمكث عادة فى مقهى پروكوپ حيث كان معروفاً بحرية الفكر ، وكان يستعمل لغة خاصة به ، فكان يسمى الحرية « چانيتون » والدين « چاكوت » والإله « السيد الموجود » .

وفى مرة كان أحد رجال الشرطة يستمع إليه فقال له : « هل أجرؤ على أن أسألك من هو ذلك السيد الموجود الذى كان سلوكه غالباً سيئاً إلى هذا الحد ، والذى أنت مستاء منه إلى هذه الدرجة » ؟ وهنا أجاب بواندان قائلا « سيدى ، إنه جاسوس من جواسيس الشرطة » .

وفى المسرح كان من الممكن أن أحد أجوبة المأساة يكون موضع شبهة ، ولكن هل كان أحد يستطيع أن يزج فى السجن بالنظارة الذين يصفقون لها ؟ ولا جرم أن كتاباً ماجداً كتيلياك أيضاً يمكن أن يتنفع به فى الدعاية الفلسفية ، فهل كان يجب إحراق تيلياك على سلم قصر العدالة ؟

كان كل ذلك يؤلف جواً انتهى بالمسيحيين أنفسهم إلى الإذعان لفعله :

كان أحياناً أحد باعة الكتب المتجولين يطرق الباب ويترك ، فى مقابل بضعة دراهم ، مخطوطاً من النوع التالى « خطبة تاريخية ضد رؤيا القديس يوحنا (Apocalypse) وفى الوقت ذاته ضد الكتب الأخرى من العهد الجديد » و « جوهر عواطف چان ميلييه » و « وصية چان ميلييه » ، و « النفس المادية » . ولقد بلغت العناوين التى من هذا النوع ، أكثر من مائة عنوان . إذ كانت توجد فى فرنسا جماعة سرية منظمة يساهم فيها فريريه وميرابوو دومارسيه ، عاملين فى فرنسا وكان أعضاؤها مقدمى مخطوطات سواء أكانوا مؤلفين أم نساخاً أم موزعين فى المساكن ، وكان زبائنهم من الأشراف والمتوسطين ورجال الدين فى باريس بل فى الأقاليم .

تلك كانت تجارة مثمرة فى بضائع محظورة ، أصاب فنها الماهر الرأى العام إلى أعماق مجهولة . ولا جرم أن هذه الجماعة كانت تتجه إلى أن تحل محل الكتب التى كان طبعها يبدو أنه مفرط فى الخطورة ، وعند الحاجة كانت تتملك أحدث المنتجات ، ففى أغسطس من سنة ١٧٥٥ كان جريم يجتذب مراسليه من الأجانب بإعلانه إليهم أن مخطوطات كتاب « العذراء » للسيد ڤولتير قد تعددت بصورة لا تكاد تحس ولم يكن مستحيلا أن يظفر المرء من هذا الكتاب بأربع عشرة أنشودة فى مقابل ثمن يتراوح بين خمسة ريالات وعشرة .

غير أنه لم تكن أية سلطة تستطيع أن تمنع الكتب نفسها من أن تطبع وتنشر عندما كان الرأى العام ضدها فلو أن مؤلفاً حظرته الرقابة أو لم يظفر بإذن نقابة المكتبة ، لطبع مع ذلك بفضل المطابع السرية ، تلك المطابع التى يمكن حملها وإخفاؤها فى سهولة . ثم كان يباع فى دور التمثيل ، وفى الحدائق ، بل فى الأمكنة الممتازة التى كانت مملوكة للملك أو للأسرة الملكية ، أو للجمعيات الدينية . أو كان المخطوط يجاوز الحدود فيصل إلى

لوندن أو إلى ليبج أو بيون أو كولونيا أو جنيف أو إيفيردون ، وعلى الأخص هولندا التى كانت مطابع المؤلفات المحظورة مستقرة فيها .

وعندما كان ذلك السفر يطبع ويجلد ، كان يتخذ طريقه إلى العودة وكان من الملاحظات المألوفة أنه بقدر ما يكون ذلك الكتاب محظوراً فى قسوة كان المشترون يطلبونه بصورة أشد حيوية — وهكذا — بمناسبة كتاب توسان « الطباع » — كتبت مجلة « الرسالة الأدبية » تقول : « إن القاضى حين أمر بإحراق هذا الكتاب ، قد ضاعف من الشغف بقراءته كما يحدث دائماً فى مثل هذه الأحوال » . ولقد كتب دالامبير إلى فريدبريك الثانى فى عشرة يونيو من سنة ١٧٧٠ يقول « إنى لا أعرف كتاب « محاولة على الأوهام » الذى عنيت جلالتكم بنقضه ومع ذلك فإنى أعتقد بأن هذا الكتاب قد ظهر فى باريس بل إنه بيع فيها بثمن جد غال . ولكن حسبه أى كتاب أن يمس بعض المواد وأن يهاجم بعض الناس لكى ينقب عنه فى شره ، ومن نتائج هذا أن ذلك الكتاب — بوساطة الاحتياطات التى تتخذها الحكومة لوقف هذا النوع من المؤلفات — يتجاوز كل ثمن . على أن هذه الاحتياطات تعزو إلى المؤلف فى الغالب من الشرف أكثر مما يستحق » ولقد كانت أشد الحالات لفتاً للنظر ، حالة كتاب « التاريخ الفلسفى والسياسى لمؤسسات الأوربيين وتجارتهم فى الهنـــدين » تأليف الأب رينال ، إذ حظر فى فرنسا وسجل فى قائمة الكتب الممنوعة ، ثم مزق وأحرق على أنه زندقة ، وعلى أنه متجه إلى تأليب الشعوب ضد السلطة العليا ، وإلى قلب المبادئ الأساسية للنظام ، فظفر بعشرين طبعة ، وبعدة محاكيات بل قد بيع أجزاءاً ، وجلب إلى مؤلفه نوعاً من الشهرة .

وقصارى القول إن دينيل الأخلاقى الذى كان يدرس «أوهام الشعوب» ، يدعى أن الكتاب يباع سيئاً إذا ظفر بإذن منظم ، وعلى الضد من ذلك هو

يباع بوفرة إذا لم يحمل عبارة « بامتياز » ، وإذا وكل إلى خمسة أو ستة تجار جوالين يحملونه خفية إلى المنازل ويتقاضون عشرة أضعاف ثمنه .

كان پييترو ڤيرى يقيم فى ميلانو وكان أخوه أليساندرو قد استقر فى روما وكانا يتبادلان مراسلات نشيطة يتحدثان فيها عن جدة المكتبة وعلى الأخص عن الجدة المحظورة ، وإليك كيف كانت هذه الأخيرة تصل ، فإما إلى ميلانو فعن طريق سوسرا وبوساطة أرباب مكتبات بارما ، وتوسكانا ؛ وبفضل مؤامرة الرسول الذى أحضر يوماً كتاب « التاريخ الكنيسى » تأليف فلورى وهو كتاب فاضل ، ولكن رسائل ملتهبة قد دست بين مجلداته فى نفس الحزمة . وأما إلى روما فقد كتب أليساندرو إلى پييترو يقول : « لم أتسلم دائرة المعارف ولكنها على بعد اثنى عشر ميلا من روما وإنى أعرف طريقة استقدامها . إنها فى مدينة شيڤيتا ڤيكيا ؛ ومن هنالك سأحضرها إلى ضواحى روما . ثم إنها ستدخل فى مركبة أحد الكرادلة بلا خطر . وهذا هو ما عملته فعلا بإزاء كل ما أتى من لوندن » (٢٩ ديسمبر من سنة ١٧٧٠) .

وفى البندقية فى سنة ١٧٦٤ زيدت قوة الاحتياط والحظر . فأصبح أى صاحب مكتبة لا يستطيع أن يفتح حزمة من الكتب الآتية من البلاد الأجنبية بلا حضور أحد موظفى الجمهورية وإذن فقد كان الأمر يتعلق بمخادعة رجال الشرطة ، فإذا كانت المؤلفات مرسلة من ألمانيا تفتح الطرود فى پادوا ثم من هناك تقسم إلى حزم صغيرة تنقل بوساطة الزوارق التى تنحدر فى نهر بريلتا وعن طريق البريد إذا دعت الحاجة ، وأخيراً تنهى رحلتها عند أصحاب مكتبات ميدان سان ماركو فى البندقية . وإذا كانت الكتب آتية عن طريق البحر ، فإن المعنيين بهذا كانوا يلتقون — أثناء بضع دقائق — بالزوارق التى كانت تتجه من السفينة إلى المرفأ ،

فيأخذون المؤلفات المحظورة ، ويضعون فى مواضعها مؤلفات بريئة وكانت حرية التراسل التى يستمتع بها الساسة ، تلعب أيضاً دورها .

إننا نعرف هذه الكتب بوساطة تقريرات رجال الشرطة المكلفين بضبطها ، والذين ، رغم كل شىء ، كانوا يصلون إلى ضبط شىء منها ، وكانت هذه الكتب من منتجات لوك وكولينس ومانديفيل وبولينبروك ، وهيوم وبيل والماركيز دارچانس ، وهيلفيسيوس والبارون دو لباك ، ففيما يتعلق بروسو ، كان « إيميل » و « العقد الاجتماعى » ، وفيما يتعلق بفولتير كانت « العذراء » و « مسائل حول الموسوعة » و « الساذج » . ولقد كانت هناك أيضاً النشرات الداعرة التى كانت موفورة .

وفى إسبانيا نفسها — وهى أقل البلاد قابلية للاقتحام — كان الفكر المارق عن الأورثوذوكسية ، ينتهى دائماً بأن يتغلغل إليها ، وكان أحياناً فى أقل الصور قابلية للتنبؤ بها . ومن أمثلة ذلك صداقة شخصية مع مؤلف أجنبى عرف أثناء إحدى الرحلات ، ومنها أيضاً تراسل برئ فى ظاهره ، غير أنه تنزلق فيه جمل تنم عما وراءها من مغاز . ومنها كذلك عرض نقدى ينشر فى صحيفة فنشاهد أنه — رغم استشاطته ضد الفكر التى ينقضها — يبدأ ببسطها . وأخيراً كانت توجد ، عدا هذا كله ، التجارة الظاهرة والتجارة الخفية . وهناك عدد كبير من أرباب المكتبات كانوا يساعدون هذا النوع من النشر كجبريل كرامير فى چنيف ، ومارك ميشيل ريه فى أمستيردام ، وفرانسوا چراسيه فى لوزان ، وهذا الأخير هو الذى كتب إلى ج . ج . روسو فى ٨ أبريل من سنة ١٧٦٥ يقول : « ألست تبتسم يا مواطنى المبجل حين تعلم أننى رأيت فى مدريد فى كنيسة الدومينيكانيين الرئيسية وفى يوم الأحد بعد الصلاة الكبرى وفى محضر عدد كبير من الأغبياء كتابكم « إيميل » يحترق فى صورة مجلد من القطع الكبير؟ وذلك

بالضبط هو الذى دفع عدداً من الأشراف الإسبانيين وسفراء الدول الأجنبية إلى اجتلابه بأى ثمن وإلى استيراده عن طريق البريد » .

* * *

ولقد كانت التآمرات آتية من الحاكمين أنفسهم . ومن أمثلة ذلك أن ملك فرنسا قد عين ما لزيرب مديراً للنشر ، ومالزيرب هذا كانت له سياسته الخاصة ، فهو شخصياً كان يرى أن حرية رجال الأدب نافعة للدولة . وأن أى قانون من ناحية أخرى ، لا يمكن أن ينفذ عندما تكون الدولة كلها تساعد على الغش . ولا جرم أن هذا تفكير جيد جداً ، ولكن لماذا نيط مالزيرب بعمل كان يجب أن يمنع طبع الكتب المحظورة وأن يقف تداولها ؟ ذلك لأن ملك فرنسا كان حقاً حامى الدين ولكن مدام دى پومپادور[1] كانت تحمى الفلسفة ، ومن ثم فإن ملك فرنسا لم يرد أن يكون پيرون عضواً بالمجمع اللغوى ، غير أنه أراد أن يمنحه نفقة ثابتة لكى يواسيه . وقد كان يحدث أن تتخذ فجأة تدابير بربرية تثير مشاعر العدالة كما سجن مثلا چيانون غدراً وقضى على كالاسى بالموت عن طريق عجلة الدولاب[2]، ثم لا تلبث القسوة أن تنام فيسود النسيان .

وعلى العموم كان العقاب ينزل بالخاملين ولكن البارون دولباك كان يستقبل كل قادم ، وكان يتباهى علنا بالإلحاد . نعم إن السلطات قد أمرت باعتقال مؤلف كتاب « إميل » ، ولكنها تركت لأصدقائه

---

(١) مدام دى پومپا دور هى أشهر محظيات الملك لويس الخامس عشر وأعظمهن سلطانا فى عهدها (المترجم)

(٢) كان هذا النوع من القتل إمعانا فى التعذيب الوحشى إذ كان يمد المقضى عليه بالإعدام فوق عجلة أفقية ثم تهشم عظامه بقطعة من الحديد وهو على قيد الحياة . وقد أجرى هذا التعذيب على كالاس ظلما كما أثبت ذلك . ڤولتير فيما بعد . (المترجم)

الوقت الكافى لإنذاره وتركت له هو الوقت اللازم لفراره ، بل قد التقى فى طريقه ببعض رجال الشرطة فرفعوا قبعاتهم احتراما له .

حقاً إن مؤلفات ڤولتير المعادية للدين قد وقف سيرها ، ولكنها انتشرت مثلا بوساطة صديقه دافيلافيل الموظف الذى كان يضع فوق الرسائل وحزم الكتب ختم المراقب العام .

ولقد كانت مخطوطات نيجون الملحد سُمّا . وكان ذلك معروفاً تماماً ومع هذا فقد كان يبعث بها فى ســـلام ، إلى أخيه الذى كان مراقباً للكتب فى مدينة سيدان . ومن هناك كانت تلك المخطوطات تمر إلى لييج ثم من لييج إلى أمستردام .

ومن ناحية أخرى ، إذا سايرنا المنطق القويم ، فكيف نعلل أن ڤان سويتين المستشار المفضل للإمبراطورة التقية مارى تيريز ، يبذل كل جهوده لكى يخفى عن عين الرقابة النمسوية المؤلفات التى كانت تلك الرقابة تود أن تدينها ؟ وأن فرنسوا – إيتيين دوق لورين ، وزوج مارى – تيريز نفسها يكون ماسونيا معترفاً به بينما أن الماسونية كانت قد دانتها روما فى صورة محددة ؟ وكيف يعلل أن أسقفية لييج تشغل بماسونى آخر وهو الأسقف ديلبروك الذى يحمى الفلاسفة بوجه عام وخاصة پيير روسو محرر « الصحيفة الموسوعية » التى هى قلعة الزندقة فى الممتلكات النمسوية ؟ غير أن هذه الصحيفة قد راقبتها كلية لوفان اللاهوتية ثم ألغيت فى سنة ١٧٥٩ ونفى الأسقف بيير روسو ، فألقى عصا التسيار فى بويون حيث أسس «صحيفة بويون » التى استمرت فى مهمة « الصحيفة الموسوعية » ، وجعل يتلقى المال من جلالة الإمبراطور الذى طرده .

كان فى كل هذا اتحاد سرى بين السلطة والفلسفة ضد الكنيسة التى كانت السلطة فى الوقت ذاته تدافع عنها .

حقاً إن الحظر – ما دام يراد حظر – كان يمكن أن يكون مستمراً

وقاسياً ، ولكن فى الواقع كانت تمد لهذا شبكة ذات عيون واسعة إلى حد أنه لم يكن من العسير المرور منها .

كانت هناك نوبات من التعصب تتعاقب على التبادل مع الفوضى ، فكانت السلطة تقاوم ثم تتنازل للروح العامة التى كانت عذوبة الحياة تدللها ، أو كانت ترأب التشققات ولكنها لم تكن تلبث أن تدعها تتسع ولم يكن ذلك سوى تناقضات . . . ففى الواقع إن طبقة الأشراف كانت تتمسك بامتيازاتها ، ومع ذلك فقد كانت تسترضى الفلاسفة الذين كانوا يكشفون النقاب عن تلك الامتيازات .

ولقد كان أشـــد الأفاقين تعرضاً للريبة يستطيعون دخول قصور الأمراء ، وكانت جماعة الاكليروس الفرنسى تأبى أن تدفع الضريبة ، وتكتفى بمنح هبة اختيارية تحدد هى مقدارها ، وكانت تقاوم السلطة ، ومع ذلك فقد كانت تستعدى هذه السلطة على غير المؤمنين .

لم يكن اللاهوتيون — كما كان واجبهم يتطلب منهم — يتساهلون فى المعتقدات ، بينما أن الوعاظ الفائزين برضى الجماهير ، كانوا يفضلون ألا يتحدثوا عن هذه المعتقدات ، وكانوا يكتفون بالحديث عن أخلاق عائمة تدنو من الأخلاق الطبيعية دنواً كافياً لكى لا تفزع أحداً . وكان ذلك الهجران للمذهبية يلاحظ أيضاً فى الكنيسة التى تناولها الإصلاح . ولنذكر الاتجاهات العقلية لموجهى الفكر اللوثرى ، ولنضف إلى ذلك أن الكالفانية الفرنسية — مع دفاعها عن نفسها ضد الاضطهاد — كانت مع ذلك تتنازل عن بعض مبادئها الخاصة ، بل إن بعض رعاة جنيف كانوا يرون من واجبهم أن يراقبوا أنفسهم حتى لا يقبـــلوا النتائج المتطرفة للمذهب السوسينى الذى كان الفلاسفة سعداء بأن يروهم يخوضون غماره .

عرّف پول ڤاليرى — بمناسبة كتاب « الرسائل الفارسية » — تعريفاً

فخماً ذلك المعنى النفسى الذى نتج من كل تلك التواطؤات إذ قال : « إن النظام ثقيل دائماً على الفرد ، ولكن الفوضى تجعله يشتهى الشرطة أو الموت ، هذين هما ظرفان متطرفان لا تكون الطبيعة البشرية فيها مستريحة ، فنى الواقع إن الفرد يتقب عن الحقبة المستعذبة التى يكون فيها أعظم حرية ، وأكثر ظفراً بالمعونة . وهو يجدها عند بدء نهاية أحد الأنظمة الاجتماعية . وحينئذ يكون بين النظام والفوضى هينهة لذيذة ، ومن حيث إن كل الخير الذى يجلبه تنظيم السلطات والواجبات يكون قد تحقق فعند ذلك يستطيع الإنسان الاستمتاع بالرخاوة الأولى فى هذا النظام . نعم إن المؤسسات العظمى المهيبة لا تزال قائمة ، ولكنها — دون أن يكون شيء مرئى قد فسد فيها — لا تكاد تملك سوى ذلك الحضور الجميل ، إذ أن نتائجها كلها قد تحققت ، وأن مستقبلها قد نفد بصورة خفية . إن النقد والاحتقار يرهقانها ويخليانها من كل قيمة مستقبلة . وهكذا يفقد الجسم الاجتماعى غده على مهل[1] » .

* * *

منذ أن هدم « بور — روايال[2] » كان الناس يحسبون أنه لن يسمع أحد الحديث عن الجانسينية . غير أن البراءة البابوية الصادرة فى ٨ سبتمبر من سنة ١٧١٣ ، والتى عنوانها « أونيجينيتوس » "Unigenitus" قد دانت مائة عرض وواحد فى كتاب ظهر فى سنة ١٦٧١ تحت عنوان « أخلاق الإنجيل » وقد أعيد نشره عدة مرات تحت عنوان جديد هو « أفكار

---

(١) Paul Valéry, Préface aux Lettres Persanes , dans Variétés, II, 1930

(٢) بور — روايال هودير كان على مقربة من باريس وكان يجتمع فيه الجانسينيون وهم طائفة دينية كانت تعتنق مذهب اللاهوتى الهولندى جانسين (١٥٨٥ — ١٦٣٨) . ورغم سمو أخلاقهم وصلابة طباعهم ، فإن وجهة نظرهم عن النوث الإلهى ، وعن القضاء والقدر قد دفعت البابا إلى أن يدينهم فى القرن السابع عشر ، ثم انتهى . الأمر بهدم بور — روايال فى سنة ١٧٠٩ وبهذا تفرق الجانسنيون شذر مذر (المترجم)

أخلاقية » تأليف الأب كينيل الأوراتوليرى . وبعد هذه الإدانة استؤنف الكفاح ، وظلت الجانسينية أثناء السنوات الطويلة تزلزل وجدان أوربا الديني بدرجات مختلفة .

أزهر هذا المذهب فى مدينة أولتبريك حيث وجد فيها حواريا فى شخص جابرييل دوپارك دى بيليجارد — الذى بوساطة مؤلفاته ورسائله وبأعماله — قد جلب إلى الهرطقة مركزاً من مراكز المقاومة والعمل . وكان له فروع فى هولندا وفى بلاط ڤينا حيث كان يبشر به ڤان سويتين ، وفى إسپانيا حيث اتخذه المدافعـــون عن السلطان الملكى حليفاً لهم ، وفى البرتوغال ، وفى المدرسة الجيرمانية بروما ، وفى ناپولى ، وفى لومبارديا وفى توسكانا .

وفوق ذلك فإن شيپيون دى ريشي الذى عين فى سنة ١٧٨٠ أسقفا فى بيستويا بإيطاليا كان يرحب برسائل الدعاية التى كان يرسلها إليه صديقه بيليجارد ، وكان يتبنى فى أسقفيته سفراً تعليميا مصبوغا بصبغة الجانسينية ، وكان يكتب رسائل أسقفية بنفس اللون ، وكان يعجب بكتاب الأب كينيل ، ويساعد المطابع التى تخرج الرسائل التى تستلهم من آرائه . ولقد أكثر من هذا إلى حد أن تسعين عرضا من العروض التى بسطتها الجمعية الدينية التى عقدها فى ١٨ سبتمبر من سنة ١٧٨٦ ، قد دانتها البابوية .

أما الأحداث فى فرنسا فإن الناس يعرفون كيف أن الملك قد أمر بتسجيل البراءة البابوية ، وكيف أن البرلمان قد ساعد من لم يقبلوها ، وكيف أن آراء الأساقفة قد تباينت فى ذلك ، وكيف أن حرباً دينية قد تبعت ذلك ، وكيف أنه — على قبر القسيس باريس فى مقبرة سان ميدار — قد ظهر عدد من المتشنجين ، وكيف أن المقبرة قد أوصدت ، وكيف أن المعجزات الزائفة قد تعددت ، وكيف أن راهبات قد تجشمن الدوس بالأقدام والضرب بالعصى ، والانسحاق تحت الألواح بل الصلب لكى يثبتن

عقيدتهن الجانسينية ، وكيف أنه ألزم من المؤمنين الذين كانوا يريدون تلقى الأسرار ، بتقديم بطاقات اعتراف معطاة من قسيس خاضع للبراءة ، وكيف أن الجانسينيين كانوا يبلغون البرلمان عن القسس الذين كانوا يأبون منح الأسرار بلا بطاقة الاعتراف تلك ، وكيف أن البرلمان كان يتعقب أولئك القسس ، وكيف أنه بدأ ضد الملكية كفاحا طويلا انهزم فيه ، وكيف أن الرأى العام قد انقسم وتمزق ، وأى انفعال ساد النفوس ، وأية مرارة ؟ ! .

وكذلك ظهرت نتائج كل هذا فى وضوح ، إذ أن أشد موضوعات العقيدة دقة ، قد عولجت فى الميدان العام ، وأن أكثر الناس جهلا قد حسب أنه يستطيع أن يقول الكلمة الحاسمة فيما إذا كانت العروض التى دانتها البراءة موجودة فى كتاب الأب كينيل أو لم تكن فيه . ولقد كان ذلك مألوفا إلى حد أن قوماً عنيدين كأنهم الشياطين — ومن بينهم نساء ضئيلات الفهم بل خادمات — كانوا يقبلون أن يقطعوا أشلاءاً بسبب وقائع أو تفريقات أو تأويلات لا يفهم أكثرهم شيئا منها[1] ، وأن السلطة المدنية قد تدخلت فى الشؤون الدينية وتدخلت بصورة بلغت من الاستبداد حداً جعلها تفقد سمعتها . وأن نظام الدرجات الكنسي كان مهدداً ، فقد كان يقال مثلا لماذا كانت سلطة البابا ولم تكن سلطة الأساقفة الذين هم الأخلاف المباشرون للحواريين ؟ ولماذا كانت سلطة الأساقفة ولم تكن سلطة القساوسة وهم سفراء الإنجيل ؟ ولماذا كانت سلطة القساوسة ولم تكن سلطة المؤمنين الذين يجب أن تكون لهم الكلمة الحاسمة باعتبار أنهم أعضاء الجماعة المسيحية ؟ وبهذا أليِّبَتْ الطبقات الدنيا من الأكليروس لاستهجان الأساقفة وأثيرت السلطة الدنيوية ضد السلطة الروحانية . وفى هذه الفوضى ألفي العقليون موضوعا جميلا للسخرية لم يفتهم أن يستغلوه .

ومما لا ريب فيه أن الجانسينية قد عملت على التدمير فى داخل الدين

---

(1) Journal de l'avocat Barbier, année 1729

الذى كانت تريد الدفاع عنه وفى هذا يقول السيد چورج جويو : « إن العادات وطرائق العمل الجانسينية قد زلزلت نفوذ السيادة الكنسية فى الجماعة المدنية ، إذ أن هذه الكنيسة — وهى التى كانت بإزاء الفلاسفة فى حاجة إلى الترابط قد وجدت فيها ثغرات . وفى الحق أن الحجاج الأتقياء الذين كانوا — فيما بين باريس وموضع أطلال دير الجانسينيين — يقطعون ثلاث عشرة مرحلة من مراحل الحج كما لوكانوا يزاولون السير فى « طريق الصليب » بأورشليم لم يكونوا يرتابون فى أن هذا الدين اليور — روايالى الذى كانوا يقيمون نظام خدماته الأخير ، قد صار بلا قصد ، مورد ڤولتير وديديرو اللذين كانوا يمقتون اسميهما »[1] .

ولكن من الممكن أيضا أنه — حين ألقت الجانسينية بلهائبها الأخيرة ، ولم تعد سوى رماد — اختفى معها من الوجدان العام ، عنصر من عناصر القسوة والصلابة وهو الذى كان الفلاسفة يشعرون بأنه يمثل أعظم المعارضات لتساهلاتهم .

* * *

أما إقصاء اليسوعيين فقد أدهش المعاصرين إذ أن هذه الجماعة كانت لاتزال جد قوية ، فالآباء كانوا أثرياء ، وكانوا كثيرين ، وصفوة الشباب كانت تختلف إلى مدارسهم فى جميع القسم الكاثوليكى بأوربا ، وكانوا يوجهون وجدانات الملوك والملكات ، وكان لهم بعثات فى الصين ، وكان سلطانهم فى المستعمرات الإسپانية والپورتوغالية بأمريكا الجنوبية فوق كل سلطان.

وفى بضع سنوات تهدم كل ذلك ، واتخذت نهايتهم مظهر فاجعة سريعة وحشية .

---

(1) Georges Guyau, Histoire religieuse, dans Histoire de la nation française par Hanotaux, t. VI ch, 6 , la fin de l'Eglise d'Ancien Régime, p. 481.

ولقد كانت المآخذ التى وجهت إليهم قديمة إلى حد أنها كانت تبدو بالية ؛ وكان يتردد أن أخلاقهم مفرطة فى الرحمة وكأنها دائماً مستعدة للتوفيق ، وأن معالجتهم الدقيقة للمشكلات الوجدانية مستعدة لجعل الحق فى جانب الخاطئين ، وأن إلههم الذى كان يمنح الغوث لمن لا يطلبونه ، والذى كان يجد فى جميع الأخطاء باعثاً للتسويغ ، كان ضعيفاً ومنحيزا ، وأنه قد أفرط فى الاختلاط بشؤون هذا العالم ، ناسياً السماء . ولكن تلك كانت أغنيات عتيقة يترنم بها فى غير نصب ، أعداؤهم المغلوبون من الجانسينيين .

غير أن هذه المآخذ قد استؤنفت حوالى منتصف القرن ، وتعددت وصارت عنيفة ومهددة ، فأولت جميع تصرفات اليسوعيين إلى شر ، وصارت جميع أخطائهم إجرامية ، وإذ ذاك ارتفعت ضدهم موجة من الآراء واختطفتهم .

وقد صدرت إشارة التنفيذ الأولى من ليسبوا عن طريق سيباستيان جوزيف دى كارڤالوى ميلو الذى صار كونت دويبراس فى سنة ١٧٥٩ وماركيز دى پومبال فى سنة ١٧٧٠ . وكان مندوب أعمال فى لوندن ثم سفيرا فى ڤيينا ، ولما صعد جوزيف الأول على عرش البورتوغال عينه وزيراً فى سنة ١٧٥٠ ، فلم تلبث سلطته أن صارت ديكتاتورية ، إذ أنه كان يريد أن يصلح البورتوغال وأن يحول فوضاها إلى نظام ، وبأساءها إلى هناءة ، وأن يكون ذلك فورا دون نقاش فى اختبار الوسائل أو فى مشروعيتها أو فى خلقيتها ، على أن هاتين الكلمتين الأخيرتين لم يكن لهما عنده معنى لأنه كان يحطم كل العقبات التى تعترض سلطة الدولة .

إلتقى فى طريق غايته باليسوعيين فبدأ المعركة واقتاد ضدهم حملة مستغلا مواطن الضعف فيهم ومعايبهم وأنواع الحسد وألوان الكراهية التى أثاروها . وقد جعل يضربهم فرادى فى كل مرة يجد فيها الفرصة مواتية . وبعد ذلك

أتت التدابير الحاسمة ، ففى سنة ١٧٥٧ حظر عليهم أن يتلقوا اعترافات الأسرة المالكة ، وأقصاهم عن البلاط ، وفى سنة ١٧٥٨ حظر عليهم الوعظ وتلقى الاعتراف فى كل المملكة ، وفى ٣ سبتمبر من نفس تلك السنة حدثت محاولة الاعتداء على حياة ملك البورتوغال ، فأقحم بونبال ، اليسوعيين فى المؤامرة واعتقل منهم عشرة وسجن ثلاثة . وفى يناير سنة ١٧٥٩ حددت إقامة الآباء فى منازلهم ، وصودرت ثرواتهم وفى ١٧ سبتمبر غادر مرفأ ليسبوا مائة وثلاثة من اليسوعيين مبعدين . وأخيراً ظهر مرسوم تاريخه ٣ سبتمبر أقصاهم نهائيا وحظر عليهم ، تحت عقوبة الإعدام ، الإقامة فى الممتلكات البورتوغالية .

كان بين اليسوعيين المتهمين بالمساهمة فى المؤامرة الأب مالاجريدا "Malagrida" الذى كان الوزير قد تشاجر معه فى المستعمرات التى استدعى منها ، ثم تشاجرا كذلك فى البورتوغال . وفى سجن الأب مالاجريدا قد ضبط مخطوطان من إنشائه ، أحدهما عن حياة القديسة آن ، والآخر عن المسيخ الدجال وكان ذلك كافياً لإرساله إلى محكمة التفتيش على أنه هرطيق وقد حكمت عليه تلك المحكمة بالإعدام فقضى نحبه محرقا فى الساعة الرابعة من صباح ٢١ سبتمبر سنة ١٧٦١ . وكان يمكن أن يعتقد أن بومبال كان فى حاجة إلى تلك اللهائب لكى يعلن انتصاره فى أوربا .

وفى فرنسا أيضاً كان سخط الشعب على اليسوعيين عظيما ، وقد أوجدوا هم أنفسهم الصواعق التى كانت تعد بطريقتين : أولاهما أن الأب بروييه قد أخرج فى سنة ١٧٢٨ سفرا عنوانه « تاريخ شعب الإله » أثر فى الرأى العام تأثيرا سيئاً ، وفى سنة ١٧٥٣ نشر القسم الثانى الذى دانته السلطة الكنسية . وفى سنة ١٧٥٨ ، استهجن القسم الثالث منه أيضاً استهجاناً شديدا ، وقد صدر الأب بروييه فى مؤلفه عن هـــذه الفكرة التى مؤداها أن الكتب المقدسة غامضة ، ولو كانت مترجمة وأنها لا تؤلف تاريخاً تاماً ومترابطا وأنها تقدم مبهمات هى فى حاجة إلى الإيضاح ، وأنها – لكى تعالج جفاف

الوقائع — فى حاجة أيضا إلى تفكيرات خلقية وسياسية من النوع الذى يقدمه التاريخ المدنى . وقصارى القول إن التوراة والإنجيل بل تاريخ الحواريين يعوزها إنشاء منظم وعرض شيق وكان ينبغى إصلاحها . وعلى أثر ذلك نرى أن الأقسام المختلفة المترابطة معا ستؤلف جسما واحداً وأن الشخصيات المتفقة فيما بينها ، ستديم منظراً لا ينقطع إلى النهاية التامة ، وهو المنظر الذى سيفكر فيه الأبطال ويتحدثون ويعملون ، وأن أعمالهم سترسم ولا تعين وأن خطبهم ستسمع وعواطفهم ستستكشف .

ولقد جعل المؤلف يمعن فى مزاولة هذا المشروع بشجاعة ورضى عن نفسه وعمى إلى حد أن أى لوم لم يكن يلحقه .

ومع ذلك — وبالرغم من أن الأب بيروييه كان مجحودا من رؤسائه جحوداً قاطعاً — فان الفضيحة قد وقعت على الجماعة كلها ، إذ أنه أصبح من الهين على أعدائهم أن يقولوا إن اليسوعيين لم يعودوا يكتفون بتلطيف الأخلاق بل أخذوا يزيلون من الكتب المقدسة صبغتها الدينية ، وكانت تلك وسيلتهم لأنهم لو كانوا قد ظلوا على صلابتهم فى موضوعات العقيدة ، ولو أنهم أبانوا للأفراد التافهين والفاسدين إلها فى شخصيات ثلاث ، إلها تجسد فى بطن عذراء لكى يموت على قطعة خشب موتة وضيعة ، ولو أنهم بشروا بالإنجيل فى تمامه ، لكانت الطبقة العالية التى يحبونها ويتطلعون إلى تفضيلها إياهم وإلى الاعتماد عليها ، قد أفلتت منهم ، وإذن فقد كانوا يقدمون إليها « مسيحا » بلا تاج من الأشواك وبلا صليب وبالإجمال لم يكونوا سوى مؤهلين مقنعين[١] .

وثانية هاتين الطريقتين أن الأب لافاليت المفتش العام والمدير الرسولى حين أخفق مالياً فى المشروعات التى زاولها فى المستعمرات ،

---

(1) Lettres théologiques, dans lesquelles l'Ecriture Sainte, la tradition et la foi de l'Eglise sont vengées contre le système impie et Socinien des P. P. Berruyer et Hardouin. par l'abbé Gaultier, 1756. t. III, p. 359 sqq.

وفى مؤسساته بجزيرة « لامارتينيك » ، وحين أراد أن يدفع إلى تجار مارسيليا سلعا ، فاحتجز الحصار الإنجليزى السفينة التى كانت تحمل تلك السلع : وحين رفض اليسوعيون أن يدفعوا عندما حكم عليهم قضاة مارسيليا ، بالدفع ، والتجأوا إلى البرلمان ، وحين أبرزوا نواياهم وشرع البرلمان فى اختبارها ، حين ذاك فقدت الجماعة .

وفى ٣ يولية من سنة ١٧٦١ نطق چولى دى فلورى المدعى العام فى برلمان باريس بقرار الاتهام الذى تبين منه أن وجود هذه الجماعة كان خطراً على الدولة ، وقد سارت برلمانات الأقاليم المختلفة على نفس النحو فالتقرير الذى كتبه عن لوائح اليسوعيين لويس رينيه دى لا شاتوليه النائب العام فى برلمان بريتانيا الفرنسية ، قد ظفر بنجاح خاص وكانت الفكرة الأساسية فيه أن اليسوعيين قد أقسموا على الطاعة المطلقة للبابا حتى فى الأشياء المادية وأن البابا قد نقل سلطته إلى قائد الجماعة ، وأن الجماعة على هــذا النحو تكون ضد الدولة وقوانين الدولة بل ضد جوهر الدولة ، فينبغى أن تدان، وأسرع ما يجب عمله هو أن تنتزع منها تربية الشباب وكانت تحت هذه الفكرة فكرة أخرى وهى أن طائفة الرهبان غير نافعة وخطرة بسبب عددها لأنها تضر القسس الذين يحملون عبء الأيام . وما دام أن اليسوعيين هم أرستقراطية الجماعات الدينية ، فإن ضربتهم تصيب لوائح كل الجماعات الأخريات .

هناك مراسيم متتابعة قد اتخذت ضد جماعة « غير ممكنة القبول بطبيعتها فى دولة منظمة » . وأخيراً فى ١٨ نوفمبر من سنة ١٧٦٤ أقصاها ملك فرنسا من مملكته « الجد مسيحية » .

وبعد ذلك بقليل جاء دور صاحب الجلالة « الجد كاثوليكى »[1] نعم

---

(١) جرت العادة بأن يطلق على ملك إسپانيا لقب الجد كاثوليكى كما كان يطلق على ملك فرنسا اسم « الجد مسيحى » (المترجم)

إنه لم يكن فى منازعة مع روما ولكنه كان على كراهية منها ، لأنه كان يريد أن يدافع ضدها عن امتيازات تاج إسپانيا ، ومن ثم فإن اليسوعيين الذين كانوا خير خدام روما قد انقطعوا عن أن يكونوا ذوى حظوة لديه . وهنا أيضاً قد هوجموا فرادى ، وهنا أيضاً قد استعملت ضدهم خصومة الجماعات الأخريات ،وهنا أيضاً قد اعتزم القضاء عليهم . وفى سنة ١٧٦٦ حدثت فتنة شعبية كانت تدعى بفتنة القبعة فأزعجت الملك شارل الثالث الذى غادر مدريد ، وعندما أخمدت هذه الفتنة ، كان ينبغى العثور على الجناة . ولم يكن إذ ذاك أبسط من أن يقال إن اليسوعيين عليهم نصيب من المسئولية . وعندما كانت البراهين تعوز خصومهم كان يقال إنهم سمَّمُوا الروح العام ، فى حرب هجائية سبقت الفتنة . هكذا كانت الذريعة ، أما وسيلة التنفيذ فقد كان وجودها أكثر صعوبة فى ذلك البلد الذى نشأت فيه تلك الجماعة ، والذى لا تزال ترتبط به عن طريق مجموعة من الروابط ، إذ كان من الممكن أن تخشى اضطرابات .

بيد أن السلطات المدنية قد تسلمت رسائل مختومة كان يجب عليها أن تفضها فى مدريد فى ليلة ٣١ مارس وأول أبريل من سنة ١٧٦٧ ، وفى الأقاليم فى ليلة ١ — ٢ أبريل . ولما فضتها وجدت فيها الأمر باحتلال دور اليسوعيين بوساطة مساعدة القوة المسلحة ، ثم بأن تجمع تلك السلطة الآباء ، وأن تقرأ عليهم أمر النفى الذى كان الملك قد وقعه ، وفى ٢٤ ساعة كان يجب أن يقادوا — تحت مراقبة موكب — نحو مكان عين لاجتماعهم ، وعلى أثر ذلك يقادون نحو المرفأ الذى سيغادرون منه إسپانيا بلا عودة . ذلك ما حدث بسرعة فائقة إلى حد أن المائتين من الآباء الذين كانوا يقيمون فى مدريد قد أبعدوا قبل طلوع النهار بعدة ساعات .

* * *

كانت القوة التى هزمت اليسوعيين هى أولا روح الزمن الجديد أى « عصر الأنوار » ، ومن بين الفلاسفة الذين أبدوا دهشتهم وسرورهم بمناسبة ذلك الحدث الذى لم يكونوا يجرؤون على تمنيه ، والذى أفعم نفوسهم سروراً . ومن أكثرهم وضوحاً : دالمبير ، ففى مذكراته التى عنوانها « عن هدم اليسوعيين فى فرنسا » (١٧٦٥) . يشرح لقرائه أن هذه الواقعة يجب أن تتخذ مكانها بين أشد الأحداث تفوقاً فى عصر سوف يبرز هو نفسه فى تاريخ العقل الإنسانى ، وأنها ستوضع فى نفس الصف الذى توضع فيه الزلازل والحروب وانقلابات الأحلاف ، ومحاولات اغتيال الملوك ، وهى جديرة بأن تنال كل انتباه ، فنى الواقع أن هذه الجماعة كانت أسمى كل الجماعات بسبب المكانة العالية التى كان اليسوعيون يحرزونها فى العلوم والفنون ، وانتظام سلوكهم وطباعهم وأيضاً بسبب المهارة التى كانوا يضعونها فى التوفيق بين الأخلاق والضعف البشرى .

عرفت هذه الجماعة فى عصر لويس الرابع عشر ، أرفع درجات هنائها ، ولكنها الآن قد هوت لأنها أرادت أن تسود جميع الأرض ، ولا شيء يشوك العقول المفكرة بقدر ما تشوكها رؤية رجال تخلوا عن العالم ، وهم يتطلعون إلى حكمه . ولقد أجاد لاشاتوليه إذ قال فى هذا الصدد : « إن الروح الراهبية هى وباء الدولة ، وإن اليسوعيين — من بين جميع الذين تحركهم هذه الروح — هم الأشد ضرراً ، لأنهم هم الأشد قوة ، ولذا فبهم ينبغى البدء فى التخلص من النير » ، لأنه إذا انهزم رئيس الجيش تفرق الباقى خلال الغابات . وعندما يتأمل دالمبير فى الأسباب الصغيرة التى أتت بهذه النتيجة العظمى ، وفى أن العاصفة قد هبت من أشد الدول ارتباطاً بالقسس وبالرهبان ، وفى أن طائفة

مختصرة ومهينة قد أتمت المشروع الذى لم يستطع پاسكال ، وأرنو ، ونيكول تنفيذه ، عندما يتأمل فى كل هذا يعين العدو الحقيقى الذى إليه يرجع مجد الانتصار ، وهو الفلسفة ، فهى التى أصــدرت الحكم ضد اليسوعيين ولم يكن الجانسينيون سوى ملتمسين .

غير أن القوة التى هزمت اليسوعيين بعد ذلك إنما هى غريزة الدولة وإرادتها[1] التى لم تكن تريد أن تقر فوقها ولا بجانبها قوة ليس لها عليها سلطان ، إنما ملوك أسرة بوربون هم الذين عملوا فى عنف ضد هذه الجماعة لأنهم لما كانوا ملوكا لأشد الممالك كاثوليكية ، فقد كانوا يشعرون — فى قوة بالغة — بالحاجة إلى قطع الصلة بينهم وبين خدام روما — وإذا كان فريديريك الثانى ملك بروسيا قد استقبل اليسوعيين فى ولاياته البروتستانتية فذلك لأن سلطانه لم يكن لديه ما يخيفه منهم[2]. أما چوزيف الذى كان وصياً على عرش الإمبراطورية النمسوية مع والدته مارى تيريز ، فقد كان من الممكن أن يقصيهم فى غبطة إذا صدقنا ما كان يسرّ به إلى شوازول رئيس وزراء فرنسا ، إذ كان يكتب إليه قائلا : « أما فيما يتعلق باليسوعيين ، وفى مشروعك بمحوهم ، فإن لديك استحسانى التام لذلك . ولكن لا تعتمد كثيراً على والدتى لأن الارتباط بجماعة اليسوعيين قد صار وراثياً فى أسرة بيت أبسبور وأن برهان ذلك عند البابا كليمان

(١) فى عصر الملكية المطلقة كان مؤدى الدولة والحكومة والملك واحدا . وقد دون لويس الرابع عشر ملك فرنسا هذا المعنى فى سجل التاريخ بعبارته المشهورة وهى : « إن الدولة هى أنا » . (المترجم)

(٢) إن الملك الكاثوليكى تلزمه كاثوليكيته بأن ينفذ أوامر البابا الواردة على أيدى خدامه اليسوعيين وقد تضايقه هذه الأوامر فى سلطانه الدنيوى فمن صالحه إذن أن يتخلص من هؤلاء الخدام ليستمتع بسلطته مع احتفاظه بكاثوليكيته . (المترجم)

الرابع عشر : ومع ذلك فإن كونيز هو صديقها وإنه يستطيع أن يفعل ما يريد بالإمبراطوارة ، وهو من حزبك وحزب الماركيز دى بومبال فيما يختص بمحو اليسوعيين ، وهو رجل لا يرضى بأنصاف الحلول :

يا شوازول ، إنى أعرف هؤلاء الناس كما يعرفهم أى خبير بهم . وإنى أعرف جميع المشروعات التى نفذوها ، والجهود التى بذلوها لنشر الظلمات على الأرض ، ولحكم أوربا وسيادة الاضطراب فيها ، من رأس فينيستير إلى بحر الشمال . إنهم فى ألمانيا مثقفون ذوو تأثير ، وفى فرنسا مجمعيون ، وفى إسبانيا والبرتوغال هم عظماء الدولة ، وفى پاراجواى ملوك . . . كل ذلك كان فى الماضى يا شوازول لأنى أتنبأ بأن الأمور ستتغير » .

وبعد أن أقصيت الجماعة من جمهورية البندقية ، ودوقية پارما ، ومملكة صقليا ، وبعد بضع مقاومات عابثة ، ألغيت الأخوة اليسوعية كلها فى ٢١ يولية من سنة ١٧٧٣ بمقتضى براءة بابوية عنوانها « الرب هو المنقذ » "Dominus ac Redemptor" .

* * *

بيد أنه كان من العبث أن كايمان الرابع عشر فى هذه البراءة قد جعل يهيب بجميع أعضاء المسيحية ، ويتوسل إليهم باسم هذه التضحية نفسها أن يعيدوا استقرار سلام الكنيسة أمام المهاجمات الضاغطة الآتية من العدو المشترك ، لأن المؤمنين قد اختلط عليهم الأمر ما دام أن رعاتهم لم يكونوا يكفون عن الشكوى من تقدم اللادينية ، وأن الفلاسفة لم يكونوا يكفون عن التباهى بنفس هذا التقدم للادينية وأن الحاجز كان قد تحطم وأن موجة الزندقة قد ارتفعت .

ومع ذلك فهل كان حقاً أن أولئك الفلاسفة الذين استولوا إذ ذاك على زمام الفكر ، قد انتزعوا قلوبهم المسيحية القديمة ؟ وهل الاعتقاد

لا يتعقبهم إلى أعماق تمردهم ؟ أولم يبسطوا جميع المشاكل من الحيثية المسيحية ، وليس خارجها ألبتة ؟ أو لم يبرز تحرشهم نفسه وجود قوة عنيدة لم تغلب ألبتة ؟ . وأيا ما كان فإنهم كانوا يحسبون أنفسهم قد تحرروا ، وإن مؤرخ الأفكار يجب عليه ، قبل كل شيء ، ألا يسجل لحسابهم ذلك المجهود الضخم الذى بذلوه لكى يحولوا أوربا المسيحية التى وجدوها أمامهم ، إلى أوربا غير مسيحية . وإن ما يجب على هذا المؤرخ أن يدرسه بعد ذلك ، هو ما عرضوه لكى يحل محل ما هدموه .

القسم الثاني

مدينـــة الأناسى

الفصل الأول

الدين الطبيعي

ستبنى مدينة الأناسي حسب تخطيطات بسيطة عندما تكون قد تهدمت تلك العمارات المهوشة التي كانت تغطى الأرض ، بل تلك التأسيسات العتيقة التي لم تكن تسند سوى بنايات فشلت . وإذ ذاك تقوم فوق أرض مستوية ، هذه المبانى المنطقية . ولا جرم أن عمالها — دون أن يبحثوا عن أن يستخدموا الماضى وأن يحسنوه بإصلاحات فى التفاصيل ، وهو عمل مفرط فى البطء — سيقيمون تخطيطاً كاملا لسكان سينتهون إلى الكف عن الاعتقاد بأن ليس لهم سوى بابل كمسكن وسوى سماء غير يقينية كأمل .

هناك كلمة كانت تثير الجرآء الذين كانوا يشرعون فى العمل ، كلمة سحرية قد أضيفت إلى تينك الكلمتين اللتين رأيناهما سابقاً أى العقل والنور ، وهى كلمة الطبيعة ، وكانوا يعزون إليها فضيلة أكثر أثراً ، ما دام أن الطبيعة كانت منبع النور ، وضمان العقل ، كانت هى الحكمة ، وكانت هى الخيرية ، ولو أن إنساناً كان يقبل أن يستمع إلى الطبيعة ، لما انخدع أبداً لأن حسبه أن يطيع قانونها المحسن .

وهكذا للبدء فى هذا العمل يجب أن يصير الدين طبيعياً . يصير طبيعياً لأنه حينئذ لا يكون سوى انبثاق من الطبيعة ، ولأنه سيتبع الغريزة التى وضعتها الطبيعة فينا لكى تسمح لنا بأن نميز الحق من الزائف والخير من الشر ، وأيضاً لأنه — بدلا من أن يجعلنا نعتبر حياتنا الفانية على أنها محنة — سيخضع لقانون الطبيعة الذى يريد سعادتنا بلا محنة :

مضى زمن طويل منذ أن أعلن أنبياء مجىء الدين الطبيعى ، وقد أعد فى بطء وفى عمق غير معروف للجماهير ، ولكنه منذ الآن يبدو فى وضح النهار ، ولم يكن

محتواه هو الذى جعله يظهر كأنه حدث عجيب ، بل هو كبرياؤه وجرأته .

كان من الممكن أن يحتفظ فيه بإله ، ولكنه يكون بعيداً وباهتاً إلى حد أنه لن يضايق مدينة الأناسي بمحضره ، وأنه لن يحدث فيها اضطراباً بسبب غضبه ، وأنه لن يكدرها بمجده . ولا ريب أن هذا التأليه فيه سيكون نتيجة لعملية عقلية نقيـــة تنتهى إلى جزم عنصرى وكاف وهو وجود الإله ، ففى الواقع إن نظرة واحدة تلقى على الخلق تكفى لملاحظة نتائج جديرة بالإعجاب . ولما لم يكن من المستطاع تصور نتائج بلا علة ، فإنه ينبغى إذن ، فرض علة أولى ، ولأنه لا توجد ساعة بلا (ساعاتى) وأن لدينا أمام أعيننا ساعة جيدة الضبط ، فإنه يوجد إذن ، عامل ماهر قد صنعها وأنه هو الذى ينظم ضبطها وهو الإله .

لأية غاية انتزع الإله العالم من العدم ؟ حقاً إن الإجابة محيرة ، ولكنه يكون أشد مدعاة للحيرة أيضاً أن يقر الإنسان فرض عالم لم ينشئه أحد وهو يسير بالمصادفة ولا يتجه نحو أية غاية . ولا جرم أن هذا يساوى القول بأن كائنات عاقلة ، يمكن أن تخلق بلا تدخل العقل . وإذن فيجب علينا حسب المنطق القويم ، أن نفضل العسير على المستحيل ، وأن نقر العلل الغائية وذلك حل يمكن أن يكون مرضياً .

إن التأليه يحقق نوعاً من التطهير ، ففى الواقع أننا إذا محونا كل ما يبدو لنا خرافيا فى الكنيسة الرومانية ثم فى الكنيسة المصلَّحة ، ثم فى كل كنيسة وفى كل مذهب ، فإنه فى نهاية هذه الانمحاءات سيبقى إله ، ولكنه إله غير معروف وغير ممكن المعرفة . ومن ثم فإنه لا يكاد يحتفظ له بغير الكينونة ومن بين جميع النعوت الممكنة لم يعط سوى أشدها إبهاما وأكثرها إجلالا ، وقد دعى بالموجود الأسمى .

ما فائدة الأسرار ؟ والطقوس ؟ والكنائس ؟ والمعابد بجميع أنواعها ؟ فجزيرة العقل ستكون أكثر جمالا بلا قباب وبلا أبراج للنواقيس . ولماذا يوجد

القسس أو الرعاة ؟ إذ أن الإله لا يمكن إجلاله إلا بالغادة الباطنية التى تثوى فى النفس . وقصارى القول إن إقرار المرء فى العموم بموجود أول ، وتوجيه قلبه من وقت إلى آخر نحوه ، وامتناعه عن الأفعال التى تخل بالشرف فى البيئة التى يقيم فيها ، وتأدية بعض الواجبات فى المجتمع ، هذا هو الضرورى الوحيد ، وكل ما يبقى بعد ذلك هو عرضى . وفى عداد تلك الواجبات لا تدخل المناسك الدينية العملية التى تحول المؤمنين عن العبادة الحقيقية لأنهم — بانشغالهم فى سماع الوعظ — يهملون معونة الغير . وبهذه المناسبة يروى توسان المؤله[1] القصة الآتية . . .

كان مع أورجون رفيقة وحيدة وهى ابنته ، فيلوتيه ، وفى أحد الأيام هوى فى إغماء طويل ، فجعلت تنشقه أحد السوائل المألوف استنشاقها إذ ذاك فى مثل هذه الحالة ، فلم يخفف هذا الدواء شيئاً عنه ، وفى أثناء ذلك حلت ساعة الصلاة ، فوكلت فيلوتيه أمر أبيها إلى الإله وخادمتها وتناولت غطاء رأسها وكتاب صلاتها وهرولت نحو الكنيسة . ولما كانت الصلاة طويلة فقد توفى أورجون ، دون عون . . . غير أن فيلوتيه قد حسبت أن رنين الناقوس هو صوت الإله الذى كان يدعوها ، وأنه يعتبر عملاً بطولياً أن تفضل أمر السماء على صرخة الأبوة ، وهكذا عند عودتها قدمت فى سخاء ، حياة والدها ضحية إلى الإله ، وحسبت أن عبادتها ذات قيمة لأنها كلفتها كثيراً[2] .

وأخيراً يختتم توسال قصته معلناً أنه لا شىء يمنع الأناسى من أن يسلموا أنفسهم . إلى الفضيلة عندما تكف فيلوتيه عن استعمالها إشارة الصليب[3] .

---

(١) المؤلهون هم أصحاب مذهب الدين الطبيعى وهم الذين يؤمنون بوجود الإله ، ولكنهم ينكرون الوحى فى أى دين وقد نشر هذا الدين فى القرن الثامن عشر . (المترجم)

(2) Toussaint, les Moeurs, 1748, Discours préliminaire sur la vertu.

(٣) يريد المؤلف أن يقول إن الناس يستطيعون أن يقوموا بالواجبات الحقيقية عندما يكف الموسوسون عن التفانى فى المظاهر الدينية الخارجية . (المترجم)

يتطلب الدين الطبيعى التخلى عن صور الابن على صليبه ، وصور جمعية الملائكة ، ووجوه القديسين المبدلة ، وهجران التقاليد التى كانت تقتاد المؤمنين حول حظيرة الرب فى عيد الميلاد ، بل إن الأطفال أنفسهم لن يكون لهم الحق فى أن يعبروا الإله جسما وأذرعة يجتذب بها ، وأيدى يبارك بها ولكى لايصنع منهم وثنيين ينبغى أن يحظر على الأساتذة الأولين كل إشارة ، وكل تعبير يحتمل أن يدع تلاميذهم يحسبون أن الموجود يمكن أن يكون ممثلا . ويروى بهذه المناسبة أن القسيس فوتان ، وهو رجل عالم ، عندما كان يزور فى أحد الأيام ، آباء الصحراء ، ألفى بينهم راهباً فاضلا يدعى سيرابيون كان جدياً وذا سلوك لا يؤخذ عليه شىء ، ولكنه كان معتاداً أن يتمثل الإله فى شبه الفانين ، فتحدث فوتان إلى سيرابيون الشيخ وأصلح خطأه ثم استأنف سفره — غير أن سيرابيون منذ تلك اللحظة حين كان يريد الصلاة ، كان يهوى فى يأس عظيم ويقول : « وا أسفاه ! كم أنا تعس ! لأنهم انتزعوا منى إلهى ! ولم أعد أعرف الآن بمن يجب أن أرتبط ، أو من يجب أن أعبد ، أو إلى من يجب أن اتجه . . . »[1] .

أما فيما يتعلق بسيرابيون المسكين وبأسفه ودموعه ، فإن المؤلهين لو شاهدوا ذلك لما وجدت لديهم رحمة بل لوجد لديهم احتقار فقط .

كانوا يؤملون أنهم ، باحتفاظهم بهذه الديمومة للإله ، يحققون عمومية أكثر اتساعاً من العمومية التى حققتها الكاثوليكية نفسها ، لأن دين المسيح عندهم — وهو لم يبدأ إلا منذ تاريخ حديث نسبياً ، ولم يقدم إلا إلى أقلية من سكان الأرض — هو محدود بصورة مزدوجة ، بينما أن الدين التأليهى كان يجد أنصاره فى عظم الزمان والمكان . وفى هذا يقول ڤولتير : « إننا نعلن أن ديننا قديم بقدم العالم ، وأنه هو دين آدم وشيث ونوح ، وأن « لى »

---

(1) Jean Brémond, Les Pères du Désert, 1927, t. II, p. 524—526.

وشانجتي ، وتيان الذين كان السير(١) يعبدونهم . وبراهما الذى كانت شعوب الخانجيز تعبده ، وذلك الكائن العظيم الذى يدعى هوروماز عند قدماء الفارسيين ، وأن ديميورجوس الذى مجده أفلاطون عند الإغريق ، وجوبيتر الذى هو جد عظيم وجد خير عند الرومان هم صور مختلفة لإله واحد للموجود الأعلى »(٢) . ولقد كان ڤولتير يعتقد أنه لو وجد سكان في نجوم المجرة ، لكان أولئك أيضا مؤلهين وقد كتب فى هذا يقول : « كنت أتأمل فى هذه الليلة ، وكنت منغمساً فى مشاهدة الطبيعة ، وكنت أعجب بعظم وسير وعلائق هذه الكرات غير المتناهية التى لا يعرف الدهماء كيف يعجبون بها ، وكنت أعجب أكثر من ذلك أيضاً بالعقل الذى يرأس تلك الحركات الواسعة وكنت أقول لنفسى ينبغى أن يكون المرء أعمى لكى لا يبهره هذا المنظر ، وينبغى أن يكون غبياً لكى لا يقر بمنشئها ، وينبغى أن يكون مجنوناً لكى لا يعبده ، وأية صورة من العبادة يجب أداؤها إليه ؟ وهذه الواجبات ألا ينبغى أن تكون هى ذاتها فى كل الكون ؟ ولو أن كائناً مفكراً يقيم فى أحد نجوم المجرة ، أفليس يجب عليه له نفس الإجلال فى جميع الكون ؟ إذ أن النور هو ذاته بالنسبة إلى كوكب الشعرى وإلينا . . . »(٣) .

وإذن فلن يقصى أحد عن هذا الدين الطبيعى ، ولن يقضى فيه على أحد لأن كل مخلوق بشرى سيأخذ بحظ منه . ولقد ساهم فيه الأمريكيون ولو أنهم منعزلون فى قارتهم غير المستكشفة ، وكذلك الوثنيون قد اشتركوا فيه أى جميع الوثنيين ذوى النية الحسنة الذين عاشوا قبل الوحى المسيحى

* * *

(١) السير هو إسم كانت أهل العصور الأثرية الغابرة يطلقونه على شعوب الشرق الأقصى . (المترجم)

(2) Voltaire, les Adorateurs ou les louanges de Dieu, 1769.

(3) Voltaire, questions sur l'Encyclopédie, art. Religion, 1771.

ماذا كانت قوى الإلحاد إلى جانب التأليهية ؟

ينبغي بدياً أن يعد بين أنصاره بعض ورثة تقاليد حرية الفكر ، فمن أمثلة ذلك أن جريم يحدثنا : « أن قسيساً قصيراً أحدب يدعى ميهيجان — حين اضطر بوانداان الشهير إلى هجر مقهى پروكوپ الذى كان يبشر فيه بالإلحاد فى صراحة — قد أراد أن يخلفه فى هذه المهمة الجميلة ، ولما لم يكن مكتفياً بأن يخطب فى ذلك بصوت عال فقد ألف كتاباً رديئاً عنوانه « زرواستر » سحق فيه كل وحى لكي يقر قرار المذهب الطبيعي . وقد تسبب هذا الكتاب الصغير فى أن يزج به فى غياهب « الباستيل » أكثر من سنة »[1] .

ومنها أيضاً أن البيرتو راديكاتى دى باسيرانو ذلك الإيطالى الساخط على الجميع وعلى نفسه ، والذى لم يكن له بد من أن يغادر بلاده وأن يذهب إلى انجلترا حيث تحالف مع توماس مورجان ، ثم مر بهولندا حيث توفى دون أن يترك ما يدفع منه نفقات دفنه . وقد انتقل البيرتو راديكاتى من الكاتوليكية إلى الكالڤانية إلى التأليهية ، ومن التأليهية إلى الإلحاد . وعنده أنه لا توجد فى هذا العالم عدالة ولا حياة أبدية ، وأن فكرة البدء هى مستحيلة كفكرة النهاية ، وأن الموت ليس سوى انحلال عناصر تستخدمها الطبيعة لتصنع منها كائنات جديدة ولا ينبغى الخوف منه . وإذا كان المرء تعساً فلينتحر بكل بساطة .

ولا جرم أن هؤلاء الثائرين كانوا يبرزون من مجموعة جعلت تصير أقل عداوة لجحودهم ، ففى الواقع أن الناس — بدلا من اعتبار الملحد كأنه مجرم — كانوا يغتبطون بأن يمنحوه شيئاً من الظروف المخففة ، كأن يقولوا مثلا : قد لا يكون إلا رجلا مخدوعاً . على أنه ، احقاقاً للحق ، كان هناك نوعان من الملحدين أولهما الملحدون الفاسقون الذين لا أخلاق لهم ، والذين هم ضد الدين لأن الدين يشهد ضد حياتهم ».

(1) Grimm, Corres. littéraire ,t. ,II , p. 218, 1754.

وهؤلاء يستحقون الذم ، وهناك أيضاً ملحدون فضلاء يحبون ما هو خير ومعقول وجميل . وكان هؤلاء يعزون الإنسانية ويبدون اجتماعيين ، وهم لم يهووا فى الإلحاد إلا بسبب شرفهم الطبيعى ، ولكنهم رضعوا الخرافات مع لبن مراضعهم ، وحينئــذ خلطوا بين الخرافة والدين ، وذلك سوء فهم خليق بالصفح ، ومع ذلك فإن إصلاح الملحد أيسر من إصلاح المتحمس أو المتعصب .

أجل إن كثيراً من أولئك الذين تبعوا مزاعم بيل قد عنوا بأن يضيفوا — لكى يدافعوا عن الملحد — أنه كان مخطئاً بلا ريب . غير أنه رغم ذلك ، لا ينبغى أن يعطى الدرجة الأخيرة من سلم الأناسى . على أنه ، ألم يسئ استعمال هذا الاسم ؟ أو لم يكن يستخدم لإلقاء الاحتقار على فلاسفة جد خليقين بالاعتبار لم يكن لديهم خطأ آخر سوى إرادة تبديد تسرعات الجماهير ؟ أو لم يطبقوه على مفكرين جديرين بالإعجاب كسقراط ؟ أو لم يحرقوا ڤانينى بسبب الإلحاد ؟ ومع ذلك فإن ڤانينى لم يكن ملحداً .

وإذن فقد كان من المقرر أن التأمل الطويل ، والدراسة العميقة ، والتطبعات الخيرة ، والتخلى الكامل عن التسرعات ، يمكن أن ينتهى بعبقرية عظيمة إلى الإلحاد ، أو أن الإلحاد كان رذيلة بعض ذوى الذكاء . ولقد شاهد الناس للمرة الأولى ملحداً ، وهو السيد دى ڤولمار ، يتخذ صورة بطل جذاب فى أشهر روايات العصر وهى « إيلواز الجديدة » لجان چاك روسو .

ولا جرم أن ظل الرحمة هذا الذى كان يخلف قسوة تامة ، يشف عن تعديل أولى للحالة العقلية الماضية . وهاك الآن التعديل الثانى :

* * *

حدث فى تلك الحالة العقلية انزلاق نحو مادية فلسفية ، ففى الواقع

لم يكن هناك شيء أكثر ثباتاً إلى ذلك العهد ، من مبدأ أن الروح تختلف اختلافاً جوهرياً عن المادة . وبينما كانت الحال على هذا المنوال إذ بهذا الاختلاف ينمحي بسبب رجل كان يريد أن يبقى مسيحياً ، وهو لوك ورجل آخر كان يريد أن يظل على مذهب المؤلهين وهو ڤولتير . إن الأمثلة عديدة على أن هناك فكراً قد انحرفت واتخذت على معنى مضاد ووجدت نجاحها فى هذه الضـــدية . وإن الفكرة التى نتحدث عنها قد أفلتت من مبتدعها وخدعته لأنها انشئت لتبرز القدرة الإلهية فاستخدمت فى الخلط بين الروح والمادة ، وفى أن تستحسن — بإزاء طائفة من الفلاسفة — عدم فائدة ما كانوا يسمونه نظرية النفس ، ففى الواقع أن لوك قد احتفظ بضمير متزمت ، وكان يتخذ الإنجيل قاعدة لعقيدته ، وكان يغتم عندما كان الناس يعدونه بين الزنادقة . ولكنه لما كان مشغولا بتعيين الحدود الضيقة لمعرفتنا ، فقد أبان ما نحن فيه من استحالة العثور على اليقينيات التى نتوق إليها إذ قال : « إن لدينا مثلا فكر المربع والدائرة ، وما يشتمل على المساواة . ومع ذلك فمن الممكن أننا لن نكون أبداً قادرين على أن نجد دائرة مساوية لمربع ، وأن نعرف ما إذا كان ذلك يوجد بطريقة يقينية . وكذلك لدينا فكر عن المادة والفكر . ولكننا قد لا نكون قادرين على أن نعرف ما إذا كان الكائن المـــادى المحض يفكر ، أو لا يفكر ، لأنه من المســتحيل علينا أن نتبين — بوساطة تأمل أفكارنا الخاصة ، وبلا وحى — ما إذا لم يكن الإله قد منح ، بعض أجرام من المادة المزودة بالاستعداد الذى يبغيه هو ، المقدرة على التصور والتفكير ، أو ما إذا كان قد ضم إلى المادة المستعدة على هذا النحو ، جوهراً غير مادى يفكر[1] . . . »

(1) An Essay concerning Human understanding, livre 4, ch. 3 — traduction Coste.

استهوت هذه الفقرة ڤولتير فوقف أمامها حين خصص الرسالة الثالثة عشرة من رسائله الفلسفية للوك الذى لا ند له ، كما كان يدعى فى ذلك الحين ، فسردها بعد أن خففها بلون من ألوان المرح ، لكى لا يصطدم وجها لوجه « بسادتنا اللاهوتيين أولئك القوم الذين يرون فى وضوح ، روحانية النفس إلى حد أنهم يحرقون ، لو استطاعوا ، أجسام من يرتابون فى ذلك » .

هكذا كان ڤولتير يتحدث إلى أصدقائه ، بينما كان فى النصوص المعدة للكافة ، أكثر تبصراً ، ولكن خطته كانت جد حازمة إذ يقول : « إن لوك بعد أن دمر الفكر الفطرية — جعل أخيراً يختبر امتداد المعارف البشرية أو بالحرى عدمها ، وهو فى ذلك الفصل يتجرأ على أن يقدم فى تواضع ، هذه الكلمات : من الممكن ألا نكون أبداً قادرين على أن نعرف ما إذا كان هناك كائن مادى محض ، يفكر أو لا يفكر » .

على أثر ذلك دق اللاهوتيون والمتدينون ، نواقيس الخطر ، وفى هذا يقول ڤولتير : « لقد حسب الناس أن لوك كان يريد أن يقلب الدين ، ومع ذلك فلم يكن الأمر فى هذا الشأن ، يتعلق بالدين ، وإنما هى مسألة فلسفية محضة جد مستقلة عن العقيدة والوحى ، فكان ينبغى فقط أن يختبر المرء بلا حدة ما إذا كان هناك تناقض فى أن يقال : إن المادة يمكن أن تفكر ، وإن الإله يستطيع إمداد المادة بالفكر » .

عاد ڤولتير عشر مرات ، وعشرين مرة ، إلى نفس الفكرة وزينها حسب طريقته وصيرها براقة ، ومنحها اتساعا جديداً . فمن قبله ، وعلى أثر نشر كتاب « محاولة عن العقل البشرى » كان الأصدقاء والأعداء قد تناقشوا فى موضوعه : كان إدوار استيلينفليت أسقف وورسيستر قد احتج ورد عليه لوك ، ولخص كوست مترجمه إلى الفرنسية ، ذلك الرد بقوله : ولقد رجع السيد لوك إلى القول بأنه لا يوجد تناقض منطقى فى

أن يفرض المرء أن القوة الإلهية الكاملة ، يمكن أن تذهب إلى حد تزويد المادة بالفكر ولا شيء أكثر من ذلك. ولقد استخلص بيل ما احتوت عليه جميع الصيغ وساءل هذه الصيغة عن معناها بالضبط ثم قال : «إن مذهب السيد لوك هذا ، ينتهى بنا إلى ألا نقر سوى نوع واحد من الجوهر المتحيز الذى يتصل بالامتداد عن طريق إحدى خاصياته ، وبالفكر عن طريق الأخرى ، وإذا أقر هذا فلن يمكن أن يستنبط منذ الآن أنه لو فكر الجوهر لكان غير مادى» . ولقد فهم كولينس وتولاند الفائدة التى يمكن استخلاصها من حجة يزيد من نفاستها أنها آتية من خصمهما ، وقد اغتبطا بذلك فى شيء من الخبث . وأما ليبنيز فقد اغتم بسبب أن الدين الطبيعى نفسه قد جعل يضعف ضعفاً شديداً لأن كثيرين يرون أن النفوس جسمية ، وآخرين يرون أن الإله جسمى ، وأن السيد لوك وأشياعه يرتابون فيتساءلون عما إذا لم تكن النفوس مادية وقابلة للفناء . ولقد وضع كلارك الأمور فى نصابها عنــدما رد على ليبنيز فقال : نعم إن عدة مواضع من مؤلفات السيد لوك يمكن أن تجعل المرء يظن أنه يرتاب فى لا مادية النفس ، ولكن لم يتبعه فى ذلك إلا بضعة من الماديين الذين لا يكادون يستحسنون من منتجات السيد لوك سوى أخطائه .

وإذن فهذه الفكرة كانت تعيش منذ نصف قرن من الزمن ، وكانت قد حُمِّلَتْ عبئاً ثقيلا من المناقشات والتأويلات ، حين أعاد ڤولتير انبجاسها من جديد ، وقد ألقاها بسيطة وجلية إلى حد استدعى احتفاء عقبة قد ظن أنها لا تذلل ، وهو فى هذا يقول : « إن رسالتى عن لوك تتلخص فيما يلى : إن العقل البشرى لايستطيع أن يثبت أن من المستحيل على الإله أن يضيف الفكرة إلى المادة . وإنى أعتقد أن هذه القضية توازى فى حقيقتها، القضية التالية : إن المثلثات التى تتحد قواعدها وارتفاعاتها ، متساوية »[1]

---

(1) Voltaire a M. de la Condamine 22 juin 1734.

وهكذا بعد ڤولتير ، قد اعتبر خصوم الروحية أن المسألة قد سويت، واتخذوا حجته فيها على أنها حاسمة ، وجعلوا يسألون : لماذا توجد ثنائية فى الجوهر ؟ وقد قال لوك إن النفس يمكن أن تكون مادية .

• • •

حدثت أيضاً محاولة نحو مادية علمية ، مجملها أن كل الحياة تتضح بالمادة وحدها ، هكذا كان يقول بعض العلماء الذين كانوا يهبون لمساعدة جرآء الفلاسفة مع ازدرائهم إياهم قليلا ، إذ أنهم كانوا يزدرونهم كقوم يرتضون الألفاظ الجوفاء ، وهم – ولو أنهم يدعون أنهم لايعبأون إلا بالوقائع – لا يعملون عقولهم إلا فى ألفاظ ، بينما أن أولئك العلماء الذين كانوا مؤمنين بأنهم كذلك ، كانوا يتحدثون بوصف أنهم ملاحظون يدرسون الطبيعة فى صورها الحية ، ويعرفون ما هى ، فكانوا – فى كتاب بعد كتاب وفى صورة تشبه العناد – يتناولون الحوار حول مسألة معرفة ما إذا كان للحيوانات نفوس أو لا ، لأنهم كانوا يرون أن الروحيين أنفسهم يقدمون إليهم حجة جد نفيسة بقولهم إن الكائنات العضوية المنظمة ، تستطيع أن تحيا حياة جيدة مستغنية عن النفوس .

حقاً إن مذهب إبيكور ونظرية الذر وائتلافه ، والمحاولات التى لاتحصى والتى انتهت إلى تلك اللعبة السعيدة التى كونت العالم ، قد بقيت عزيزة على عقولهم ، ومع ذلك فإن تلك المذاهب لم تكن تبدو لهم قادرة على أن تشرح شرحاً تاماً ، تلك الظاهرة الحيوية ، وكان من المهم أن يعود إليها شىء من الشباب . وذلك ما فعله عدد من الشواذ . ومن أمثلة ذلك بينوا دى ما ييه ذلك السياسى المتقـاعد الذى – بعد أن كان قنصلا فى مصر وسفيراً فى الحبشة ، وقنصلا فى ليڤورنا ، ومفتشاً فى المؤسسات الفرنسية فى الشرق ، وفى شواطئ البربر – نشر فى سنة ١٧٤٨ كتابه « تيليا ميد » أو « محادثات

فيلسوف هندى مع مبعوث فرنسى ، حول نقص البحر وتكون الأرض ، وأصل الإنسان وما إلى ذلك ... »

توجد فى هذا الكتاب ذكريات عن الشرق بلد العجائب وبلد الحكماء ، وتوجد فيه أيضاً حسب تقاليد العصر ، رحلة خيالية ، كما يوجد فيه تأثير فونتينيل و« محادثاته » ، وكذلك الرغبة فى الرد على أحد الشواغل المعاصرة ، وذلك كقولهم مثلا لماذا توجد أصداف على قمم الجبال ؟ ولا جرم أن الإجابة على هذا السؤال خليطاً من الحقائق والمعتقدات الساذجة ... إذ يقول : إن حدود البحر ليست مستقرة بل هى تتقهقر فينقص امتداد البحر ، وذلك ثابت بأقيسة يقينية . ومن ناحية أخرى . أظهرت الرجوس[1] الوثيقة أن قاع البحر يحتوى على أوجه شبه بينه وبين طبيعة جبالنا وأوديتنا وإذن فالبحر قد غطى فى الماضى كل الأرض ، والأصداف التى نحصل عليها فوق القمم تشهد بذلك . وإذن فليس الطوفان سوى تأويل لواقعة علمية لا تستدعى تدخل الإله . وإذن فكوكبنا قد تكون بوساطة تطور بطئ للمادة يقتضى إقصاء فكرة الخلق المرتجلة "ex abrupto" والمادة الأزلية تتخذ صوراً متنوعة كما يمكن أن يلاحظ ذلك بمشاهدة المجموعة الشمسية التى ليس ثبات كل ما فيها سوى ثبات نسبى لأن هناك نجوما قد اختفت ، وأخرى تظهر ، بل إن مصير أرضنا نفسها غير يقينى ، لقــد تجف يوماً وتحترق . ومن الممكن أن تكون الحياة قد نشأت من البحر ، كما يشهد بذلك وجود عرائس البحر ورجال الأسماك ...

وعند روبينيه أنه كان فى البدء خليط من أصول الكائنات التى انتظمت بعد خصبها ، حيث طفقت الأرض والماء والهواء والنار تنمو وجعلت الأحجار والمعادن تفقس ، وأخذت الجبال تتكون فى بطء ، وظهرت النباتات وضاعفت الطبيعة المحاولات التى انتهت بها إلى تكوين الإنسان ،

---

(١) الرجوس جمع رجس وهو سبر غور البحر . (المترجم)

وهكذا كان أصل الحيلة على كوكبنا فيما يرى روبينيه فى كتابه « تفكيرات فلسفية فى التدرج الطبيعى لصور الكائن » والذى ظهر فى سنة ١٧٦٨ . ولقد أضاف روبينيه إلى هذه التصورات العظمى أن الآثار التى نجدها على الأحجار المطمورة فى باطن الأرض ، والتى تمثل صورة الإصبع أو الأذن أو عظمة الساق ، أو القلب ، هى محاولات الطبيعة التى كانت ترسم المسودات الأولى للإنسان ، فى خرق وصبر .

أما هارتليه "Hartley" الطبيب فقد كان يحتفظ بسلطان الوحى بل كان يشيد لاهوتا على طريقته ينبذ إمكان العقوبات الأبدية . وفى الوقت ذاته كان يجزم بأن الفكر يرجع إلى حركة لويفات المادة النخاعية ، وأن النفس مادية .

وأما بريستليه "Priestley" الكيميائى المؤله ، الغالى والمناصر للمسيحية المعقولة ، فعنده أن النفس أيضاً مادية وهو فى هذا يقول : لماذا نتهيب التدليل على هذا الأمر الواقعى ؟ وهو يجعلنا نعجب أكثر من ذى قبل بالموجود الأسمى الذى منح المادة المقدرة على التفكير .

وكذلك كان موبيرتوى أيضاً من الشواذ . وأما لاميترى — وهو أشد الجميع سطوعاً ، فقد حطم الرؤوس صياحه بأن المادية هى النجاة ، وأن المادية هى الحقيقة نفسها ، وأنه ينبغى الصدور عن الطبيعة ، وهى قوة بلا معرفة وبلا عاطفة ، وهى عمياء حين تمنح الحياة بقدر ما هى بريئة حين تهدمها . ولكن كيف تعمل ؟ أهى تخلق أصولا لجميع الأنواع المنتشرة فى الكون والتى تنتهى بأن تتلاقى ؟ أم هى تتبع نوعا من التطور حيث كانت الأجيال الأولى ناقصة وبشعة ؟ وقد بقيت منها الكائنات التى لم ينقصها أى جزء جوهرى ؟ وسواء أكانت الأولى أم الثانية فإن اليقينى هو أن جميع التجارب التى نجمت عن علم التشريح ووظائف الأعضاء تظهر أن ما اتفق على تسميته نفساً ليس سوى أحد لواحق الجسم ، ففى

الواقع أن مظاهرها مرتبطة بأحوال الجسم ، فهى تسوء بالأمراض ، وتخدر بالأفيون وتهيج بالقهوة والنبيذ ويصيرها الجوع قاسية ومتوحشة ، وهى تكون شابة وناضجة وهرمة ، أى أنها تتغير بالسن على نحو ماتتحول مع الأجواء. وبالإجمال إنها لا توجد على اعتبار أنها مغايرة للمادة ، بل هى المادة . إنها تعبير عابث ليس لأحد فكرة عنها ، وهى تستعمل لتسمية الجزء الذى يفكر فينا ، بينما أن الفكر ليس سوى خاصية للمادة المنظمة كالكهرباء أو قوة التحرك أو عدم التداخل أو الامتداد . ودراستها تدخل ضمن التاريخ الطبيعى . وقد كتب لاميترى « تاريخاً طبيعياً للنفس » فى سنة ١٧٤٥ . وفوق ذلك فإن الإنسان لا يمتاز بأية ميزة عن المجموعة الميكانيكية للكائنات الحية ، وقد كتب فى كتابه الذى عنوانه « الإنسان الآلة » (١٧٤٧) ما يلى : « لأن يكون الإنسان ماكينة وأن يشعر ويفكر ويعرف كيف يميز الخير من الشر ، كما يميز الأزرق من الأصفر ، وبالإجمال أن يكون قد ولد بالعقل وبغريزة للأخلاق موثوق بها . كل تلك الأشياء ليست أكثر تناقضا من أن يكون قرداً أو ببغاء ويعرف كيف يمنح نفسه اللذة » . وعنده يمكن أن يقال أيضاً إن الإنسان نبات حيث إن النبات نفسه ماكينة ، وهو يقول فى كتابه « الإنسان النبات » ما يلى : « إن من نظر إلى الإنسان على أنه نبات لم يسئ إلى ذلك النوع الجميل أكثر ممن جعل منه ماكينة محضة ، لأن الإنسان ينمو فى الرحم كأنه نبات ، وأن جسمه يختل ويعتدل كأنه ســاعة سواء أكان ذلك بوساطة قواه الحيوية الخاصة التى يكون دورانها فى الغالب سعيداً ، أم كان بوساطة فن من يعرفونها وليسوا هم (السعاتية) بل هم علماء الطبيعة والكيمياء » ويجب أن نقبل هذه الجبرية . وهو يضيف إلى ما تقدم قوله : « لسنا — حين نتبع انفعال الحركات البدائية التى تحكمنا — أكثر إجراماً من النيل فى فيضانه والبحر فى إتلافاته » . وينبغى بالحرى الاغتباط بذلك ،

« هل تعرفون لماذا لا يزال لدى شيء من الاعتبار للأناسي ؟ ذلك لأنى أعتقد جدياً أنهم آلات ميكانيكية ، وفيما لو كانت النظرية على الضد لما كان جديراً بالاعتبار سوى رفقة القليلين منهم . وإذن فالمادية هي الترياق الشافي من سموم بغض الإنسانية » .

وبعد أن جعل لاميترى يخرج من حادثة ليصطدم بالأخرى ويتخلص من فضيحة ليهوى فى غيرها ، وجد له ملجأ لدى فريديريك الثانى ، وكان ڤولتير يدعوه « بملحد الملك » . وفى الحق أنه كان عنده من المادة أكثر من متوسطى الناس لأنه كان سمينا بطينا ضخما نهماً . وأخيراً فى ١١ نوفمبر من سنة ١٧٥٨ . ماتت ماكينته على أثر عسر هضم .

* * *

عبر شمول الإلحاد عن نفسه فى عدد من المؤلفات وعلى الأخص فى اثنين منها وهما « نظرية الطبيعة » (١٧٧٠) ، و « الفطرة السليمة أو الفكر الطبيعية المتعارضة مع الفكر ألما فوق الطبيعية » (١٧٧٢) وهو موجز للكتاب الأول . وكان هناك أيضاً ملحد محترف يقرؤه العلماء والجهلاء والدوقات والوصيفات ، وهو پول تيرى بارون دولباك الألمانى الأصل ، وقد أتى إلى باريس ليدرس فيها فأقام بها .

كان له منزل خاص يقدم فيه غداء فخما مرتين فى الأسبوع ، وقصر ريفى كريم الاستقبال . وما أبدع هـذا كله كوسائل للعمل ! ولا غرو فكثير من الأوربيين ذوى الشأن قد لقوا من لدنه كرماً فى باريس فى شارع رويال سان أونوريه أو فى قصر جرانڤال . وليس معنى هذا أن البارون كان ذا عبقرية ، فأفكاره كانت ملتقطة من ذات اليمين وذات الشمال ، ونثره كان ثقيلا وسميكا ، وكانت تأثيرات فصاحته الفخفخائية تجعله ينتفخ ، ولم تكن كافية لأن تلطف من ثقله . وكذلك طبعه لم يكن كاملا ، إذ كان مزيجاً من المتعارضات والأهواء ، ولكى تستعمل فى

وصفه عبارات ديديرو — وهو أحد أصدقائه الحميمين — تخيل رجلا خليعاً مرحاً لذاعاً مستهتراً عصبياً وله فى الحديث أسلوب شاذ وداعر ، وكان ذا مزاج متغير يحمله على مضايقة أصدقائه واستعمال الخشونة معهم ، وقلب كريم ، ومحسن فى سهولة ويسر ، ولكنه أيضاً أهل للعواطف المرة التى تجعل الحياة عسيرة على من حوله . حقاً إن اللحظات الحسنة كانت توازى السيئة ولكن ذلك لم يكن دائماً ، فقد كان يجذب وينفر . . . غير أنه كان ثرياً ، واجتماعياً ، وكانت له منزلة بين أرفع الطبقات ، وكان مجداً ونشيطاً وكان يشعر فى نفسه برسالة آمرة وهى أن يعمل على اضمحلال ، أو امحاء كل دين ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

ومن ثم فإنه لم يجد نفسه قد أدى القدر الكافى من السباب ضد المسيحية ، وقد أضاف إلى ما لا يحصى من الكتب التى ظهرت ضد الدين كتباً أخرى كانت تقدم إلى الجمهور أشـــد الأغذية المعادية للدين غلظة وفظاظة ، وذلك ككتب : (١) جدول القديسين ، (٢) القسس السافرون ، (٣) القسوة الدينية ، (٤) الجحيم المهدم . ولقد كانت هـــذه المؤلفات كثيرة العدد إلى حد أن من العسير إيجاد قائمة دقيقة لها ، كما أن من العسير أيضاً تمييز نصيبه الشخصى من أنصبة المساهمين الذين كانوا يعاونونه فيها . وعندما كان يجد فى العصور القديمة أو الحديثة ، كتاباً يمكن أن يفيد هـــدفه ، كان يعمل على ترجمته . وحين كان يظفر بامتلاك أحد المخطوطات التى تستطيع أن تنفع حملته ، كان يبرزه إلى عالم النور ، وذلك كالمخطوط الذى تركه م . بولانچيه والذى عنوانه « العصور الأثرية تجليها عاداتها » والذى يثبت فيه مؤلفه أن فكرنا الدينية أتت من انفعال الرهبة الذى خلفه الطوفان فى نفوس القليلين الذين بقوا أحياء .

وكان يدير المعمل أو المكتب الذى تنبعث منه دعاية فظة وثائرة إلى

حد أن كانت تتعب حتى الإخوان الملاحدة الذين اتهموا بأن رأوا فى شخصه راهباً ملحداً .

هناك آخرون كانوا يرافقونه ويعملون على إطالة تصرفه . ولم تكن هذه الفئة القليلة مؤلفة من محتقرين ولا مهينين بل كانت مكونة من متكبرين لم يكونوا يخشون أن يطالبوا بالمنزلة الأولى فى المجتمع ما دام أنهم كانوا يعلنون أنهم هم الحكماء ، ويضيفون إلى ذلك أن الحكيم أسمى من الإله . ومن هؤلاء بولانچيه ونيچون وشارل فرانسوا دوپوى وسيلڤان ماريشال وچيروم لالاند ، ولانذكر هنا إلا أشهرهم ، وهم جميعاً يقدمون مظهراً من مظاهر اللحمة لأنهم اتسموا بميسم الشذوذ ، فنيچون — وهو تابع لديديرو ومون أدبى ومراجع للبارون دولباك — قد جمع فى كتابه « المجموعة الفلسفية أو أمشاج من القطع عن الدين والأخلاق » (١٧٧٠) النصوص الجوهرية عن اللادينية . وسيلڤان ماريشال كان يريد أن يكون « لوكريس[1] فرانسا » وقد أنشأ قصيدة تعتبر أبياتها تحدياً كقوله مثلا .

« لا توجد فضيلة إذا أقر الناس وجود الآلهة »

وقد جمع « قاموس الملاحدة » الذى اجتذب إليه فيه الشخصيات التى لا يتوقع وجودها كأبيلار وزورواستروبيركليه وبوكاس وجريجواز دى نازيانز وچوريو وڤولف الفيلسوف ويونج الشاعر . وفيه كذلك شعوب كاملة كالإنجليز والبرازيليين والشيليين والأمريكيين عامة . ولاجزم أن هذا القاموس هو إنتاج رجل استعبدته فكرة معينة . وأما « الخطبة الأولية » التى يشع منها الغرور ، والمنتفخة من الادعاءات فلم تكن تظفر بقيمة أكثر لو أنها لم تظهر لنا هياج الفكر التى شاهدنا نشأتها ونموها إذ تعلن : أن الملحد هو إنسان

---

(١) لوكريس هو شاعر لاتينى ولد فى روما فى سنة ٩٥ قبل المسيح وهو مؤلف قصيدة « عن طبيعة الأشياء » التى كان فيها رسولا من رسل المادية فى لغة قوية وأحيانا عليا . وأخيرا انتحر فى سنة ٥١ قبل المسيح . (المترجم)

الطبيعة ، إنه الإنسان الذى — بقبوله تحديد المعرفة — لا يرى كيف أن هذه المعرفة المحدودة تسمح له بإدراك الإله ، إنه الإنسان الذى لما لم يكن يشتهى سوى سعادته الراهنة ، فإنه ليس فى حاجة إلى الإله ليحقق هذه السعادة . وإن مسألة معرفة ما إذا كان يوجد فى السماء إله ، ليست بالنسبة إليه ، أهم من معرفة ما إذا كانت توجد حيوانات فى القمر . إنه الإنسان الذى — بإقراره أن كل المدنية المسيحية تعتمد على خطأ — يريد أن يكون تحطيم هـذا الخطأ تاماً ، وهو فى هذا يقول : « إن التحطيم الكلى التام للخطأ الطويل المهيب الذى يتدخل فى كل شىء ، والذى يشوه كل شىء حتى الفضيلة والذى هو فخ للضعفاء ، وأداة فعالة فى أيدى الأقوياء ، وحاجز بالنسبة إلى ذوى العبقريات . إن التحطيم الكلى التام لهـذا الخطأ الطويل المهيب سيغير ، لو تحقق ، وجه العالم .



بيد أن هؤلاء الملاحدة كان لهم من التأثير أقل مما أحدثوا من الضجيج ومن آيات ذلك أن بيلاتى المعاصر لهم ، قد أعلن أنه لا يوجد أى جزء من العالم ملىء بالملحدين والمؤلهين كإيطاليا ، ولكن حتى إذا كان التعبير عن الفكر الإيطالى لا يظهر لنا ضد ذلك ؛ فإن الخلط الذى يقترفه بين المؤلهين والملحدين يكفى لإبطال قوله . وفى إنجلترا نشاهد أن تطور علم النفس — فضلا عن بعده عن اقتياده إياه إلى الجحود — قد انتهى به إلى العقيدة .

وفى فرنسا يعلن هيلفيسيوس أن اللاهوتيين قد أساءوا استعمال كلمة المادى التى صارت مرادفة للعقل المستنير ، والتى تعين الكتاب المشهورين الذين تقرأ مؤلفاتهم فى شراهة . غير أن ذلك ليس سوى علامة من علائم الجدل ، لأن الكل يعرفون هذه النكتة ، وهى أن هيوم ، حين عاد إلى فرنسا ، كسكرتير للسفارة ، قد أعلن فى إحدى المـآدب ، أنه لا يعتقد بوجود ملاحدة لأنه لم ير ألبتة منهم أحداً ، فرد عليه ضائفه بقوله : إننا

١٥٩

ثمانية عشر على هذه المائدة ، بينهم خمسة عشر ملحداً ، والثلاثة الآخرون مرتابون ، ولا عجب فقد كانت تلك المأدبة في منزل البارون دولباك .

وفى ألمانيا لم يكن أشياع حركة « الأنوار » يميلون إلى تثبيت الإلحاد ، بل إلى معرفة عقلية للإله .

حقاً إنه لم يعد أحد يطلب إحراق الملحدين ، ولكن مؤلفاتهم كانت لا تزال تحدث الامتعاض . وعندما أهدى لامیتری کتابه « الإنسان الإله » إلى العالم هالير اعتبر هذا الأخير ذلك سبة في جبهته وأرسل فى مايو من سنة ١٧٤٩ إلى صحيفة العلماء احتجاجاً رسمياً جاء فيه ما يلى : « لما كان المؤلف المجهول لكتاب « الإنسان الإله » قد أهدى إلى هذا السفر الذى هو خطر بقـــدر ما هو ضعيف التأسيس ، فإننى أحسب أنه يجب على للإله وللدين ولنفسى أن أدلى بالتصريح التالى الذى أرجو السادة محررى صحيفة العلماء أن يسجلوه فى صحيفتهم . وهو أننى أستهجن هذا الكتاب كشيء متعارض كل التعارض مع عواطفى وأننى أنظر إلى هذا الإهداء على أنه إهانة أقسى من جميع الإهانات التى وجهها المؤلف المجهول إلى كثير من المحترمين ، وأننى أرجو الرأى العام أن يكون موقناً من أنه لا توجد ألبتة رابطة ، ولا تراسل ، ولا صداقة ، بينى وبين مؤلف « الإنسان الإله » وأنى أعتبر كأعظم الكوارث كل تطابق معه فى الرأى » . أجل إن هالير كان تقياً ولكن دالمبير وفريديريك الثانى ، وفولتير لم يكونوا أتقياء ، وقد نقضـــوا « نظريات الطبيعة » .

ولا غرو فى الواقع أن المؤلهين كانوا يتجادلون ضد الملحدين فى إسهاب وكانوا يناقضون حججهم واحدة بعد الأخرى . فمن ذلك أن الملاحدة كانوا يقولون إن التجربة تثبت أن المواد التى ننظر إليهـــا على أنها هامدة وميتة تظفر بالعمل والعقل والحياة حين تكون مؤلفة بطريقة معينة ، وكان المؤلهون يردون عليهم بأن ذلك باطل . ومنه أن المادة والحركة تكفيان لشرح

كل شيء فيرد عليه بأن هذا باطل . ومنه أن المادة أزلية أبدية وواجبة الوجود . فيرد كذلك أن هذا باطل ، ويضيف ڤولتير إلى ذلك قوله : « حين يجرؤ الملحدون على أن يؤكدوا أنه لايوجد إله وأن المادة تعمل بذاتها بوساطة ضرورة أزلية ، ينبغي التدليل على ذلك كأنه إحدى قضايا أوكليد ، وبلا ذلك فأنتم لا تعتمدون فى نظرياتكم إلا على الإمكان ، وأى أساس لذلك الأمر الذى هو أعظم ما يعنى النوع البشرى ! »[1]

بيد أن الملاحدة لم يستسلموا ، وكانوا يتخذون — بإزاء التألهية — خطة الاحتقار التى كان المؤلهون يتخذونها بإزاء التقوى . وفى هذا يقول الأب بونوم : « قال لى أحد الماديين يوماً إن المؤله هو نوع من الناس ليس لديه القدر الكافى من الضعف ليكون مسيحياً ، ولا القدر الكافى من الشجاعة ليكون ملحداً » [2] .

ويذكر البعض أن إحدى المغرمات بالفلسفة المتعصبات لها ، كانت تقول عن ڤولتير ما دام أنه مؤله فهو مفرط فى التعبد .

ومما وجهه الملاحدة إلى المؤلهين قولهم : ماذا تقصد هذه العقول الضعيفة أو هؤلاء العليون الغائيون ، بدين بلا سر ؟ أليس ذلك تناقضاً فى الألفاظ ؟ وبأية خشية هم يحتفظون بإله يقولون هم أنفسهم إنهم لا يستطيعون إدراكه ؟ حقاً إن الفرق بين إله المؤلهين المتفائلين المتحمسين وإله الأتقياء الخرافيين المتسابقين ، لا يوجد إلا فى اختلاف الأنواع والأمزجة ، ولن يكون أبداً سوى خطوة واحدة بين التألهية والخرافة[3] وإن المؤله ، وكل متمذهب يقر بدين يمكن أن يشار إليه فى هذا التعبير العامى بكلمة هاهو ذا

---

(1) Voltaire, Dictionaire philosophique, art. Athéisme, art. Dieu.

(2) P. Bonhomme, *L'anti-Uranie ou le déisme comparé au christianisme*, 1763.

(3) Baron d'Holbach, Le Bon Sens ou idées naturelles opposées aux idées surnaturelles, pàra. III.

الإنسان العادى "Ecce Homo" بينما أن الكائن الملحد الذى لا يركع أمام أحد يشار إليه بكلمة ها هو ذا الرجل القوى[1] "Ecce Vir" .

وإذن فبهذه العبارات العنيفة كان يتناقش هؤلاء الحلفاء المؤقتون الذين كانوا قد أرادوا أن يؤلفوا معاً ، حملة ضد عدو مشترك ، ولكنهم كانوا يرون فى وضوح تدرجى ، أن أفكارهم تتباين فى مسألة جوهرية .

وقصارى القول إن القرن الثامن عشر فى مجموعه ، كان مؤلها ملحداً ، ولكنه لا بد أن يكون قد أفسح طوعاً أو كرها ، مكاناً لإلحاد أخذت عليه نفس الخشية التى اتهمت بها التأليهية المؤمنين ..

---

(1) Silvain Maréchal, Dictionnaire des athées, au 8, Discours préliminaire.

الفصل الثانى

علوم الطبيعة

سيكون العلم فى مدينتا لأناسى هو علم الطبيعة ، ففى الواقع أن التاريخ الطبيعى قد وضع فى الصف الأول ، ووضعت الهندسة فى الثانى ، حقاً إن كثيرين قد استمروا يلتزمون بالرياضة التى كانت تعتبر أجمل تمرينات العقل وأوضحها وأمتنها ، وأشدها منهجية ، وإن أوروبا لم يعوزها الرياضيون الأمجاد بغتة ، بل كانوا لا يزالون موفورى العدد ، لأنه سيظل دائما فى العالم أشخاص يشبهون ذلك السيد « دى لانى » الذى تروى لنا عنه القصة التالية .

عندما كان محتضراً ، كان من حوله يتحدثون إليه أحب الأحاديث فيذهب ذلك عبثاً ، وإذ ذاك أقبل السيد دى موبرتوى وأخذ على عاتقه أن يحمله على الكلام ، فسأله قائلا : « يا سيد دى لانى ، ما هو مجذور العدد اثنى عشر ؟ فأجاب المريض فى صوت ضعيف قائلا : مائة وأربعة وأربعون ثم لم ينبس بعد ذلك ببنت شفة .

غاية ما فى الأمر أن الهندسة فقدت الصدارة التى كانت قد منحتها وأن الناس قد تنبهوا إلى أنها لم تكن تضيف شيئاً إلى المعرفة : وأنها كانت تكتفى بأن تنمى — بوساطة الاستنتاج — مبادئ قد وضعت ، وبالتالى لم تكن تدرك الواقعى . ولما كان من الموقن به أنه لا يوجد فى الطبيعة ، سطح بلا سمك ، ولا خط بلا عرض ، ولا أية نقطة بلا مقدار ، ولا أى جسم يشتمل على النظام النظرى الذى يفترضه فيه المهندس ، وبالتالى فعلم المهندس لا يبدو سوى حلم وضع فى صيغة معادلات . ومن الوهم أن تراد

إعادة خلق العالم بوساطة الحركة والامتداد ، وكان ذلك وهم السـيد ديكارت الذى مضى عهد حكمه .

أتى بعد ذلك حكم نيوتون الذى وضع الرياضة فى خدمة علم الطبيعة وبهذا عاد بها إلى دورها الحقيقى . ونظراً لأنه لم يصدر عن التجرد ، ولا عن المبادئ البديهيـة ، بل عن وقائع ، لينتهى إلى وقائع أخرى قد شوهدت أتم المشاهدة ، لأنه قد انتزع من الطبيعة ، نواميس الطبيعة ، فإن الجيل الصاعد قد أقره بين أنصاف آلهته ، فجعل يشرحه لآخر الجاحدين ، فطفق تلاميـذه فى المجامع ، وعلى المنصات ، يشرحون منتجاته التى كانت محتوياتها تبدو كأنها غير قابلة للنضوب ، بل كانوا يضعونه فى متناول الرأى العام ، كما كان يفعل ڤولتير فى أسلوبه الفرنسى الواضح ، والجاروتى بالإيطالية فى كتابه « النيوتونية للسادة » .

جعل مجده يتدعم شيئاً فشيئاً حتى أن العلماء الذين أرسلوا إلى بيرو فى سنة ١٧٣٥ ، وإلى تورنيو فى سنة ١٧٣٦ لكى يتحققوا من مقاييسه للأرض قد عادوا يقولون إنه — بعد أن قاموا بالتجربة — لم يكن مخدوعاً . ولقد وجد أمام السوربون العتيقة نفسها ، من يدافعون عنه وكان يتغلغل فى المدارس الحارسة للفكر ، والتى كانت بطيئة فى تقبلها إياها ، وعنيدة فى الاحتفاظ بها . وفى هذا يقول الماركيز دار چانس : « إن الهيام بنظرية الجاذبية ، هو اليوم أقوى فى هولندا وفى انجلترا ، من الهيام بزوابع ديكارت الخيالية فى فرنسا . وكان الناس يرون محامين يهجرون مهنتهم ليعنوا بدراسة الجاذبية ، وكنيسيين ينسون من أجلها كل التمرينات اللاهوتية[1] » . . .

ودون أن ينال جاليليو مثل هذا المجد ، قد ظفر بنوع من التكفير

(1) Le Marquis d'Argens, La philosophie du Bon Sens, 1746 Réflexion III, par. 20.

عما أصابه ، ففى سنة ١٧٣٧ قد نقلت رفاته إلى كنيسة سانتا كروشى بفلورانسا التى كانت إيطاليا تحتفل فيها بذكريات موتاها الأمجاد . غير أن هناك اسما كان يرمز إلى علم أقل تدرجاً وأقل ترفعاً وأشد قابلية للتناول ، وأكثر طبيعية أيضاً من علم الطبيعة الرياضية ، وهو اسم بيكون رئيس الديوان الملكى الذى كان يدعى بالطليعة أو بحكيم الحكماء ، أو بعدو النظريات العابثة أو بأستاذ التفكير ، أو الذى أعاد الجدة إلى امبراطورية العقل ، ورسم الطرق ، وقضى على العقبات وعين الأعمال التى يجب فعلها . ولقد كان — فيما يرى أهل القرن الثامن عشر ، أعظم الفلاسفة وأشدهم عالمية ، والعبقرية التجريبية مشخصة .

وفى الحق أنه ، حين أعلن بيكون أن المنطق الصورى أشد جدارة بتقوية الأخطاء وتخليدها منه بكشف الحقائق ، وأن القياس يقيد العقل ولا يلحق الأشياء ، وأنه لم يعد ينبغى الاعتماد على قول الأساتذة ، ولا عبادة الأوثان ، وأنه يجب تغيير المنهج ، واستعمال الملاحظة ، والالتجاء إلى التجربة ، حين أعلن كل ذلك ، قد وضع بذور الفكر التى — بعد مائة سنة تقريباً من ظهور الأورغانون الجديد — قد نبتت واستوت على سوقها ، وأنتجت ثماراً شملت أوروبا . كما يقول الكتاب الذى عنوانه حكم حول تأويل الطبيعة والنوع البشرى "Aphorismi de interpretatione et regno hominis" .

* * *

منذ المظهر السطحى ، وللوهلة الأولى كان المرء يشعر بالفوران ، ففى كل مكان ، كان فضوليون يشرعون فى العمل ، فهذا يبدأ فى إيجاد مجموعة من الفراش ، وذاك يصنع « ألبوماً » للنبات ، وثالث يستورد من البلاد الأجنبية الزجاج المنشور الذى يسمح له بتحليل النور ، أو المناظير التى تسمح له برؤية دائرة زحل . ومن كان يريد أن يروق خليلته ، كان يرسل إليها حشرات

نادرة تضعها فى ڤيترينتها ، ومن كان يريد أن يبدو عالما ، كان ينشر وصف إحدى حجرات التاريخ الطبيعى ، ومن كان يرتحل ، كان يتزود بعلب وبشباك للحشرات ، ومقصات ومناظير مكبرة ، ولم يكن چيرسان يبيع لوحات فحسب ، بل أصدافا . وكان عظماء الأشراف يقدمون الأمثلة على ذلك ، وكان أحد الساخرين يقول : ذلك أفضل إذ مادام أنه لابد من الخراب فخير أن يكون ذلك على يد كيميائى من أن يكون بوساطة أحد رجال الأعمال ، حيث إن العلم على الأقل يربح . ولقد أصابت هذه العدوى الملوك ، فلويس الخامس عشر كان يريد أن يمتلك مجموعات ، وولى العهد كان يتلقى دروساً فى علم الطبيعة ، وچورچ الثالث كان نباتيا ، وچان الخامس كان يحضر بحوثاً فلكية ، وفيكتور — أميديه الثالث ، كان يعيد مع چيرديل ، تجارب الأب نوليه . وإلى باب الأب نوليه هذا — وهو الذى كان فى باريس بشارع الكبش : يلقى محاضرات عن علم الطبيعة التجريبى — كانت تتسابق مركبات الدوقات اللواتى كن يردن أن يكهربن . وكانت الطبقة المتوسطة تتبع تلك الحركة ، وكذلك الشبان الذين كان الأب پلوش يظهر لهم منظر الطبيعة أو أجدر الخصائص بجعلهم شغوفين بالاطلاع ، وبتكوين عقولهم .

وعندما جعل الناس — وقد لفتت أنظارهم هـــذه الظواهر الأولى — يبحثون عن مؤيداتهم ، قد لاحظوا فى صورة جدية ، المجهود الذى لم تصنع البدعة سوى أن استغلته ، ففى الواقع أن الصحف قد جعلت تمنح ملخصات النشرات العلمية ، مكاناً بلغ من الاعتبار حد الغزو ، وقد جعلت كتب علوم الطبيعة والنبات والطب ، يتزايد عددها على الدوام . غير أنه على أثر نفس تقدم العلوم التى تنتسب إليها تلك الكتب كانت تهرم بسرعة وتستوجب الاستبدال ، وكانت تستبدل . وكانت المجامع تفتح على مصاريعها لهذه الكتب المتضاعفة ، وللمكاتبات التى كانت تعلن عن وجود هذا الجديد

أو ذاك ، وذلك كمجمع برلين الذى أحياه فريديريك الثانى فى سنة ١٧٤٤ ؛ ومجمع سان پترسبور الذى أسس فى سنة ١٧٢٥ ، ومجمع أستوكهولم الذى أسس فى سنة ١٧٣٩ ، وجمعية كوبنهاج الملكية التى أسست فى سنة ١٨٤٥ ، بينما أن معهد بولونيا (بإيطاليا) ، ومجمع العلوم فى باريس ، وجمعية لوندن الملكية ، تلك الأمهات المجيدات ، كن يتمسكن بتقاليدهن ، وكانت كل جماعة تعتبر من الشرف أن تشرك الأجانب فى أعمالها ، وكان من علائم الاعتبار الذى يتمنى فى حرارة من جانب المؤلفين أن تتناقش تلك الجمعيات فى شأنهم أمام محاكمها . ومن ثم فإن ڤولتير الذى كتب « بحثاً عن التغيرات التى حدثت فى كرتنا ، وعن التحجرات التى يدعى أنها شواهدها » قد وجهه فى سنة ١٧٤٦ بالإيطالية إلى مجمع بولونيا ، وبالإنجليزية إلى جمعية لوندن الملكية ، بل كان يعتزم أن يضعه باللاتينية لكى يرسله إلى مجمع سان ــ پترسبور . وفى سنة ١٧٣٥ ، قدم هذا الأخير مؤلفات إلى مجمع ليسبوا الذى كان رئيسه إذ ذاك هو الكونت ديريسيرا الشيخ وهو نفسه الذى سبق أن ترجم بوالو . وقد ألقى خطبة شكر لا تزال مفعمة بعبارات مزدهرة ، تحدث فيها عن ملكة سبأ أو عن سبيل الشرق[1] التى بعثت من ثلوج الشمال مؤلفات أعضاء مجمعها مكتوبة على صحائف من ذهب . ولكنه تحــدث فيها عن بيكون ، وعن رينيه ديكارت الدقيق الذى عرف كيف يربط الجبر بالهندسة ، وعن نيوتون أكبر فلاسفة إنجلترا الذى أثبت ما يمكن إثباته فى الفلسفة الطبيعية والذى كانت مبادئه جد متبعة بحق ، أى أنه جمع فيها الصور القديمة للخطابة ، إلى معالم الذوق الجديد .

كانت الحركة مزدوجة ، فمن جهة كان هناك امتداد ، أو إرادة قد دفعت الباحثين إلى الخروج من أقاليمهم ، ومن ممالكهم ، ومن قاراتهم

---

(١) شبه الكونت ديريسيرا ، أمبراطورة روسيا كاترين الثانية بملكة سبأ ، أو بسبيل وهو عند الهيليين اسم لشهيرات الانبيات اللواتى كن ينقلن الوحى إلى البشر . (المترجم)

لكي يغزوا شيئاً فشيئا ، كل ما خلق . ومن آيات ذلك الكتب الآتية : (١)قائمة
نباتات استنبتت لحديقة جديرة بالإعجاب Catalogus plantarum quibus
علم النباتات الباريسية (٢) Consitus est Patavii amoenissimus hortus
Flora lapponica مجموعة النباتات اللابونية (٣) Botanicon Parisiense
(٤) التاريخ الطبيعي وعجـــائبه فى بلونيا " historia naturalis curiosa
the natural history of التاريخ الطبيعي لإنجلترا (٥) regni Poloniae
؟ Flora cochinchinense" مجموعة نباتات الكوشانصينية (٦) England

ولما كان الناس يتكهنون بأنه كانت لاتزال هناك بعض أراض غير معروفة ، فإن السفن التى ترتحل للاستكشاف كانت تأخذ معها علماء طبيعيين فيحملون إلى أوروبا نماذج من النبات والحيوان ، كانت إلى ذلك الحين خافية على الناس . وبقدر ما كان التحقيق يمتد ، كان عدد الأنواع النباتية والحيوانية يزداد بغير حساب ، ولم يكن أحد يصل إلى إحصائها ، وكانت الأرقام التى تسجل اليوم تصير زائفة فى الغد . وكان الناس كأنهم مغمورون بتلك المستوردات التى لاتنقطع ، وكانت الحياة ، والحياة الضخمة تقلب كيان الفكر التى هى لدى الناس عنها .

ومن جهة أخرى كان فى الوقت ذاته يحدث تركز لأن أشغف هؤلاء المشغوفين بالاطلاع ، ينحصرون بين أربع حوائط ، ويدعون إليهم نفس هذه الحياة المخصبة وهم يسلمون أنفسهم إلى عمليات خفية ، فيمزقون ، ويشرّحون وينظرون فى المناظير المكبرة ويرجّون زجاجات قد وضعوا فيها مواد غريبة . وبالإجمال كان عالم المعمل قد ولد ؟

على أن المعمل كان إذ ذاك فقيراً لأنه كان يعوزه غالباً أبسط الأدوات ، وأن الباحثين كانوا سيئى التزود بالآلات ، وأنهم كانوا يترددون فى أن يخلعوا سترهم القطيفية ، وأن يشمروا أكمامهم الدانتيلية ، ولكنهم كانوا مع ذلك قد بدأوا يحققون ملحمة التجربة .

وحينئذ ظهرت كحلقات السلسلة ، تلك الأسماء التى ظل كل واحد منها مرتبطاً بذكرى الانتصار ، ففى الفلك أسرة كاسينى ، وفى علم طبقات الأرض چان جوتلوب لهان وهوراس بينيد يكت دى سوسور . وفى علم النبات شارل دى لينيه وأوائل أعضاء أسرة چوسيو الخمسة . وفى علم الحشرات رنييه أنتوان دى ريومور وشارل بونيه ، وفى علم الطبيعة جيوم چاكوب سجراڤيزاند ، وليونار أولير ، واليساندرڤولتا ، وفى الفيريولوچيا ، هيرمان بوراف ، وفريديريك أوفان والبريك ڤون هالير ، وجاسبار فريديريك ڤولف ، ولازارو سبالانزانى ،. وچورچ استال ، وچوزيف پرستليه وشارل جيوم شيل . وفى الغالب كان من الخطأ أن يحصر هؤلاء العلماء فى تخصص معين لأن كل شىء كان يستكشف فى آن واحد ، وسنذكر شخصيتين من تلك الشخصيات الخرافية ، ما دمنا لا نستطيع أن نسميها جميعها ، وهما شخصية جالڤانى الذى كان يحدث الانقباضات العضلية للضفدعة المسلوخة ، وشخصية لاڤوازييه الجدى الجميل أمام أنابيبه وبواتقه . .

كان أولئك العلماء ينتسبون الى أشد البلاد تباينا بل ، والحق يقال ، أنهم لم يكونوا يؤلفون سوى وطن واحد بين الأوطان ، وهو وطن كان أبناؤه يستمرون فى عملهم حتى فى وسط الحروب ، وحتى فى اللحظات التى كانت الاتصالات فيها أشد ما تكون عسراً ، وكانوا يتبادلون الإشارات والمراجعات ، والاستحسانات ، والتهانى فيما بينهم . تلك كانت جمهورية العلماء المثالية .

* * *

غير أن العمل المراد إتمامه لم يكن جد ميسور إلى هذا الحد ، ففى الواقع أن المطامع كانت واسعة بصورة مفرطة ، وكان الباحثون يرددون أنه لا يستطيع أحد أن يتقدم إلا بأحذية نعالها من الرصاص ، ولكنهم كانوا

يصدرون عن وثوب مغتبط إلى حد أن كانوا يحسبون أن لهم أجنحة .
ولكى يبتدئوا ، كانوا يقذفون بأنفسهم فى مشروعات تتجاوز المقاييس .
كذلك المشروع الذى زاوله مجمع بوردو الناشىء فى سنة ١٧١٩ وهو كتابة
تاريخ الأرض ، وكل التغييرات التى حدثت فيها ، عامّها وخاصها سواء
أكان ذلك بوساطة الزلازل أم بوساطة الفياضانات أم بأسباب أخرى وأن
يكون هذا بوصف دقيق لتقدمات الأرض والبحر أى لتكون ، أو فقدان
الجزر والأنهار والجبال والأودية والبحيرات والخلجان والمضايق والرؤوس
ولكل تغيراتها ، وأخيراً لوصف الأعمال التى تمت بأيدى الرجال الذين
منحوا الأرض وجها جديداً . . . وكانت المذكرات يجب أن ترسل إلى
السيد دى مونتسكيو وهو إذ ذاك أحد رؤساء برلمان مقاطعة جويين .
وكان على السيد دى مونتسيكو ، أن يدفع نفقات الإرسال ، ولكن هل
دفع كثيراً ؟ كلا ، لأن المشروع لم ينفذ ألبتة .

حقاً إنه لم يكن أحد يريد المعجزات ، ولكنه كان من الشاق التخلص
من العجائب ، وعلى الأخص فى المبدأ حين لم يكن المنهج قد تثبت بعد ،
وحقاً إنه لم يكن أحد يريد النظريات الفردية ، ولكن كم كان من المفيد
إنتاج واحدة منها فى كل مرة يجد الناس أنفسهم فيها حائرين ! وهكذا
حين اجتاح الطاعون مارسيليا وإقليم پروڤانس ، كان الناس يتساءلون ما هو
الطاعون وكيف ينتشر ؟ وكان الرد : إنه ليس معدياً ، وسيكون من
الخروج التام على العقل تأييد عدواه . أو أنه معد ، ولكن فقط على طريقة
الوباء ، وهذا الأخير يأتى من سوء التغذية . أو إنه معد ، بوساطة القروح
والبول والعرق ، وإذن فعن طريق الفراش والملابس ، وكل ما مسه
المريض .

وكانوا يتساءلون أيضاً ما هى طبيعته ؟ فيجاب بأنها تتكون من أبخرة
وبائية وعفنة ومن ذرات من الإثمد ، ومن ذرات جورجونية وديدان

صغيرة تسبح فى الصباح كالسمك . وتطير فى الظهيرة كالطيور ، وتموت فى المساء . أو تتكون من حشرات تدخل من مسام الجلد ، ولا سيما فى الشتاء لأنها شديدة الإحساس بالبرد .

وأخيراً يتساءلون كيف شفاؤه ؟ فيجاب : بالقهوة ، أو بالإكثار من شرب الماء أو بالمشروبات الحامضة كما كان أساتذة العصور الماضية يأمرون ، أو بمغلى جذور نبات القعبول الذى ينبغى أن تضاف إليه قطرات من عصير الليمون أو من خلاصة الكبريت ، أو من صبغة الذهب ومن خلاصة المقىء ، ومن شراب للقلب ، وحبوب مسهلة ، ومن معرقات وفوق الخراجات توضع لصقات وأحجار كاوية تترك فوقها عدة ساعات . وبينما كانت ليون ومونبيلييه وباريس وزوريخ ولندن تتجادل على هذا النحو ، كان المرضى يموتون دائماً

ولم يكن يكفى أن يلعن الناس روح النظريات لكى يتحقق الخلاص منها ، لأنهم حين جعلوا يتشبثون بما هو أصعب أى بمشكلة الإنسال أو مشكلة تكون الأجسام العضوية وقبل أن يجمع العلماء الملاحظات كانوا يصوغون النظريات التى لاتلبث نظريات أخرى أن ترد عليها . وعلى أثر ذلك ، تصير المعركة مستعصية بين النظريات الآتية أهى سابقية التكون والاندماج ؟ أو إيبيجينيز ؟[1] أو القوالب والأرحام[2]

ولإثبات سمو أحد هذه التعليلات أو الآخر ، كانوا يناقشون إلى أن

---

(١) إيبيجينيز هى نظرية ترى أن الحيوان الناتج من البيضة فى أثناء تطوره الخاص ، تنشأ أعضاؤه بوساطة تكون جديد . (المترجم)

(٢) توجد هذه النظرية فى المؤلفات التالية : أنظر فى نظرية الاندماج ،

Maupertuis, Essai sur la formation des corps organisés, para. 9 et 10 ; pour l'Epigénèse : Charles Bonnet, contemplation de la nature septiéme partie, ch. 10; pour les moules et matrice : Buffon, Histoire naturelle, Des animaux, ch. 3 et 4.

يضلوا الغاية المنشودة ، وعند ما كانوا ينحرفون على هذا النحو ، يكون العلم كأنه وقف عن التقدم .

يوجد فى بعض الأحايين خطأ يسترعى الانتباه بسبب طابعه الذى يؤلف منظراً ، ففى سنة ١٧٤٨ مثلا رأى چان توبيرڤيل نيدهام العالم الطبيعى الإنجليزى أنسالا تنشأ من ذاتها ، فلندع له الكلمة ، ولنستمع إليه يقص علينا التجارب التى نظمها ، والاحتياطات التى اتخذها ضد كل خطأ ممكن ، والنتائج المدهشة التى ظفر بها ، وهو فى هذا يقول : « أخذت عصارة لحم جد ساخنة ووضعتها فى زجاجة أغلقتها بسداد من الفل الممضوغ بكثير من الاحتياط إلى حد أن صارت القارورة كأنها سدت سداً محكماً ، وبهذا أقصيت الهواء الخارجى حتى لا يمكن القول بأن الأجسام المتحركة قد اتخذت أصلها من الحشرات أو من البويضات المنتشرة فى الجو . ولم تكن الكمية الصغيرة من الماء الذى أضفته إلى العصارة لأجعلها أكثر سيولة ، تؤلف فيما أعتقد ، أكثر من السدس ، وقد سكبتها أثناء غليانها حتى لا يتخيل أحد أن بضع جراثيم كانت محتواة فى هذا الماء . . . وبالإجمال لم أهمل أى احتياط ، حتى الاحتياط فى أن أضع فى رماد جد ساخن ، الزجاجة بعد إغلاقها حتى إذا كان هناك شىء فى ذلك الجزء الصغير من الهواء الذى يملأ عنق الزجاجة ، أكون قد وصلت إلى إبادته ، أو إفقاده القوة الإنتاجية . . . وفى أربعة أيام من الزمن امتلأت زجاجتى بحيوانات تشاهد حياتها بالمنظار المكبر » .

تلك تجربة جديرة بالإعجاب ، ولكنها ليست حقة . وكان من الضرورى مرور أعوام لاختبار نظرية نيدهام ولمراجعتها ونقضها ، وإثبات أن تخمر الحياة الذى شاهده قد حدث من جراثيم آتية من الخارج رغم العناية التى اتخذها لإقصائها . أما بالنسبة إلى العلم فقد كان ذلك وقوفاً ، وحركة بلا تقدم ، وعودة إلى الوراء . . .

كل الأحداث التى يقدم إلينا تاريخ الفكر منظرها كالتتابعات التناسلية غير المتوقعة ، والانتصارات التى تنتهى بالانهزام ، والإخفاقات المخصبة ، تتلاقى هنا فى أعلى درجاتها ، فعلماء النبات المتشبعون بالروح العلمية ، كانوا يتوقون إلى أن يجدوا تقسيما للنبات ، لا يكون مؤسساً إلا على وقائع قد لوحظت بصورة موضوعية .

وبعد تورنيفور ، قد حسب لينيه أنه قد نجح منذ « نظريته الطبيعية » (١٧٣٥) حيث يقول : « إنى أنا الأول الذى ابتدع ، لتقسيم الأنواع ، استخدام المميزات الطبيعية » .

غير أن أولئك النباتيين فى الوقت ذاته — كالعلماء الآخرين ، وكالفلاسفة أساتذتهم اعترفوا بهم أم لم يعترفوا — كانوا يحاولون أن يدخلوا الكون وإنتاجاته فى برنامج مقرر من قبل ، فيتخيلون ما يدعونه بُسلَّم الكائنات الأعظم ، وأن الكائنات لا تستطيع أن تنتظم على وضع آخر إلا حسب هذا السلم الذى لا تنقصه أية درجة ، وهم يمضون من درجة إلى أخرى بوساطة تدرجات ضئيلة إلى حد أنها لا تميز إلا بمشقة ، ولكنها لم تكن أقل من ذلك واقعية . أما الانقطاع فهو مستبعد مقدما ، لأنه لا يوجد أى مكان له الحق فى أن يبقى خالياً ولا توجد ثغرات بين درجات أية سلسلة ، ولا بين السلسلة الحيوانية والسلسلة النباتية ، ولا بين السلسلة النباتية والسلسلة المعدنية . وهناك رابطة غــير مرئية توجد بين بنى الإنسان والمخلوقات العالية أو الملائكة ، وعلى القمة يوجد الإله وحده مفارقاً . وكان ينبغى بأى ثمن ، أن تكون كل الدرجات مشغولة . وإذا لم يكن شاغلوها يميزون بعد ، فإنهم سيظهرون يقيناً فى يوم ما ، بحيث إن الأفراد الذين كانوا يعلنون أنهم خدام الوقائع ، قد جعلوا يخضعون الوقائع طوعاً أو كرها ، للنظرية المقدمة على التجربة .

لكى يجتاز العلماء عقيدة تحدد الأنواع إلى فكرة التطور الحيوى ، كان الكفاح القاسى الطويل ضرورياً . ومع ذلك فإنه كان ينبغى أن يلاحظ أنه تحت تأثير الأجواء الأجنبية ، قد تغير بعض الحيوانات وبعض النبات ، ولم يكن هناك بد من قبول النتائج التى حصل عليها علمـــاء المطمورات الأرضية الذين وجدوا فى الطبقات العميقة من الأرض ، أثر الكائنات التى اختفت والنتائج التى حصل عليها علم الفيزيولوچيا الذى سجل ظواهر للانحطاط ، وأخرى لاختلاط الأنواع .

غير أن ذلك لم يكن بلا مقاومة ، فقد كان الناس مثلا ينظرون إلى موپيرتوى على أنه ذو عقلية غريبة ، لأن زائريه كانوا يرون فى دهش ، أن منزله كان حظيرة مفعمة بالحيوانات من جميع الأنواع ، وأنها لم تكن تحتفظ فيه بالنظافة ، وأنه كان يلهو ، فى صورة غريبة ، بتزويج حيوانات من أنواع متباينة : ولقد كان لاميتّرى يبدو أشد جنونا أيضاً ، حين أعلن أن السلالات الأولى لابد أنها كانت جد ناقصة ، فهذا كان ينقصه المرئ ، وذاك تعوزه الأمعاء ، وأن الحيوانات التى بقيت وحدها هى المزودة بالأعضاء الضرورية والأشد قوة . وإذن فقد كان على الباحثين أن يرفعوا عبئاً ضخماً من الجهل والتسرع لكى يروا نظرية التحول للامارك تطفو شيئاً فشيئا .

* * *

حقاً إن متاعب طويلة ، وإخفاقات ، وكروبا ، كانت تنتظرهم ، ولكن كانت هناك أيضاً تحمسات واغتباطات ، لأنه يكون من الغدر بالنسبة إلى ذلك العصر ألا يترجم هذا الاهتزاز الذى كان يحركه .

ياللعجب ! يا لعالم الحشرات العجيب ! هاهو ذا شارل بونيه — بملاحظته صغار براغيث[1] النبات — يستكشف أشد الظواهر إدهاشا ، وهى ظاهرة

(١) صغار براغيث النبات أو اليسيرون هى حشرات صغيرة خضر تعيش فوق النبات والزهور . (المترجم)

الإخصـــاب بلا تدخل الذكور ، اى بوساطة البيض غير الخصيب أى پارتينوچينيز .

يا لعالم النبات العجيب ! ها هو ذا أبراهام ترامبليه — بملاحظته سيقان النباتات المائية — يستكشف أنها تطول ، وأنها تغير مواضع قرونها أو أذرعتها وأنها تنكمش ، فيسائل نفسه : أهي حيوانات ؟ ثم يقطع هذه السيقان عدة قطع ، فتصير كل واحدة من تلك القطع نبتة أخرى . وإذن فهى نباتات ، وهى تخصب بوساطة الغروز ، ولكن كلا ، ليست هذه نباتات ، لأنها تستولى على ديدان صغيرة وتدخلها من أفواهها إلى داخل أجسامها ثم تهضمها ، وإذن فهى حيوانات ، هى « حيوانات — نباتات » أى هى كلاهما معاً أى پوليب[1] ...

يستأنف ريومور بعض تجارب ترامبليه ثم يقول : « إنى أعترف بأنى حين رأيت للمرة الأولى « پوليپين » يتكونان شيئاً فشيئا من الپوليپ الذى قطعته قطعتين ، كان من العسير على أن أصدق عينى . وذلك حدث لم آلفه حتى بعد أن رأيته مائة ومائة مرة . »

وبعد ذلك كان الناس يقطعون ديدان الماء العذب ، بل ديدان الأرض قطعاً ، وفى كل مرة كانت تتكون من نفسها . وكان « إسبالان زانى » يقطع قرون الحلازونات ذوات الصدف ورؤوسها فتنبت القرون وتتكون الرؤوس من جديد . وإذذاك جعل يتناول سياندر الماء وهى حيوانات ذوات دم أحمر ، فيبتر قوائمها ، وسرعان ما تنبت من جديد !

عاد الناس إذن إلى زمن المعجزات ، ولكنها كانت معجزات طبيعية ، فمثلا كان النبات يتنفس ، ولم يعد الهواء أحد العناصر الأربعة البسيطة ، بل كان مكوناً من غازات توصل العلماء إلى فصلها . ومن مدينة فيلاديلفيا

(1) Abraham Trembley, Mémoire pour servir à l'histoire d'un genre pe polype d'eau douce 1744.

فى العالم الجديد ، جعل الناس يعلنون أن رجلا وهو بانچامان فرانكلان قد استولى على الصاعقة فامتلكها وانتزعها من الآلهة . وفى هذا يقول شارل بونيه .. « إننى منهك من فرط رواية المعجزات »[١] .

بيد أن المكافأة كانت إذ ذاك قد أتت ؛ لأن السلطة كانت تنشأ من المعرفة ، وكان الناس يسودون الطبيعة بمعرفتهم إياها ، وصارت المادة مذللة وكان يقال : كم أحسن الباحثون صنعاً إذ هجروا البحث العابث عن المبادئ الأولى والجواهر والمواد ! فلم تكن العلل الأولى تعنى الناس إلا قليلا مادام أنهم كانوا يجدون الوسيلة لجعلها تنتج بطريقة يقينية ، النتائج التى كانوا فى حاجة إليها . وعن هذا التغير نجمت وفرة فى هذه الخبرات ، وهذه الخبرات الواقعية التى إليها تنتهى العلوم التى كان ظاهرها أشد مايكون تنزها عن الغايات . وفى هذا يقول چوزيف لاندون : « إن كشوف العلماء هى فتح النوع البشرى[٢] » .

لم يعد من الحق أن الإنسان ضعيف[٣] ، وقد جعلت قوته تزداد من يوم إلى آخر .

وعن طريق العلم كانت الحياة ستصير جميلة وخيرة . وإذ ذاك ظهر محوطاً بإكليل جديد من النور — ذلك الذى كان يمتلك العلم والذى كان يصلح الطبيعة حين تضل ، والذى كان يبرىء من آلام الحياة ، وهو الطبيب . حقاً إن المسرح ظل يضحك من ديافواروس[٤] بدافع العادة ، ولكن

---

(1) Charles Bonnet, considérations sur les corps organisés, 1762, ch. XI.

(2) Joseph Landon, Réflexions de Mad. X, comédienne française, 1760, p. 54.

(3) S. Johnson, Rasselas, 1759, ch. 12. " Man is no weak answered his companion (Imlac) Knowledge is more than équivalent to force"

(٤) ديافواروس هو أحد أبطال مسرحية المريض الخيالى تأليف موليير "Molière" وهو من الأطباء الجهلاء المتنطعين الذين هزأ بهم ذلك الكاتب العبقرى وصيرهم مضرب المثل فى السخرية . (المترجم)

بوراف الليدى ، وترونشان چنيف ، وبوردوپاريس و هم أطباء أمجاد فى كل أوروبا كانوا يجسدون القوة الجديدة . وكان الرأى العام يشهد محاوراتهم الطويلة عن التلاقح . وأخيراً انهزم الجدرى ، وفى هذا يقول لامترى : « إن كل شيء يتخلى عن الصدارة لفن البرء العظيم ، وإن الطبيب هو الفيلسوف الوحيد الذى يستحق تقدير وطنه . . وهو كأخوى هيلين[1] يظهر فى وسط عواصف الحياة . أى سحرا وأية فتنة ! إن منظره وحده يهدئ الدم ، ويرد السلام إلى النفس الهائجة ، ويعيد نشأة الأمل العذب إلى قلوب الفانين التعساء ، إنه يعلن الحياة والموت ، كما يتنبأ الفلكى بالكسوف ...»[2] وهو الفيلسوف الوحيد فى الحقيقة لأنه هو وحده الذي يتحدث باسم التجربة « لأنه هو وحده الذى رأى الظواهر والآلات الهادئة أو الساخطة ، والسليمة أو المحطمة ، والهاذية أو المنتظمة ، والتى هى على التعاقب بلهاء ، ومستنيرة ، وغبية ، وساطعة ، وبليدة ونشيطة ، وحية وميتة : »[3]



وفى ١٤ فبراير من سنة ١٧٥٠ سجل بوفون نفسه نجاح كتابه : « التاريخ الطبيعى » الذى كان قد نشرت منه ثلاثة مجلدات فى السنة السابقة ، فالطبعة الأولى — ولو أنها طبع منها عدد كبير — قد نفدت فى مدى ستة أسابيع ، ثم ألحقت بها طبعة ثانية وكانت الثالثة على وشك الظهور آونة هذا التسجيل . وفوق ذلك فقد ترجم الكتاب إلى الألمانية و الإنجليزية والهولاندية . . . نعم قد لايكون بوفون أعظم عبقرية علمية فى عصره ولكنه أعظم ممثل لتلك العبقرية .

---

(١) أخوا هيلين هما كستور وپولوكس وهما فى الأساطير الهيلينية حاميا ركاب السفن حين تفاجئهم العواصف فيهتفون باسميهما لإنقاذهم من الغرق . (المترجم)

(2) La Mettrie, Dédicace de l'Homme Machine, 1748.

(3) Diderot, Encyclopédie, art. Locke.

كان معاصروه مدينين له بخطبة جديدة على المنهج [١] . عنوانها « عن طريقة معالجة التاريخ الطبيعي » وفى هذا السفر ، حول المؤلف الرياضة عن منزلتها ، وأعلن أن العقول تتطلب الآن يقينا واقعياً أكثر مما تتطلب جلاء هندسياً . ولا جرم أن هناك ثورة كانت مرسومة فى السطور التالية :

« توجد عدة أنواع من الحقيقة ، وقد اعتاد الناس أن يضعوا فى الصف الأول الحقائق الرياضية ، وهى مع ذلك ليست سوى حقائق وتعريفات ، وهذه التعريفات تستند إلى فروض بسيطة ولكنها مجردة ، وكل حقائق هذا النوع ليست سوى نتائج لهذه التعريفات مؤلفة ، ولكنها دائماً مجردة ، أى أننا أجرينا فروضاً ووفقنا بينها بكل الطرق ، وهذه المجموعة من التوفيقات هى العلم الرياضى ، وإذن فليس هناك شىء فى هذا العلم إلا ما وضعناه فيه . . . ولكن الحقائق الطبيعية على الضد من ذلك ليست ألبتة استبدادية ولا تتعلق بنا وهى – بدلا من أن تكون مؤسسة على فروض صنعناها – ليست معتمدة إلا على وقائع . . . وبالإجمال إن الباحث فى الرياضة ، وفى علم الطبيعة ، يضع ويثبت ، أى أن هناك فروضاً وهنا وقائع . وأن الباحث فى العلوم المجردة يذهب من تعريفات إلى تعريفات ، وأنه فى العلوم الواقعية يسير من ملاحظة إلى ملاحظة ، وهو فى الأولى يصل إلى الجلاء وفى الثانية إلى اليقين ...

كان يريد أن يضع الإنسان فى المركز من الكون ، وكان يمعن فى هـذه الإرادة إلى حد الغرابة . ولم يكن يحب تقسيم النبات الذى أراده « لينيـه » إذ أن تقسيمه الخاص الذى لم يكن يتحدد بالنبات ،

---

(١) يشير المؤلف هنا بكلمة « جديدة » إلى التذكرة بذلك الكتاب الخالد الذى كان ديكارت قد أصدره فى القرن السالف بعنوان « خطبة على المنهج » . (المترجم)

ولكنه كان يتناول الخلق كله ، وكان يصدر عن مبدأ آخر . وإليك كيف يبسطه :

يستيقظ أحد الأفراد وكأنه قد نسى كل شيء ، وهى فى أحد الحقول حيث الحيوانات والطيور ، والأسماك والأحجار تمثل أمام عينيه الجديدتين ففى أول الأمر يضل ولا يميز شيئاً، ويخلط كل شيء . ولكنه بعد قليل يلمح فرقاً بين المادة الجامدة والمادة الحية ، ثم لايلبث أن يتبين فى هذه الأخيرة فرقاً بين الحيوانات والنبات منه ينشأ ذلك التقسيم العظيم الأول إلى : معادن ونباتات وحيوانات . وعلى أثر ذلك ، حين ينظر هذا الشخص نفسه إلى الحيوانات ينتهى فى وقت قصير ، إلى أن يكوّن لنفسه فكرة خاصة عما يعيش منها على الأرض أو فى الماء ، أو فى الهواء . ومن ذلك ينشأ التقسيم إلى ذوات الأربع ، والطيور والأسماك ، وإذ ذاك يرتب ذوات الأربع حسب علاقتها به هو ، فأكثرها نفعاً فى حياته ، تظفر بالصف الأول كالجواد والكلب والثور . وعندما تنفد قائمة تلك الحيوانات الأليفة ، ينشغل بالحيوانات التى يمكن أن تقطن نفس المكان كالأرانب البرية والأوعال وحيوانات متوحشة أخر . وفى النهاية فقط ، ينتهى به حبه للاطلاع ، نحو الحيوانات التى تقطن المناخات الأجنبية كالفيلة والهجن وما إلى ذلك .

وبالإجمال إن طموحه كان يهدف إلى أن يجمع بين الأشياء التى تتشابه ،وأن يفصل المتباينات منظماً التشابهات والاختلافات من حيث علاقتها بالإنسان، وإلى أن يقدم إلى هذا الأخير صورة عن الطبيعة تحققت بوسيلة الوصف الكامل .

لاجرم أن كتابيه « تاريخ الأرض » و « عصور الطبيعة » قد أفاد فى استبدال الفكرة الثابتة ، عن العلم ، بفكرة متطورة ، إذ أبان فيهما أن المرء لايستطيع أن يعرف ذلك الواقعى — وهو الذى كان بوفون يطمح إلى فهم مجموعه وتفاصيله — إلا إذا كان يراه يتكون فى وجوده السابق ، وفى

أحداث ماضيه . وقد صدرعن المظهر الأختبوطى للأرض – كالجبال والهُوِىّ والسهول والبحار والبطاح والأنهار والكهوف واللجج والبراكين والصخور الهاوية ، المشققة والمحطمة ، والبقاع المبتلعة ، لكى يتغلغل فى أعماقها بفضل علم طبقات الأرض. وعن طريق فعل النار والماء الذى دام منذ آلاف السنين قد شرح ذلك اللغز . أو كما قال بلغته الرنانة : إنه قد فتش فى سجلات العالم ، ووضع أحجارا مرقمة على طريق الزمن الأبدية .

كان كل شىء يبدو أن يتخذ منه رمزاً حتى من أخطائه ، لأنه كان ينخدع أحياناً . ولقد أساء النظر حين وضع عينه على المنظار المكبر الذى أعاره إياه السيد « نيد هام » ، وقد أساء صنعاً فى تقديراته ، وفى مراجعة نتائجه ، وقد حدث له أن نظر إلى الانشغال بالتفصيلات على أنه عمل منحط وغير جدير به . ولا جرم أن هذا العدو لمجموع النظريات قد انغمس نهائياً فى نظرية الأرحام والقوالب وأيدها زمناً طويلا . غير أنه إذا كان قد أثم ، فإن ذلك كان منه ضد حكمته الخاصة ، وضد القانون الذى كان يرجع إليه دائماً ، بحيث إنه لما كان معرضاً للخطأ ، فقد وكل إلى من سيأتون من بعده ، المنهج الذى يسمح لهم بنقضه .

كان رمزاً للعمل وللصبر الطويل الذى صار عبقرية . والوقت ، الوقت النفيس الذى يسفه فيه الآخرون فى التوافه واللذائذ بل فى الشواغل الخارجة عن مهمتهم ، كان هو يحتفظ به لعمله الذى هو : حديقة الملك ، والتاريخ الطبيعى . وكان يقاوم فتن سعة العيش والحياة الاجتماعية ، والرحلات . وفى الواقع أنه لم يمض سوى بضعة أشهر فى إيطاليا ، ولم يقم فى إنجلترا إلا بقدر ما يكفى لتلقفه العلم . وعلى أثر ذلك ، لما كان سيد حياته ، ولما كان قد امتلك مزاجه وطبعه وقوته ، فقد بذل فى هدوء أقصى جهده ، كانت ساعات الاستيقاظ ، والمائدة ، والنزهة محددة بطريقة ثابتة . وبالإجمال كان يعمل كمن لا يستريح ألبتة لأنه يعلم أنه لم ينته قط من عمله .

كان رمزاً لخُلُقيّة العلم وللشعور بقانونه القاسي ، وكان أيضاً رمزاً للآمال التي يمنحها العلم . وكان في هذا يقول : « لنجمع دائماً ، تجارب ، ولنبتعد — إذا كان ذلك ممكناً — من كل روح النظريات ، وليكن ذلك على الأقل ، إلى أن نصير متعلمين ، وسنجد في يسر ، ما نستعمل فيه هذه المواد ، وحتى لو لم نسعد السعادة الكافية بأن نشيد منها بناية تامة ، فإنها ستنفعنا يقيناً في تأسيسها ، ومن الممكن أن تفيدنا في إعجال تشييدها إلى ما وراء آمالنا[1] » .

لم يكن المساء محل بالنسبة إليه ، وكلما كان يهرم ، كان يدخل في موكب من المجد والفخار ، بل إن عيوبه ، أي بعض الجوانب المادية من طبعه ، ومهارته في العثور على مساعدين أحسن اختيارهم ، وذوقه في الحب السريع السهل ، كل هذه النقائص كانت تختفي في نوع من دخان بخور المدائح ، فقد كان عضواً في المجمع اللغوي الفرنسي ، وكان أميناً دائماً لصندوق مجمع العلوم ، وكان عضواً في مجامع لندن ،وإيدنبور ،وبرلين ،وسان بترسبور ، وفلورانسا ،وفيلاديلفي ،وبوستون ،وكان متوجاً بالمجد ومبجلا من الجميع ،وقد رأى في حدائقه ، ذلك التذكار الذي شيده ابنه لمجده ، كما رأى تمثاله في حديقة الملك العزيزة عليه . وقد صار قصره في مونبار موضعاً للحج متنافساً في ذلك مع قصر ڤولتير بفيرنيه . ولقد قدم أمير پروسيا هانرى لزيارة هذا الرجل الشهير ثم أرسل إليه على أثر ذلك طقماً من الصيني محلى بصورة الطائر الأبيض . وكان چان چاك روسو يركع على ركبتيه ليقبل عتبة بابه . وكان هناك قوم يرسلون إليـــه شعراً يصورونه على أنه العقل المبتدع ، والعبقرية العالية ، وكانت مدام نيكير ، تدعوه « رجل جميع العصور » . ولقد كتبت إليه كاترين إمبراطورة روسيا في كتاب بخطها تقول له : إن نيوتون قد خطا الخطوة الأولى ، وإنه هو قد خطا الثانية .

---

(1) Buffon, Préface à la traduction de la statique des végétaux de Hales, 1733.

وعند ما كان الزائرون ينتهون من زيارة الحديقة ذات (الىراسات الثلاثة عشر) ويشاهدون ذلك المكتب الجدى الخالى من الزخرف ، وهو الذى كتب فيه بوفون مؤلفه العظيم، وكانوا يوجهون نظراتهم نحو المؤلف، كانوا يرون مظهراً جليلا ، ووجهاً جميلا هادئاً لايزال غضاً فى الثامنة والسبعين . حقاً إن المثال «هودون» قد استطاع أن يعبر — فى التمثال النصفى الذى صنعه له عن جده ونبله ، ولكنه لم يستطع أن يرسم بريق عينيه ، ولالون حاجبيه الأسودين المتعارضين مع شعره الجميل الأبيض . وفى الحق أنه كان يشبه الرجل الذى كان المثال قد مثله ، كان ينصب قامته مستقيمة وكان مظهره مظهر الأمر وكان رأسه متجهاً إلى السماء ويقدم وجهاً جليلا رسم عليه طابع كرامته .

* * *

ومن ثم فكل هذا العمل ،وكل تلك المشقة وجميع هذه المحاورات قد تمت لكى تبين قيمة هذه الحقيقة التى هى بسيطة إلى حد أنه ، فى محيط العلم ، ينبغى الصدور عن الملاحظة الدقيقة للوقائع . أليس كذلك ؟ إن هذا أمر يقينى . وكما أن الملاحظة كانت موضع الجزم فى كثير من الحالات ، يجب أن تكون كذلك أيضاً فى المستقبل . ولهذا لا يفعل كلود بيرنار أكثر من أنه يعود إلى بيكون . وكل شىء يحدث كما لو كان المد يغطى الجزر المستكشفة من عصر إلى عصر ، ومن جيل إلى جيل ، وكما لو كان ينبغى فى كل مرة تبيينها من جديد بكثير من العمل والعبقرية .

الفصل الثالث

الحق الطبيعى

هيا إلى العمل لكى نستغل فتوح جروسيوس ، وپوفيندورف وكومبير لاند ، وليبنيز وجرافينا . ولكى تفهم كل أوروبا وكل الدنيا أخيراً أنه لا يوجد سوى حق واحد تنبثق منه الحقوق الأخرى ، وهو الحق الطبيعى .

إلى العمل لكى ننقض جميع الذين لايزالون يجروؤن على مهاجمته ، ولكى نصيب ولو فى الماضى ، هوبس الشرير الذى أراد أن يصنع من القوة ، المبدأ الوحيد للعلائق البشرية . إلى العمل لنحدد المكاسب التى لا تزال مختلطة ، ولننميها ونحولها إلى علم ، ولنجتاز النظرى إلى العملى إذا كان ذلك ممكناً .

على أثر هذه الدعوة ، تضاعف تعليم الحق الطبيعى فى كل أوروبا ، وفى سنة ١٧٧١ تأسس كرسى الحق الطبيعى فى المدرسة الملكية ، وبالإجمال انتهى عصر المخترعين وأتى عصر الأساتذة .

ومنذ ذلك الحين كانت هناك محاولات وبحوث وشروح طويلة كثيرة الكلام قليلة الدلالة ، وكان هذا كله تبدو عليه مسحة العمل المتجهم الذى يقوم به الاختصاصيون ، ولكنه فى الواقع كان مجهوداً قوياً اتخذ له مقراً فى قلب الحياة نفسه ، مجهوداً تطابق مع جميع المجهودات التى حاولها أربابها فى تلك الحقبة ، بل إنه كان فى أغلب الأحايين يفوقها ، مجهوداً يهدف إلى أن ينتزع من اللاهوت ، الناموس المنظم للعالم ، وإلى أن اللاهوت لا يحتفظ بالحق على أنه من أوصافه ، إلاحين لايكون اللاهوت شيئاً آخر غير العقل . وإليك أهم المنتجات فى هذا المجهود :

فى سنة ١٧٣٠ ألف چوان جوتليب هينيك ، كتاب : « عناصر الحق الطبيعى وحق الناس » «Elementa juris naturae et gentium» :

كان رجلا جد عالم ذلك المدعو چوان جوتليب هينيك الذى لم يغادر جامعة هال إلا لكى يعود إليها لأنه كان يوجد فى موضعه حقاً . كان فقيهاً من الصف الأول ، وقد أراد أن يضع فى متناول الطلاب كتاباً تكون مهمته ترسيخ ارتباط الحق الطبيعى بالفقه ، لأن الفقه يكون عبثاً إذا لم تبعث فيه الحياة ، روح هذا الحق . وهل الفقه فى الحقيقة شىء آخر غير الحق الطبيعى مطبقاً على الوقائع البشرية ؟ وإليك التعريف الذى وضعه له : « الحق الطبيعى هو مجموعة القوانين التى شرعها الإله للنوع البشرى ، بوساطة العقل المستقيم ، وإذا أريد اعتباره على أنه علم ، فإن الفقه الطبيعى يكون هو الطريقة العملية لمعرفة إرادة المشرع الأعلى ، كما تتضح عن طريق العقل القويم ، ولتطبيقها على جميع الحالات النوعية التى يمكن أن ترد » .

وفيما بين سنتى ١٧٤٠ و ١٧٤٨ — ألف چوان كريستيان ڤولف كتاب « الحق الطبيعى ، والمنهج العلمى لمعالجته » "Jus naturae méthodo scientifica pertractorum".

يشرع چوان كريستيان ڤولف فى العمل ، ولا يتوقف بعد ذلك وهو الذى سيصنع من الحق الطبيعى منطقا ، والذى سيقيده فى الجدول النظامى الكبير الذى يمثل الحقيقة مع الحياة العملية .

إن الإنسان مؤلف من نفس وجسم ، وكما أن مجموع أعضائنا يميل إلى حفظ جسمنا ، كذلك العقل يميل إلى اقتياد النفس إلى كمالها . وعلى أثر ذلك تتخذ أفعالنا طابع الخير أو الشر فى ذاته : ويعتبر خيراً كل ما يسهم فى كمال النفس ، ويعتبر شراً ما يضاد ذلك . هكذا يريد القانون الطبيعى المشتمل على سببه الكافى فى جوهر الأناسى والأشياء ، وهو فى هـذا يقول : « من حيث إن الطبيعة التى هى دائماً مرتبطة

بالحقيقة ارتباطاً داخليا ، لاتحتمل التناقض الذى هو العدو الأبدى للحقيقة ، فإن اتجاه الأفعال الإنسانية الوحيد الذى يتفق معها ، هو أن تكون محدودة بنفس الأسباب الغائية التى تحدد الأفعال الطبيعية وإنها على هذا النحو تتجه معا ، نحو نفس الغاية » وإذ يقرر هذا يصل إلى الحق ولكى نستطيع أن نؤدى هذه الالتزامات يجب أن يكون لدينا المقدرة على فعل ما لانستطيع تأديتها بغيره . ومن هذا ينبثق إما حق استعمال الأشياء ، وإما حق إتمام بعض الأفعال . وكذلك الانتظام فى المجتمع قد أنشأ واجبات أخرى غير التى تعرض على الفرد . وإذن فقد أوجد حقوقاً أخر تدعى بالحق الخاص والحق العام وحق الناس . ولقد بذل ڤولف هذا المجهود الشاق ليجعل جميع الحالات الخاصة تنبثق من هذه المقدمات . إنه ينزل إلى التفاصيل ، ويتحدث عن الملكية ، وعن الحقوق التى تنتج منها ، وعن الالتزامات التى توجد مرتبطة بها ،وعن الهبات والعقود وأشباه العقود ،وعن الواجبات والحقوق الأسرية التى تتعلق بالمجتمعات الزوجية والأبوية والسيادية وعن حق الدول وحق الناس .

ولقد بهت فورميه ، وهو أحد المعجبين به أمام منطق تدليله فقال : « إن الطبيعة تريد أن يكون الإنسان سليم الجسم والعقل بقدر ما يمكن أن يكون ، وإن العقل يريد ذلك أيضاً ، فافترضوا إنساناً تعمل فيه الطبيعة والعقل متفقين فإنه سيكون لديكم إنسان كامل ، ذلك هو المبدأ العظيم الذى عليه تعتمد كل تدليلات السيد ڤولف ، ولم يستعمل أى فيلسوف إلى عهده مبدأ منيراً وخصبا كذلك المبدأ . » ولكى نقول الحق ، نعلن أن الفقه لايزال ينقصه شىء ، ولكن السيد ڤولف قد أجاد العمل إلى حد أنه لم يبتعد به عن الإتمام . وهو الآن كأنه آلة لاينقصها سوى إحكام أجزائها لكى يمكن استعمالها ، وسيأتى واحد آخر يكون قد استفاد من أنوار السيد ڤولف فيصلح ما فرط منه ، وكان أقل ضبطاً . وقد يأتى الوقت الذى يتاح

فيه لهذا المذهب — وقد انتشر فى كل امتـــداده — أن يستقر على أنقاض الآخرين ، وأن يكون مرشداً لجميع الفقهاء »

وفى سنة ١٧٤٠ ألف ف . هـ . استروب دى پيبرمون ، كتاب : « بحوث جديدة عن أصل وأسس حق الطبيعة » .

منذ سنة ١٧٣٢ حين لاحظ فريديريك هانرى استروب دى پيير مون أنه لا المؤلفون ولا الأساتذة كانوا متفقين على تعريف الحق الطبيعى ، استشار أنواره الخاصة وأخرج كتابه « بحوث جديدة عن أصل وأسس حق الطبيعة » . وكان يحسب أنه قد ظفر بالسر الأعظم .

كان أقدم الفلاسفة ، يقصدون بالنواميس الطبيعية ، النظام الأزلى الثابت لجميع الأشياء المخلوقة ، وكان الفقهاء الرومانيون يرون فيها التوجيهات الصادرة من الطبيعة إلى جميع الحيوانات ، وقد اتخذه أكثر الأخلاقيين على أنه قواعد أمر بها العقل ، وقد حددوها بالإنسان وحده . ولكنها فى الواقع شىء آخر ، إذ أن كل كائن مخلوق لا يمكن أن يكون قد خلق إلا للاحتفاظ بذاته ، وأن بعض التشابهات فى الأسباب ، تضطره أيضاً إلى التفكير فى حفظ الآخرين ، وإذن فكل إنسان يجب أن يحتفظ بذاته ، وأن يحفظ الآخرين المرتبطين به . وبالإجمال يجب أن يعمل على إدامة النوع البشرى ، ذلك هو المبدأ الأول الوحيد والأعظم لنواميس الطبيعة أو لحقها .

غير أن العقل الذى يتحدد بأن يعتبر العلائق التى توجد بين الفكر ، هو غير قادر على أن يجعلنا نستكشف ما ينبغى أن تعلمنا النواميس إياه . وهناك قوة أخرى من قوانا هى أيضاً غير قادرة على هذا ، بينما أن الهوى على الضد من ذلك هو المبدأ الفعال للنفس ، لأنه مصحوب بالقوة التى تحقق التنفيذ ، وهى التى تلزمنا بتطبيق الحق الطبيعى .

وفى سنة ١٧٤٢ ألف فرانسوا ريشيه دوب ، كتاب « محاولة على مبادئ الحق والأخلاق » .

الآن قد أتى دور السيد دوب وهو من قضاة مجلس الدولة ، ومن ناحية أسرته هو أحد أقارب فونتينيل .

يرى هذا المؤلف أن الناموس الطبيعي الذى عليه طابع الأزلية والعمومية، والذى لا يمكن أن يمحى .والذى ليس فى حاجة إلى التأويل ، هو منقوش على جميع القلوب . ومجمله أن الإنسان كائن مادى ، وإذن فهو يميل إلى حفظ ذاته ، وهو كائن روحى ، وإذن فهو ينعطف نحو سعادته . وأن الطبيعة — وهى مضمونة بوساطة الإله الذى هو سيد الكون — هى ملهمة هذا الناموس الذى يمتزج بخير المجتمع .

وفى سـنة ١٧٤٨ ألف ج . ج . بورلاماكى كتاب « مبادئ الحق الطبيعى ».

ولما كان چان چاك بورلاماكى — وهو أستاذ للحق الطبيعى والمدنى فى چنيف — شجاعاً وثرثاراً ، هندسياً ومحللا ودوجماطيقياً أكثر مما يعتقد هو ، فإنه كان يضع الحدود بلا فتور ، وقد حدّد الإنسان من حيث إن فكرة الحق ، وأكثر من ذلك فكرة الحق الطبيعى مرتبطة بطبيعة الإنسان ، وحدّد السعادة التى يتوق إليها الإنسان بالطبع ، وحدّد الفطنة التى هى محكمة بالفطرة ، والتى تملك فى ذاتها القوة الكافية لمعرفة الحقيقة وتمييزها من الخطأ . وحدّد الجلاء الذى لا تستطيع الأهواء البشرية أن تنتصر عليه ، وحدّد العقل الذى يحمل معه دائماً فكرة عن الكمال ، وحدّد الفضيلة . ولما تزود على هذا النحو ألم بفكرة القانون . وهو فى هذا يقول : « يفهم من كلمة القانون الطبيعى الذى يفرضه الإله على جميع بنى الإنسان والذى يستطيعون استكشافه ومعرفته بوساطة نور العقل وحده ، عندما يعتبرون طبيعتهم وحالتهم والحق الطبيعى هو النظام ، أو ترتيب هذه القوانين .

وأخير إن الفقه الطبيعي هو فن الوصول إلى معرفة قوانين الطبيعة ، ونشرها وتطبيقها على الأفعال البشرية » .

وعنده أن القانون الطبيعي هو أيضاً : « كل ما يقره العقل على أنه وسيلة يقينية ومختصرة للوصـــول إلى السعادة ، وما يستحسنه على أنه كذلك » .

عند ما يعلن بورلاماكي أن القانون الطبيعي هو « القانون الذى يفرضه الإله على جميع بنى الإنسان » هل يحتفظ ببعض بقايا الحق الإلهى ؟ فلنتفاهم فى ذلك : لما كان الإله هو منشئ طبيعة الأشياء وتكويننا ، وإذا كنا – تبعاً لهذه الطبيعة وهـــذا التكوين – ميسرين بصورة معقولة لأن نحكم بطريقة خاصة ، ولأن نعمل متفقين معها ، فإن قصد الخالق يكون إذ ذاك واضحاً وضوحاً كافياً ، ولا نستطيع بعد ذلك أن نجهل ما هى إرادته . وإذن فلغة العقل هى لغة الإله نفسه ، ومن حيث إن الإله عقل ، وإن العقل هو العقل البشرى ، فإن الإلزام لا يجيء من الإله بمعنى أنه لا تمكن إطاعة أمر موجود أسمى إلا بوساطة قبول سابق ، للمبدأ الذى يلهم هذا الأمر وبالاختصار إن الإله يتلاشى فى العقل ، وإن العقل يتلاشى فى الطبيعة ، وبهذا يصير الحق الإله القديم حقاً طبيعياً وعقلياً . وينبغ ألا يبقى أى أثر للحق الإلهى ، وينبغى الرجوع فى هذا إلى تعريف دائرة المعارف تحت كلمة قانون ، « إن القانون فى العموم ، هو العقل البشرى : بمعنى أنه يحكم جميع شعوب الأرض ، وإن القوانين السياسية والمدنية لكل دولة لا يجب أن تكون سوى الحالات الخاصة المختلفة التى عليها ينطبق هذا العقل البشرى » .

وفى سنة ١٧٥٧ ألف مارتان هوبنر كتاب « محاولة على تاريخ الحق الطبيعى » .

ولكم أريد تبين أن الحق الطبيعى كان منقوشاً على قلوب جميع

الأناسى ، إلى نهاية حدود الأرض ، ومنذ مبدأ الزمن ! ولكم كان حسناً أن يستأنف المرء الصعود إلى حالة الطبيعة ، وبهـذا يجعل نظرية ذلك الحق نفسه تعتمد على معارف تجريبية ! وأى انفعال ذلك الذى أثاره نبأ وجرد فتاة متوحشة فى غابات شانپانيا ، ورجل متوحش فى غابات هانوفر ! وكان من الممكن أن يسألها الباحثون وأن يلونوا على ألسنتهما ، أجوبة الطبيعة ! غير أن المسرح والرواية قد استبدلا بالخيال ما وجد لدى هذين الشخصين من دواعى خيبة الأمل ، ففى مهزلة « المشاجرة » ، ينقب ماريڤو عن الذى وقعت منه الخيانة الأولى ، أمن الرجل ، أم من المرأة ؟ والأمير الذى يضعه على هذا المسرح هو الذى سيقول الكلمة الحاسمة فى ذلك . ولا جرم أن العالم وعلائقه الغرامية الأولى ، سيعودان إلى الظهور أمام أعيننا كما كانا ، أو على الأقل كما وجب أن يكونا . . . »

وهاك البيان :

كان والد الأمير وهو فيلسوف ، قد نقل — إلى مكان منعزل وبعيد عن كل اتصال بالمجتمع أربعة أطفال غلامين وفتاتين لا يزالون فى المهد، فكبر هذان الغلامان وهاتان الفتاتان اللذين ربوا كل على حدة ، ولم ير واحد منهم الآخرين ألبتة .

أتى بعد ذلك الزمن الذى ستترك لهم فيه حرية الخروج والالتقاء ، وسيمكن النظر إلى العلائق التى ستوجد بينهم ، على أنها صورة للعصر الأول للعالم . بيد أن ماريڤو ، لا يقول الكلمة الفاصلة فى هذا ، وأننا لن نعرف أبداً ممن أتت الخيانة ، لأن النتيجة هى أن النوعين ليس لديهما ما يؤخذ عليهما ، وأن الرذيلة والفضيلة تنتسبان إليهما على السواء .

أما بوريو — فى روايته «تلميذ الطبيعة» التى ظهرت فى سنة ١٧٦٦ — فقد كان أكثر جرأة . ومجملها : أن زوجاً كان قد نال من زوجته ، الموافقة على أنهما إذا وجد لديهما أكثر من ستة أولاد ، فإن من زاد على ذلك

يخصص لاستجواب الطبيعة . ولما كانا قد ظفراً بسبعة أولاد فإن السابع والأخير قد حبس في قفص دون اتصال بأى أحد ، بل إن طعامه كان يقدم إليه من بين فرجات القفص ، وكان القفص قد نقل إلى جزيرة مقفرة . وفى سن العشرين قد بدأ بطل الرواية يتصل بالرجال الآخرين ، وقد حدث أن كان خيراً وعاقلا ، وأنشأ أسرة صارت على أثر ذلك مجتمعا كاملا . . .

نعم من الواضح أن الأدب لا يعتمد عليه، ولكن الذى يمكن على الأقل هو رسم الخطوط العريضة منه ، وذلك للمرة الأولى ، هو تاريخ الحق الطبيعى . ولقد حاول أحد الدانيماركيين ، وهو مارتان هوبنير ، مزاولة هذا العمل ، وكان من دواعى الغبطة عنده أن يردد تلك العبارات المثملة التالية :

(١) إنى تعقلت كإنسان ليس لديه مرشد آخر سوى أنوار العقل (٢) إن ما أدعوه باسم الحق الطبيعى هو مجموعة القواعد المنظمة الإلزامية التى يأمرنا بها العقل وحده لكى ينتهى بنا يقينا إلى السعادة (٣) إن فكرة القانون الطبيعى هى ، بلا معارضة ، متعلقة بطبيعة الإنسان ، أى أنها متصلة بجوهره (٤) إن الإنسان يريد أن يكون سعيداً ، وهو لا يعمل مستهدفاً سعادته ، ولكنه — لكى يرضى رغباته التى تحثه بلا انقطاع ، ولكى يصل إلى الغاية التى يقصدها فى كثير من المثابرة — ينبغى أن يعز الوسائل التى تنتهى به إليها ، وعن ذلك ينجم أن الإنسان فى حاجة إلى بعض القواعد . ولا جرم أن قواعد توجيه سلوكنا أى وسائل السعادة البشرية ، هى ما ندعوه بالقوانين الطبيعية . وإذن فطبيعة الإنسان هى التى كانت — إذا أمكن أن يقال ذلك — المعلم الأول للحق الطبيعى .

وإذ ذاك جعل ينبش فى أعماق العصور عن عظماء الرجال الذين تجسد فيهم هذا المعلم ، كل بدوره . ومن أمثلة ذلك الكاتب المحترم الذى عنه

تلقيناً تاريخ الزمن الذى سبق الطوفان ، والذى قدم ملخصاً جد موجز ، للقوانين الطبيعية ، وهو موسى . ومنها أيضاً الصينيون ، والإغريق ، (مونتسكيو العصور الأثرية) الذى بوساطته اعترف بالحق الطبيعى اعترافاً حاسماً ، وهوسقراط . ومنها كذلك الرومان ، رغم زهوهم السياسى الذي كان يستمد وجوده من التعصب ، وهم شيشرون ، وسينيك ثم إبيكتيت ، ومارك — أوريـــل ، "Cicéron, Sénèque, Epictète, Marc-Aurèle" .

غير أن هناك انحطاطا قد حدث فى العصور الوسيطة كما كان ذلك متوقعاً ما دام أن العصر كان قوطياً وبربرياً . ولكن النهضة كانت قد علمت الناس أن يجيدوا التفكير ، وكان بيكون قد ظهر . وعلى هذا النحو يصل القراء إلى جروسيوس ،وبوفيندورف ،وكومبرلاند،وڤولف،وباربيراك،وبورلاماكى "Grotius, Pufendorf, Cumberland, Wolff, Barbeyrac, Burlamaqui"

ولقد انتقل الإنجليز والدانيماركيون إلى صف الحق الطبيعى ، وفى ألمانيا كان النجاح يوشك أن يكون مفرطاً فى الحيوية لأن تلك الأمبراطورية الواسعة ذات الأقاليم المتعددة التى كانت مكتظة بالجامعات ، وكان فى كل جامعة منها يوجد بصورة عامة ، كرسى للحق الطبيعى ، وكانت المحاولات والملخصات والنظريات توجد فيها كثيرة العدد إلى حد فقدت معه الفكرة المرشدة منذ زمن طويل ، بل كان من الممكن أن تؤلف من تلك الكتب مكتبة كاملة ، لوكان ذلك يوازى مشقة جمعها ونفقاتها ، بل إن الأشخاص الذين هم أقل الناس جدارة بالتفكير كانوا ينشئون غالباً فى تلك البلاد ، على هذه المادة عند ما لايعرفون أيها يختارون لكى يحققوا نشاط أقلامهم .

نعم إن الحق الطبيعى قد التقى بخصوم ، ومرتابين كاسپينوزا ، وبهراطقة ، كبيل ، ومانديڤيل وبولينبروك .

غير أن مؤلفاتهم لم تكن تستطيع شيئاً أوكانت تستطيع قليلا ضد حقائق قد اعترف بها .

وفيما بين سنتى ١٧٨٣ و ١٧٨٨ ألف جايتانو فيلانچيرى — كتاب « عن علم التشريع » .

ولقد كتب جوت عن جيتانو فيلانچيرى الذى التقى به فى نابولى وعرفه بمنتجات مؤلف قديم وهو ج . ب ڤيكو ، الثناء التالى الذى لاينسى : « إنه كان أحد أولئك الشبان الجديرين بالاعتبار الذين لايغفلون عن سعادة البشر ، ولا عن الحرية التى أجادوا فهمها . ومن خلال تصرفاته يستطيع المرء أن يتبين فيه الجندى والفارس ، ورجل الطبقة العليا ، ومع ذلك فإن هـذا المظهر الأرستقراطى معتدل بوساطة ملامح العاطفة الأدبية الرقيقة المنتشرة على شخصه ، والتى تشع من ألفاظه ومن كل كيانه فى كثير من السحر . »

أما بينيديتو كروش ، فهو يطلق عليه لقب أحد حوارى الإنجيل الجديد أى إنجيل العقل .

بوساطة كتابه « عن علم التشريع » ينتهى الحق بفقدانه طابعه كواقعة تاريخية ، لكى يصبـــر النظرية المؤسسة على فكرة والتى بمجرد دخولها فى العمليات ، تصلح الحياة : وفى الواقع أن المعرفة التاريخية لا يمكن أن تعطى إلا منظراً من مناظر الاختلاط المحزن ، إذ أن التجربة تظهر لنا كومة من القوانين منبثقة عن مشرعين مختلفين فى دول متباينة وفى أوان متفرقة . وعلى الضد من ذلك ، لو حصرنا الوقائع فى علم نظرى ، لصار كل شىء ميسوراً وخيراً ، وهو فى هذا يقول : « أيتها الطبيعة البسيطة المعصومة ، إننى بقدر ما ألاحظ منهجك ، أبغض منهج بنى الإنسان ، وبقدر ما أحاول أن أتبع منهجك أكون مغتبطاً بأن أبتعد عن منهجهم . . . »

ينبغى الصدور عن تعريفات يقينية ، وبوساطة سلسلة من المبادئ سنعرف كيف يجب أن تكون الحقوق الجنائية والمدنية والسياسية والدينية ، وكيف يجب أن تكون التربية والأسرة والملكية .

فى الغابة المظلمة التى كان آباؤنا البرابرة مغتبطين بها ، سينشئ الحكيم

المشرع طرقاً فسيحة مستقيمة تنتهى بنا إلى العدالة والسعادة . وسيستمع الأمراء صوته ، وسيتبعون نصائحه . ولاريب أن « هذه الوظيفة المقدسة تستند إلى خدام الحقيقة وإلى الفلاسفة السلمين » .

وإذ ذاك سيحل حب الإنسانية محل الأنانيات ، وسيمحو معنى العدالة ، الإفراط ، وستمزق المخطوطات القديمة ، والشروح والتأويلات ،وسوف لايلتجأ إلى السوابق ، وسيصير الخصوم والمحامون والقضاة ، تلاميذ للقانون الطبيعى النقى ، وسينجو العالم .

وحين يتحدث جايتانو فيلا نچيرى على هذا النحو ، ينفعل ويشعر بأنه يحركه هوى حاد فيعظ . وعندما ينظر إلى الأخطاء القديمة يتألم ويعلن الألم . وحين يلمح تقدم المستقبل يتحمس ، ولاغرو فليس عقله هو الذى يتحدث فحسب ، بل قلبه أيضاً .

* * *

ومهما يكن من الأمر فلِمَ هذه الفوضى الكبرى فى القوانين ؟ لِمَ هذا الاختلاط وذلك الأخطبوط ؟ أمنشأ ذلك هو خيانة المشرعين الأغبياء أو المغرضين ، واللذين هم على كل حال حراس غير أمناء على وديعة مقدسة ؟ ليكن ذلك ، ولكن الناس كانوا يشعرون بأن هذا الجواب قد دفعه الإفراط فى التسرع .

وفى الحق أن مونتسكيو "Montesquieu" كان عظيما لأنه تيسرت له تلك الإرادة للشرح ، فلكى يصل إلى أرفع النقط حيث يبدو النظام فى وسط الفوضى ، صنع من حياته صعوداً إلى أسمى القمم . إنه لجميل أن يرى مستقراً فى ثروته العقارية ،وألا يكتفى بذلك ، وأن يظفر بشهرة إقليمية وألا يكتفى بذلك ، وأن يصل إلى المجد الأدبى بسبب النجاح الأوروبى لكتابه « الرسائل الفارسية » وألا يكتفى بذلك . وبدلا من أن يستريح هو يستأنف مجهوده من جديد ، وليس لديه طموح إلا إلى أصعب الأشياء ، إنه عمل ،

وكم عمل ! وقد قرأ ، وكم من الكتب قرأ ! إنه قرأ أشرَى الكتب مادة ، وأشــدها إقحالا ، قرأ ما كان يحبه ، وما كان يبدو له « فاتراً وجافاً وتافهاً ، وفظاً ، ومتعباً » وكان يزدرد كل هذا . كما كان « ساتورن — فيما قالت الخرافة — يلتهم الأحجار . ولما آن الأوان غادر مكتبه وهجر إقليمه العزيز جويين ، ووظيفته ووطنه ، وارتحل ليرى عن قرب ، تطبيق الدساتير ، وحياة الناس ثم عاد إلى فرنسا فى قصره لابريد حيث استأنف العمل والقراءة والتأمل لكى يفوق الكافة ذوى المعارف المكتسبة.

وعندما سادت كل معارفه ، ونضجت كل أفكاره ، بدأ يرى من أعلى ، ما أساء الآخرون رؤيته . ولكى يصل إلى هذا ، أبدى كثيراً من المعرفة ، وكثيراً من الذكاء ، ومجهوداً مدهشاً لكى يكون واضحا ، وشعوراً جلياً بالموضوع الذى ينبغى اختياره ، وبطريقة معالجته ، وبالأسلوب نفسه ، واعتدالا سمح له بألا يترك نفسه يُحْمَل إلى ماوراء الحقيقة ، وأنانية مقدسة دافعت عنه ضد كل من يحوله عن الغاية أى ، ضد الأهواء والمحبة نفسها . ، وحب الخيرات المزيفة وعذوبة الفراغ ، وختاماً نقول إنه قد ظفر بمكافأته حين أعلن قائلا : « إنما هاهنا ينبغى أن يقدم الإنسان لنفسه منظر الأشياء البشرية ... » .

وفى سنة ١٧٤٨ ألف مونتسكيو كتاب « روح القوانين » الذى يقول فيه : « إن القوانين فى أشد معانيها امتداداً ، هى العلائق الضرورية التى تنبثق من طبيعة الأشياء . »

إنه شعر بقلق زمانه ، لأن المرء لم يكن يستطيع أن ينظر فى كثرة القوانين ، وعدم تناسبها ، دون نوع من اليأس ، وذلك كقوانين الرومان وقوانين شعب « الفرنجة » فى العصور الوسيطة ، وقوانين إفريقيا وآسيا ، وقوانين العالم الجديد ، والقوانين التى كانت تحكم منذ آلاف السنين ، حياة البشر الذين كانوا لايزالون متوحشين ، والقوانين التى تملى اليوم أحكام محكمة

لوندن أوپرلمان پاريس . وعلى أثر ذلك لم يلبث النور الأول أن تمثل في ملاحظته : ومجمله أن أى قانون — مهما بدا خاضعاً للهوى الحائل — يقتضى دائما ، علاقة ما ، لأن أى قانون هو متعلق بالشعب الذى أنشىء له ، أى بالحكومة ، وبطبيعة البلد ، ومناخه ، وبخاصية الأرض ، وبنوع حياة السكان ، ودينهم وثروتهم وعددهم وطباعهم وطرائقهم وتجارتهم . وفوق ذلك فإن للقوانين علائق فيما بينها ، ولهـــا علائق بأصولها ، وبغاية المشرع .

كيف تأسست تلك العلاقة ؟ إنها نتيجة لطبيعة الكائن ، وهى تتجه من كائن معين إلى مظاهر وجوده ، فمن حيث إن العالم المادى موجود فإنه توجد قوانين تتفق مع طبيعته المادية ، ومن حيث إنه يوجد مَلَكٌ فإنه توجد قوانين تتفق مع طبيعته الملائكية ، ومن حيث إن الحيوانات موجودة فإنه توجد قوانين تتفق مع طبيعتها الحيوانية ، بل إن اللاهوت نفسه ، له قوانينه لأن الإله له علاقة بالكون كخالق وكحافظ ، فالقوانين التى خلق بمقتضاها هى القوانين التى بمقتضاها أيضا يحفظ ، وهو يعمل حسب هذه القواعد لأنه يعرفها ، وهو يعرفها لأنه صنعها ، وقد صنعها لأن لها علاقة بحكمته وقدرته .

وهذه العلاقة ليست استبدادية ، ولكنها منطقية لأنها عقلية ، وإن الأمر بها صادر من العقل الأول الذى كان موجوداً قبل الأشياء : وقبل أن توجد الكائنات العاقلة ، كانت ممكنات ، وإذن فقد كان هناك علائق عدالة ممكنة ، وعند اجتياز علائق العدالة تلك ، الإمكان إلى الواقع ، تطابقت مع العقل الذى اقتضاها مقدماً : ومعنى هذا أن القول بأنه لايوجد عدل ولا جور إلا ما تأمر به أو تنهى عنه القوانين الواقعية ، هو القول بأنه قبل رسم هذه الدائرة ، كانت أنصاف أقطارها غير متساوية : وكذلك الأمر بالنسبة إلى جميع القوانين .

! ولننظر إلى القوانين التى تتعلق بالحالة البشرية .

بديا إن الإنسان كائن مادى ، وهو بهذا المعنى خاضع لقوانين الطبيعة ولكنه أيضاً كائن عاقل ، وإذن فسيكون لديه قوانين تتفق مع هذا العقل الذى هو محـــدود ، وهو فوق ذلك فى أغلب الأحايين منحرف بوساطة الأهواء ، معرض للجهل والخطأ . وهذه القوانين هى التى كانت فيما بعد ، قوانين الدين والتى ستعيد الإنسان إلى خالقه حين يعرض عنه ، وقوانين الأخلاق التى ستعيده إلى نفسه حين يسىء معرفتها ، والقوانين السياسية والمدنية التى ترده إلى واجبه نحو المجتمع .

لا يريد مونتسكيو أن ينظر فى الأصل الإلهى للقانون لأنه لم يكن من رجال اللاهوت ، وإنما هو كاتب سياسى ، وهو لا يفحص ديانات العالم المختلفة إلا من حيث علاقتها بالخير الذى يستخلص منها فى الدولة المدنية سواء أكان يتحدث عن الديانة التى أصلها من السماء أم عن الديانات التى أصلها من الأرض . أجل ، إنه يعرف أن فى كتابه أشياء لن تكون حقة تماماً إلا على طريقة بشرية فى التفكير ، ولكن نفس هذا الإقصاء ، وهذا الشرح ، وذلك الحذر ، تلك الوسائل التى عنى بأن يسلكها ، تشف عن أعماق فكره كالعناية التى اتخذها لإظهار النتائج المحزنة التى حدثت خلال التاريخ فى كل مرة أراد فيها ممثلو السلطة اللاهوتية أن يتدخلوا فى المحيط الدنيوى . وعلى هذا الأساس يقرر الفرقة بين الحق الطبيعى والحق اللاهوتى .

وعند ذلك يلقى القلم ، لأن ملاحظاته قد ارتفعت به إلى مبدأ وحيد ، وعن هذا المبدأ الذى هو جوهر القانون ، تنبثق جميع قوانين العالم .

* * *

بيد أن الناحية العملية لها شأن آخر ، فعندما تلا « لاشاتوليه » اتهامه الذى وجهه إلى اليسوعيين أمام پرلمان بريتانيا الفرنسية ، أعلن أنه سيواجه إحدى

وستين منظمة ، وقواعد الجماعات الدينية بمبادئ القانون الطبيعي ثم بالقوانين الواقعية اللاهوتية والبشرية ، وعلى الأخص بقوانين مملكة فرنسا . ولكنه لم يتحدث ألبتة عن الأولى طوال خطبته . وحين أخرج موريلي ، كتابه : « مجموعة قوانين الطبيعة » ليتجول ، فيما يقول ، مع رغبة كل أوروبا التي كانت – منذ زمن طويل – تتطلب رسالة أولية عن الحق الطبيعي . غير أن أوربا لم تظفر إلا برسالة أدبية ، أضيفت إلى ما سبق . حقاً إنه كان من الأماني أن ينتج من كل تلك الكتب المؤلفة في نظرية الحق ، قانون نافع يمكن أن تتبناه جميع محاكم أوروبا ، سواء أكان ذلك عن المواريث ، أم العقود ، أم عن الشؤون المالية ، أم عن الجنائية . غير أنه لا نصوص جروسيوس وبوفيندورف ، ولا نصوص « روح القوانين » قد أنتجت ألبتة حكماً من محكمة « ليشاتيليه » بباريس ، ولا حكماً من محكمة « أولد بيليه » بلندن[1] .

ومع ذلك فإن إرادة العدالة – تحت تخمر الفكر الذي لم ينتج شيئاً في الظاهر – قد قويت . وفي الواقع أن المدينة ، كانت تعتبر أن السلطات الدنيوية تسيء استعمال قوتها ، وكانت تحاول أن تحدد القيمة غير القابلة للنقل التي أسندت خاصية إلى كل واحد من أفرادها ، والتي ، من نفسها ، حمت حقوقهم ، وكانت تريدها فعالة . وفي الحق أنها كانت تؤثر في الواقع المتحيز لأن الفكر كانت تغير الحياة . ومن أمثلة ذلك أنه كانت هناك بلاد في أوروبا ، لا تزال محاكم التفتيش تقذفها بلهيبها ، وإذا كان ذلك اللهيب قد انطفأ ، فمنذا الذي يستطيع أن ينكر على الفلاسفة نصيبهم من هذا الإحسان ؟ ومنها أيضاً أن العبودية – وهي التي يعللها البعض بوقائع الغزو ، أو بضرورات الاستعمار ، أو بفوائد التجارة أو بالعرف المقرر – لا يمكن أن تسوغ من جانب الطبيعة التي تمنح جميع

---

(1) Voltaire, questions sur l'Encyclopédie, art. Lois, Esprit des lois.

أبنائها كرامات متوازية ، ولا من جانب العقل الذى لا يقر أن اختلافاً فى لون الجلد يؤدى إلى القضاء بالتعاسة والعار . وإذن فقد حدثت حركة من جانب الفكر ، عملت فى تمهل على محو العبودية . إذ تكوّن أدب معاد للعبودية جعل يؤثر فى الرأى العام ، وبوساطة هـذا الأخير يؤثر فى السلطة . ولا تزال فقرات الفصل الخامس من الكتاب الخامس عشر من « روح القوانين » تحيا حتى الآن فى ذاكراتنا . وهاك نموذجاً منها : « إن أولئك الذين يتعلق الأمر بهم هم سود من أقدامهم إلى رؤوسهم ، وهم فطس الأنوف إلى حد أنه يوشك أن يجعل الاشفاق عليهم مستحيلا . ولا يستطيع المرء أن يضع فى ذهنه أن الإله الذى هو كائن جد حكيم ، قد أمكنه أن يضع نفساً خيرة فى جسم كله أسود » . ولقد جعل مونتسكيو — وهو متابع نصوصه — يدعو المحبة المسيحية إلى معونته إذ يقول : « إن من المستحيل أن نعتقد أن أولئك الأشخاص هم أناسى لأننا لوفرضـنا أنهم من البشر ، لبدأنا نحسب أننا نحن أنفسنا لسنا مسيحيين » . وهو يستمر فى نفس اللهجة التى ليست السخرية فيها سوى سخط مكظوم فيقول : « وهناك عقول صغيرة تُفْرِطُ فى الجور الذى يقترف نحو الإفريقيين ، لأنه لو كان كما يقولون ، أفلا يكون قد مر برؤوس أمراء أوروبا الذين ينشئون فيما بينهم كثيراً من الاتفاقات العابثة ، أن ينشئوا اتفاقاً عاما لصالح الرحمة والشفقة ؟ » .

غير أنه — بقوله هذا — لم يكن يمنع التجار من بيع العبيد فى سوق طرابلس ، ولكنه كان يُعِدُّ اليوم الذى سيغلق فيه السوق ، وسيُتَعَقَّبُ فيه التجار وسيُحرر فيه العبيد .

ومنها كذلك أن طائفة شجاعة قد تكونت فى ميلانو ، وكانت مؤلفة من شبان متوسطين وأشراف صمموا على مقاومة أذواق آبائهم الرجعية ، على نحو ما يحدث فى كل تغير لجيل من الأجيال ، ولكنهم أقحموا فى ذلك

شيئاً آخر أكثر من حرب بسيطة ، قوامها النقد ، ولكى يبرزوا مزاجهم المشاغب ، اتخذوا لهم اسما متحديا وهو « جمعية اللكز » وأصدروا مجلة عنوانها « المقهى » لأن محرريهم ، كان المفروض فيهم أنهم كانوا يجتمعون فى مقهى مثالى يتخذونه مركزا لمناقشاتهم . وكان محمسهم هوبييتروفيرى الذى كان يستصحب بين أتباعه شاباً ثقيل الذات يدعى بيكاريا . كان سيزار بيكاريا هذا ابن أحد أشراف المدينة ، وكان لديه كثير من الفراغ . على أنه كان يبدو سميكا كسولا أكثر مما كان عليه فى الواقع . وكان من شأن هذه الصفة أن تقتاده إلى قضاء حياة عابثة ، لو أنه لم يكن لديه من حوله ، ولو أنه ينشبع بروح عصره ، فنى الواقع لما كان يشتهى بصورة عائمة ، أن يشتغل بمشروع عظيم ، فإنه جعل يتثقف ، وكان يقرأ على وجه التفضيل ، المؤلفين الذين كانوا يستحثون الفكر ، أى الفلاسفة الفرنسيين . وتحت تأثير هؤلاء الفلاسفة — مضافاً إلى تأثير أصدقائه وإلى تأثير مدينة كان النشاط قانونها — قد استيقظ من سباته . وإذ كان أول الأمر ، لا يزال ينقب عن طريقه ، فقد كتب عن العملة ، وأخيراً عثر على نفسه : وفيما بين توانى عهد الشباب ، وفراغ عصر النضوج ، أنتج كتاباً من الطراز الأول عنوانه « جرائم وعقوبات » نشر فى سنة ١٧٦٤ :

حقاً إنه كان يأخذ بنصيب من أوهام العصر ، كقول معاصريه مثلا إن من دواعى الأسف أن القوانين لم تكن منذ نشأتها ، من إنتاج العقل ، وأن الناس كانوا يعيشون خطأ ، تحت إمرة قوانين شعب قديم من الغزاة أى تحت إمرة القوانين الرومانية . ولما كانت هذه الأخيرة قد تمت بوساطة استبداد أمير كان يعيش فى القسطنطينية فى القرن الثانى عشر ، فقد أضيف إليها خليط مشوش آخر أنتجته رجعية العصور الوسيطة ، وأنها لهـذا كان ينبغى أن تستأنف جميعها ، وأن تصاغ على نموذج القانون الطبيعى :

غير أن بيكاريا بعد ذلك كان لديه من الحكمة ماجعله يقبع فى محيط كان معروفاً له بصورة خاصة لأنه كان يزور سجون ميلانو ، وكان يتحدث إلى المتهمين ويستمع إلى الجناة ، وأن حساسيته كانت قد نبهتها المظالم التى كان أحد شهودها ، ففوضى الإجراءات ، وأهواء القضاة ، وقسوة قانون العقوبات ، لم تكن قد أشير إليها بعد فى عريضة الاتهام ، وهذه العريضة هى التى أراد بيكاريا أن يحررها .

وعنده أن القوانين كانت اجتماعية ، ويجب أن تبقى اجتماعية فى تطبيقها كما فى جوهرها إذ أنها — مهما يكن أصلها — لم تكن شيئاً آخر سوى سند المجتمع ، وبالتالى فإن من الملائم ألا يكون الحكم ، أو العقاب تبعاً لمبدأ خارج عن صالح المجتمع ، بل تبعاً للأهمية الاجتماعية للجريمة ، بحيث إن كل درجات سلم العقوبة تنقلب بسبب هذه النظرة رأسا على عقب .

وباسم نفس هذا المبدأ كان من الملائم أيضا أن تتلافى الأخطاء بدلا من الحكم على الجانى بعد أن صار الشر غير قابل للإصلاح ، فى الحق أنه لخطأ جسيم أن يعامل المتهم — وهو نفسه عضو فى الهيئة الاجتماعية — على أنه مجرم مقدما ، لإنه هو الإنسان الذى طلبت إليه الهيئة الاجتماعية أن يعبر عن نفسه أمام مندوبيها الذين يجب عليهم أن يقدموا إليه كل ضمانات الحرية الأخلاقية ، وإنه لخطأ جسيم أيضا أن تقدر نسبة العقوبات تبعا للنيات لا تبعا للخسارة الواقعية التى حدثت . وإنه لخطأ جسيم كذلك خلط القسوة الوحشية بالعدالة ، لأن القسوة والوحشية لا تظفران عند الاختبار إلا بنتائج مضادة للصالح العام .

وهناك وسيلة من وسائل التحقيق وحيدة من بينها جميعها ، وهى التعذيب . ولما كان قد بقى سريا فلم يكن له قوة المثل التى قد تكون هى السبب الجوهرى للعقوبات . ولقد كان التعذيب يسمح للمجرمين الأقوياء بالنجاة من القضاء ، ويكره الأبرياء الذين لايستطيعون مقاومة التعذيب على الاعتراف

بذنوب لم يقترفوها ، وإذن فقد كان التعذيب نهاية الانحراف عن العقل ، وهو مرذول ، بل هو نفسه إجرامى ، وكان يجب أن يختفى من كل دولة يمكن أن تدّعى أنها متمدينة .

لاجرم أن بيكاريا ــ بوساطة قوة رسالة : « جرائم وعقوبات » لم يمح التعذيب على الفور ، ولكن التعذيب بفضلها لم يكن له بد من أن يختفى شيئا فشيئا من مجموعة العدالة الجنائية . وفى الحق أنه قد لا يكون هناك سطر من كتابه ــ بتأثيره فى روح المشروعين ــ لم يؤثر بدوره فى القانون .

الفصل الرابع

الأخلاق

فى هذا المحيط يلتقى المرء بالتجربة العظمى التى قبلت فى صراحة ، وهى أنه كما تعرف الشجرة بثمارها ، كذلك قيمة كل فلسفة ما تقاس بحسن تأثيرها . وما دام آن الأخلاق المسيحية قد استبعدت نهائياً ، فإنه كان ينبغى وجود أخلاق تكون أسمى وأنقى منها ، وإلا ، فإن الإنتاج كله ، يكون قد أخطأ الغاية .

لقد كان أهل العصر يقولون : إننا لم نعد نريد الأخلاق الرواقية . حقاً إننا نُكنُّ شيئاً من الاعتبار لزينون ، ولكننا نفضل عليه إبيقور ، وإننا نعجب بسينيك عدو الاستبداد ، ولكنه سيكون ناصحاً مفرطاً فى القسوة ليقودنا نحو الابتهاج . وإننا لم نعد نريد الأخلاق الأرستقراطية لأننا لا نجد — فى التعاليم الأخلاقية التى كانت مدام دى لا مبير توجهها إلى ابنها وابنتها ، وفى التعاليم التى كان اللورد شيستر فيلد يوجهها إلى الشاب شيستر فيلد ، والتى كانت توجه فى كثير من الرسائل أو النصائح أو الكتيبات الأخر — إلا ما تشمّ منه رائحة القرن السابع عشر ، وإننا لم نعد نريد أن يكون نموذج « رجل اللياقة »[1] مرشدنا ، لأنه متأخر ، ولأن محامده تنال بثمن مفرط فى الانخفاض إلى حد لا يحسد عليه ، ففى الواقع أن كثيراً من الزهو ، وسعة من الثروة ، وعيوباً مستحسنة ، هى التى كانت تؤلف ما يملكه من تراث موروث ، وأن الفضيلة لم تكن تدخل

---

(١) رجل اللياقة هو نموذج الرجل الرقيق المحترم فى القرن السابع عشر وهو يعادل الجينتيلمان الإنجليزى . (المترجم)

في عداد ذلك . ولا جرم أن جميع « رجال اللياقة » في العالم ، لا يساوون رجلا فاضلا .

ولم نعد نريد نموذج « البطل » فقد أفرط الناس في الثناء عليه ، وهو يثيرنا ويسخطنا ، فلنتخذه هدفاً ، ولنضربه ، ولن يكون لدينا السهام الكافية للقضاء عليه ، لأنه انزلق بمهارة إلى قلوب الناس ، وهم لا يزالون يحتفظون له بإجلال قديم سنحطمه ، وسيكون ذلك إحدى مهماتنا الأشد دفعاً إلى الإسراع . ولا عجب ، فهذا البطل الذي أفرط الناس في إطرائه ، ليس إلا متكبراً ، متهوراً هداماً لصاً وضيعاً ، سفاحاً شهيراً . وينبغي دائما لهذا المغرور مسرح ونظارة ، لأنه يسطع ويحيط نفسه بالمجد ، ولكنه عندما ينظر المرء إليه عن قرب ، يرى طموحه الذي هو وباء النوع البشري ، فليثن عليه القدماء إذا أرادوا ذلك . أما نحن فإنه عندنا مدعاة للامتعاض ، وسنوحي بنفس هذا الامتعاض إلى أبنائنا مدى قرون وقرون ، فلنكف عن أن ندعو بعظماء الرجال ، أولئك الملوك المتعبين والمشاغبين الذين يعيثون في الأرض فساداً . ولنحتفظ بهذا الاسم الجميل « لأولئك الذين أبدعوا في النافع والمستحب . وليس سلابو الأقاليم سوى أبطال »[1] .

لنحطم تماثيلهم ، ولنقم في مواضعها تماثيل الأمراء الذين ، إذ كانوا يضطرون إلى أن يكونوا على رؤوس جيوشهم ليدفعوا مهاجما ، قد ارتحلوا آسفين ، فظفروا بنصر سهل ، فلم يلبثوا أن ألقوا أكاليل الغار ، وأسرعوا إلى أن يصيروا فلاسفة من جديد ، وذلك مثل سيتوس بطل كتاب الأب تيراسون :

كان الأمير سيتوس معداً لعرش مصر ، فاضطهد ونفي « فلم يسعه إلا أن يستعمل حقبة نفيه الطويل ، في التنقيب عن شعوب مجهولة يخلصها

---

(1) Voltaire à Thiériot, 15 juillet 1735.

من أشد الاضطهادات قسوة ، ويصير مشرعها .

وفى أثناء عودته ، ينقذ بشجاعته ، جمهورية قوية من عدو كان على أبوابها ، ولا يطلب منها كجزاء له سوى سلامة الشعب المنهزم الذى كان ملكه أو طاغيته قد هاجم تلك الجمهورية . وأخيراً لما عاد إلى وطنه ، أحسن إلى أولئك الذين كان لديه من الأسباب ما يجعله ينظر إليهم على أنهم أعداؤه أو خصومه[1] .

حقا إن سيتوس وأضرابه ، لا يمثلون البطولة الزائفة ، بل الحقيقية ، أى البطولة السلمية التى يتفق مثلها وحده مع النفوس المستنيرة .

مما لا ريب فيه أنه لم يوجد فى أى عصر رجة كهذه من لدن الأخلاقيين ؛ غير أنهم ليسوا من الذين يدرسون القلب البشرى ، لأن القلب البشرى كان الناس يحسبون أنهم يعرفون كيف كان مصنوعا ، أى أنه كان هو هو دائما ، وفى كل مكان ، وأنه لم يكن أحد يستطيع أن يستكشف منه شيئا : ولا جرم أن الأمر كان بالحرى يتعلق بنظريى الأخلاق ، وليس بعلماء النفس بل بأولئك الذين يريدون أن يخلعوا مبادئ على سلوكنا قبل كل شىء ، أى أن الأمر كان يتعلق بإنشاء أخلاق تكون قد وضحت « بالأنوار » .

* * *

لخص ديديرو تلك المناقشة فى الفقرة التالية بقوته المعتادة فقال :

« أتريد أن تعرف التاريخ الموجز لبأساتنا ؟ إن كنت تريد ذلك فهاكه : كان يوجد إنسان طبيعى فأدخل فى هذا الإنسان إنسان صناعى ، ونشبت فى ذلك الكهف حرب مستمرة دامت طول الحياة ، فحينا يكون الإنسان الطبيعى هو الأقوى ، وحينا ، يلقى على الأرض بوساطة الإنسان الأخلاقى والصناعى . وفى كلتا الحالتين يكون الممسوخ التعس ، متجاذبا ، كأنه

---

(1) Abbé Terrasson, Séthos, 1731, Préface, 15-16.

بين شق الكلابة ، متألما ممدوداً على عجلة التعذيب ، شقيا بلا انقطاع ..»[1]

ولقد لخصها أيضا بصورة أشد بساطة فى السطر الآتى : « يقصد بكلمة الأخلاق ما يساوى الطبيعى عند رجل الخير . . . : »[2] .

« وفى الواقع لنتعقب الطبيعة فى أفاعيلها الأولى ، فإن أحاسيسنا إما لطيفة ، وإما كريهة ، وهى تجلب لنا إما اللذة وإما الألم ، ومن هذه التجربة نمضى إلى الفكرة المجردة للإهانة وللإحسان . إن الأثر الذى ينطبع فى النفس منذ زمن مبكر ، يصير غير قابل للمحو ، وهو يعذب الشرير فى دخيلة نفسه ، ويواسى الفاضل ويستعمل كمثل للمشرع »[3] . ولو أننا اتبعنا الطبيعة فى إرادتها الجلية لرأينا أنها خيرة ، وأنها تميل إلى سعادة الإنسان ، وفى هذا نفسه أيضا ينبغى إطاعة قانونها . لقد اقترف الناس خطأ أساسيا ، إذ حسبوا أن الإنسان قد نشأ رذلا وشريراً ، أو على الأقل صار كذلك على أثر خطيئته الأصلية . ومن هذا نشأت أخلاق سوداوية لا تنعطف ، إلا إلى اضطهاده ، فينبغى على الضد ، تفضيل الغرائز التى تنعطف بنا إلى أن نكون سعداء ، والعقل الذى يقدم إلينا الوسائل التى بها نصير كذلك . ومن ثم فإن ك . ف . بارت ، حين تحدث عن الأخلاق دعاها بالأخلاق أو بعلم الطباع أو بمحاملة السعادة[4] . وفى هذه الكلمات قد تمت ثورة كاملة .

إن الأهواء هى واقعة طبيعية ، وإذن فإنه يكون من الخطأ أن يراد محوها ، إنه خطأ واستحالة لأن الأهواء هى كماء النبات تحيينا ، وهى ضرورية لحياة نفوسنا ، كما أن الرغبات لازمة لحياة أجسامنا . فهل ننكر الجوع

---

(1) Diderot, Supplément au voyage de Bougainville, 1772.

(2) Encyclopédie, art. Leibnizianisme.

(3) Diderot, Apologie de l'abbé de Prades, oeuvres, 1, p. 470.

(4) Carl Friedrich Bahrdt, Handburch der Moral fur den Burgerstans, Halle, 1790, p. 81.

والعطش ؟ إن الأهواء نافعة ، ولكي يثبت الكتاب ذلك ، كانو يرددون المجاز التالى الذى كانوا يتناقلونه من كتاب إلى كتاب : كما أن الربابنة يخشون السكون التام ويتمنون الرياح التى تدفع سفنهم ، ولو كانت هذه الرياح تجلب العواصف أحيانا ، كذلك الأهواء تحركنا ، ويخشى أن تغرقنا إذا لم نحذرها . ومع ذلك فإننا لا نستطيع بغيرها أن نبحر . وما دام أن الأخلاق توجه الأهواء فإنها ستكون هى الدقة والدوارة والخرطة التى تسمح للإنسان بأن يتبع الطريق التى تعينها له الطبيعة نحو السعادة . وأكثر من ذلك ! أن اللذة نفسها يجب أن يرد إليها اعتبارها ، لأنها نعمة منحها الموجود الأسمى لمخلوقاته . وفى محيط الأحاسيس ، هى الإحساس الذى ننقب عنه بصورة آلية ، وهى الإحساس الذى يعين لنا الخيرات التى يجب أن نشتهيها ، والآلام التى يجب أن نفرمنها ، وهى — حتى فى أشد صورها قوة وهى الشهوة — مرتبطة بإنتاج نوعنا ، بحيث إنها بعيدة عن أن تتنافر مع الفلسفة ، ولذا كان ڤولتير يقول : « إننى فيلسوف جد لَذّىّ » .

ومن جهة أخرى ، فإنه لما كانت الطبيعة عقلا ، فقد ثبتت بين جميع الأشياء المخلوقة علائق عقلية ، فالخير هو إدراك هذه العلائق وإطاعتها المنطقية ، والشر هو جهل هذه العلائق وعصيانها . وفى الحق إن الجريمة هى حكم باطل ، وإن المنطقيين لم يترددوا فى أن يستخلصوا من هذا المبدأ نتائج متطرفة : حيث يقررون أنه إذا سرق رجل جواداً ، فذلك لأنه اقترف خطأ فيما يتعلق بهذا الجواد وهو أنه لم يكن قد فهم أن الجواد كان ملكا لرجل آخر ، وكان حسبه أن يفهم خيراً من ذلك ، لكى لا يسرق ؟

إن العقل هو القانون الأعظم للعالم ، بل أن الموجود الأسمى نفسه خاضع للحقيقة التى هى فى المحيط النظرى تبقى أساسا للخلقية ، بحيث إن هذه الأخـــيرة لاتأتى من الموجود الأسمى ، ولكنها تأتى من قوة فوقه ، وهى «العقل الأزلى » .

وفى الحق أنه ، لإدراك فعل السلطة اللامتناهية ، ألا ينبغى أن تكون هناك ممكنات مستقلة عن السلطة ؟ ولإدراك مظهر إرادة إلهية ، ألا ينبغى أن تكون هناك إرادات مستقلة عن تلك الإرادة وإلا ، فإن الإرادة الإلهية تكون هى نفسها مخلوقة ، وهو ما يستحيل فرضه ؟ وكذلك إذا لم تكن هناك خلقية مستقلة عن اللاهوت ، فإنه لا يمكن أن تكون هناك صفات أخلاقية لهذا اللاهوت . وما دام أن الطبيعة هى تجريبية أو عقلية فإن الخلقية إما أن تكون طبيعية وإما ألا تكون أصلا .

* * *

لا جرم أن نتائج هذه المبادىء ستتجه اتجاهات متباينة . ولكننا إذا أردنا أن نعين هنا ، الإرادات المشتركة ، فإننا نلاحظ أن أمرين مسلمين على الأقل ، قد أقر أكثر أخلاقيي العصر أنهما يقينيان .

أولهما شرعية حب الذات ، ومجمل ما حدد به إذ ذاك هو أنه : « لا يوجد حب منزه عن الأغراض » أو « أن تلك المحبة القوية التى تلهمنا الطبيعة النقية إياها لأنفسنا ، تملى علينا واجباتنا نحو أبداننا ونحو نفوسنا[1] » . أو « أن حب المناءة ـــ وهو أقوى من حب الوجود ـــ كان يجب أن يكون بالنسبة إلى الأخلاق ، تماما كما كانه الثقل بالنسبة إلى الميكانيكية[2] » . أو إذا أريد التعبير عنه بصيغة أدنى إلى العامية كما عبرت عنه مدام ديبينيه فى كتابها إلى الأب جاليانى بتاريخ ٢٩ سبتمبر من سنة ١٧٦٩ إذ قالت : « إن القانون الأول هو عناية المرء بذاته ، أليس كذلك ؟ »

هذه هى واقعية الملاحظة التى لا يمكن جحودها ، وهى تحتوى فوق ذلك على ميزة أنها فى متناول الجميع ، ففى الواقع أنه لا المسيحية ، ولا الفلسفة ، قد جلبت الفضيلة إلى الأرض ، وذلك بلا شك لأنه

(1) Toussaint, Les Moeurs, 1748, I, 1.

(2) Il Caffé, 1754, semestre primo: la fortuna dei Libri.

قد حدث انخداع فى البواعث التى التجىء إليها فى النصح بالفضيلة ، ولكن تستأنف المهمة ينبغى بإزاء العامة أن يلتجأ إلى مبدأ أكثر شمولا وأشد بساطة من الحب الإلهى ، ومن حب الحكمة النقية ، وسيكون ذلك هو الحب الذاتى[1].

غير أنه ينبغى التفاهم جيداً ، فليست المسألة مسألة حل عقال الأنانية بلا عنان ، وإنما العقل هو الذى يجب أن يوجه الميل الذى يحملنا على أن نتبع فائدتنا . وهو الذى يختار ويبين أن سعادتنا ليست سعادة البهائم التى نفترق عنها بأسمى صفاتنا ، ولا سعادة الملائكة المستحيلة اللحوق . وهو يميز بين درجات اللذات ، ويرتبها حسب قانون الاعتدال ، وهو ينصح بهجرها عندما تهدد بأن تصير طغيانية ، وبالاختصار هو يبقى سيداً . وفى هذا يتساءل بولينبروك قائلا : « ما هى الرذيلة وما هى الفضيلة ؟ » ثم يجيب قائلا : « بأن الرذيلة هى التطرف والإفراط وسوء التطبيق للشهوات والرغبات والأهواء التى هى طبيعية وبريئة ، بل نافعة وضرورية . وبأن الفضيلة تنحصر فى اعتدال هذه الشهوات وتلك الرغبات ، وهاتيك الأهواء ، وحكمها واستخدامها وتطبيقها حسب قواعد العقل . وذلك إذن فى الغالب متعارض مع اندفاعاتهم العمياء[2] » .

وفى هذه الآونة يظهر اليقين الثانى الذى يعين حد الأول ، والذى هو : إن البحث عن فائدتنا ، يجب ألا يضر بفائدة الغير . على أنه لا توجد سعادة فردية بلا سعادة جماعية . وذلك ما يعبر عنه ديديرو إذ يقول :

« الحكيم — ما هى فى رأيك واجبات الإنسان ؟

التلميذ — هى أن يسعد نفسه . ومن ذلك تنشأ ضرورة المساهمة فى

(1) Fredérce II, Essai sur l' amour — propre envisagé comme principe de morale, 1770.

(2) Bolingbroke, letters on the Study and Use of History, 1752.

ســعادة الآخرين ، أو بعبارة أخرى ، ضرورة أن يكون الإنسان فاضــلا[1]» .

وإذن فالفضيلة تساوى « الاجتماعية » . ولقد عرف البارون دولباك هذه « الاجتماعية » الفاضلة فقال : « إن الاجتماعية هى فى الإنسان عاطفة طبيعية تقويها العادة ، ويتعهدها العقل وذلك لأن الطبيعة ، بجعلها الإنسان حساساً ، قد علمته حب اللذة ، ورهبة الألم ، ولأن المجتمع هو عمل الطبيعة ما دام أن الطبيعة هى التى تضع الإنسان فى المجتمع . . . وأن الإنسان هو اجتماعى لأنه يحب الرفهنية ، وأنه يغتبط فى حالة الدعة . ولا جرم أن هذه الأحاسيس طبيعية أى أنها تنتج من جوهر أو من طبيعة الكائن الذى ينقب عن الاحتفاظ بحياته ، والذى يحب نفسه ، والذى يستولى فى حرارة على الوسائل التى توصله إلى ذلك ، وأن كل شىء يثبت للإنسان أن الحياة الاجتماعية نافعة له ، وأن العادة تربطه بها ، وأنه يكون شــقياً عند ما يحرم من معونة أمثاله . هذا هو المبدأ الحق للاجتماعية[2]» .

غير أن دالمبير قد يكون هو الذى عين — على خير وجه تلك الصلة ، عند ما كتب فى الفصل الرابع من كتابه « عناصر الفلسفة » ، فقال : « قد يكون علم الأخلاق أتم العلوم فيما يتعلق بالحقائق التى هى مبادئه ، وبتسلسل تلك الحقائق ، فكل شىء فيه مثبت على حقيقة واحدة من الوقائع ، ولكنها غير قابلة للمعارضة ، أى أنه مثبت على الحاجة المشتركة التى هى لدى الأناسى كل بإزاء الآخرين ، وعلى الواجبات المتبادلة التى تفرضها عليهم تلك الحاجة . وعند ما تفرض هذه الحقيقة تنبثق منها كل القواعد الأخلاقية فى نوع من التسلسل الضرورى . . . إن جميع هذه المسائل التى ترتبط بالأخلاق لها فى قلب كل واحد منا ، حل دائماً مستعد ،

---

(1) Diderot, Introduction aux grands principes, aeuvres, t. 2, p. 85.

(2) D'Holbach, De la politique naturelle, 1772, Discours 1, Sociabilité.

تمنعنا الأهواء أحياناً من اتباعه ، ولكنها لا تهدمه ألبتة ، وإن حل جميع المسائل ينتهى دائماً — بوساطة أغصان تتفاوت كثرة وقلة — إلى ساق مشتركة أى إلى أن فائدتنا كما هو مفهوم ، وهى مبدأ كل الالتزامات الأخلاقية » .

وإذن أفلا تتعارض فائدة الفرد مع فائدة الجماعة ألبتة ؟ كلا ، حقاً إن الثانية ، تبدو فى الظاهر ، أنها تتطلب تخليات وهجرانات وتضحيات ، غير أن هذه التصرفات ، تتحول دائماً إلى فائدة من يقوم بها . وأن الأنانية التامة تعاقب نفسها بعزلتها لأن التبادل هو هنا مطلق ، فعند ما يعمل المرء لغيره ، يعمل لنفسه ، والتزام كل واحد هو التزام الجميع .

ولكن الرحلات والتاريخ ، ألا يجلبان تنوعات غريبة فى الأخلاق تبعاً للأصقاع والمناخات ؟ فمثلا كان الرحالة يلتقون فى أطراف العالم بمتوحشين يأكلون شيوخ القبيلة . وكان الإسبارتيون يمجدون اللصوصية التى كان الأثينيون يحكمون على مقترفيها بالشغل فى المناجم ، وكان محظوراً على الرجل أن يتزوج أخته فى روما القديمة ، ولكنه كان مسموحاً له بأن يتزوج عمته عند المصريين . . . ولقد كان يجاب على هذا بأن الناس يختلفون فى الواقع على تأويل بعض القيم ، ولكنهم لم يختلفوا على فكرة الإباحة والحظر ، على أنه ، هل يمكن أن بعض الحالات المنعزلة تفوق قانون الصالح العام الماثل فى جميع العقول والمنقوش على جميع القلوب ؟ وإليك فى هذا رأى ڤولتير :

(ب) ماهو القانون الطبيعى ؟

(ا) هو الغريزة التى تجعلنا نشعر بالعدالة .

(ب) ما الذى تدعوه بالعدل والظلم ؟

(ا) ما يبدو كذلك للكون كله[1] .

---

(1) Voltaire, Dialogues philo., l'A,B,C. 1768-4 ème entretien, de la loi naturelle et de la curiosité.

والنتيجة من كل هذا هى أن عمومية الواقعة هنا أيضاً — ولم يكن ذلك بلا شيء من العناء — قد انضمت إلى عمومية العقل . وقصارى القول إن الأخلاق قد انتظمت كأنها « علم تجريبى » أوكأنها « سيكولوچية طبيعية » . وحينئذ صاركل شيء بسيطاً ، وصاركل شيء واضحاً ، ولم يكن على المرء إلا أن يتبع بضع عبارات أولية مثل : لا تعمل مع الغير ، ما لا تحب أن يعمل معك ، أو إعمل مع الغير ما تحب أن يعمل معك ، أو أحبَّ الإله ، أو كن عادلا .

عند ذلك يختفى الأشرار ، أو يكادون ، وسيبقى على فعل الشر بعض المعاندين ، وغير القابلين للإصلاح وحدهم ، ولما كان الحكماء يكافأون ، ويحتفى بهم فى حفلات عامة ، فإن عددهم سيزداد من يوم إلى يوم بالمجاورة ، وعما قريب سيكون العالم كله سعيداً .

* * *

كان الأمر إذن يتعلق باجتذاب الرأى العام إلى البدعة الجديدة : ولكى يتحقق هذا ، ينبغى العمل له بوساطة الصحف الأخلاقية التى كان عدد قرائها يتسع ، وبوساطة الكتب التى ليست قاسية والتى تروق السواد الأعظم ، كذلك الكتاب الذى تخيله « دود سليه » والذى يحدثنا فيه أنه على حدود الصين تمتد بلاد تيبت الواسعة الموضوعة تحت السلطة الروحية « للاّما الأعظم » وأن أمبراطور الصين قد أرسل إلى اللاّما الأعظم ، كرسول ، دكتوراً شهيراً ، وأن هذا الأخير — بعد إقامة ستة أشهر — قد عاد إلى پيكين حاملا معه عجائب وكنوزاً من كل نوع ، وبين ذلك مخطوط من أبعد الآثار قدما ، وهو رسالة فى الأخلاق لم تكن قد ترجمت ألبتة ، لأنه كان مكتوباً بلغة قدماء « الجيمنو سوفيست » أو البراهمان . ولقد نقله الدكتور إلى الصينية ثم ترجم من الصينية إلى الإنجليزية لتحقيق أعظم الفوائد لأوروبا حيث

جعل فى الواقع ينتشر من جيرة إلى أخرى[1] .

إنها لحكمة عملية ، إذ هى تبدأ بالمعرفة الدقيقة لطبيعة الإنسان ، لقياس سلطاته ، ونتيجة هذا هى البحث عن الفضائل الشخصية التى يمكن أن تمنح السعادة الحقيقية ، والبحث عن الفضائل الاجتماعية التى تتجه إلى نفس الغاية ، بوساطة اتفاق عجيب ، ومع استثناء شىء من الحرارة الشرقية فى مظهر العبادة ، فإن النصائح التى كان البرهمان يقدمونها قبل أن تظهر المسيحية على الأرض بزمن بعيد ، تشبه نصائح فلاسفة القرن الثامن عشر نقطة نقطة .

ثم لماذا لا تؤلف كتب صغيرة لتعليم الفلسفة على غرار كتب تعليم الديانة للوصول إلى الأطفال أنفسهم ؟ لأنه ليس من السىء محاكاة منهج العدو ، فإن من لا يظفر بالجيل الذى يتأهب للمستقبل ، لا يظفر بشىء .

رأى الناس إذن كتباً تعليمية صغيرة مؤسسة على التجربة ، وعلى العقل ، لا على العقيدة . وكان دالمبير يتمنى كتاباً من هذه الكتب ، يعلم الجيل الناشئ مبادئ فلسفته . ولم يكن جريم يكتفى دائماً بأن يقدم إلى زبائنه من الأمراء أخباراً عن جمهورية الأدب ، نعم إنه كان لديه أحياناً أفكار ، وكان يروقه أن ينشرها فى « رسائله الأدبية » وكان يهجرها ثم كان يستأنف تناولها ليراعيها ، وكان يفكر فيها على النحو التالى : إن الإنسان يمتاز عن الحيوانات بقابليته للكمال ، وإن الجياد والدبب ، لا تساوى أكثر مما كانت تساويه منذ ثلاثة آلاف سنة ، ومع ذلك فإن هذا الإنسان لا يكاد يسير إلى الأمام فى تاريخ التقدم ، لأنه كثيراً ما يدع نفسه ينسحب بعيداً عن الطبيعة . وعندما يعود إليها يكون ذلك بعد تجارب مريرة ، ويكون خير ما فى قوته قد فقد . ونحن نرى جيداً من أين تأتى أخطاؤه ، فمثلا إنه من المضاد للعقل القويم أن يعلم الأطفال المبادئ الأولى للدين المسيحى ، لأن من اليقين أنه ينبغى البحث ـ

---

(1) Dodsley, The Economy of Human life, translated from an Indian Manuscript, written by an Ancient Bramin, Dublin, 1741.

فى هذا العرف المقرر على الأرض بصورة عامة — عن منبع السلطة التى نشاهد أن أكثر الآراء بعداً عن التعقل ، وأشدها فى الغالب خطراً ، تتخـذها على العقل البشرى . وفى الحق أن كتب تعليم الإنسانية ، وتعليم المجتمع ، يجب أن تسبق كتب تعليم الدين لأنه بعد نهاية المطاف ، ينبغى أن يكون المرء إنساناً ، ثم مواطناً قبل أن يكون مسيحياً . وينبغى أن النوع الأول من هذه الكتب يعلم الشعب حقوقه الإنسانية وواجباتها وأن النوع الثـانى يعرف أبناءنا حقوق المجتمع وواجباته وقوانين حكومة البلاد التى نشأوا فيها . ولا ريب أن مونتيسكيو كان جديراً بأن يؤلف النوع الثانى ، وأن سقراط لم تكن كفايته لتأليف النوع الأول زائدة على ما ينبغى أن يكون .

على أن جريم ، بقوله هذا ، قد حاول شخصياً أن يزج بنفسه فى هذه المخاطرة ، وأن خمس عشرة فقرة قصيرة ، قد بدت له كافية بالنسبة إلى رسالته « محاولة كتيب تعليم للأطفال » (١٧٥٥) .

وفيما بعد استأنف سان لامبير[1] المشروع ونجح أكثر من جريم لأن رسالته « كتيب التعليم » للأطفال فى سن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة تحتوى ، كشىء جوهرى ، على مبادئ أخلاق العصر . وهاك نموذجا منها :

س — من هو الإنسان ؟

ج — هو كائن حساس وعاقل :

س — وباعتبار أنه حساس وعاقل ، ماذا يجب عليه أن يفعل ؟

ج — يجب أن يبحث عن اللذة وأن يتجنب الألم .

س — وهذه الرغبة فى البحث عن اللذة وفى تجنب الألم ، أليست هى ما يدعى بحب الذات ؟

---

(1) Principes des moeurs, ou catéchisme universel, an VI.

ج — إنه نتيجتها الضرورية .

س — وهل كل الأناسى لديهم حب الذات على التساوى ؟

ج — نعم لأن كل الأناسى عندهم الرغبة فى الاحتفاظ بالحياة وفى نيل السعادة ؛

س — ماذا تقصد من كلمة السعادة ؟

ج — هى حالة جديرة بالبقاء ، فيها يشعر المرء بلذة أكثر مما يشعر بمشقة .

س — ماذا ينبغي عمله لنيل هذه الحالة ؟

ج — أن يكون لديه عقل ، وأن يدع قيادته لهذا العقل .

س — وما هو العقل ؟

ج — هو معرفة الحقائق النافعة لسعادتنا .

س — وحب الذات ، أليس يلزمنا دائماً بأن نبحث عن هذه الحقائق وبأن نتبعها ؟

ج — كلا ، لأن جميع الأناسي لا يعرفون كيف يحبون أنفسهم .

س — وماذا تقصد من ذلك ؟

ج — أريد أن أقول إن البعض يحبون أنفسهم حسناً ، والبعض يحبون أنفسهم سيئاً .

س — ومن هم أولئك الذين يحسنون حب أنفسهم ؟

ج — هم الذين يبحثون عن معرفة أنفسهم ، والذين لا يفصلون سعادتهم عن سعادة الآخرين .

* * *

كان ينبغي لهذه الأخلاق الجديدة ، فضائل جديدة وكان هناك ثلاث وهى :

التسامح : لم يكن التسامح أول الأمر سوى قاعدة تجارية أو وسيلة عملية

من وسائل التجار ، لأن أموال الأتراك والعرب ، لم يكن لها — كما يقول المثل — رائحة ، وكذلك أموال المسيحيين .

وبعد ذلك صار مطلباً من مطالب البروتستانتية ، ولما كانت هذه الأخيرة تسيطر على عدة ملايين من الأنفس ، وكان لها دولها الخاصة بها فقد كان ينبغي أن تسمح بها الكاثوليكية . ولقد كان بوسويه ، إلى ذلك العهد ينبذ التسامح على أنه ضعف وتخل عن إنقاذ نفوس هوت فى الخطأ ، وعلى أنه جبن روحى ، وسُمّ انتشر فى المسيحية . غير أن لوك ، كان — منذ سنة ١٦٨٩ — قد منح التسامح براءة النبل ، والآن قد جعل يتسع ويثرى ، ويتخذ فروقاً دقيقة ، وصار عدلا وعقلا ما دام أنه كان يفترض وجود عقل قادر على التغلغل إلى بواعث الغير ، إنه كان هو الشعور بيأسائنا ، لأننا جميعاً ضعفاء معرضون للخطأ . فلنعرف كيف نتبادل الصفح . كان التسامح قيمة اجتماعية لأن البشر بغيره ، يصيرون ذئاباً من جديد . كان مبدأ حب ، وكان يلهم نوعاً من الصلوات ، بل هو قد خضع فى معناه الذاتى لتغير عميق ، لأنه بدلا من أن يكون تنزلا ، قد صار شعوراً بكثرة العناصر التى تدخل فى تكوين فكرة معينة ، أو فى بواعث عمل معين ، واعترافاً بجزء الحقيقة وجزء العدالة اللذين يشتمل عليهما رأى غير مشترك ، أو يحتوى عليهما تصرف مستهجن . كان التسامح يوازن لا ليعثر على الشر ، بل ليبرز الخير [1] وكان يسير إلى الأمام شيئاً فشيئاً ، وكان الناس يستطيعون أن يتتبعوا تقدماته ، وسيصير عما قريب كونيا ، أو هناك أمل فى ذلك على الأقل . وفى هذا يقول ڤولتير « أيها الأصدقاء ، إننا عندما بشرنا بالتسامح نثرا وشعراً ، وعلى بعض المنابر ، وفى كل مجتمعاتنا . . . قدمنا خدمة إلى

---

(1) Lessing, Nathan der Weise, 1779.

الطبيعة ، وثبتنا الإنسانية فى حقوقها ، إنه لايوجد اليوم يسوعى قديم ولا چانسينى قديم يجروء على أن يقول : « إننى متعصب »[1] .

ظهر التسامح بالانتصارات بعد متاعب ضخمة ومجهودات طويلة ، وأصلح بعض مظالم الحياة . ومن أمثلة ذلك أن چوزيف الثانى فى سنة ١٧٨١ قد أصدر « أمره بالتسامح » لصالح اللوثريين ، وأن لويس السادس عشر فى سنة ١٧٨٧ كان قد رد إلى الكلڤانيين حقوقهم المدنية .

الإحسان — كانت هذه الفضيلة أشد حداثة من سالفتها ، وكان الأب دى سان — پيير هو الذى « عمدها » أى أطلق عليها هذا الاسم فى سنة ١٧٢٥ ، إذ كان يجد أن المحبة قد دُنست ، وأن هذه الكلمة لم يعد لها قيمة ، وكان يريد كلمة أخرى ، فابتدعها ، وهو فى هذا يقول : « منذ رأيت أنه يساء استعمال عبارة المحبة بين المسيحيين فى الاضطهاد الذى ينزله البعض بأعدائهم ، وأن الهراطقة يقولون إنهم يطبقون المحبة المسيحية باضطهادهم هراطقة آخرين بل باضطهادهم الكاثوليك ... منذ رأيت ذلك جعلت أبحث عن عبارة تعيد إلى ذاكرتنا فكرة عمل خير للآخرين ، فلم أجد عبارة أقدر على جعلى مفهوما سوى عبارة الإحسان ، فليستعملها من من شاء ، ولكنها تعنى ما أريد ، وليست مبهمة » .[2]

الإنسانية — وهى فضيلة جديدة ، لأنها تدل على تمام معناها ، وهى الفضيلة المثالية عند الأخلاقيين فى القرن الثامن عشر ما دام أنها تذكرهم فى الإنسان ، بتلك الحالة التى يعتقدون أنه ينبغى الصدور عنها دائما ، والتى إليها ينبغى الرجوع دائما والتى هى بالتالى تحتوى على كل شىء .

---

(1) Voltaire, Art. Tolérance dans Dict. philos, et dans questions sur l'Encyclopédie.

(٢) أنظر فيما يتعلق بتاريخ هذه الكلمة قاموس تريڤو ، ١٧٧٢ ، مادة إحسان "bienfaisance"

الفصل الخامس

الحـــــكومة

من أين أخذ ماكياڤيلى أننا مصنوعون من تلك العجينة الرديئة ؟ ويل لماكياڤيلى ! وينبغى إحراق كتابه « الأمير » ، فهو سفر مشئوم تحركه تلك القاعدة الزائفة التى مؤداها أن صالح الدولة يجب أن يكون هو مبدأ الحكومة ، وكل فصل من فصوله هو سم . وإذا لم تكن أوروبا تستشفى كل يوم من الماكياڤيلية ، وهى مرض عقلى ، فإنه ينبغى اليأس .

غير أن ذلك السكرتير الفلورانسى ، ذلك الشقى ، لم يكن هو الوحيد الذى انخدع ، لأن مبادئ السياسة الماضية — من بين التنافرات التى تكدست على ممر القرون — هى متناقضة بنوع خاص ، وفى هذا يقول ما يلى : « إن الأرض كلها ياعزيزى أريستياس ، لا تقدم سوى لوحة واسعة من أخطاء السياسة[1] » .

لاجرم أن من كان لديهم نصيب من المساهمة فى السلطة ، وعلى الأخص من ليس لديهم أى نصيب منها ، والأشراف الذين كانوا يريدون العثور على مسوغ وجودهم ، والبرلمانيين الفرنسيين ، والمشرعين الأسبانيين ، والنظريين الإيطاليين ، ورواد المقاهى فى إنجلترا ، والمتناقشين الجديين فى نادى « الطابق الأوسط »[2] ، ورجال الكنيسة الذين كان عليهم أن يدافعوا عن سلوك روما أو أن يهاجموه بإزاء السلطة الدنيوية ، والكتاب والمؤرخين الذين كانوا يفكرون فى الغد عندما كانوا ينظرون إلى الماضى ،

---

(1) Mably, Entretiens de Phocion, 1763. 3 ème entretien.

(٢) هو ناد أسسه فى سنة ١٧٢٠ ، جماعة من الأرستقراطيين المثقفين ومن علية الأجانب . وكان أعضاؤه يجتمعون فى شقة الأب دالارى الواقعة فى الطابق الذى يلى الطابق الأرضى ، وكانوا يتناقشون فى الأنباء اليومية ، وفى الأحداث الأوربية ويستمعون إلى محاضرات علمية وتاريخية وأدبية . (المترجم)

والروائيين ، والمحاولين ، والفلاسفة ، وهم فى الصف الأول ، بل حتى السوقة فى بعض المدن إذا كان ينبغى أن نصدق هولبرج . والصورة الكاريكاتورية التى تركها لنا عن صانع الأوعية القصديرية الذى ـ بمعونة رفاقه : الصباغ والحلاق والمدرس ـ قد أسس نادياً كان يجب أن يصلح حالة أوروبا ، بعد حالة مدينة هامبورغ : كل هؤلاء قذفوا بأنفسهم فى السياسة النظرية ، إلى حد أن الأمراء أنفسهم ، وقد أصيبوا بهذا عن طريق العدوى ، انتهوا إلى أن شرعوا فى إصلاحات ، ولو أن ذلك كان غالباً للاحتفاظ بجذور سلطتهم[1] .

ولو صحت أحلام هؤلاء النظريين ، لأوشكت السياسة ألا تفترق عن الأخلاق المحضة ، ولصارت الفضيلة مبدأها وغايتها ، ولما وجد شيء خفى ، بل لأضحى كل شيء مكشوفاً تحت السماء ، ولنظم حسن النية العلائق بين الرعية والأمير ، وبين الدولة والأجانب ، ولما كان هنالك إذ ذاك مجموعتان من القوانين ، إحداهما للحاكمين ، والأخرى للمحكومين ، بل إن مجموعة واحدة هى التى كانت ستفرض على الجميع احترام الخير ، وكان الهناء هو الذى سيكون الجزاء اليقينى لميزات الجمهورية ، كما أن التعاسة ستكون هى العقوبة المحتومة على رذائلها . وفى هذا يقول فوسيون أحد أبطال « مابلى » لصاحبه أريستياس : « إذا ظفر جارك بمدينة أو بإقليم ، فاظفر أنت بفضيلة جديدة فإنك ستكون أقوى منه ... »

وهنا أيضاً سيتحول الأخطبوط إلى علم ، وستنبثق من القانون الطبيعى بضع قواعد بسيطة سيفرض المنطق فيها نفسه على الوقائع .

---

(1) J. Holberg, Den Politiske Kandestober, in Comédies, t.I, Copenhague 1824, trad. fr. in théâtre européen, Théâtre danois et suédois, 1885 et 1891.

كان فى كل هذا حرارة ، وبراءة ، وسذاجة ، وجهل بديع بالضرورات التى تفرض نفسها على رجل الحكومة ، وحماس خطابى ، ومزايدة فى التوكيدات المجانية ، وبالإجمال لايوجد شىء واقعى . ولقد كان ذلك رد فعل لكبوت طويلة ، ومسارات إلى الورق ، وكانت هناك أيضاً حرارة خليقة بالحواريين ، واعتقاد يسرى بالعدوى ، واجتياز تقدمى من المبادىء المجردة إلى المحيط العملى . وأخيراً إنه استحثاث جديد قد قدم إلى حكومة الأناسى .

* * *

إن فكرة العقد البدائى قد تسربت إليها فروق عدة دون أن تنمحى ، إذ أن الإنسان فى ذات يوم — وقد أحس بأنه مجهد من احتمال آلام الفوضى — ضحى بأقل حقوقه لكى يؤسس سلطة لم تكن سوى وديعة قابلة دائماً للإلغاء إذا كان من تلقاها ، قد قصر فى واجباته .

وهذا العقد من الممكن أنه كان أول الأمر ضمنيا ، ومن الممكن أنه كان قد وضع كتابه ، عندما قدمت المدنية وسائل ذلك . ومن الممكن أيضاً أنه كان عقداً مثالياً ، لأنه من العسير أن يتخيل المرء أن فريقاً من الناس — لما شعروا بمواطن ضعفهم وحاجاتهم — قد اجتمعوا يوماً فى أحد السهول الواسعة وعينوا أقواهم رئيساً عليهم . ولكنه على كل حال كان عقداً ، وكان هو رأى الأغلبية ، كما وضحه « و . بلاكستون » على النحو التالى : « بالرغم من أن أصل المجتمعات لم يأت على التحديد من اتفاقات أفراد دفعو إلى التصميم على هـــذا بوساطة الحاجة والرهبة ، فإن شعورهم بضعفهم ونقصهم هو الذى مع ذلك يستبقى الناس فى المجتمع ، وهو الذى يبرهن لهم على ضرورة هذا الارتباط ، والذى هو بالتالى الأساس المتين والطبيعى للمجتمع الأدنى كما أنه ملاطه : وذلك هو ما نقصده بكلمة العقد البدائى الاجتماعى »[1] :

---

(1) W. Blackstone, Commentaries on the Laws of England, 1765 - 1769.

غير أنه بقدر ما كان مفهوم كلمة الطبيعة يظفر بالاتساع والقوة ، فإن الذى كان يعظم إلى حد أن صار إحدى الفكر السائدة فى العصر ، هو الارتباط بالحرية السياسية . ولما لم يكن أحد قد تلقى عن الطبيعة ، حق أمر الآخرين ، فإن الحرية كانت ثروة غير قابلة للانتقال ، أو حقاً مسجلا على جميع القلوب . ولقد كان الناس يعتقدون ، مغتبطين ، أن تلك الحرية كانت تامة وسامية . ومما لاريب فيه أنه حتى التقيدات التى تفرضها الحياةالاجتماعية وحتى إطاعة القوانين ، وحتى الإجبـــار الخفيف الذى كانت الحكومة تتطلبه ، لم تكن ألبتة إلا اختيارية ومقبولة ، إلى حد أنها بقيت فى مبدئها ، عن مظاهر الاستغلال الذى ينظم نفسه ، ومن ثم فإن دولة الفيليسيان كانت حرة بأسمى معانى الحرية تحت سلطة قوانينها المطلقة[١] ، وفى هذا يقول ديديرو : « إن لكل عصر روحه التى تميزه ، وإن روح عصرنا ، يبدو أنها روح الحرية . »[٢]

كانت فكرة المساواة تحاول أن تتخذ مجراها ، وكانت تعظم بوساطة سواعد جد مختلفة . وكان لديها ، وفى صالحها عاطفة تمرد قديمة بقدم العالم ، ضد جور الامتيازات ، وكانت تظفر بثناء الحالمين الذين كانوا يحددون حكمها بالوقت السعيد من العصر الذهبى ، أو فى محيط الأوهام أو فى تلك البلاد التى كان الرحالون الخياليون هم وحدهم الذين يستطيعون الوصول إليها . وكان البعض يظن أنه رآها تنشأ فى العالم الجديد فى باراجواى فكانوا يهنئون اليسوعيين بإنشائهم هناك الحقل الذى كان كل سكان البلاد يزرعونه ويحصدونه أى الحقل الجماعى . ولقد كان يلجأ إلى هذه الفكرة لتسويغ المنزلة الآخذة فى النمو والتى كانت المرأة تظفر بها فى المجتمع ، لأنه

---

(1) L' heureuse nation des Féliciens, peuple souverainement libre sous l' Empire absolu de ses lois, 1792 par Lemercier de la Rivière.

(2) Diderot à la princesse Dashoff, 3 avril 1771.

— بالنسبة إلى الجنسين — كان ينبغى التساوى فى الحقوق والواجبات . وكان من المستطاع أيضاً انتزاعها من مفهوم الطبيعة لو أريد ذلك ، وهذا هو ما كان يعمله هيلفيسيوس حين كان يحاول أن يظهر أنه فى لحظة الولادة ، لم يكن هناك فرق بين إنسان وإنسان ، وأن التربية وحدها ، هى التى كانت تضع طوابع غير متساوية على ممثلى النوع الذين هم متساوون فى الأصل .

كانت فكرة المساواة تنبجس أيضاً من منبع أشد عمقاً ، بل من إرادة العصر ، حين استولى عليها بانتام بعد عديدين آخرين . وصاغها فى عبارة مشهورة هى : « أعظم سعادة ممكنة ، لأعظم عدد ممكن » وإذن فالسعادة وإدارة الشؤون العامة التى تتعلق بها السعادة فى جزء عظيم منها ، لم يعد من الواجب الاحتفاظ بها لاختيار المصطفين ، بل قد صارت حقاً للجميع .

ومع ذلك فإن هذه الفكرة كانت أقل نقاءاً عند ما كانت تستعملها الحكومات التى كان يروقها أن تقرها ، حين كان الأمر يتعلق بالمساواة أمام الضريبة التى كانت تجبيها ، وبمساواة رجال الكنيسة والأشراف أمام الملوك حين كان الأمر يتعلق بالعمل على احترام قوة السلطة الملكية أو زيادتها ، وبالمساواة بين الموظفين أشرافاً كانوا أو غير أشراف حين كان الأمر يتعلق بخدمة الرؤساء على وجه أفضل . ولكنهم كانوا يجحدونها ويحاربونها عند ما كانت تتجه إلى مهاجمة سلطتهم .

بيد أن هذه الفكرة كانت أقل قوة لأنها لم تلبث أن التقت بشىء من التجديد ، فقد أُقِرَّت المساواة السياسية ، ولم تُقَرَّ المساواة الاجتماعية . ولقد كان الباحثون يوضحون بكثير من الحجج ، أن هذه الأخيرة لم تكن ممكنة التحقق فى الحياة العملية ، وأنها لم تكن منطقية ، وذلك عيب أكثر جدية ، ففى الواقع أن المساواة الهندسية لم يكن من الممكن وجودها بين الأناسى . وحيث كان الأمر كذلك ، فماذا تملى علينا منفعتنا وعقلنا فى

الوقت ذاته ؟ إنهما يمليان علينا أنه ـ لكى نصير سعداء على التبادل ـ يجب أن نكتفى بهذا النوع من المساواة الأخلاقية التى تنحصر فى إبقاء كل واحد فى حقوقه ، أى فى حالته الوراثية أو المكتسبة ، وفى ملكيته ومنزله .

ويرى دالامبير أن من الحماقة العظمى ، أن يتهم الفلاسفة ـ أو على الأقل من يستحقون منهم هذا الاسم ـ بالتبشير للمساواة ، لأنها وهم .

وعند البارون دولباك أن الطبيعة قد أقرت تفاوتاً ضرورياً وشرعياً بين أعضائها ، وأن هـذا التفاوت يتأسس على غاية المجتمع التى لا تقبل التغير وهى بقاؤه وسعادته .

ويرى فيلانجيرى ، أن الأمن هو متحد اتحاداً وثيقاً مع السعادة ، وأن البقاء والاطمئنان هما مسجلان فى منهجه المثالى ؛ وبالإجمال أنه لن يتساوى الإنسان الفاضل أبداً مع الوغد ، ولا ذو العقل مع الغبى ، ولا الشجاع مع الجبان ، أى أنه يوجد تفاوت معنوى بين بنى الإنسان ، على نحو ما يوجد من التفاوت المادى بين الشاب والشيخ ، وبين الصنديد والمقعد ، وأنه يكون من البله أن يريد المرء التسوية بين الطبقات ، بل يكفى أن يكون الناس متساوين أمام القانون ، وأن المولد لا يمنحهم أى امتياز ، ففى هذا فقط تنحصر المساواة[1] .

ولا غرو فإن محافظية[2] اجتماعية معينة كانت تحس بالخطر عندما

---

(1) D' Alembert à Frédéric II, 8 juin 1770-Baron d'Holbach, La politique naturelle, 1773, Para. 82 - Pietro Verri, Modo di terminare le dispute, défin. du mot Aquaglianza - Gaétano Filangiéri, La scienza della Légis lazione, 1783 livre 1.

(٢) المحافظية الاجتماعية هى الهيئة المعنوية التى تمثل المحافظة الاجتماعية . (المترجم)

جعل الأمر لا يتعلق بسالانتا[1] بل بباريس أو برلين ، وطفقت تنتج نوعاً من الاطمئنان الآلى ، فكما أنه فى محيط العلم كان العلماء يرون الكون ينتظم تبعاً لدرجات سلم الكائنات حيث كل حيوان وكل نبات وكل حجر كان فى مكانه الدقيق والثابت ، وأنه كان ينبغى بذل مجهود ثورى ضخم لإدراك التحول . كذلك كان الناس يحسبون أن ثبات الطبقات يستطيع وحده أن يؤكد ما يدعى بدوام المجتمع ، إذ أن الطبقات هنا تمثل درجات السلم ، وهى التى تحتفظ بالنظام ، وأن من يريد أن يقلبها يكون فى الوقت ذاته ، قد تحدى إرادة السماء ، وعرّض سعادة البشر للخطر . ولنتبع تعقل ڤولتير تحت كلمة « مساواة » من القاموس الفلسفى إذ يقول ما ملخصه : « إن كل الأناسى المستمتعين بقوى مرتبطة بطبيعتهم ، وهم متساوون ، وهم متساوون حين يحققون وظائفهم الحيوانية ، وحين يزاولون إدراكاتهم . ولكن لديهم حاجات ، ولإرضائها يكون بعض التنظيمات ضرورياً . وإذن فهم يخضع بعضهم لبعض . إنه من المستحيل فى كوكبنا التعس أن البشر الذين يعيشون فى المجتمع ، لا يكونون منقسمين إلى طبقتين إحداهما طبقة الأثرياء التى تأمر ، والأخرى طبقة الفقراء التى تخدم . هاتان الطبقتان تنقسمان إلى أقسام كثيرة ، وهذه الأقسام بينها فروق متباينة » .

أما الحاجز الذى لا يمكن تخطيه فهو حاجز الملكية ، لأن قانون الملكية هو بالضرورة متناف مع المساواة[2] . وفى الحق إن بعض الجرآء كانوا يدهشون من الطابع المقدس الذى كان الناس يحتفظون به لها ، وكان أولئك الجرآء ساخطين على ما يعرض من تغيير الحالة السياسية دون تغيير

---

(١) سالانتا هى مدينة من مدن إغريقيا العظمى منحها الحكيم مانتور أحد أبطال رواية تيليماك تأليف فينيلون ، دستورا مثاليا دان فيه ، الحرب ، والرفهنية ، والحكم المطلق والامتيازات ، وما إلى ذلك من نموذج السمو السياسى والاجتماعى . (المترجم)

(2) Lemercier de la Rivière, L' ordre naturel et essentiel des sociétés politiques, 1767.

الحالة الاجتماعية ، وكانوا يتنبأون بأنه ستنتج من ذلك ثورة فظيعة وغير نافعة[1] . وفى الحق أيضا أنه فى سـنه ١٧٥٥ قدم موريلى كتابه « مجموعة قوانين الطبيعة » الذى وجدت فيه مبادئ تلك الثورة الاجتماعية . وبرنامجها المفصل على النحو التالى :

إن الملكية التى لا ترحم ، هى أم الجرائم التى تغمر العالم ، وينبغى محوها ، وينجم عن ذلك ما يلى :

١ ـ لا شئ فى المجتمع يجب أن يعزى إلى أحـد على أنه ملك ، إلا الأشياء التى يستعملها كل فرد استعمالا مؤقتا ، سواء أكان ذلك لحاجاته أم لملذاته ، أم لعمله اليومى .

٢ ـ كل مواطن سيكون شخصا عاما يطْعَمُ وُيتَعَهَّدُ ، ويُشغَل لحساب المجموع .

٣ ـ كل مواطن سيساهم بنصيبه فى الصالح العام حسب قواه ، ومواهبه وسـنه ، وعلى هـذا الأساس ستنظم حاجاته حسب القوانين التوزيعية . . . »

وحينئذ يكون قد قضى الأمر بالنسبة إلى ذلك العملاق الهائل الذى طالما أقامت له الأرض المعابد فى كل مكان . يخيل إلينا أن قدميه تنحدران إلى ظلمة العدم وتعتمدان على كومة من العظام والجثث ، وله ألف رأس وعدد عظيم من الأذرعة قد امتلأ بعض أيديها بأوعية سريعة التحطم مفعمة بالرمل أو بالأبخرة وامتلأ البعض الآخر بالصوالج والتيجان ، وقد كتبت على صدره هذه الكلمة ، وأعيدت عدة مرات وهى « هل من مزيد[2] » ؟

سيموت ذلك العملاق المخزى ، لأن الإنسانية ، برجوعها إلى الطبيعة ،

(1) Dom Deschamps, Le vrai Système ou le mot de l'énigme, publié par J. Thomas et F. Venturi, 1939.

(2) Naufrage des iles flottantes, poème héroique traduit de l' indien par Mr. M... 1753. (attribué à Morelly).

ستفهم أنه لايوجد إلا قانون واحد هو « الاجتماعية » وإلا رذيلة واحدة وهى الجشع ، وإلا مؤسسة مضرة واحدة ، هى الملكية .

وفى الحق كذلك أنه بعد تلك الحقبة بقليل أى فى سنة ١٧٧٦ نشاهد أن مابلى ، فى رسالته « عن التشريع » ينصح بالوصول إلى « الاشتراكية فى الثروة » التى هى الدواء الشافى من الآلام الخارجة من علبة باندور[1]. لأن المساواة يجب أن تكون أساس الحياة الخاصة كما هى أساس الحياة الاجتماعية . ومع ذلك فهى تنقطع عن الوجود عندما تتثبت الملكية ، وهو فى هذا يقول : « إننى لا أتردد فى أن أنظر إلى تلك الملكية التعسة على أنها السبب الأول للتفاوت فى الحظوظ والحالات ، وبالتالى لجميع الآلام » . ويقول أيضاً : « هل تعرف ما هو المنبع الأساسى لكل التعاسات التى تحزن الإنسانية ؟ إنه هو الملكية » .

وفى الحق أخيراً إنه فى انجلترا قد حدثت بعض محاولات من هذا النوع . ففى سنة ١٧٧٥ كان هناك بائع كتب قديمة يدعى توماس اسپانس وكان عقله ثائرا إلى حد الهياج لما ازدحم فيه من مشروعات ، فقرأ ذات يوم فى الجمعية الفلسفية مذكرة عنوانها « حقوق الإنسان الحقيقية » ، فكان ذلك له بمثابة سلك ثورى مفعم بالأحداث ، وانخرط فيه إلى سنة ١٨١٤ وكان يريد تنظيم مجتمع ، صانعاً من كل قرية ، نوعاً من أنواع الخلايا يطبق المساواة . وفى سنة ١٧٤٨ قام وليم اوجيلڤى أحد أساتذة اللاتينية والإغريقية — وهو ذوثقافة عامة واسعة ، وخبرة بعلم المسكوكات — ينشر

---

(١) باندور هى المرأة الأولى فى الأساطير الهيلينية وقد خلقها هيفيستوس إله الحدادة ثم منحتها أثينا الروح وميزتها بالرشاقة والسحر ، وخصتها بمواهب فائقة . وقد أهدى إليها زوس علبة احتوت على جميع الآلام ، ثم أرسلها إلى الأرض حيث اتخذها إبيميثيوس زوجة له ، غير أن هذا الزوج لم يلبث أن فتح تلك العلبة المشئومة ، ففرت منها جميع الآلام لتصيب البشرية ، ولم يبق فى قاع العلبة سوى الأمل . (المترجم)

« محاولة عن حق الملكية العقارية » عرض فيها المبادئ الفلسفية لقانون زراعى كان يمكن أن يمنح كل فرد امتلاك جزء من الأرض .

غير أنه إذا أغضينا عن هذه الاستثناءات التى هى قليلة العدد ، والتى هى محاولة منعزلة ظل ما تشتمل عليه عائما ، والتى لا تذكر بالشيوعية المستقبلة إلا على بعد شاسع ، فإن القرن الثامن عشر قد أيد – بوجه عام وفى حزم – الطابع الشرعى الذى كانت الملكية تحتفظ به فى نظره . وحجته فى هذا هى أن الإنسان فى الحالة الطبيعية ، ضرورى للإنسان ، وأن هذا الأخير محتاج إلى شركاء وأنه قد تم بينه وبين المجتمع ميثاق يضمن له فيه المجتمع السعادة ، ويضمن هو فيــه بقاء المجتمع . وهذا البقاء يتطلب التفاوت الذى يسود الآن ، وسيسود دائما بين الأناسى . وفى هذا يقول دولباك : « لا ينبغى ألبتة أن نحتج على هذا التفاوت الذى كان دائما ضروريا ، والذى هو نفس شرط هنائنا »[1] . هذا هو ما يتعلق بالملكية فى العموم . وهاك الآن ما يختص بالملكية العقارية بوجه خاص كما كان يدركها اقتصاديو العصر الذين كانوا يدعون « بالفيزيوقراط » .

كان فى البدء مجتمع عام ، ولكن لما كان بنو الإنسان قد استمروا يتضاعفون ، فإن المنتجات المجانية والناشئة بذاتها من الأرض ، صارت غير كافية فأضحوا مكرهين على أن يكونوا زراعا . ومن الاضطرار إلى الزراعة أتى الاضطرار إلى تقسيم الأرض ، وعلى هذا النحو تأسست الملكية فى عدالة[2] .

أجل قد تأسست على العدالة ، فلنحترس من أن نمسها سواء أتعلقت برأس المال أم بالثروات المنقولة أم بالأرض ، ولا ينبغى أن نزلزل البناية التى تأوينا ، لأنها قد تنهدم علينا . ولندع للواهمين أحلامهم بالمساواة ،

---

(1) D'Holbach ouvrage cité.

(2) Lemercier de la Rivière, ouvrage cité.

ولنعز الحرية التى يمكن اللحوق بها وحدها ، وليكن هذا الإعزاز للحرية بحماس تزيد حيويته بقدر ما يستطيع مجهودنا أن يتركز لنيلها .

* * *

سيكون الإنسان ــ لو تحققت الآمال ــ حراً فى أن يفكر تبعاً لعقله ، فى أن يعبر عن فكرته بالكلام وبالكتابة ، وحراً فى أن يختار دينه تبعاً لضميره ، سواء أكان الكاثوليكية أم البروتيستانتية أم البوذية أم الإسلام إذا أراد ذلك ، وسيكون حراً فى شخصه وسوف لايفرق القضاة بين الجناة ، سواء أكانوا أشرافاً أم أدنياء النسب ، وأثرياء أم فقراء ، وسيدافع نفس الضمان فى كل مكان عن كرامة الإنسان . وسيكون الإنسان حراً فى حركاته ، فيبقى فى بلاده أو يجتاز حــدودها دون عائق ، وسيظفر بحرية الملاحة والتجارة والصناعة . ولقد كانت كل تلك الحريات المرجوة تتأسس وتنتظم فى صورة واحدة ، وهى صورة الدولة الحرة .

ليجلل الاستبداد بالعار ! ولكن لما كان من غير المستطاع مهاجمته ، فإن الكتاب جعلوا ينقَضُّون على القدماء ، ولقد كان طماس جوردون العنيف ــ فى كتابه « خطب تاريخية ونقدية وسياسية عن تاسيت » (١٧٢٨) ــ يقدم المثل حين جعل يقذف بصواعقه على قيصر وأغسطس وعلى جميع أردياء الأباطرة الرومانيين ، أى على أولئك المجرمين الذين اغتصبوا ذلك الحق المقدس من الشعب ، وهو الحرية . وأكثر من ذلك أيضاً أنهم جعلوا ــ تحت ستار الاستبداد الشرقى الممثل فى طغاة تركيا والموغول واليابان والفرس ــ يفضحون الحكومة المستبدة المطلقة المضرة ، وكانوا يستطيعون أن يقولوا كل السوء الذى يريدونه ، عن ذلك الاستبداد الأسيوى دون أن يتعرضوا لأى خطر ، فلم يكونوا يرون فيه شرفاً ولا عظمة ولا مجداً ، ولم يكن باعثه سوى الخوف ، وكانت معرفته خطراً ، والمنافسة فيه شؤماً ، وكانت المواهب فيه مرهفة ، وكان الأمير ــ وهو السجين الأول

فى قصره — يصير فى (سرايه) فى كل يوم أغنى منه فى سالفه، ويكل سلطته إلى وزيره لكى يلقى بنفسه إلى الإفراط فى أهوائه البليدة . وعندما تنهار البلاد بوساطة الرذائل المنتصرة ، تتحول إلى صحراء . وهكذا كان الاستبداد معادلا للموت .

ولكن أية صورة ينبغى أن تقبل فى موضعه ؟ أهى الجمهورية أم الأرستقراطية ؟ أم الملكية ؟

ومهما يكن من الأمر فإن الاختيار ، رغم الظواهر ، لم يكن جد هام ، لأن كل صورة لها مزاياها وكان لها مساوئها ، فإن خير الجمهوريات هى أدناها شبهاً بالملكية ، بوساطة ثبات القوانين ، وتماثل الحكومة ، وإن خير الملكيات هى التى لم تكن السلطة فيها أكثر استبداداً منها فى جمهورية .

لم يكن أجاثون بطل كتاب ڤيلاند — بعد تجارب متتابعة فى الدول المختلفة التى كانت تتألف منها إغريقا — يحب الديمقراطية التى لم تكن سوى طغيان مقنع ، ولا الأرستقراطية التى لم تكن تستطيع الاستقرار على أساس قابل للبقاء إلا بوساطة ضغط تام على الشعب . ولا النظام الخليط الذى هو نوع من الكيمياء السياسية ، والذى يزعم أنه يستخلص مزيجاً بديعاً من العناصر المتناقضة . وبالإجمال إنه كان يفضل الملكية لأن وجود سلسلة دائمة من أشرار الملوك هو قليل الاحتمال وأن ملكاً واحداً خيِّراً يكفى لإصلاح الشر الذى فعله أسلافه .

كان ذلك هو الشعور العام أى أن الناس كانوا ينحنون إجلالا للجمهورية مضيفين إلى ذلك أن جوها الطبيعى كان هو العصر الأثرى ، وأنها كانت أكثر مطابقة للدول الصغرى . وبعد هذا كانوا ينعطفون نحو الملكية التى بقيت القلوب وفية لها .

وأيا ما كان فإن الأمر الجوهرى فى هذا ، هو أن الحكومة قد تكونت بحيث إن أى عنصر من العناصر التى تؤلفها ، لم يستطع أن يسود الأخرى . وكانت الصورة السياسية غير مكترث بها على شرط أن توازناً عالماً يحكم

الرؤساء ليمنعهم من الإفراط فى السلطة ، كما يمنع الرعايا من الفوضى . وكان ينبغى لذلك جهاز منتظم إلى حد أنه يجب أن يقف من نفسه عندما تهدد إحدى عددها بالتغلب على الأخريات ، أى أن رد الفعل يجب أن يتحرك ضد القوة المتطرفة عند أقل إشارة إلى الخطر . وعلى هذا النحو كان يعار قليل من السلطة لأولئك الذين لم يكن لديهم منها شىء ألبتة ، وهم الرعايا ، وينتزع منها كثير من أولئك الذين كانوا معتادين على احتيازها وهم الملوك . ومن هؤلاء على الأخص ، كان الناس يحتاطون ، لأنهم كانوا دائماً مستعدين للتعــدى والإفراط والعنف . ومن ثم فإن الكتاب لم يكونوا يتركون لهم سوى ظل سلطانهم القديم ، فكانوا يقصرونهم على دور المراقبين ، وكانوا يعتقدون أن الملوك يؤدون واجباتهم لو أنهم — بدلا من أن يحكموا — كانوا يتصرفون بحيث يصبح الناس أقل ما يمكن أن يكونوا فى حاجة إلى حكومتهم . وهؤلاء الفياصل بين السلطات المتباينة فى الدولة ، يجب أن يكونوا هم أيضاً خاضعين للحكم إذا اشتبكوا فى معارضة مع إحدى هذه السلطات . وهكذا كان الملوك يفقدون سلطة الفصل فى شؤون الناس ، والمقدرة على تنفيذ العقوبات فيهم ، ولايحتفظون إلا بالصولجان الذى أراد مواطنوهم تركه لهم كلفتة كريمة أخيرة .

كان فى العالم إذ ذاك دولة حرة ، وكانت تحيا فى رغد ، وكانت قد ظفرت بالقوة والسعادة معاً ، وهى إنجلترا ، وإذن فقد التفت الناس نحوها كما يلتفتون نحو المثل الأعلى . أما أن دستورها كان موضع الإعجاب لأنه قد ثبّتَ فصل السلطات : التنفيذية والتشريعية والقضائية ، فذلك هو رأى إنجلترا نفسها . ومن آيات ذلك أن « ميسيناً »[1] آخر قد أسس فى أوكسفورد ،

(١) ميسينا هو أحد أشراف الرومان وأثريائهم وكان صديقا للامبراطور أغسطس . وقد استخدم ثروته فى حماية الآداب والفنون ، ومنذ ذلك الحين قد صار اسمه علما على حماية الأدب والفن كما كان اسم حاتم الطائى علما على الكرم عند العرب . (المترجم)

كرسياً للحق الدستورى ، لكى يسوغ العالم المشرع وليم بلاكستون — بوساطة التاريخ والعقل — رفعة حكومته . ولقد كان ذلك أيضاً رأى أوروبا ، فأولئك الذين كانوا يزورون « الجزيرة السعيدة » ويقصون ميزاتها السياسية كبيا دى مورال ، والأب پريڤو ، والأب ليبلان ، وڤولتير ، وكذلك محامى چنيف م . دى لورم الذى ألف كتاباً كاملا لكى يعرف أوروبا على وجه أفضل ، ذلك الدستور الذى لا ينازع . وعنده أن الحرية التى هى فى القارة ، هى حلم أكثر منها حقيقة واقعية كانت قد لجأت إلى المحيط الأطلانطى الذى كانت فيه قلعتها ، بل إن مجد العصر الأول فى روما كان يمتقع أمامها ، وإن لوندرا كانت تفوق روما ، وإن الحرية ، بفضل إنجلترا قد باحت بسرها للنوع البشرى .

ولقد حدد مونتيسكيو إلى الأبد تلك الآونة من تاريخ الفكر ، وكل الناس يعرفون فصول « روح القوانين » التى أبان فيها كيف أن خير الحكومات هى التى تحقق أكبر قدر من الاستقلال مع أكبر قدر من الأمن ، والتى فيها السلطة تقف السلطة ، وكان يقول كيف أن انجلترا كانت هى الدولة النموذجية التى تبدو فيها الحرية كأنها فى مرآة ، وكيف أن القوة العجيبة للدستور الإنجليزى ، كانت تؤثر بدورها فى الشعب الذى خلقها ، وكانت تنتج شخصيات ملحوظة ، وإرادات متطلعة ، وكائنات متنبهة وقلقة ومتيقظة ومتطرفة فى أهوائها ، وجامحة ، وهى التى ظفرت بالسيادة على البحار ، وبمملكة التجارة ، وبشـــذوذ العقل ، وبكمال الآداب والفنون .

* * *

إن الدولة هى شخصية معنوية وكما أن الفرد يلتقى بالأفراد الآخرين الذين لا يجب أن يحتملهم كأصحاب حقوق متساوية مع حقوقه فقط ، بل على أنهم يعتبرون ضروريين له . كذلك الدولة تجد حولها دولا أخر ،

ويجب عليها أن تثبت علائقها بها ، تبعاً لتطبيق معقول للقانون الطبيعى ، لأن العادات التى كانت تنظم السياسة الخارجية فى الماضى ، والتى كانت تود أن تنظمها فى الحقبة الراهنة أيضاً ، قد تلاشت . ومن ثم فإن أية فكرة دينية ، كفكرة المسيحية ،ولا أية تقاليد كتقاليد أمبراطورية يمكن أن تجمع تحت علمها جزءاً من دول أوربا ، ولا أى تدبير كتدبير خصومة بيتين مالكين عظيمين ، لكل منهما مواليه ، ولا أى حلم كحلم المملكة العالمية أى أنه لا يستطيع شىء من هذا كله أن يحل محل المبادئ التى أبرزت فى النهاية إلى عالم النور . وفى هذا يقول دى ڤاتيل : « وبما أن الأمم مؤلفة من أفراد هم بالطبيعة أحرار ومستقلون ، وكانوا يعيشون معاً على الحالة الطبيعية قبل استقرار المجتمعات المدنية ، فإن الأوطان أو الدول العليا ، يجب أن تعتبر كأشخاص أحرار يعيشون فيما بينهم على حالة الطبيعة[1] » .

وإذن فالقانون الطبيعى ، يتضمن وجود جمعية للأمم أكثر اتساعاً من الجمعيات الخاصة ، ولكنها لا تختلف عنها فى الكيفية . وهـــذه الجمعية مؤسسة على نفس الميثاق ، لأن أعضاءها قد اتحدوا بقصد مصلحتهم وفائدتهم ، وينتج من هذا أن يكونوا مضطرين إلى الاحتفاظ بميثاقهم البدائى ، لأنهم لو مزقوه ، لما انتهوا إلا إلى تعاستهم الخاصة . حقاً إن المواطنين فى قرية ، أو فى مدينة ، أو فى إقليم ، لهم حقوق ، وعليهم واجبات بإزاء المواطنين الآخرين . ولكن لهم وعليهم منها نفس المقدار بإزاء السكان الآخرين فى أوروبا وفى العالم لأنه كما يقول دى فاتيل أيضاً : « ما دام أن المجتمع العام للنوع البشرى هو مؤسسة من فعل الطبيعة نفسها

---

(1) Emmerich de Vattel, Le Droit des gens, ou Principes de la loi naturelle appliquée aux affaires des nations et des Souverains 1768, Préliminaires.

أى أنه نتيجة ضرورية لطبيعة الإنسان ، فإن جميع الأناسى مضطرون إلى أن يتعهدوها وأن يؤدوا الواجبات نحوها . ولا يستطيعون أن يتحللوا منها عن طريق أية جماعة خاصة ، بل إنهم حتى عندما يتحدون فى جمعية مدنية لكى يؤلفوا دولة أو وطناً منفصلا ، هم يستطيعون أن يتخذوا التزامات خاصة نحو أولئك الذين يجتمعون معهم ، ولكنهم يبقون محملين بواجباتهم نحو النوع البشرى[1] » .

حقاً إن وجود الدول بخلقه فوائد جديدة قد أحدث بين تلك الفوائد تعارضات أشد جدية من التعارضات التى تفرق بين الأفراد ، لأنه أحدث حروباً أبدية ، وجدولا من الدماء ينهمر خــلال التاريخ ، وبقدر ما كانت الجماعة تصير قوية وحاسمة كانت تلجأ راضية إلى الأسلحة ، لتفرض قانونها ، فهناك مثلا الحروب الدينية التى قذفت بكل أمم أوروبا بعضها ضد البعض الآخر ، وحروب الغزو التى عارضت أوروبا مع آسيا وأفريقيا . وعند ما يجرى المرء إحصاء لتلك المذابح المستمرة ، يشعر بعاطفة من الحزن والامتعاض واليأس .

ومع ذلك فإن هذا لم يكن داءاً غير قابل للبرء ، وإن على « عصر الأنوار » أن يخففه ، بل أن يزيله من فوق ظهر الأرض ، فهو ككل الأدواء ، لم يكن سوى نتيجة لأحد الأخطاء ، وعند ما سـيتبدد ذلك الخطأ سيزول من نفسه ، أو سيصبح على وشك الزوال . وكذلك الأمم ستفهم على وجه أفضل ، فائدتها الحقيقية ما دام أنها جعلت تستنير ، وأنها أخذت تصعد من النتائج إلى الأسباب ، وأنها بدأت تتبين علة عداوتها الطويلة ، وهى لن تدع نفسها بعد الآن تنخدع بالتسرعات التى سلحت الأيدى الشقيقة بعضها ضد البعض الآخر . وعما قريب سيسطع فجر السلام الأعظم .

(1) Emmerich de Vattel, ibid.

كان ليبنز هرماً ، وكان منهكاً عندما قرأ « مشروع جعل السلام أبدياً فى أوروبا » تأليف الأب دى سان — پيير[1] . جَعْلُ السلام يسود أوروبا ، هذا هو الذى فتن ليبنز ، وهـــذا هو الذى ظل أحد أحلامه العابثة . ومن ثم فإن مشروع هذا الأب لم يكن خارجاً عن غاياته تماماً ، ما دام أنه كان ، منذ شبابه مجتهداً فى دراسة الحقوق ولا سيما دراسة حق الناس ، ولكن ماذا ؟ إن الإرادة تعوز البشر ، لـكى يتخلصوا من عدد لا يتناهى من الآلام . أى أمير بل أى وزير أراد أن يستمع له ؟ إن الأمل فى إدخال مملكة إسپانيا فى بيت فرنسا ، كان منبعاً لخمسين سنة من الحروب ، وإنه لمن المخيف أن الأمل فى إخراجها منه سيحدث اضطراباً فى أوربا أثناء خمسين ســـنة أخرى . لا سيا وأن جميع المحاولات السابقة قد أخفقت ، ومحاولته أيضاً . نعم إن حقاً من حقوق الناس قد تثبت بين المسيحيين اللاتينيين ، وإن الفقهاء قد بنوا تعقلاتهم سابقاً على الأساس التالى وهو أن البابوات هم الرؤساء الروحيون ، وأن الأباطرة هم الرؤساء الدنيويون للمجتمع المسيحى ، ولكن الإصلاح الأعظم فى الغرب ، قد غير حالة الأمور تماماً ، فقد حدث شقاق غير قابل للإصلاح . ومن جهة أخرى فإن عدم الاتحاد فى الأمبراطورية لم يكن آتيا من أن الأمبراطور كان مفرطا فى السلطة ، بل بالحرى كان آتيا من أنه لم يكن لديه القدر الكافى منها . وأخيراً كان ليبنز ، وهو على مقربة من الموت ، يعتقد أن هناك أقداراً تمنع البشر من أن يكونوا سعداء .

بيد أن الأب دى سان — پيير لم ييأس ، وقد ظل إلى وفاته فى سنة

---

(1) Oeuvres de Leibniz, éd. Foucher de Careil, 1862, t.4. observations sur le projet d' une paix perpétuelle de M. L'abbé de Saint-Pierre, revu d'après le manuscrit de la bibliothéque royale de Hanovre.

١٧٤٣ يتابع مشروعه العظيم التالى[١] . وعندما كان يفكر فى القسوة والقتل والحرائق و العنف التى تسببها الحرب ، كانت تحزنه التخريبات التى كانت أمم أو ربا مرهقة بها . ولقد شرع فى البحث عما إذا كان من المستحيل تماما جعل السلام ممكن الدوام . وعنده أن اتفاقاً لا يكون سوى صورة حديثة للميثاق الأبدى ، يمكن أن يجعل السلام غير قابل للفساد بالشروط الآتية : سيكون منذ ذلك اليوم من أيام المستقبل ، اتحاد دائم، بين جميع ملوك أوروبا ، ويشمل ذلك قيصر روسيا والسيد الأعظم[٢] وسلاطين شواطئ البربر . وستكون الوظيفة الأساسية لهذا الاتحاد هى الاحتفاظ بكل شئ فى سكون ، وستحتفظ كل دولة بحقوقها العليا ، وسيمنع الاتحاد فقط الاضطرابات التى يمكن أن تنشأ بينها . ولن يمكن أن ينتزع من أى بلد فى داخل الاتحاد شئ ، ولن يستطيع أى أمير أن يكون ملكاً على دولتين . ولا جرم أن الملوك — سواء منهم من سيوقعون على الانضمام إلى اتحاد بوساطة مفوضيهم ومن سيوقعون عليه بعد ذلك — مفروض فيهم أنهم تنازلوا برضاهم ، فيما يتعلق بهم ، وبخلفائهم عن جميع الادعاءات التى يمكن أن تكون لدى بعضهم ضد البعض الآخر ، ولن يوقع أى عضو من أعضاء الاتحاد بعد الآن أية معاهدة بينه وبين الآخرين إلا بموافقة ثلاثة أرباع الأصوات ، وأن يكون ذلك فى مدينة السلام فقط . وحينئذ سيظل الاتحاد ضامنا لتنفيذ التعهدات المتبادلة ، وكل من سيتصرفون على نحو آخر سيعلن أنهم أعداؤه . وستكون مدينة السلام حرة محايدة ،

---

(1) Abbé de Saint-Pierre, Mémoire pour rendre la paix perpétuelle en Europe, Cologne, 1712 - Projet pour rendre la paix perpétuelle en Europe Ultrech, 1713 — Projet de paix perpétuelle entre les Souverains chrétiens, Ultrech 1717.

(٢) السيد الأعظم هو لقب كان يطلق فى فرنسا على سلطان تركيا حين كانت خليفة لها . (المترجم)

وسيمكن أن يستقر فى أولتريك ، أو فى چينيف ، أو فى كولونيا ، أو إيكس لاشابيل . أما أعداء الاتحاد — إذا بقى له أعداء بعد الوساطات والإصلاحات وأحكام الفياصل — فإنهم سيقاتلون بوساطة قوة مكونة من طوائف من أمم مختلفة ، يرأسها رئيس تعينه أغلبية الأصوات . ولن تحتفظ أية دولة بجيش أكثر من دولة أخرى ، وسيحدد عدد الجنود الذين لكل دولة الحق فيهم . وقد استمر الأب دى سان پيير متنبئا بكل شىء حتى تفاصيل التنفيذ ، أى باختيار المفوضين وإرسالهم ، ولوائح الجمعية والمكاتب ، ومقدار الاشتراك الذى يقدمه أعضاء الجمعية المستقبلة .

بهذا المشروع الجرىء انقضى زمن الاقترابات البطيئة ، والرسائل العاملة التى كانت تكتب باحتياط ، وجس النبض ، أى أنه قد انتهى الوقت الذى كان التصرف يترك فيه للزمن .

كان المنهج الذى اتبعه ليبنيز قد هجر ، بالنسبة إلى السلام الدائم كما هو بالنسبة إلى الإصلاح بين الكنائس ، كان قد هجر كما هجر ليبنيز نفسه . غاية ما فى الأمر أنه كان ينصح للأب دى سان — پيير بالالتجاء إلى الأمثلة وإلى التاريخ .

بيد أن الأب دى سان — پيير كان يتقدم فى عزة دون أن يثقل نفسه بمثل هذا القدر من الاحتياط ، إذ أن المبدأ قد وجد ، وهو أن الطبيعة تريد سعادة بنى الإنسان ، وأن الحق الدولى يترجم هذه الإرادة الطبيعية ، وأن السلام يجب أن ينتج من الحق الدولى مفهوماً فى جوهره الحقيقى ، وأن قليلا من المنطق يكفى لتعيين الوسائل المعصومة لتحقيقه بصورة أبدية .

* * *

بما أن هذه الفكر كانت نتيجة نضوج طويل قد وصل إلى حده ، وبما أنها ترتدى طابعاً من البساطة كان يحول السياسة إلى منطق ، وبما أنها كانت

تتجاوب مع بضع إرادات عميقة من كينونتنا فإنها قد سادت ضمير أوروبا . وبعد أن غزت الجزء المفكر من العالم القديم ، منحت العالم الجديد حريته :

وهكذا بعد مائتى سنة من قيام الأب دى سان – بيير بحملته ، من أجل « مشروعه » ، فإن هذا المشروع قد استؤنف النظر فيه ، وإن اتحاد الأمم واجتماع المندوبين ، ومدينة السلام ، كل ذلك قد خرج من الحلم لكى يصير عملا . وإن الفرق هو أنه لم تنشأ القوة التى أراد وضعها فى خدمة قضية السلام الكبرى .

وفى داخل الدول كانت هذه الفكر نفسها تغير مسلمات المشكلة السياسية ، لأن العلاقة لم تعد بين سلطة الأمير والسلطات العليا كالكنيسة أو الأمبراطورية ، بل بين الحاكمين والمحكومين .

وكانت تغير أيضاً الصورة الذهنية المأخوذة عن الرعية . على أنه ، والحق يقال ، لم يكن هناك رعايا وإنما كان هناك مواطنون .

وكانت تغير كذلك ، الصورة الذهنية عن الملك ، فإن إنجلترا نفسها ، كانت تشعر بالحاجة إلى تحديد طبيعة الروابط التى لم تكن تخضع الأمة للملك، بل تخضع الملك للأمة . وذلك هو ما كان يفعله بولينبروك – ولو أنه كان رئيسا لحزب المحافظين – حين نشر فى سنة ١٧٤٩ ،مؤلفه «رسائل عن روح الوطنية» : ينعش حزبه ، ولكى يحتفظ بالطابع الوراثى للملكية الإنجليزية ، جعل يقوى مذهب الأحرار ،ويشرح أن النظام الملكى مشيد على الحق المشترك وعلى الصالح العام ، وأنه منبثق من قانونين أنشأهما الخالق وهما : القانون العام للعقل ، والقانون الخاص الذى خضعت له كل دولة برضاها . ولكى لا يغتصب هذا القانون الثانى – وذلك لو وقع ، لأحدث اضطرابات وفوضى – كانت السلطة تنتقل من الأب إلى الابن ، ولم تتماسك الملكية الوراثية إلا لأنها أفضل الملكيات . وفوق ذلك فإن الذى يزاولها لا يبقى جديراً بهذه الحظوة الشرعية ، إلا عندما يستحق اعتبـــار من يحكمهم ، وثقتهم ومحبتهم :

ولا يمكن أن يوجد الآن ملوك آخرون إلا « المواطنون » ، أى الذين يفنون فى صوالح الوطن، والذين يرتضون الشروط التى يشترطها عليهم هذا الوطن .

فى البلاد التى لاتزال هذه الفكر تلتقى بمقاومات عنيدة ، هى تحدث ثورات ، فمن أمثلة ذلك ثورة أمريكا . ومجملها أن مُسْتَعْمَرَةً رفضت مُسْتَعْمِرَتُها أن تطبق فيها المبادئ التى نشرتها هى نفسها ، فصارت تلك المستعمرة هى الولايات المتحدة . وتلك واقعة رئيسية قد سجلت فى الوقت ذاته فى تاريخ الفكر ، وفى تاريخ السياسة العالمى حينما تمردت بوستون فى سنة ١٧٧٤ ، وبهذا التمرد بدأت حرب التحرر ، وحينما هبت المستعمرات الثلاث عشرة فى ٤ يولية من سنة ١٧٧٦ ، تعلن أنها مستقلة ، وحينما حرر التصريح الذى جزم بأن الحكومات لا يمكن أن تصدر إلا عن السلطة العادلة المنبثقة من لدن المحكومين ، وحينما وجب أن تخضع إنجلترا ، وأن توقع معاهدة ڤيرساى ، وحينما أعدت « اتفاقية فيلاديلفيا » الدستور الذى صوت عليه فى ١٧ سبتمبر من سنة ١٧٨٧ .

ولما كانت الجمهورية ذات العلم المنجم ، مرتبطة بالقارة العتيقة عن طريق الجنس ، وبوساطة ذكرى الشجعان الذين أسسوا إنجلترا جديدة على الجانب الآخر من المحيط ، وعن طريق لغتها وثقافتها ودينها ، وعن طريق المذاهب التى استعارتها بهيئة مباشرة من لوك ومونتيسكيو ، لكى تكون دستورها ، فإنها قد بقيت جزءاً من أوروبا وانفصلت منها فى الوقت ذاته . ولقد استمرت تحيا حياتها القديمة فى وجود منعزل ، فكانت هى نفسها وكانت أخرى . ومع أنها كانت معتزة باستقلالها ، ومستعدة لأن تؤكده فى كل فرصة ، فإنه كان هناك رابط لم تصمم ألبتة على أن تقطعه ، وهو الرابط المعنوى ، فقد كانت تعود إلى أوروبا عند ما كانت تشعر بتهديد تلك الثروة التى كانت أوروبا القرن الثامن عشر قد عرفتها ثمنها ، وهى الحرية .

ومنها أيضاً ثورة فرنسا ذلك البلد الذى كان يعبر فيه عن النظريات بأعظم قوة ، ولكن الجانب العملى فيها لم يكن يريد أن يتنازل عن شيء للروح الجديدة ، كما يوضح ذلك أمر « سرير العدل »[1] الذى أصدره الملك لويس الخامس عشر فى ديسمبر من سنة ١٧٧٠ وهو : « إننا لم نتلق تاجنا إلا من الإله ، وإن حق إنشاء القوانين هو ملك لنا بلا تجزؤ ، ولا تعلق بأحد » .

ولا جرم أن ذلك تعارض صريح مع « إعلان حقوق الإنسان والمواطن » الذى صوت عليه فى أغسطس من سنة ١٧٨٩ ووضع على رأس دستور سنة ١٧٩١ وهو : « إن الناس يولدون أحراراً ومتساوين فى الحقوق . إن التمييزات الاجتماعية لايمكن أن تؤسس إلا على المنفعة المشتركة . إن غاية كل جماعة سياسية هى الاحتفاظ بحقوق الإنسان الطبيعية وغير القابلة للإبطال . وهذه الحقوق هى الحرية والملكية ومقاومة الاضطهاد . إذ أن القانون هو التعبير عن الإرادة العامة ، ولايمكن أن يتهم أحـد ، ولا أن يعتقل ، ولا أن يحجز إلا فى الحالات التى عينها القانون وعلى الصورة التى أمر بها . إن الإعلان الحر للفكر والآراء هو أحد حقوق الإنسان الأكثر نفاسة ، وإذن فكل مواطن يستطيع الحديث والكتابة والنشر فى حرية . إن كل مجتمع ليس فيه ضمان الحقوق مؤكداً ، ولا انفصال السلطات مستقراً ، ليس له دستور . »

تلك فكر لم تزد على أنها اتخذت هنا صورها المقررة عنـد إتمام عمل الفلاسفة .

---

(١) سرير العدل هو كناية عن جلسة رسمية كان الملك يعقدها ليكره البرلمان على أن يسجل أوامره لينفذها . (المترجم)

الفصل السادس

التربيـــة

قبلَ ظهور كتاب« إميل » لجان چاك روسو ، فى سنة ١٧٦٢ يلاحظ المرء أول الأمر هجوماً من جانب الماضى ، ثم تنشأ حركة ، تبدأ بطيئة ولكنها تنشط حوالى سنة ١٧٥٠ . وفى نحو سنة ١٧٥٦ يقول لاشاتوليه : « يبدو أنه – فيما يتعلق بالآراء الخاصة بالتربية – يوجد لدى الكافة فى أوربا ، نوع من التخمر . . . »[1] وإذ ذاك يطلب الفلاسفة من المربين أن يؤدوا حسابا عن عملهم ، وعندما يجدونه سيئاً يستأنفونه هم ، ويستعينون فى ذلك بمونتيني وفينيلون ، ولوك ، وتأثير هذا الأخير هو بنوع خاص ، قوى . وتلك حالة شاذة من عمل عام . ولقد كان على الجميع ان يختبروا ما إذا كانت فِكَر هذا الحكيم يجب التّمسك بها ، أو نبذها بإزاء مستقبل قريب . مؤدى تلك الفكر ما يلى :

١ – لم تعد التّربية معدة لتكوين « رجال اللياقة » الذين هم حلية المجتمع بل لتكوين مواطنين نشيطين .

٢ – إن التّربية معدة لإنتاج أجسام قوية كما هى معدة فى الوقت ذاته لإنتاج نفوس مستقيمة .

٣ – إن التّربية معدة لمساعدة القوة التلقائية للكائن ، أكثر من أنها يجب أن تكرهها .

* * *

وها هو ذا شارل رولان ، إنه محترف ، إذ كان أستاذا ، و (ناظراً)

---

(1) La Chatolais, Essai d'éducation nationale, 1763, p. 84.

لمدرسة بوڤيه بل مديراً بديعاً . ولما كان جديا ، فقد كان ملونا بصبغة الجانسينية ، وإذ كان عالما ، فقد كان مدرسا فى المدرسة الملكية . ومن ثم فإنه كان محوطا بهالة من المجد التربوى . وإن كتابه « رسالة عن الدراسات » الذى ظهر فيما بين سنتى ١٧٢٦ و١٧٢٨ والذى كان مكونا من أربعة مجلدات ، قد قوبل بتحية الاحترام من لدن الذين كانوا يحبون الأدب الكلاسيكى ، وتقاليد الذوق الحسن .

يرى هذا الأستاذ أن للتربية ثلاث غايات : فهى تثقف عقول الشبان ، وتزينها بجميع المعـــارف التى هم أهل لها ، وتجتهد فى أن تصل بعملها إلى حد النهاية ، أى أن توجد فيهم الشخصية المسيحية . وأن اللغة اللاتينية وقليلا من الإغريقية يجب أن يظلا عنصرها الأساسى . ولكم كان شارل رولان ، سيشعر بارتياح عظيم ، لو أنه كتب رسالته باللاتينية ، لأنه — بلا مباهاة — يكتب باللاتينية ، خيراً منه بالفرنسية ، ولكنه أخيرا كان ينبغى أن يفكر فى أولئك الذين لم يكونوا يريدون ، من بين تلاميذه ، أن يصيروا أساتذة ، والذين لم يعودوا يؤلفون خطباً شيشيرونية . ومن ثم فإنه صمم على أن يختار الفرنسية ، وأن يقدم أمثلة مستخلصة من المؤلفين الفرنسيين .

كان مغرما بالخطابة العتيقة التى يتعلمها الناس عن طريق قواعد القدماء ونماذجهم ، وبالإنشاءات الخطابية الجميلة التى تشيد بالالتجاء إلى الطرق المعروفة التى يعددها ، وذلك مثل الموازنات والفكر المألوفة .

وعند ما كان ينصح بقراءة كتب المؤلفين وشرحها ، لم يكن يفكر فى الاستكشافات الممكنة ، ولا فى الأحداث التى تستهوى العقل ، وإنما كان فقط يستمتع بإبراز نماذج ، لا يكون أمام الناس إلا أن يحاكوها فى كل نوع . وعندما تسنح الفرصة ، يجعل الأستاذ التلاميذ يلاحظون كيف يمكن جعل السامعين — فى فاتحة الخطبة — مستعدين لتقبلها ، ويجعلهم يلاحظون أيضاً ، إلى أى حد وصل الوضوح الذى يسود الحديث

ويلاحظون ما فيه من إيجاز ، وما عليه من مظهر الصدق ، وما يحتويه من غاية خفية ، لأن سر الفن لا يكاد يكون معروفا إلا من أساتذة الفن .

وعنده أن الفكر أقل أهمية من الصورة ، وأنه يعلن فى سذاجة ، أن الفكرة محدودة بترويض لفظى . وفى هذا يقول : « إن كلمة الفكرة هى لفظة جد عائمة ، وجد عامة ، لها عدة مدلولات شديدة التباين كمعادلتها اللاتينية « سانتانسيا "Sententia" ، وَيبِينُ جيداً أن ما نختبره ، إنما هو الفكر التى تدخل فى منتجات العقل ، والتى هى جمالها الأساسى » .

وكذلك الأمر بالنسبة إلى الشعر ، فكم من صور يقتطفها المرء عند ڤيرچيل ، وعند أوڤيد ، وكم من نصوص سامية قمينة بالاستظهار ! . لا ريب أن هذه الكنوز توجد لدى مؤلفين غير دينيين حظر بعض المربين المفرطين فى الصلابة صحبتهم ، ولكن هل سنكون نحن أشد قسوة من آباء الكنيسة الذين لم يخشوا من أن يذهبوا إليهم لينقبوا عندهم عن عناصر الأسلوب ؟

وكما أن الفكرة لم تكن سوى حلية للخطبة ، كذلك كانت قراءة القصيدة وسيلة إلى إظهار كيف تستعمل النعوت ، وكيف يؤتى بالإعادة ، وكيف توجه الخطبة . أما العاطفة الشعرية فلم يرد لها ذكر .

لم يكن شارل رولان جافا ، بل يمكن أن يكون أجف من ذلك دون ضرر ، وليس عليه ملامح لهجة الأمر ، ولكن عليه مظهر المعلم فى صورة محببة . وإذا استمعنا إليه ، فكل مادة يعالجها ، هى هامة إلى حد أنها تستوقف الانتباه بنوع خاص ، فمثلا بمناسبة التعقل والبرهان ، هو يقول : « إنما هنا يوجد أشد أقسام الفن الخطابى ضرورة ، بل الذى هو منه بمثابة الأساس ، والذى يمكن أن يقال عنه : إن جميع الأخريات تتعلق به » . وهو يقول بمناسبة الخرافة : لا تكاد توجد مادة ، فيما يختص بدراسة الأدب ، هى أوفر استعمالا من المادة التى أتحدث عنها هنا ، ولا أعظم منها

جدارة بدراسة عميقة ، ولا أشد اكتظاظاً بالأشواك والعقبات » .

إنه مقتنع فى إخلاص إلى حــد أنه يقنع قارئه ، وتلك قوته ، إذ لا يمكن العثور على محام أشد منه فصاحة . ومع ذلك فقد كانت خطته ، خطة السلطة . ولكى يدافع عن ماض مجيد ، فإنه يدعى أنه كان يعانى فى ذلك صعود منحدر العصر . ولم يكن يريد ، فى الدراسات من حيث محتواها ، سوى « الإنسانية الكلاسيكية القديمة »[١]، ولا شيء غير ذلك تقريباً . أما من حيث روحها فلا يريد إلا الرغبة فى نقل وديعة غير مُحَسَّة : ومن ثم فإن شخصيات التلاميذ لا تقحم ألبتة فى الدراسات ، وإن مساهمتهم فيها هى سلبية كلها ، ومجهودهم فيها هو محاكاة . ولن يكون فى عقولهم ، ولا فى قلوبهم ، ولا فى نفوسهم سوى القيم التقليدية التى يكون الأستاذ قد سكبها فيهم .

ومع ذلك فإن شارل رولان لا يدع المدرسة كما وجدها تماماً ، بل إنه من وقت إلى آخر يفتح فيها نافذة أو يسدف باباً ليتصل منه بالعصر فقد كان مثلا يحترم لوك ، ولو أن لهذا الأخير مشاعر خاصة لا يستطيع المرء أن يعتنقها دائماً وأنه فيما يبدو ، غير متضلع بالقدر الكافى فى دراسة اللغة الإغريقية ولا فى دراسة الأدب الذى لم يمنحه الأهمية الكافية . ولا جرم أن رولان ، عندما يقول كلمته الحاسمة ضد الأبطال الحربيين وضد المستبدين ، إنما يقدم شهادة لصالح الفلسفة . وهو يلح أيضاً على أنه إذا كان التلاميــذ عليهم واجبات نحو أساتذتهم فإن الأساتذة أيضاً عليهم واجبات نحو تلاميذهم .

غير أنه حين يذكر المرء تاريخ نشر رسالته ، ويذكر المطالب التى كان يعبر عنها يومياً ، وأنواع العنف ، والتمردات ، فلا يستطيع شيء

---

(١) يريد المؤلف بكلمة الإنسانية ، الثقافة الإغريقية اللاتينية . (المترجم)

أن يتغلب على الشعور بأنه يتجه إلى « رجال اللياقة » السابقين أو يتجه إلى القرن السابع عشر فى امتداده ضد التيار .

* * *

أما الحاضر فقد كان يتطلب شيئاً آخر ، إذ أن المعاصرين كانوا يسجلون عيوب التربية التى تلقوها ، والتربية التى كانوا يرون أنها تقدم إلى أبنائهم . وكان يقول إن الصبى عندما يخرج من المدرسة الثانوية ، لا يكون قد عرف شيئاً ، أو لا يوشك أن يكون قد عرف شيئاً ، بل كان يقرأ فى صعوبة ، قليلا من اللاتينية ، وبضع كلمات من الإغريقية ؛ وكان يستظهر شعر پيبراك ، وخرافات لافونتين التى كان يسىء فهمها ، وكتاب التعليم الدينى الذى لم يكن يفهمه ، ولا شىء أكثر من ذلك . وعلى أثر هذا كان يوكَلُ إلى أساتذة لتعليمه الفروسية ، والرقص ، والمسايفة ، والموسيقى ، ولكنه لايتجاوز معرفة العناصر الأولى للهندسة ، وهو يسىء عملية الطرح . وكان يتمم تربيته فى المجتمع الأرستقراطى ، على أشد الطرق سطحية ، وفى الغالب أكثرها حمقاً . . . وإذا وضعه أهله — بدلا من صحبة المدرسة — بين يدى مرب هو مكون من حذلقة فظة ووضاعة ، فإن جهله يصير أشد عمقا ، وخلقيته أكثر قابلية للتشكك ، لأن هذا المربى كان يعوده على الحسد والخبث تحت اسم المنافسة والحيوية وكان يربيه على الإيمان بأن المال هو أنفس ما فى العالم ، ويقنعه برفعة لص ثرى ، على رجل ممتاز لا يملك شيئا ، ويشير ج . پ . دى كروزا ، إلى الطريقة الغريبة التى كان أولئك المربون يستعملونها لحمل تلاميذهم على العمل فيقول : « يملى المربى موضوعاً طويلا على الصبى الذى يستعمل ساعتين أو ثلاثا فى ترجمته إلى اللاتينية ، وذلك وقت سعيد بالنسبة إلى الأستاذ . وأما التلميذ فلا يشكوا من طول « واجبه » لا سيما إذا كان لدى المربى من الحكمة ما يمنعه من توبيخه على الأخطاء التى ملأ بها « واجبه » ، لأنه

ينشئ – حسب رغبته – سطرين ، ويستريح ويكتب سطرين آخرين أو ثلاثة ، ثم يمزح ويعود أيضاً إلى « تمرينه » ، ثم يأكل شيئاً من الفاكهة ، ويذهب للتحدث مع أحد الخدم ، ويعود فيلعب ، ويتشاجر مع أحد الرفاق . وأخيراً يصل عن طريق هذه الثغرات ، إلى الكلمات الأخيرة . وحينما يأتى الأستاذ ، عن طريق المصادفة ، بشىء حسن فى بضعة سطور ، فإنه يهتف أمام الوالد بالمعجزة . أما المواطن التى يهذى فيها فإنها تدفع إلى الضحك وسرعان ما يستغل عدد التصحيحات فى البرهنة على عناية المربى . وعند ما يصلح كل « الواجب » ينظر إليه الوالد على أنه إنتاج اليد التى كتبته وحدها ، وحين يرى الوالد على هذا النحو ابنه يمر من حيث مر هو نفسه ، يشعر أنه ولد وشب من جديد مسروراً فى هذه الصورة العزيزة[1] » .

وإذا لم يتمم الشاب تربيته فى المجتمع العالى ، فإنه يدخل الجامعة حيث تنتظره تعاسة جديدة ، لأنه هناك لا يزيد على كونه يكتب تحت إملاء ، دون أن يفهم شيئا ، فأساتذته يدرسون له « المدرسية » التى لاتزاول الحكم ألبتة والتى تثقل الذاكرة ، وهم يوجهون إليه أسئلة على طريقة العصور الوسيطة كقولهم : « أيها الببغاء اللطيف كم من الفكر ؟ » "quotuplex causa?" أو أيها الببغاء اللطيف كم من الأسباب ؟ "quotuplex idea?"[2] .

لا جرم أن الأستاذ – من بين مائة إجابة ممكنة – يعتبر أن إجابة واحدة هى الجيدة وهى التى لا يفرض فيها المعنى فحسب بل الصورة أيضاً . وذلك هو إعلان الحرب الصريحة على الفطرة السليمة وفى الحق

---

(1) J. P. de Crousaz, Nouvelles maximes sur l'éducation des enfants, 1718.

(2) idem, Traité de l'éducation des enfants, lausanne 1722.

أنه لم يكن من الممكن ، فى وسط القرن الثامن عشر ، أن يسمى الناس أستاذاً فى الفن ، رجلا لا يعرف سوى القواعد اللاتينية ، وقواعد القياس « إين باروكو » وإذا كان حقاً أن مقدار النور قد زاد منذ مئة سنة ، وأننا استنرنا ، فيما وراء آمال العصور السابقة وأخيلتها[1] فإنه يكون من الحق أيضاً أنه يجب علينا أن نقلب مألوفات المدارس والمجامع والجامعات .
وقد جعل هذا التعقل يتخذ فى كل يوم ، قوة أعظم حتى انتهى إلى بعض المطالب الواقعية التالية .

* * *

ينبغى أن تتغير مادة التعليم ، وأن نضع فى عقولنا أن المواد التى تدرس قد اختيرت ، عند ما كانت لا تهم سوى شمامسة المستقبل ، ثم امتدت إلى أولئك الذين يجب أن يدخلوا فى سلك الأستاذية ، وهم الذين كان الناس يخلطون بينهم وبين رجال الكنيسة . غير أن هذه الجماعة ليست الآن سوى أقلية : وأن هـــذه الدراسات محتفظ بجزء عظيم منها لاستعمال الشبان الأشراف الأثرياء العاطلين . أفلا تشتمل الإنسانية على طبقات أخرى ؟ بل إن أبناء الأشراف ، وكبار المتوسطين ، يجب عليهم اليوم أن يتعلموا حرفة ، فذلك يجعلهم فى مأمن من كثير من الرذائل ، كالكبرياء والكسل والتبطل . ومهما يكن من شىء ، فإن الأكثرية الغالبة من بنى الإنسان ، مضطرة إلى أن تكسب قوتها . وهى منذ شبابها ، تتجه نحو ما يدعوه جوزيف بريسليه « عمل الحياة النشيطة[2] » .

---

(1) Un âge "enlighten'd beyond the hopes and imaginations of former times", dans William Worthington, an Essay on the Scheme and conduct, Procedure and Extent of Man's Rédemption, 1743.

(2) Joseph Priestley, An Essay on a course of libéral éducation, or civil and active life, 1764. Grimm Correspondance littéraire, mai 1762. Oeuvres, tome v, p. 81.

وإذن فسيقل نصيب اللغة اللاتينية بهيئة ماحوظة ، إذ أنه فى الواقع ماذا يفيد الإنسان فى حياته أن يكون لاتينياً بارعاً ؟ نعم قد لا ينبغى محوها نهائياً ، وإن كان الذوق اللاتينى فى الواقع ، قد جعل يتلاشى . وإذا أريد الإبقاء عليه ، فينبغى أن يعثر على مناهج أسرع ، وألا تضيع سبعة أعوام فى تعلم لغة ميتة ، وهى أعوام لا تمثل ، لدى أكثر الصِّبْية ، سوى متاعب وآلام . ولا جرم أن الوقت الذى يكسبه الصِّبْيَة على هذا النحو ، سيخصص — على صورة أفضل كثيراً — للغة البلد الذى يعيشون فيه . وكذلك التاريخ يطلب مكانته ، والتاريخ القديم فى هذا أقل من التاريخ السياسى الأوروبى الذى يجهله أولئك الذين ينشغلون بالحكم عندما يصلون إلى مناصبهم .

ومما لا شك فيه أن دراسة التاريخ تستلزم دراسة الجغرافيا . ومن المسلم به أنه لا يمكن إهمال العلوم ، وعلى الأخص العلوم الطبيعية ، إلى جانب الرياضة وعلم الطبيعة . وأما فيما يتعلق باللغات الأجنبية فقد كان الناس يبدون تردداً أكثر . ومن ناحية أخرى فقد كان البعض ينصح بأن ندخل الأخلاق الطبيعية ، مبتدئين بجروسيوس وپوفيندورف ، وبإدخال الحق الطبيعى أيضاً . ومنهم كذلك من يمعنون فى الانشغال بالإعداد العملى إلى حد اقتراح تعليم الفنون الميكانيكية ، إذ أنه سيكون أنفس لدى الشاب أن يعرف كيف تصنع الحذاء التى يلبسها ، من أن يردد مطالعة أرسطو . ولماذا لا يكون فى داخل المدرسة أدوات من أنواع مختلفة ؟ وحول المدرسة دكاكين عمال ؟ ومتخصص يحرك الآلات عندما يبينها للصبية ، وذلك كآلات النسيج والطباعة وصنع عدد الساعات وحرف أخرى .

وينبغى أيضاً أن تغير روح التعلم . وفى هذا ينشر بازيدو "Basedow"

فى سنة ١٧٥٢ كتابه «المنهج الطبيعى لتعليم الشباب» "Méthodus èrudiendae juventutis naturalis" الذى يسبق دوره كمصلح[1] .

وعنده أن من المسلم به مرة أخرى أنه لا يوجد فى النفس شىء فطرى ، وأن هذه الأخيرة تنمو بوساطة ما تحمله إليها الأحاسيس التى تتحول شيئاً فشيئاً إلى فكر مجردة ، وإذن فالتربية يجب أن تتطابق مع قانون الحياة النفسية أى أنها يجب أن تكون تقدمية . وبدلا من أن تنطبق من الخارج — وفى شـــدة يتفاوت تَخَفُّها كثرة وقلة — على نفس فى حالة التكوين ، هى تتبع من الداخل حركات هذه النفس . ولا ريب أن نتائج هذا المبدأ لا تحصى .

فى الواقع أن الإنسان جدير بالاهتمام منذ المهد . وأن والديه — بدلا من أن يتركاه للخدم وأن يهملاه ، بحجة أنه لم يبلغ بعد ، سن العقل — يجب أن ينحنيا عليه ليوجها نموه ، فالوالد مثلا يعلم الطفل محاسن الآداب قبل أن يعرف ما هى الفضيلة ، ويودع لديه بذرات الحكمة التى سينبتها المستقبل . أما دور الأم فإنه سيكون كذلك ، جديراً بالاعتبار ، لأنه يعزى إليه إظهار كيف أن هذه الفضيلة نفسها هى محببة وعذبة . وكلاهما مجتمعين ، يقومان بدور المربى قبل أن تبدأ التربية .

إن للطفل جسما ، ومن ثم فإن طريقة إلباسه وإرقاده لها أهميتها . وينبغى مراقبة طعامه بنوع خاص ، لأننا نعرف أكثر مما ينبغى ، تلك البنات الصغيرات اللواتى يتركهن أهلهن يَتَخمن من الحلوى ، وأولئك الشبان من أبناء الأشراف الذين يُتَبَلون بالموالح المحفوظة ، كل

---

(1) Pro summis in Philosophia honoribus rite consequendis inusitatam eamdemque optimam honestioris juventutis erudiendae méthodum. . . publice predicandam dabit Johannes Bernardus Basedow, Kiliae, 1752, Caput II : Méthodus erudiendae juventutis naturalis.

موائدهم ، والذين يتخذون من وقت مبكر عادة السكر . ولطالما كنا شهوداً لعسر هضم كان يعالج بطب هو أحياناً أسوأ من المرض .

يستطيعون أن يشربوا على المائدة كما يريدون ، ولكن يجب عليهم ألا يشربوا بين المائدتين . وينبغي أن يأكلوا اللحوم الشعبية التي تجعلهم أقوياء ويجب عليهم أن يتجنبوا الأطعمة التي تخرج منها عصائر تبل غدة المخ . ويجب أن يجلسوا إلى المائدة مع والديهم إلا إذا كان هؤلاء الأخيرون لديهم مدعوون .

ولا ريب أن هذا الجسم الذى يجب أن يراقب نموه ، ينال مرونة وقوة بوساطة التمرينات البدنية وبتربية الآباء أبناءهم هكذا على الإخشوشان، سيرونهم يقوون يوماً بعد يوم . ولقد نصح لوك بهذه الوسائل ، فلما أتت من انجلترا غزت البلاد الأخرى . وفى هذا يقول الأب پونسيليه : « هناك عالم إنجليزى وهو السيد لوك ، قد اقتحم كل هذه التفاصيل الخاصة التى أحترس من أن أقرها بحذافيرها ، لأن رقتنا الفرنسية وعُرْفنا ، لايتفقان مع كل أنظمته ونصائحه . ومع ذلك فإنه يذكر من تلك الأمور الحسنة ما يجعلنى ، على الأقل ، أحسب نفسى مضطراً إلى تبينها فى خطوطها العريضة عندما تسنح الفرصة[1] » .

وأما اختيار المربى فلن يترك إلى المصادفة ، لأن كثيراً من المحامد يجب أن تشترط فيه ، فينبغى له العلم والخلق والحزم والرزانة أى ينبغى له فضائل الحكيم .

وأما سير التربية فإنه يجب أن يتبع سير الطبيعة . ولكى يطيعه المربى ، حسبه أن يلاحظ كيف أن المعارف تدخل فى عقول الصبية ، وكيف أن الرجال أنفسهم يظفرون به . وفى هذا يقول لاشاتوليه : « إن الشعور

(1) Le Père Poncelet, Principes généraux pour servir à l'éducation des enfants . . . 1768. L. 3. première époque.

الأول هو المعرفة الأولى . . . وإذن فالمبدأ الأساسى لكل منهج حسن ، هو البدء بما هو مُحَس ، ثم الصعود تدرجياً ، إلى ماهو معقول . وبما هو بسيط للوصول إلى ما هو مركب ، والبدء بالتحقق من الوقائع قبل البحث عن الأسباب[1] » .

حقاً إن الأساتذة القدماء — ولم يكونوا حمقا — كانوا يعرفون تماماً أنه لا يعلم صبى فى السادسة ما يلائم شاباً فى السادسة عشرة أو فى العشرين . غير أن اتجاه عقولهم كان اتجاهاً قاعدياً ، وأن ماكانوا يفرضونه على جميع الأسنان ، كان هو القاعدة ، بينما أن أساتذة المستقبل يجب عليهم أن يتبعوا خطوة خطوة ، سير العقل الذى هو فى دور التكوين ، وسيلاحظون تفتحات ملكات الطفولة لإرضاء الملكات التى تظهر أولا وهى الاستطلاع ، وروح المحاكاة ، والذاكرة . وعندما يتعلق الأمر بالتاريخ الطبيعى ، هم يبينون لهم الأشجار ،والفواكه ،والطيور ،والحشرات . وإذا تعلق بعلم الكونيات فإنهم سيتحدثون عن النهار ،والليل ،والقمر ،والنجوم . وحين يتعلق بعلم الطبيعة سيبتدئون بتجارب ملهية . وعندما يتعلق باللغة اللاتينية لايبتدئون بالقواعد النحوية .

وهكذا ، يصلون ، فى بطء وتبصر ، إلى المعارف المجردة .

ومما هو جدير بالذكر أن التربية الحديثة سيصحبها الحب أيضاً . لأن الملاحظات العبوسة ، والتأنيبات المستمرة ، والقسوة والضجر الذى يصحبها ، تقزز النفوس الشابة ، بينما أن سرور التعلم والاحترام والمحبة التى يعرف الوالدون والأساتذة كيف يظفرون بها ، ستكون هى أيضاً أعواناً طبيعية ، على تربية سلك فيها خير المسالك . أما العقوبات البدنية التى كانت تطبق فى الماضى بسهولة ، فإنها ستهجر ، وهى لاتكاد تستعمل

---

(1) La Chatolais, Essai d'éducation nationale, 1763.

إلا فى بعض حالات متطرفة ، لأنه لا يمكن إدخال المعرفة بضربات السوط وإن العنف لا ينتج ألبتة سوى حقد أو تمرد .

وكذلك ينبغى أن تصير التربية وطنية . فالتعليم شىء ، والتربية شىء آخر ، وهذه الأخيرة هى الأهم كثيراً ، لأنها لو وجهت توجيهاً حسناً لأنتجت مواطنين . وهذه الفكرة التالية تتضح أيضاً بين كثير من الفكر التى تجيش فى الصدور ، وهى أن المدرسة يجب أن تتخذ طابعاً وطنياً . وفى هذا يقول هيلفيسيوس : « إن فن تكوين الرجال فى كل بلد ، هو مرتبط ارتباطاً وثيقاً بصورة الحكم فيه إلى حد أنه من غير الممكن إحداث أى تغيير ذى شأن فى التربية العامة ، دون إحداث تغيير فى نفس دستور الدولة[1] » . كما تكون الحكومة ، تكون التربية . ولا يمكن أن توجد تربية فى حكومة استبدادية ، والتربية يجب أن تصير شطراً من السياسة ، لأنها تكونها ، وهى مكونة بوساطتها .

ولقد كان من الممكن أن تضع الدولة يدها على التربية مغتبطة ، وكان الأب دى سان – پيير يقترح إنشاء مكتب دائم لتوجيهها تحت سلطة الوزير الذى تكون فى وزارته الشرطة العامة للدولة . ومعنى هذا باللغة الحديثة ، سكرتارية الدولة للتربية الوطنية الملحقة بوزارة الداخلية . ومن المسموح به أن يرى المرء شيئاً آخر غير التوافق المصادفى فى واقعة أن لاشاتوليه الذى نطق ، ضد اليسوعيين بالاتهام المعروف الذى طلب فيه ، قبل كل شىء ، أن تنتزع منهم مدارسهم ، يكون هو الذى نشر فى سنة ١٧٦٣ « محاولة على التربية الوطنية » .

وعنده أن الدولة يجب أن تمد الوطن بما تتطلبه ضروراته وأنها يجب عليها ألا تترك التربية لقوم لهم مصالح متباينة مع مصالح الوطن . وأن

---

(1) Helvétius, De l'Esprit, 1758. Discous 4, chap. 17.

المدرسة يجب أن تعد مواطنين للدولة ، وإذن فيجب أن تكون متعلقة بدستورها ، وقوانينها . وهى إلى الآن توجهها فكر تنسكية ، فأنا أطلب أن توجهها فى المستقبل ، فكر مدنية ، إذ أن الأمر لايتعلق بملء البلاد بالمدارس الإكليروسية والأديرة ، بل هو يتعلق بتكوين مواطنين . وإن الصالح العام ، والشرف الوطنى يقتضيان أن يعـد كل جيل ينشأ ، لأن يشغل بنجاح ، مهن الدولة المختلفة . ولقد كان لاشاتوليه — فى رسالته التربوية لما فى اتهامه — يقصد ماكان يدعوه « برزيلة الرهبنة[1] » .

وفى نفس الحقبة تقريباً ، كان الأمراء المصلحون ، يعملون ما كانت الدولة الحرة تعتزم فعله ، دون أن تنشغل بالنظريات كثيراً ، أى أنهم كانوا يتخلون من المدرسة ، إقليا مما هو تحت إدارتهم .

* * *

وبالإجمال إنه لا يوجد واحد من أنصار الحداثة لايتمنى التربية التقدمية ، بكل قوته .

إن مسألة إرضاع الأطفال من أمهاتهم ، ومسألة معرفة ما إذا كان ينبغى تفضيل المربى الخاص على نظام الحياة المشتركة فى المدارس ، ومسألة معرفة كيف يختار هذا الأستاذ المسئول إذا كان قد صمم على تفضيله ، ومسألة الحرفة اليدوية التى ينبغى تعلمها ، ومسألة تقدم التربية على التعليم ، كل هذه المشكلات قد ووجهت وعولجت عدة مرات . وكذلك عولجت تربية الفتيات . وكل هذه الفكر كانت تنتظر وتدعو وتتطلب العبقرية التى كانت على مقربة من أن تمنحها الحياة[2] .

---

(1) La Chatolais, ouvrage cité.

(٢) يقصد المؤلف بالعبقرية التى كانت كل تلك المشكلات التربوية تنتظرها وتدعوها وتتطلبها والتى كانت على مقربة من أن تمنحها الحياة ، عبقرية جان جاك روسو مؤلف كتاب « إميل » الذى قطعت آراؤه فى التربية فى ذلك الحين ، قول كل خطيب . (المترجم)

الفصل السابع

دائرة المعارف

كتب أحد النقاد سابقاً يقول : إن دائرة المعارف كانت عظمى شواغل العصر ، والغاية التى كان يتجه إليها كل ما سبقها ، والمركز الحقيقى لتاريخ الفكر فى القرن الثامن عشر . نعم إن هذا الجزم متطرف من وجهة النظر الأوربى ، ولكن من المحقق أن دائرة المعارف ــ وقد نشأت من نموذج إنجليزى ، وتلقت فى باريس ، صورتها النهائية ، ودعيت للهجرة إلى سوسرا ، وإلى بروسيا ، وسطعت على أشد البلاد اختلافاً ، ونقلت وقلدت فى كل مكان ــ هى إحدى القوى الممثلة لأوروبا .

كانت تريد فى الوقت ذاته علما وتعميما ، وذلك ما لم نعد نقره اليوم . وإذن فهى تمثل أولا حركة الإذاعة التى تتفق مع إرادة « عصر الأنوار » . وكما أن هذا الأخير ، فى محيط الفكر ، لا يخشى جمع فكرة الفلسفة بفكرة الشعب « فلسفة الشعب » ، (ذلك هو عنوان أحد كتب العصر) كذلك فى محيط المعرفة بدلا من إبعاد الأجانب ، هو يدعوهم ، لأن المضنون به ، والعسير ، والسر ليست مما يلائم ذوقه . وهذه الطريقة أيضاً تقتاد السير من أرستقراطية العقول إلى الطبقة المتوسطة المستنيرة التى تستولى على العالم أكثر من أنها تريد التغلغل إلى أسرار الأشياء . وفى هذا يقول جروتويسين : « إن الإنتاج الموسوعى هو استيلاء فلاسفة القرن الثامن عشر على عالم هو فى ذاته سيظل غير معروف ، وسيقبلونه كما هو ما دام أنهم يتخلون عن فهم حقيقته العميقة . وهم يقيدون أنفسهم فى حكمة ، بجمع الوقائع لترتيبها على أثر ذلك ، فى نظام موسوعى . وعندما يكونون قد نظموا ذلك الذى استولوا عليه ، سيرون عالم المحسات ، يتحول إلى شىء معروف أو إلى

مجموع من العناصر العلمية ، والوقائع الملحوظة ، أى إلى شىء يستولى عليه الإنسان ، وهو له . . . »[1] .

ولقد سجل أحد محررى صحيفة « مذكرات تريڤو » فى أغسطس من سنة ١٧١٥ الملاحظة التالية إذ قال : « يحب كل امرئ أن يكون عالما ولكنه يحاول أن يصير كذلك بثمن رخيص ، تلك هى عبقرية عصرنا » .

كانت هذه الملاحظة دقيقة ، ففى الواقع هل كانوا يريدون أن يتعلموا الهندسة دون أن يلاقوا كثيراً من المشقة ؟ والعلوم فى وقت قصير وبلا مساعدة أى أستاذ ؟ واللاتينية وهم يلهون ؟ والقواعد النحوية فى سرعة وبطريقة لذيذة ؟ وفى كل مرة كانوا يظفرون بما يريدون ، لأن هناك كتباً ظهرت حديثاً كانت تعرض عناوين مغرية مثل : « الرياضة صناعة هينة » ، أو « منهج جديد به يستطيع المرء أن يصير عالماً بلا أستاذ ، وبلا دراسة ، وبلا مشقة » .

كان هـــذا الاتجاه ثابتاً لا يتغير . وبعد أربع وثلاثين سنة كتبت « صحيفة العلماء » بدورها فى نوفمبر من سنة ١٧٤٩ ما يلى : « يحب الناس أن يعرفوا ولكنهم يريدون أن يتعلموا بلا مشقة وفى قليل من الوقت وذلك بلا ريب هو سبب المناهج المتباينة التى تقدم فى كل يوم ، وهو السبب الذى من أجله نرى هذه الكثرة من المختصرات » .

وفى الواقع كان الناس يرون مختصرات من كل نوع ، « وفكرا » منتزعة من منتجات مؤلفيها حين تكون تلك المنتجات وفيرة . وكانوا أيضاً يرون « تحليل بيل » و « عبقرية مونتيسكيو » ولا أدرى كم كتاب عنوانه « روح كذا . . . » وفى هـــذا يقول جريم : « إن السيد دى بلانقيل — وهو شاب موسيقى يعلق عليه شىء من الأمل — قد نشر آنفاً كتابه

---

(1) B. Groethuysen, L'Encyclopédie, dans le Tableau de la littérature Française, 17ème et 18ème siècle, 1939.

« روح الفن المسيقى » ولا غرو ، فهذا العنوان كان إحدى بدع العصر فقد كان عندنا من قبل ، « روح الأمم » و « روح الفنون الجميلة » و « روح مونتيني » و « روح فونتينيل » وما إلى ذلك . وقد ظهر عندنا آنفاً « روح اليوم » ولا أجرؤ أن أتحدث عن « روح القوانين » ويبدو أنه كان يراد استخلاص جوهر ، أو روح كل شيء »[1] :

وكانت هناك « أوراد » ، ومجموعات وقواميس — ولو أريد إنشاء تاريخ لهذه الأخيرة ، لوجب بيان التغير التقدمى ، فنى عهد النهضة كانت توجد قواميس اللغات القديمة لذوى الثقافات الأثرية . وفى القرن السابع عشر قواميس اللغات الوطنية لاستعمال طبقة ذوى اللياقة . وبعد ذلك قواميس تاريخية ونقدية . ولكن الذى كان يطلب إذ ذاك هو من نوع آخر أى قواميس للفنون وللتجارة وللجغرافيا : وكان المرغوب فيه قاموس يحتوى كل القواميس الأخر ، ويكون أهلا لإرضاء شره المعرفة الذى كان يهيج العقول . وكان المثل الأعلى لهذا القاموس ، أن يكون عالمياً وسهل الحمل ، وإذا كان هـــذا مستحيلا ، وكان ثقيلا فليكن ذلك ، ولكن ليكن عالمياً .

أما إفرهيم شامبيرس — وكان أسعد من أسلافه — فقد جمع المعارف العالمية فى مجلدين من القطع الكبير عنوانهما « دائرة المعارف أو قاموس عالمى للفنون والعلوم » وهو الذى أتى له بالشهرة والفائدة والمجد بعد موته ، بأن دفن فى ويستمنستير ، إلى جانب عظماء الإنجليز الذين كانوا قد استحقوا تقدير وطنهم .

كان جريم — وهو الذى كان مكلفاً بكتابة التقارير عن كل هذه المنتجات — يتذمر كما هى عادته ، وكان يقول ، إنه لشىء مزعج أن يرى المرء إلى أى حد يتضاعف الكيميائيون الأدباء ، وإنها لديدان فراش تلك

---

(1) Grimm, Corresp. litt., 24 Sept. 1754, t. 2, pp. 187—188.

التى تقضم شجرة الأدب ، والتى تأكلها على هذا النحو إلى أصولها وفى الحق أنه لم يكن يفهم التغير العقلى الذى كان يجرى تحت بصره . وأنه لم يعد موجوداً ذلك العصر الذى كان فيه الميتافيزيقى متركزاً فى نفسه ، وكان فى ظلمة حجرته يحاول أن يتغلغل إلى سر الكائن . ولا ريب أن هذه العملية — وهى أشد صعوبة فى نجاحها من استكشاف « حجر الفلاسفة » — كانت قد هجرت ، أو تركت إلى حالمين غير قابلين للإصلاح . أما الآن فقد كان الناس يتجهون إلى استكشاف عالم الظواهر ، هـذه الظواهر التى صارت هى الحقيقة الواقعية الوحيدة . وذلك كما لو كان بحارة الماضى قد ضيعوا مجهودهم ، بهيئة جنونية ، فى إرادة معرفة أعماق المحيط ، وكما لو كان بحارة اليوم — وهم أشد حكمة من الأولين — يكتفون بإنشاء الخريطة النافعة للرياح والصخور والطرق والمرافئ . وكان ينبغى أن يأخذ كل فرد نصيبه من الحادثة الجديدة العظمى ! وأن يشعر كل فرد على الأقل بفائدتها ! وهى أن العلم سيكون فى متناول كل فرد ، أى أنه يكون على رفوف : ا — ب — ج — د . وإذن فدائرة المعارف قد طلبتها وأمرت بها روح العصر نفسها .

ذلك هو ما كان يفهمه دالامبير ، وأكثر منه أيضاً ديديرو الذى كان يفهم كل شىء . إذ كانا كلاهما يعترفان بأن المناهج ، والعناصر ، والمختصرات كانت تتكاثر باضطراد ، وأن القواميس كانت موفورة إلى حـد أنه كان يجب تسويغها أكثر من الثناء عليها . وتلك ظاهرة كانا يعللانها بفائدتها المحسوسة . وكانا يقبلان التطور الذى بدأ ، ويريدان أن يصلا به إلى حده ، وكانا سيستقبلان رجال القصر ، والضباط والأشراف والنساء أيضاً ، وهم جميعاً يطلبون أن يتعلموا ، بل إنهما كانا سيستقدمان إليهما كل هؤلاء القراء المتعطشين . وكانا سيعالجان العلوم والفنون بطريقة تفرض أن ليس هناك أية معرفة أولية . وكانا

سيعرضان ما كانت معرفته هامة فى كل مادة ، ولا أكثر من ذلك . وكانا سيمحوان مصاعب قائمة الاصطلاحات لكى لا تكون مربكة فى أى مكان . وكانا سيترجمان النصوص التى ستكف عن أن تكون هيروغليفية . وكانا سيكتبان مؤلفاً يمكن أن يحل محل مكتبة فى جميع الأنواع بالنسبة إلى رجل الطبقة العالية وفى جميع الأنواع بالنسبة إلى عالم محترف ، فيكون حسبه حركة لتناول الكتاب ، وبضع ثوان للبحث عن الكلمة ، وعندئذ سيصير أجهل الناس ، أكثرهم تعلما . ويعرف الكل تلك النكتة التى تخيلها ڤولتير لتصوير هذا المشروع إذ قال :

بينما كان الملك لويس الخامس عشر يتعشى فى قصر تريانون بڤيرساى فى صحبة قليلة وكانوا يتحدثون عن الصيد وعن البارود ، إذ بهم يلمحون أنه لا يعرف أحد منهم بالضبط من أى شىء يتكون البارود ، وأن مدام دى پومپا دور ، لم تكن تعرف من أين تأتى الأصباغ الحمر التى تزين بها وجنتيها ، ولا كيف تصنع الجوارب الحريرية التى تلبسها ولكن هذا الجهل كان له دواؤه ، فلم تلبث الإشارة أن صدرت ، وسرعان ما أحضر الخدم مجلدات دائرة المعارف ،واستعلم الحاضرون عن البارود والأصباغ ،والمناول التى تنسج عليها الجوارب . وعلى أثر ذلك انقض كل واحد من الحاضرين على المجلدات انقضاض بنات ليكوميد على حُلى أوديسوس . وفى نفس اللحظة التى بما كان يبحث عنه ، ففيها وجد الخصوم النتائج الحاسمة لقضاياهم ، وفيها قرأ الملك حقوق تاجه ،وفيما كان الحاضرون مستمرين فى القراءة ، قال الكونت دى ك . . . بصوت عال : « مولاى ، إنك لجد سعيد بأن يوجد فى عهدك رجال قادرون على معرفة جميع الفنون وعلى نقلها إلى الأجيال القادمة إذ كل شىء هنا منذ طريقة صنع الدبوس إلى طريقة سبك مدافعك وتصويبها ، أى منذ اللامتناهى فى الصغر إلى اللامتناهى فى الكبر . . . »

* * *

لا جرم أن أوروبا ، بدائرة المعارف ، كانت ستفتح كتاب حساب جديد ، ففى الواقع أن كتاب القـــديس توماس الإكوينى الذى عنوانه « مجموعة لاهوتية فيها وضح المذهب العام للكنيسة الكاتوليكية »
"somma theologica in qua Ecclesia catholicae doctrina universa explicatur" كان فيما يرى الفلاسفة ، هو الماضى ومصيره النسيان . بينما أن دائرة المعارف أو « القاموس المتعقّل للعلوم والفنون والمهن ، تأليف جمعية من الأدباء » كان بمثابة الفجر والنهار . وفى هـــذا كان الفلاسفة يكتبون بلغة الأمر ، أنه ينبغى إجراء جرد عام لما عرف ، ولهذا كان ينبغى اختبار كل شىء ، وزلزلة كل شىء بلا استثناء ، وبلا مراعاة ، وأن تداس بالأقدام تلك الصبيانيات العتيقة ، وأن تحطم الأوثان التى كان العقل يستهجنها ، وأن توضع على الضد من ذلك ، إشارة مجد على القيم الحديثة :

كان أبناء العصر يريدون أن يكونوا أحراراً ، وبهذا فإن منتجاتهم لن تكون من عمل الأمير ، ولن تشبه تلك المشروعات الرسمية التى تسير فى بطء إلى حد أن تكون متأخرة عن تطور الاعتقادات ولن تكون مشروعاتهم مدينة لحكومة معينة وستستغنى عن مساعدات كل مجمع ، إذ أن المجمع هو دائماً جماعة ضيقة ، وإن عاطفة حسن الاستعداد المتبادلة ، والصالح العام هما وحدهما اللذان يجمعان المتعاونين .

لم يكن أبناء العصر يريدون أن يكونوا ملهين ولا هواة ، ومن ثم فإن دائرة المعارف لم تكن تحتوى شيئاً من الحشو ، ولا مما انقضى زمانه ، وإنما كل ما فيها سيكون حياً ، ولن يكتفى فيها حتى بالشرح ولا بالوصف ، بل إن هناك رسوماً ولوحات ستبرز الصور المادية للعمل المتواصل الذى يخلق المدنية .

وكان أبناء العصر يريدون أن يكونوا بنائين ولن يتركوا أنفسهم

يحيدون عن غايتهم بتلكئهم فى الماضى ، ولو كان ذلك لقصد تبين الأخطاء التاريخية واحدة إثر واحدة ، كما فعل بيل ، ولكنهم بالحرى كانوا يشغلون بجمع المواد الضرورية للوطن .

وسيكون أبناء العصر أوفياء لإلهيهم : « العقل والطبيعة » . أما اليوم — ونحن نشاهد أن الفلسفة تتقدم بخطوات واسعة ، وأنها تخضع لسلطانها كل موضوعات محيطها ، وأن صوتها هو الصوت السائد وأن الناس قد بدأوا يتخلصون من نير السلطة والمثل المحتذى ، ليتمسكوا بقوانين العقل ، وإنه لايكاد يوجد كتاب أولى ودجماطيقى ، يمكن أن يرتضى تماماً ، لأن المرء يجد تلك المنتجات منسوخة من منتجات الأناسى لامن حقائق الطبيعة . وقد أصبح الناس اليوم يجرؤون على أن يثيروا بعض الشكوك حول أرسطو وأفلاطون ، وقد أتى الزمن الذى يرى الناس فيه أن المؤلفات التى لا تزال تستمتع بأسمى أنواع الشهرة ، ستفقد جزءاً من تلك الشهرة ، بل ستهوى كلها فى النسيان ... وتلك هى ثمرة التقدم والعقل .

ولا ريب أن النتيجة إذ ذاك ستكون عظيمة ، لأن أحداً لايستطيع أن يعترض من جهة ، بأن القاموس الآن ليس فى مستوى العصر ، ومن جهة أخرى أنه حتى لو اختفت جميع الكتب فى إحدى كوارث الطبيعة وبقى هو ، فلن يضيع شيء ، وستكون المعرفة البشرية قد أنقذت .

وعندما تحققت لديهم تلك الفكرة الواضحة عن مثلهم الأعلى وجمعوا المعارف المنتشرة على وجه الأرض لكى يعرضوا نظامها العام على معاصريهم ، وينقلوه إلى من سيلونهم ، بحيث إن أخلافهم بصيرورتهم أكثر تعلماً ، يصيرون أكثر فضيلة وسعادة ، فإنهم — بدلا من أن ينزعجوا من ضخامة المهمة — قد ثملوا بفكرة هذه الحصيلة التى لاتتناهى .

من ذلك أتت الحماسة الأولى ، والتصريحات الجريئة ، والوعود والدعوة المرسلة إلى من يحسب حسابهم فى جمهورية الآداب والعلوم . ومما لاريب

فيه أنه لم يكن حب المال هو الذى كان يحرك ديديرو ودالامبير ، عندما وضعا نفسيهما على رأس ذلك المشروع . ولكنهما بالحرى كانا يقودان حملة عقيدية وهى حملة الفلاسفة[1] .

من هذا نشأ الانتظار الأعظم والارتجاف ساعة نشر التعريف بذلك القاموس فى أكتوبر من سنة ١٧٥٠ ، وظهور المجلد الأول منه فى يوليو من سنه ١٧٥١ . ومن هذا نشأت الجماعة المعارضة من الخصوم الذين لم يلبثوا أن يشيروا إلى الخطر . ومن هذا أيضاً أتى الانفعال الذى انتشر عندما توقف النشر فى المرة الأولى ثم فى المرة الثانية . ومن هذا كذلك وقعت الأحداث المعروفة تفاصيلها إلى حد أننا لسنا فى حاجة إلى العودة إليها . ولقد وجد على الأخص اليوم الأليم الذى أحس فيه ديديرو بأن ليبريتون تاجر الكتب كان يشوه مقالاته سراً ، فجعل يقول : « لقد جرحت جرحا سينتهى بى إلى الرمس » . وأخيراً وفى يناير من سنة ١٧٦٦ أعلن صمويل فوس النوشاتيلى — بحيلة تظاهر الرأى العام الأوروبى بأنه قبلها — أن المجلدات الثامن وما بعده ، قد طبعت فى سوسرا ، وأنها تحت تصرف المشتركين .

قد يكون أنه لو لم تكن كل هذه المصاعب ، وتلك المعارك ، وذلك الانتصار النهائى الذى لم يكن انتصاراً إلا بشرط ألا يظهر كذلك ، لكان من الممكن أن تظفر دائرة المعارف بأهمية أقل ، لأن صفة فاجعية قد ظلت مرتبطة بتاريخها . إنها كافحت ضد القديم من حيث الفكر والقوى كما يقول النص اللاتينى : « إن الحياة الجديدة تبتدىء » "Incipit vita nova"

* * *

لاجرم أن قاموساً يكون قاعدياً ، ويعرض نظام المعارف البشرية

---

(١) عبر المؤلف هنا بكلمة « الحرب الصليبية » وأراد الحملة الفلسفية إيماءا إلى رابطة العقيدة الذى كان هو الدافع للقائمين بالحرب الصليبية وهو الباعث لمثيرى الحملة الفلسفية .

(المترجم)

وتسلسلها ، كان يبدو رأياً غريباً فى أى زمن آخر غير القرن الثامن عشر ، لأنه كيف يمكن التوفيق بين التحليل المشوش الذى يفرضه النظام الأبجدى ، والتأليف الذى كان ذلك العصر يحلم به . نعم إن شامبيرس قد حاول ذلك ، ولكن دائرة المعارف الفرنسية قد ربطت مجدها بالنجاح فى هذا التأليف على وجه أفضل .

أى مبدأ كان يجب أن يرتب هذا النظام وأن يصطنع هذا التسلسل ؟ هل كان ينبغى اعتبار الفكرة اللاهوتية ؟ كلا لأن اللاهوت لم يظفر ، بين مراتب العلوم ، إلا بمنزلة ضئيلة لم تلبث هى نفسها أن تجزأت إذ أن اللاهوت قد قسم إلى قسمين ، اللاهوت الطبيعى الذى ليس فيه من المعرفة الإلهية سوى المعرفة التى ينتجها العقل ، وهى لهذا ليست ذات شمول كبير ، واللاهوت الموحى به ، ولكن هذا الأخير ليس شيئاً آخر غير العقل مطبقاً على الوقائع الموحى بها . ويمكن أن يقال إن اللاهوت مرتبط بالتاريخ عن طريق الاعتقادات التى يعلمها ، وبالفلسفة عن طريق النتائج التى ينتزعها من هذه الاعتقادات . وبعبارة أخرى إن اللاهوت — حين يتعلق بالعقل ، أو حين لايكون إلا تاريخياً أو فلسفياً — كان يتخذ صورة ملكة أطيح تاجها . وإذن فالعلوم لاتنتظم حسب صلاتها باللاهوت .

وبالتالى كان ينبغى — على الضد من ذلك — أن تسود واقعة الوجود الإنسانى مادام أن كل الملأ الأعلى قد أقصى ، وكان ينبغى الجزم بصدارة الإنسان ، وأن تنظم العلوم حسب علاقتها بنمو سيكولوجيته ، فنى الواقع أن الإحساس يعلمنا بوجودنا وبوجود الأناسى الآخرين أمثالنا ، وأن المجتمع والأخلاق ، والدين تنشأ شيئاً فشيئاً ، وأن من الجلى أن الفكر العقلية المحضة عن الرذيلة والفضيلة ، وأن مبدأ القوانين وضرورتها ، وروحية النفس ، ووجود الإله ، وواجباتنا نحوه ، وبالإجمال إن الحقائق التى نحن فى حاجة إليها هى ثمرة الفكر المتأملة التى تسببها أحاسيسنا . ومن جهة

أخرى إن العناية بتجنب الألم ، وبالتنقيب عن اللذة ، وإن ضرورة الاحتفاظ بأجسامنا ، تضطراننا إلى توقى الآلام التى تهددنا ، أو التداوى من الآلام التى أصبنا بها ، وتدعواننا إلى استكشافات خاصة أو جماعية . ومن هذا نشأت الزراعة والطب أول الأمر ، وأخيراً أشد الفنون ضرورة على الإطلاق . وإذن ــ سواء أتعلق الأمر بالنظرى أم بالعملى ــ فإن الإنسان هو الذى قد نظم هو نفسه معرفته وحياته . وما دام الأمر كذلك فقد وجد مبدأ التسلسل الذى يكفى عرض تفاصيله ، وفى هذا يقول دالامبير : « ينتج من كل ماقلناه إلى هنا أن الطرق المختلفة التى تعمل بها عقولنا فى الأشياء ، وأن الاستعمالات التى تنتزعها من تلك الأشياء نفسها ، هى الوسيلة الأولى التى تتقدم إلينا لنميز بها فى العموم ، بعض معارفنا عن البعض الآخر . وكل مافى هذه المعارف ، يتصل بحاجاتنا ، سواء أكان ذلك عن ضرورة مطلقة ، أم عن لذة ، بل سواء أكان ذلك عن عادة أم عن هوى » .

لم يتخذ دالامبير ، أمام مجموع المعرفة ، نفس الخطة التى يتخذها بوفون أمام الطبيعة فحسب ، بل هو ينضم إلى پوپ[1] ، وإلى ليسينج[2] عندما يعلن معهما أن « أنبل موضوعات الدراسة لدى الإنسان هو الإنسان » .

ومع ذلك فهل يمكن أن يوجد مبدأ آخر للربط يكون أكثر إنسانية إذا أمكن هذا التعبير ؟ فى الحق أن النمو التقدمى لأحاسيسنا وتأملاتنا ، يسمح بتدخل ظروف أجنبية عنا ، لأن تاريخ كسبنا الذى أمرت به حاجاتنا لايمثل أمامنا حسب خط متواصل ، إذ يمكن أن تعترضه عقبات أو أن تقطعه توقفات ، وهو يشبه طريقاً ملتوياً ، أو متاهاً ، أكثر مما يشبه خطاً مستقيماً ، لأن الإنسانية تدور فى دائرة أحياناً ، وترجع إلى الوراء أحياناً

---

(1) Pope, Essay of Man, Epistle, II.

(2) Lessing, Oeuvres, éd. Hempel, 18, p. 25.

أخرى ، وأن العلوم يقتحم بعضها محيط البعض الآخر ، وأن أحدها يكون متقدماً والآخر يكون متأخراً . وأنه ينتج من ذلك بعض الفوضى والتعقيد العظيم . وينبغى لذلك وجود مرشد أوضح وأسرع وهو التالى .

يلاحظ اليوم ، كما لوحظ بالأمس ، وعند الپاريسيين كما عند الهوتانتو[1] أنه يوجد لدى الإنسان ثلاث ملكات رئيسية وهى الذاكرة ، والمخيلة ، والعقل . وستكون تلك هى التقسيمات الثلاثة للنظام الموسوعى ، فالذاكرة تخلق التاريخ ، والعقل يخلق الفلسفة ، والمخيلة تخلق الفنون الجميلة . والتاريخ والفلسفة والفنون الجميلة ، تنقسم بدورها إلى أقسام . وأخيراً إن دائرة المعارف ستتطابق مع هذه الوجهة الثانية لأنها وجدتها أكثر بساطة مما كانت عليه وجهة النمو التقدمى لنفوسنا .

هناك إشارات مسجلة بعد كل كلمة من القاموس تسمح بربط الورقة بالفنن ، والفنن بالغصن ، والغصن بالساق المركزية التى تظل هى الواقعة البشرية الأكثر بساطة وهى وجود الملكات الإنسانية . ومن ثم فإن الأستاذين العظيمين أى أستاذى الفكر والعلم الأوروبيين — وهما لوك وبيكون — قد طبعا توجيههما على صفحة الفكر المنظم لدائرة المعارف .

وعندما قرأ الناس الخطبة الافتتاحية للقاموس صاحوا قائلين : « ماذا ! لم تعد المعرفة تأتى من جانب الإله أو القانون الإلهى لم يعد هو قاعدة الأخلاق ! وذلك رغم أن دالامبير قد منح الموجود الأسمى بضعة سطور حيث قال : إن اتحاد النفس والبدن مضافاً إلى التأملات التى نحن مكرهون على القيام بها حول مبدأى الروح والجسم ، تينك المشكلتين الأبديتين ، كل ذلك ينتهى بنا إلى فكرة وجود عقل تام القوة ، بل إنه قد تحدث عن ضرورة دين موحى به يسد مسد الملحق للدين الطبيعى :

---

(١) هم سكان أفريقيا الجنوبية ويضرب بهم المثل فى التأخر والوحشية ولذلك وضعه المؤلف قبالة الپاريسيين إيضاحا للضدية . (المترجم)

وعلى الرغم من أن هذا التعبير بكلمة الملحق ، يخلع على تصريحه طابع عدم الاحترام ، وبالرغم من أنه يلوح عليه أنه يقول إن الحقائق المبلغة بوساطة ذلك الدين الموحى كانت لاستعمال الشعب لا للحكماء فإنه على الأقل كان يحتفظ ببعض المراعاة ، أو يتخذ بعض الاحتياطات . بينما أن ديديرو سيبدو أكثر صراحة ، عندما سيصل إلى مادة « الموسوعة » من القاموس ، فإنه سيتولى الدفاع عن المنهج الموجه للكتاب ، وفى عزم قوى سيضع الإنسان فى مركز الكون العام إذ يقول : « إذا أقصى الإنسان أو الكائن المفكر والمتأمل من فوق سطح الأرض ، فإن منظر الطبيعة المؤثر السامى لايكون إلا محزناً وأبكم ، فيصمت الكون ويستولى السكوت والضجر . ويتحول كل شىء إلى عزلة شاملة حيث تمر الظواهر غير الملحوظة ، بطريقة غامضة وصماء ، لأن حضور الإنسان هو الذى يجعل وجود الكائنات ذا أهمية ، وما دام الأمر كذلك فماذا يستطيع المرء أن يعتزم فى تاريخ هذه الكائنات . خيراً من أن يخضع لذلك الاعتبار ؟ ولماذا لاندخل الإنسان فى مؤلفنا على هيئة وضعه فى الكون ؟ ولماذا لانتخذ منه مركزاً مشتركاً ؟ » .

قالت التوراة إن الإله خلق بديا ، السماء والأرض ، وبعد أن خلقهما كون الإنسان ، ولكن ديديرو ، عندما وصل إلى تعريف الإنسان ، تناسى التوراة ، وأهمل الإله إذ قال :

« الإنسان اسم مذكر ، وهو كائن حساس متأمل مفكر ، يسير فى حرية على سطح الأرض ، ويبدو أنه على رأس جميع الحيوانات الأخر التى يسودها ، وهو الذى يعيش فى جماعة ، والذى اخترع العلوم والفنون ، والذى لديه خيرية وشرية خاصتان به ، والذى اتخذ له سادة ، واصطنع لنفسه قوانين وهلم جراً . . . »

* * *

ولقد اعتبر الناس أحياناً كشيء جديد تلك المنزلة العظمى التي منحتها دائرة المعارف للفنون والمهن عندما وعدت بأن تقدم عن كل علم وكل فن — سواء أكان عقلياً[1] أم ميكانيكياً — المبادئ العامة التي هي أساسه والتفاصيل الأكثر جوهرية ، والتي تؤلف جسمه ومادته . وهي بهذه الطريقة تقدم في الوقت ذاته مرشداً للتنفيذ ، وعرضاً منهجياً لمعارفنا . وكان ذلك طموحها الثاني .

ولا ريب أن الدهش من هذه الشواغل يكون هو الجهل بأحد الميول العصرية التي رسمت طريق المستقبل ، على أكثر الصور مباشرة كما سيكون نسياناً لطلائع هـذا الاتجاه كديكارت الذي كانت نصائحه ترمى إلى أن تبنى — في المدرسة الملكية ، أو في الأماكن الأخرى المعدة للكافة — قاعات مختلفة كبرى للصـناع ، وأن يضاف إلى كل قاعة ، حجرة مملوءة بجميع الآلات الميكانيكية الضرورية أو النافعة للفنون التي كان يجب أن تعلم فيها ، وكليبنيز الذي كان يعد مشروع نوع من العرض العـام الذي كان من الممكن أن يكون فيه ملاه وألعاب وراقصون على الحبل ، وبهلوانات ورجل يأكل النار ، وخيول راقصة ، وغرائب أخرى معدة لاجتذاب الجمهور ، وكان هذا الجمهور سيتعلم في الوقت ذاته كيف يعرف أدوات تقدم العلوم أي مجموعات التاريخ الطبيعي ، والحجرة المظلمة ، والتجارب على الماء والهواء والفراغ ، والاختراعات ، والآلات الميكانيكية .

وكان كتاب لوك « محاولة على العقل البشري » من قبل قد أفسح مكاناً لعلم الميكانيكا إذ يقول : « من الميكانيكا مهما تكن حمقاء ومحتقرة

---

(١) يقابل المؤلف هنا كلمة الميكانيكية بكلمة الحرة libéral ونحن لا نجد مسوغا منطقيا لهذه المقابلة ولهذا قابلنا الميكانيكية بالعقلية ، اللهم إلا أن تكون كلمة الحرة هنا بمعنى « الإرادية التي تقابل الآلية وهذا لا بأس به . (المترجم)

(لأن هذا الاسم مغضوب عليه فى العالم) أقول من الميكانيكا التى يزاولها قوم ليسوا من ذوى الثقافة ، تأتينا الفنون النافعة فى الحياة إلى حد بعيد ؛ والتى يزداد كنا لها فى كل يوم » .

ومن قبل أيضاً كانت هنالك قواميس قد أعلنت عن طريق عناوينها ، أنها ستنشغل بالفنون والعلوم ، بل إنها ستصير اصطلاحية . وأخيراً كان هناك من قبل أيضاً ميكانيكيون مهرة ينشئون آلات تتحرك من نفسها ، كفوكانسون الذى قدم إلى المجمع العلمى صنيعه الآلى « الموقع على الناى » بينما كان كامبيلين فاركاس المختارى يصنع « الرجل الذى يتكلم » .

ولكم كان أهل ذلك العصر يخترعون إذ ذاك من آلات عجيبة ! آلات النسيج تسير بسرعة إلى حد أن مصانع الخيط لم تعد تكفى لأن تورد إليها الخيوط اللازمة ، ثم آلات للغزل تصنع الخيوط بكثرة إلى حد أن آلات النسيج لم تكن تصل بعد إلى استعمالها ، وآلات تستعمل الفحم الحجرى لتذيب المعادن الممتزجة بالأحجار . وأخيراً أعجب الآلات ، وهى الآلات التجارية ، ففى الواقع أن جون كيه فى سنة ١٧٣٣ قد اخترع المكوك ، وفى سنة ١٧٣٨ نال جون ڤيات ولويس پول براءة آلة النسيج ، وفى سنة ١٧٦١ بدأ جيمس وات تجاربه . وفى سنة ١٧٦٧ وجد ضالته وفى سنة ١٧٦٨ نال براءته بدوره . وهكذا بدأت الآلات فى أوروبا القرن الثامن عشر ، تحل محل الأناسى ولم تحدث فى تاريخ نوعنا أية واقعة أكثر إثقالا بالنتائج من هذه الواقعة .

وإذن فدائرة المعارف كانت تلدون فى وسط حركة عامة ، هى تثيرها وتمنحها رفعة . إنها ستعرف كل قدائها بتلك الفنون الميكانيكية التى كان المفكرون الخُلَّصُ يجهلونها ، أو يحتقرونها فى العصر الذى كانت فيه الميتافيزيقية وحدها تبدو جديرة بتأملهم ، فكان المساهمون فيها يدخلون الحوانيت ، أو يذهبون إلى المصانع فيرون كيف يكسو المجلد مجلداته ، وكيف يصنع النجار صناديقه ، وكيف ينفخ الزجاج فى زجاجه ، وكيف

يهاجم المعدنى فحمه . ولا غرو فإن ديديرو — وهو ابن صانع سكاكين فى مدينة لا نجر — قد تعهد بنوع خاص بأن ينظر ويستجوب ، وكان يحضر معه رسامين ليصوروا أبسط القطع قصد الانتهاء إلى أكثر الآلات تعقداً .

وفى الحق أن هذا التحول الفكرى الذى كان يتجه نحو الفنيات ، لم يكن له بد من أن يصطحب معه تغييراً اجتماعياً لأنه عندما ترتفع قيمة الفنون الميكانيكية يجب منطقياً اعتبار حالة الذين يزاولونها أكثر ارتفاعاً . ودائرة المعارف تشهدنا هذا الترتيب الجديد للقيم إذ تقول : « إنكم لن تحتقروا الصناع بعد اليوم ، فهم أقراننا بل هم أرفع منا ، فمن أين كان يأتى إزدراؤكم ؟ قد يكون ذلك آتياً من حقد مبهم ولا شعورى ، ففى الواقع أن ذلك التفريق البدائى كان مؤسساً على القوة ، ثم استبدل بتفريق متفق عليه ، أسس على سمو العقول ، ومن ثم فإن العقول تثأر لنفسها من الانتصار القديم الذى أحرزته القوة البدنية . إن احتقاركم قد أتى من فكرة زائفة ، إذ كان الناس يعتقدون أنهم حين كانوا يزاولون ، بل حين كانوا يدرسون الفنون العالية ، كانوا يسفون أو ينحطون إلى أشياء ، بحوثها شاقة ، وتأملها وضيع ، وعرضها عسير ، والاتجاه فيها مخل بالشرف ، وعددها غير قابل للإحصاء ، وقيمتها ضئيلة . . . وكان ذلك وهما يتجه إلى ملء المدن بمتعقلين متكبرين ومتأملين غير مفيدين ، وملء القرى بطغاة صغار جاهلين عاطلين مترفعين » . وإذا كان حقاً أن الفنون العقلية تفوق الفنون الآلية بسبب العمل العقلى الذى تتطلبه الأولى ، وبسبب صعوبة الإجادة فيها ، فإن من الحق أيضاً أن الثانية تفوقها بسبب فائدتها . وأن أولئك الذين نحن مدينون لهم بإتقان الساعات ، هم متساوون فى الاحترام مع الذين أدخلوا الكمال فى علم الجبر » . أو هى تقول أيضاً فى قوة أعظم : « ضعوا فى إحدى كفتى الميزان ، الفوائد الواقعية لأسمى العلوم ، وأشرف الفنون ، وفى الكفة الأخرى ، فوائد الفنون الآلية ، فإنكم ستجدون أن

الاعتبار الذى قدم إلى الأولى والذى قدم إلى الثانية ، لم يكن قد وزع حسب علائق كل منهما بفوائده ، وأنه قد أثنى على الرجال الذين انشغلوا بدفعنا إلى الاعتقاد بأننا سعداء . أكثر من الرجال الذين انشغلوا بتحقيق أن نكون سعداء فى الواقع » .

وإذن فالرغبة فى أن يكون المرء سعيداً ، وفى أن يكون سعيداً على الفور كانت تعود تحت هذه الصورة ، وتعود دائماً فيقال مثلا : إن الشرف هو لمن يساهمون فى تحقيق السعادة الأرضية . وإن أداة السعادة ستكون هى التقدم المادى ، وإن التجربة تتطلب نقل درجات التشريف التى كانت تتجه من النظر إلى العمل ، أو من التفكير إلى الفعل ، أو من المخ إلى اليد .
وعندما كان ديديرو يناصر الفنون الآلية ، كان وفياً لمذهبه ، وللفكرة التى كان يقتسمها مع إخوانه ، ولروح فلسفة العصر .

* * *

مما لا ريب فيه أن دائرة المعارف لها عيوب كثيرة تُرى بهيئة أفضل ، من يوم إلى يوم : فمنذ البدء كان خصومها يتهمونها بأنها أجرت استعارات واسعة غير معترف بها من الكتب السابقة التى كانت تستعمل فيها المقص وكانت تلك التهمة حقيقية . وكانوا يتهمونها أيضاً بأنها أفلتت كثيراً من الأخطاء ، وبضع حماقات ، ولم يكن ذلك باطلا ، لأن المتعاونين فيها كانوا من كل نوع ، فهناك بعض العباقرة كان وعدهم بالمعاونة أيسر من إنجازهم ذلك الوعد ، وكثير من الكتاب الخاملين كانوا يمنحون مايستطيعون ، ولكنهم لم يكونوا يستطيعون شيئاً ذا بال . ومن هذا نشأ تباين جلى فى درجات المقالات . وهناك تباين أيضاً فى المذهب الذى هو غالباً متناقض . وفوق ذلك فإن ديديرو — وكان ملهماً جديراً بالإعجاب — لم يحسن دائماً مهنته كسكرتير للتحرير ، وكان ينبغى له صبر طويل ، وقد أفلتت منه تكرارات ، ولم يلحظ بعض الثغرات .

على أنه بقدر ما كان العمل يتقدم ، لم يكن هو الذى يحتمل العبء ، وإنما كان هو إيلى دى جوكور . وكان جوكور ينشغل بتحقيق وحدة المذهب أقل من انشغاله بدفع العمل خلال جميع العقبات . وبتقديمه مخطوطات إلى الطابع الذى كان يستحث عليها .

ولكن لنكتف بإيجاز قائمة النقائص ، ولنتجه إلى الجوهرى ولنحكم على للموسوعيين ، فالقاموس الجيد مثلا يجب أن يغير الطريقة العامة للتفكير فهل غيروها ؟ .

لاريب أن مقال كذا أو كذا هو أورثوذكسى تماماً . وعندما يقرؤه المرء يميل إلى أن يقول ما كتبه الأب الإيطالى زيوروزى فى سنة ١٧٧٩ فقال : « أما أنا فإنى بعيد عن رأى أولئك الذين يعتبرون الموسوعيين جمعية من الكفار ، بل إننى أنصح لهم بأن يقرؤا المقال الذى عنوانه « المسيحية » وبضع مقالات أخر من نفس النوع ، فإنهم سوف لايجدون الدين فيها محترماً فحسب ، بل مدافعاً عنه فى قوة » ولكن لو تعمق الناس فى الاختيار لغيروا آراءهم . نعم إن المقالات التى كان للسلطة الكنسية الحق فى الاشتباه فيها ، ليست ضارة ، غير أنه بين المقالات الأخر يوجد — بطريقة أو بأخرى ، وبوساطة نمو قصير ، بل بوساطة العدول عن التصريح — قليل ذلك الذى لاتبدو فيه روح العداء للمذاهب المتلقاة ، وللسلطة وللاعتقادات ، وإذن فبدل القبول والتسجيل ، نرى أن هذا القاموس يعرض عدداً من الشكوك والترددات ، وذلك هو التغيير الأول .

أما التغيير الثانى فهو رئيسى ، ففى الواقع أن هذا القاموس هو الذى يلائم « مدينة الأناسى » لأنه ساهم بنصيبه فى إحلال الشعور بالمجتمع محل الشعور بالإله . ولكن ليس معنى هذا أن العلوم الاجتماعية التى كانت إذ ذاك تبحث عن صورها ، قد وجدت فيه نموها التام لأن الفكرة التى تقررت حقيتها ، وهى فكرة أنه ، للدراسة الإنسانية ، لاينبغى الصدور عن الفرد ، بل عن الجماعة ، لم تخطر له . وفى سنة ١٧٦٧ فقط ، سيعلن آدم فيرجوسون

فى مؤلفه الذى عنوانه « محاولة فى تاريخ المجتمع المدنى » أن كل الشهادات التى نمتلكها – منذ أقدم العصور إلى أحدثها ، والمجموعة من كل أجزاء الأرض – لاتمثل ألبتة الإنسانية إلا تحت صور طوائف وجماعات . ومن هذا الواقع وحده ، ينبغى الاستلهام ، بحيث إن فيرجوسون يمكن أن ينظر إليه على أنه مؤسس علم الاجتماع الحديث .

غير أن دائرة المعارف ، على الأقل قد أنشأت ميزانية العلوم الاجتماعية التى كانت فى حالة تكوين ، لأنها استخلصت روح تلك العلوم ، ورسمت خطوطها العريضة . وبالإجمال إن علم الإنسان بالمعنى الحديث لهذه الكلمة لم يُ فيها ولكنه أعد فيها .

هل ينبغى إضافة تأثير أكثر سرية ؟ وهل كانت دائرة المعارف مشروعاً ماسونياً ؟ حقاً إن الماسونية كانت تنتوى الشروع فى نشر قاموس لكل الفنون العقلية ، وجميع العلوم المفيدة ، وقد أعلن ذلك رمسيه الأستاذ الأعظم للجماعة على التحديد فى خطبة ألقاها فى ٣١ مارس من سنة ١٧٣٧ قال فيها : « لقد بدئ المؤلف فعلا فى لندن[1] ، ولكنه – بوساطة اجتماع إخواننا – يمكن إيصاله إلى كماله فى قليل من السنين . وسوف لاتشرح فيه الكلمة الفنية واشتقاقها فحسب ، بل سيقدم فيه أيضاً تاريخ العلم والفن ومبادئه العظمى ، ومنهج العمل فيه ، وبهذه الطريقة ستجمع أنوار جميع الأمم فى مؤلف واحد ... »

ويروى لنا أيضاً چانسو مربى الكونت دى روس أنه فى سنة ١٧٤١ قد حدثه رامسيه عن برنامج اشتراك بعشرة جنيهات عن كل شخص ، قد عرض على جميع ماسونيى أوروبا ، وكانت حصيلته ستستعمل فى طبع قاموس عالمى بالفرنسية ، وكان يجب أن يشمل الفنون العقلية الأربعة ، كما يشمل العلوم التاريخية ، ولكن الشهادة المحددة التى كانت ستسمح لنا

(١) يرجع تاريخ موسوعة إيفراهيم شامبيرس إلى سنة ١٧٢٨ ، وكان شامبيرس ماسونيا .

بأن نحول هذه الإمكانات إلى يقين ، لا تزال تنقصنا .

ومهما يكن من الأمر فقد كانت دائرة المعارف تعمل ، وكان كتاب كثيرون يحاربونها ، وقد حظرت تداولها الكنيسة إذ أعلنت أنها قد أدانت « المؤلَّف الذى هو فى عدة مجلدات ، والذى عنوانه دائرة المعارف »
"Spissum opus in plures tomos cujus est titulus Encyclopédie"
ولقد كان القضاء على ذلك المؤلف هو فى جميع صوره . وفى كل مكان يمكن أن يظهر فيه ، لأنه كان يحتوى على مذهب وعروض زائفة مضرة فاضحة ، تقتاد إلى عدم الإيمان بالدين ، وإلى احتقاره :

غير أنه فى توسكانا ، قد أعيد طبعه مرتين فى لوك ، ثم فى ليڤورنا حيث ظفر بأن يكون تحت رعاية الدوق العظيم بيير ليوپول . وكان ذلك عملا بديعاً للمكتبات مثمراً . إلى حد أنه نشأت عنه مشروعات أخر ، وأنه أثار « تخمراً طباعياً » . فطبع فى چينيف ثم أعيد طبعه بصورة أيسر تداولا . فى چينيف أيضاً . وفى برن ، وفى لوزان ، وفى ايڤيردون : ومنذ سنة ١٧٨٢ ، أجرى پانكوك عليه تعديلا تحت اسم « دائرة المعارف المنهجية » فسطع خلال أوروبا .

الفصـــل الثامن

الفِكَرُ والآداب

رأينا أعظم التغيرات التى عناها الأدب فقد صار ميداناً لمعركة الفكر . ولكن « مدينة الأناسى » قد أرادت أن تكون جميلة أيضاً ، فن أى نوع كان الجمال الذى أحبته ؟

الكلاسيكية الزائفة

ليس الإنسان حديثاً تماماً بالقدر الذى يود أن يكونه ، وتلك حقيقة لم يعترف بها القرن الثامن عشر ، ولكنه قاسى نتيجتها . وعندما وازن بين نفسه وسالفه القرن السابع عشر ، شعر بعاطفة مركبة من شىء من الحسد وقليل من الاحترام . حقاً إنه كان يقول عن نفسه ، إنه أعظم منه فى الفكر والعلوم ، ولكنه — فيما يتعلق بكل ما هو أدب وفن — كان يعترف بأنه لم ينجح فى مساواته . ولقد كان يبسط كل ما لديه من أسباب لكراهة لويس الرابع عشر ، وعندما كان ينتهى من ذلك ، كان يعترف بأن تمثاله لويس الرابع عشر قد ظل قائماً ، ومحوطاً بعدد من التماثيل الأخر ، أى تماثيل العبقريات التى كانت تعيش فى عصره . وإذن فقد ناء بعبء ثقيل من المحاكاة . وخضع للقواعد مع مناقشته إياها ومعاناته فى احتمالها . وكان يتقيد بالأنواع المقررة ، وكان يريد أن يجد أنواعاً أخر ، ولكنه لم يكن يجد ، فكان الكل يريدون أن يؤلفوا خرافات كما فعل لا فونتين . ومن أمثلة هؤلاء إيريارت ، وسامانيجو ، وجيه ، وچيلير . وكان الكل يودون أن ينشئوا الحوار بين الموتى ، كما فعل فونتينيل وفينيلون . ومن أمثلة هؤلاء جوزى وفريديريك الثانى ، بين كثيرين آخرين . وكان الكل يرغبون

فى أن يودعوا قصائدهم حماساً مقدراً كما فعل بوالو ، وهــذا هو ما كان جوتشيد يوصى به الشعراء الألمانيين . وكان الكل يتسابقون فى الظفر بمجد الشعر الحماسى . ومن أمثلة هذا النوع « هانريكيدا » تأليف اكساڤيه دى مينيسيس ، و « الاستيلاء على غرناطة » تأليف موراتين . و « وهيرمان » أو « هينريك .دير ڤوجلير » تأليف أوتوڤون شونيك ، ومنتجات كثيرة أخرى فى جميع البلاد . وكان ڤولتير هو الذى قدم المثــل لهذا فى مؤلّفه « الجماعة أو هانرى الأكبر » منذ سنة ١٧٢٣ إذ يقول :

« إننى أمجد المعارك وذلك الملك الكريم الذى أكره الفرنسيين على أن يصيروا سعداء ، والذى بدد شمل الجماعة ، وأفزع إسپانيا ، والذى كان إزاء رعاياه بمثابة الغالب والوالد ، والذى — فى باريس الخاضعة — جعل قوانينه محبوبة ، والذى كان موضوع حب العالم ، ومثل الملوك .

أيتها الملهمة قصى على ، أى مقت عنيد ذلك الذى سلّح ، ضد هانرى ، فرنسا الثائرة ، وكيف أن أجدادنا — ساعين إلى حتفهم — قد فضلوا الطغاة على أعدل الملوك . . . » .

لقد صفق إذ ذاك لڤولتير لأن الشعر الحماسى الذى ظل صامتاً ؛ مناً طويلا ، قد عثر على صوته من جديد بوساطة أهلية هذا الفرنسى الذى كان الجميع معتزين به[1]

وكم من المؤلفين المزليين قد حاولوا أن ينازعوا موليير أو — إذا كانت هذه المحاولة مفرطة فى الخطر — كم أولئك الذين قد اكتفوا بمحاكاته ! ومن أمثــلة ذلك أن « الفخور » تأليف ديتوش و « الخبيث » تأليف جريسيه ، ينحدران من « عدو الإنسانية » و « البخيل » اللذين كانا أبوين لذينك الوارثين الشاحبين ؟

(1) Journal des savants, 1724, p. 246.

وهناك مؤلف آخر ، وهو لبيرج ، كان أمامه نماذج محلية كافية ، وكان لديه هو نفسه موهبة كافية لتأليف مهازل مبتدعة ، وكانت تلك المهازل ستكون أيضاً أكثر ابتداعاً ، لو أنه لم يتجه نحو پلوت وموليير ، ولو أنه لم يحسن مخالفة قاعدة الوحدات

فى الحق أن المقبرة الأشد ازدحاماً من بين المقابر التى سيرقد فيها كثير من موتى المنتجات إلى الأبد ، هى مقبرة المآسى التى اشتهرت كمأساة « زهير » لفولتير ، والتى قاومت بضعة أمسية ، والتى ظفرت فى مرة واحدة بالصفير وتاج الشهداء[1] . ولا جرم أن تلك المآسى ، لم يعد لها من ذكريات على قبورها ، سوى أسماء نسيت ، كأن يكتب على تلك القبور مثلا : هنا يستريح « كوسرويس » وهنا يستريح « أريستومين » ، وهنا يستريح « بريزيئيس » ، وهنا يستريح « أودوكس » ، وهنا يستريح « زاروكا » .

وجد كثير من المآسى ، والمآسى الهزلية إلى حد أنها كانت كافية لتأليف قاموس عنها فى سنة ١٧٦١ ولقد نظمت أوروبا مسابقة عامة للمأساة واقترحت شخصية « كاتون » الرومانى الشهير كموضوع لها ، ثم استأنفت ذلك عارضة شخصية « ميروپ »[2] . وفى هـذه المرة كان الذى ظفر بالجائزة الأولى إيطالى يدعى شيبيون مافى ، أو على الأقل هذا هو الذى حكم به مواطنوه عندما مثلت المسرحية فى مودينا فى ١١ يونيو من سنة ١٧١٣ ، فكانوا يعتزون بأن يجدوا فيه مأساوياً كلاسيكياً بالمعنى الكامل . وفوق ذلك فإن مواطنه لويچى ريكوبونى كان رئيساً شهيراً لجماعة من الهزليين كانت تتكون مؤلفاتهم من الأهواء والضحك والمزاح . ومع هذا

---

(١) من مأثورات المسيحية أن المؤمن الذى يقتل فى سبيل دينه يظفر بتاج الشهداء على أثر استشهاده ، وقد أراد المؤلف أن يشير هنا إلى أن المآسى الرديئة كانت ترز أ فى الليلة الأولى بصفير الجماهير ، والموت العنيف الذى يشبه موت الشهداء . (المترجم)

(٢) ميروب هى فى الأساطير الهيلينية ملكة ماسينيا وزوجة الملك كريسفونت . (المترجم)

فإنه في الوقت ذاته كان يولول لأن المسرح الإيطالي ، لم يكن قد تكون إلى الحد الكافي .

كان الناس في خارج فرنسا يطلقون هذه الصيحة الساذجة وهي : أن كورني ، وراسين قد تقدمهما غيرهما ، وفي فرنسا كانوا يقولون إن القدماء قد فاقهم المحدثون . ولكن هل كانوا يعتقدون ذلك ؟

مما لا ريب فيه أنهم كانوا يقبلون شروط النوع الأدبي على حالتها التي صيغت عليها متخيلين أن بضعة تغيرات خفيفة — كالإقلال من الحب أو الإكثار من الألوان في المأساة ، أو اتخاذ موضوعات مستعارة من كل عصور التاريخ — كانت ستسمح بإدراك الكمال . ولما كان المؤلفون لم يعودوا يكتفون بإنضاج بعض المنتجات المنتقاة ، ولما كان القلم قد جعل يجرى على الورق بسرعة لم تكن معروفة في الماضي ، ولما كانوا يطبعون مجلداً إثر مجلد ، ولما كانت الحمى قد حلت محل الهدوء العظيم الذي كان سابقاً ، فإنه كانت تنشأ وتفنى مئات من الكتب التي لم تكن تساوي قيمة التجليد الذي جملت به . ولقد كان ذلك بحيث يشعر المرء أنه مدفوع إلى ألا يسجل سوى خطأ طويل ، وانحطاط ضخم ، حين يلاحظ هذا الاستمرار للماضي . وإذن فقد كانت هناك جرأة ، ولكن عندما كان أحد يلم بالأدب الخالص كان هناك الحياء .

ومع ذلك فلو أن المرء وقف عند هذه الفكرة ، لكان مخطئاً ، لأن بقاء الكلاسيكية لم يأت فقط من القوة المحتومة للنماذج الشهيرة ، ومن سطوع هالاتهم ، ومن كسل الناس الذين يميلون إلى استئناف مايكون قد نجح مرة ، ولكنه يتضمن منطقاً ، واتفاقاً كافياً وقبولاً . وهو نتيجة للنظام الذي كان العقل يستكشفه في كل مخلوق .

وكان يجب أن توجد روح عقلية للأدب كما كانت توجد روح

القوانين(١) ؛ وكانت الكلاسيكية تمثل العلائق الضرورية التى تنبثق من طبيعة الأنواع ، وكانت الأنواع فى طريقتهم هى الترتيب التصاعدى الذى فرضته السلسلة العظمى للكائنات . وقد بقيت الفلسفة فى هذه النقطة وفية للكلاسيكية ، لأنهما كلتيهما كانتا عدوتين للشطط .

ومن جهة أخرى إذا كانت الكلاسيكية ، بإنتاجها فى فرنسا خير ثمارها ، قد أصبحت لاتنتج سوى ثمار لاطعم لها ، فإن الأمر لم يكن كذلك فى الحقول الأخرى بأوروبا . ولا جرم أن قائمة مؤلفات الفنون الشعرية المؤثرة التى تردد الجوهرى من كتاب « الفن الشعرى » لبوالو ، مع متنوعات ليست بلا أهمية كان تسويغها سيسوء لو لم يفترض فيها بعض النفع : وهاك أمثلة منها :

فى سنة ١٧١١ كتاب « محاولة على فن النقد » تأليف پوپ .

وهو يعلن أن « القواعد لاتزال هى الطبيعة ولكن الطبيعة بعد أن صارت منهجاً » ولا ريب أن إنتاج پوپ نفسه ، قد أتى فأثبت أن هذه العبارة لم تكن قاحلة .

وفى سنة ١٧٢٩ كتاب « محاولة نقد للشعر » ، تأليف كريستوف جوتشيد .

وجوتشيد هو أقل سلطاناً فى الأدب ، ولا يمكن الدفاع عنه — بوساطة الميزة الذاتية لمؤلفاته — إلا بصعوبة . غير أنه إذا كان متحذلقاً ومعتزاً بأنه لايرى سوى ناحية معينة(٢) ، ويتشدد فى أن يعرض على ألمانيا نماذج المسرح الفرنسى التى لم تكن قد صنعت لها ، وإذا كان خطراً لو اتبعه

---

(1) Uz, Die Gluckseligkeit, ouvrage cité.

(٢) إن عبارة المؤلف هنا هى « كان معتزا بحمل الأوير "Oeillères" وهى مجموعة جلدتين توضعان على الجانبين الخارجيين من عينى جواد المركبة لكى لا ينظر إلا أمامه . ويرمز المؤلف بهذه العبارة إلى أن جوتشيد كان معتزا بألا ينظر فى سيره الأدبى إلا إلى ناحية فرنسة دون أى اعتبار لغيرها . (المترجم)

الناس إلى النهاية ، فإنه لم يكن أقل حقاً من ذلك أنه قد تجاوب مع حاجة العصر ، لأنه طلب نظاماً معيناً ، ولأن إجباريته هذه كانت إعداداً للتفتح .

وفى سنة ١٧٣٧ ، كتاب « البويطيقا » أو « الشعر » تأليف إينيازيو دى لوزان .

ولا تزال هذا الكتاب إغريقا وروما ، ولا تزال فيه أيضاً إيطاليا الكلاسيكية ، ولاتزال فيه كذلك فرنسا بوالو ، أى أنه لا تزال فيه القواعد . ولكنه اشتمل أيضاً على الكفاح ضد عيوب الأدب الذى صار كله ألفاظاً وضد سوء الذوق والبهرج ، وكان بمثابة إعادة سبك ضرورى لتخليص العبقرية الإسپانية من خبائثها .

ولقد شعرت البورتغال بتأخرها عن الحركة العامة للفكر . ولكنها لم تجد — كدواء من الخور الذى كانت تتألم منه — سوى اتباع تقاليدها الخاصة التى كانت قد تلاشت ، أو محاكاة الشعر الأركادى الإيطالى ، وهذا الأخير قد نشأ من الرغبة فى إحياء الشعر بنقله إلى وسط الطبيعة لانتزاعه من المنتديات ، ولكنه لم يلبث أن انحط إلى تصوير أحاسيس الرعاة المفرطة فى التباكى ، ففى سنة ١٧٤٦ ظهر كتاب « المنهج الحقيقى للدراسة » تأليف لويس أنتونيو ڤيرنيه الذى اقترح على مواطنيه منهجاً للدراسة أفضل ، وتفكير أفضل :

وفى سنة ١٧٤٨ ظهر « الفن الشعرى لفرانسيسكو چوزيه فرير ، ومعنى ذلك أن قوة الكلاسيكية لم تكن بعد قد نفدت فى البورتغال .

ولا ريب أنه يكون من دلائل التسرع ، أن يرى المرء فى هذا المجهود المتواصل ، مجرد حالة من حالات العدوى العقلية ، بل على الضد ، يحسب المرء أنه يسمع نداءاً يأتى على التعاقب من البلاد التى لم تكن الكلاسيكية قد عملت فيها عملها بعد ، والتى كانت تطلب تدخلها ؛ وهكذا صار

وجودها على التدرج تاماً ، ومانعاً من وجود غيرها ، وانقطعت عن أن تكون مبدأ للحرية العقلية لكى تصير ضرباً من التسرع .. وإذ ذاك مر كل شىء كما لو كانت قد أمعنت فى غزوها ، وكما لو كانت قد أعدت رد فعل بسبب الإفراط فى سيادتها ، وكما لو كانت لم تترك للعقول وسيلة أخرى غير ثورة أدبية ، وكما لو كان « عصر الأنوار » قد أنشأ الحركة التى تدعى « هجوم وعاصفة » "Sturm and Drang" (١) .

تلك كانت حقبة لم توجد فيها عاصمة بل مدينة كبيرة من مدن الأقاليم لم تكن تريد أن يكون لديها مجمعها الخاص ، بل إن انجلترا نفسها كانت تفكر أحياناً أنه كان يجب عليها أن تضع أربعين مقعداً تحت قبة(٢) . وتلك كانت حقبة ، أعيد فيها النظر فى اللغة ، والقواعد النحوية ، والإملاء قصد تجديدها ، حقبة ظهر فيها — إلى جانب النقد الفلسفى — نقد أدبى لم يلبث أن صار إحدى قوى الوقت . وكان الناس فى أكثر الأحايين يحتجون على قسوته لأنه فى ذلك العهد ، كان أول أحمق ، قادم ، أو أول شاعر فاشل يعطى نفسه الحق فى أن يتحدث بصوت عال ، وأن يصدر أحكاماً جائرة ، وأن يهاجم مشاهير المؤلفين ، وكان أقل هؤلاء كفاية أكثرهم لذعاً ! ومع ذلك فإن تلك الشكايات لم تكن تتجه إلا إلى أن تطلب كرامة أعظم للنقد ، وأن يعترف له بطابع فنى لا يكون أخفض من طابع الابتكار ، إذ أنه بوساطة النقد — إذا حسنت مزاولته — كان المرء يستطيع أن يصير متساوياً فى الشهرة مع الخطيب والشاعر والفاجعى .

---

(١) معناها الهجوم والعاصفة وقد أطلقت على الحركة الأدبية التى تدعى بحركة ما قبل الرومانتيكية فى ألمانيا . (المترجم)

(٢) يريد المؤلف أن يقول إن انجلترا تفكر فى محاكاة فرنسا فى إقامة قاعة ذات قبة ، وشغلها بأربعين مقعداً لأعضاء مجمعها اللغوى الذى كانت تتوق إلى إنشائه ، وتحلم بأن تراه على غرار مجمع « فرنسا » ، ليكون لها مثلها علماء تطلق عليهم اسم الخالدين . (المترجم)

وأيا ما كان فقد نشأ إذ ذاك بضعة من أعاظم النقاد الذين وجدوا كپوپ ، وڤولتير ، وليسينج . وإذا كان حقاً أن هؤلاء الأخيرين قد ظفروا ببقاء ألقاب أخرى ، فإنه قد وجد إلى جانبهم نقاد بحت ، وكتاب قد زاولوا قضاءهم فى النقد إلى حد أن مضوا إلى الخلود : وهاك مثلين منهم .

إختار چيوزيپو باريتى ، إمضاءاً مستعاراً هو « أريستاركو إسكانابو » ومعناه أريستارك[1] ذابح الثور . وقد اختار لصحيفته النقدية عنوان « السوط الأدبى » . ولطالما ألهب بسوطه هذا ظهور أردياء الكتاب عندما عاد إلى إيطاليا بعد إقامته الطويلة فى انجلترا ! وقد أعلن الحرب على الشعر الأركادى[2] ، وعلى الأثريين الذين لم يكونوا يهتمون إلا بالموتى ، وعلى المغرورين الذين — إذ حسبوا أنهم يجعلون كتبهم التافهة تمر على وجه أفضل — كانوا يزينونها بإهداءات فخمة ، وعلى مؤلفى القصائد الكبرى فى الموضوعات الضئيلة ، وعلى منشئى المقطوعات . وكان هؤلاء يعتبرون أن أربعة عشر بيتاً ، هى مفرطة فى الكثرة بالنسبة إلى ماعندهم . ولاريب أن الطبيعى والتلقائى هما اللذان كان يريدهما فى الفكر كما فى الأسلوب ، وأن الفطرة السليمة ، هى التى كانت مبدأ أحكامه . ولما كان حاداً ، محباً لضوضاء المعركة ، فقد كان قليل الاهتمام بأن يتلقى الضربات ، على شريطة أن يعطى منها ، وكان يمثل النقد الخالى من الرحمة . ولو أنه كان يكتفى بأن يكون فى عداد موردى أوپرا لندن ، وبأن يعطى دروساً فى اللغة الإيطالية ، لسيدات الطبقة العالية الإنجليزية ، بل بأن يكتب ذلك القاموس

---

(١) أريستارك هو أحد أعلام النقاد فى العصر الإسكندرى فى القرن الثانى قبل المسيح . وقد صار اسمه فى المحيط الأدبى الحديث علماً على الناقد القاسى ، ولكنه فى الوقت ذاته عادل ومستنير . (المترجم)

(٢) انظر إشارة المؤلف إلى هذه الكلمة ، وتعليقنا عليها فى موضعها من هوامش هذا الكتاب . (المترجم)

الإيطالى الإنجليزى الذى ظل مستعملا زمناً طويلا ، لنال منزلة متواضعة بين المؤلفين الذين كانوا يحاولون الصعود إلى البارناس[١] إذا جارينا الخيال الذى كان ذا حظوة خاصة فى عصره ، ولكنه إذ يرفع ساعده بسوطه ، يخترق جمهور الكتاب ، ويوجد لنفسه مكاناً ممتازاً على مقربة من أبولون[٢] .

رسم المصور رينولس صورة صمويل چونسون للأجيال المقبلة فقال : « إنه كان عريض ما بين المنكبين ، ذا عنق مدفون بين كتفيه ، ووجه سميك ، وذقن مليئة ، وجبهة ضيقة متغضنة ، وشفتين صفيقتين ، ونظرات مستجوبة وعابسة ، ومظهر جدى مُركّز وفيه قليل من المرارة[٣] ... »

يجلس صمويل چونسون إلى مكتبه ليدرس ميلتون ، فما عسى أن يكون منهجه ؟ إنه يبتدئ بتاريخ حياته على صورة جد متيقظة يتبعها اختبار شديد الضبط لمنتجات المؤلف المختلفة . ثم يستجمع قواه لأن الكتاب العظيم يتطلب عناية عظيمة ، وهاهو ذا الآن سيختبر « الفردوس المفقود » ، الذى يستطيع — من بين أعاظم المنتجات — أن يطالب بالصف الأول ، إذا اعتبر بالنسبة إلى مشروعه ، وبالصف الثانى بالنسبة إلى التنفيذ . وفى الواقع إن الشعر الحماسى هو الذى بالاتفاق العام ، يستحق أسطع المجد ، لأن الشعر هو الفن الذى يجمع السرور إلى الحقيقة ، وأن الشعر الحماسى على التحديد ، يتصدى لتعليم أهم الحقائق ، بألطف الوسائل . وإذن فإن صمويل چونسون يريد ، تبعاً لوجدانه ، أن يحتفظ بالنسبة بين نقده والأهمية الرفيعة التى نالها « الفردوس المفقود » . وإليك مجمل هذا النقد .

(١ ، ٢) إن البارناس هو الجبل الذى يقيم فوقه أبولون ، وهو فى الأساطير الهيلينية إله الأدب والفن وهو يقيم فوق ذلك الجبل تحوطه عرائس الإلهام التسع . ولذا كان الأدباء يصفون كل من نجح فى نثره أو شعره أو فنه ، بأنه قد اتخذ مكاناً إلى جانب أبولون ، ولكنه قبل هذا ينبغى أن يبذل جهداً جباراً فى صعوده جبل البارناس . (المترجم)

(3) Louis Cazamian, Histoire de la littérature anglaise, L. 8, ch. I, Le classicisme doctrinal : Johnson

يصيب الأب ليبوسو إذ يقول : إن الخلقية تعتبر قبل كل شيء ، وإن الخرافة يجب ، على الأثر أن تصورها ، وهنا ينتصر ميلتون ، لأن الخلقية عند الآخرين ليست ألبتة سوى حدث أو نتيجة . بينما أنها عنده مبدأ محرك ، ما دام أن مشروعه كان إظهار كيف تصرف الإله بإزاء الإنسان ، وكيف أن طابع الدين المسيحي هو كونه متعقلا ، وكيف يجب علينا أن نطيع القانون الإلهي ، وأن قصصه الأسطورى قد تناول وجود العالم ، وأنه لم يختص بقصة هدم مدينة فحسب أو بالحديث عن تثبيت مستعمرة ، أو امبراطورية وأن أشخاص أشهر الملاحم ، تبدو شاحبة أمام أشخاصه ، وأن الطباع التي صورها جديرة بالإعجاب كطباع أخيار الملائكة وأشرارهم ، وطباع الإنسان قبل هويه وبعده . ولا يكاد المرء يجد مايقوله عن المعقول والعجيب لأن المعقول عند ميلتون هو عجيب ، والعجيب معقول .

وكذلك لايكاد يوجد مايقال عن الوسائل الصناعية ، مادام أن كل شيء يجرى حسب التدخل المباشر من السماء .

يعتنق صمويل چونسون وجهة نظر النقـد التقليدى وهو ينطق تبعاً لمظاهره وهى الأجزاء المؤلفة ، والأهواء والعبارات ، ثم يختم القسم الأول من نقده معلناً رفعة ميلتون .

ومع ذلك فهناك نقد نزيه يجب أيضاً أن يعين الثغرات والنقائص ، وإذ ذاك يقيم القسم الثانى من الميزان .

إن برنامج «الفردوس المفقود» يشف عن سوء عدم اشتماله على الأفعال والطباع البشرية ، ومن ثم فإن القارئ لايشعر ألبتة ــ ولو فى أعاظم النتائج التى يتصرف فيها الشاعر وهى السرور والفزع ــ بوجود الطبيعة الإنسانية . وأكثر من ذلك أن الموضوع يتطلب وصف مايستحيل وصفه ، وأن رمز « الخطيئة والموت » يتقدم سيئاً : وفى هذا يقول چونسون : « يخيل إلى أن هذا الرمز الأخرق هو أحد العيوب الأكثر بروزاً فى القصيدة » .

ويمكن أيضاً أن توجه بضعة مآخذ إلى مسلك القصة ، فيلتون متقلب

كما لاحظ ذلك أديزون . على أنه كان ينبغي أن يعود أحياناً من السماء إلى الأرض . ولقد أفرط فى محاكاة الإيطاليين ، وكانت رغبته فى أن يتبع أريوست تقوده إلى أن يضع فى كتابه ، حادثاً فى غير موضعه . وهو « فردوس المجانين » . وهو لم يتجنب اللعب بالألفاظ ، ولا المبهمات وتلك عيوب يمكن وضعها فى الميزان قبالة كمالات جديرة بالإعجاب ولا ريب أن من يحكم أن كفتى الميزان متعادلتان ، يرثى له ...

إن هـــذا لمنهج ، وإنه لسير هادئ ومؤكد ، فى طريق رسم مرة واحدة .

يحكم صمويل چونسون على كل كاتب حي أو ميت بنفس المقياس . وجديته تشبه الجدية البابوية ، وهو يتبع مبادئ أملاها عليه العقل ، ومجموعة من القوانين تحتوى على القواعد الكلاسيكية ، وفقهاً مكوناً من أحكام السابقين . وإذا حدث له أن شعر بأن ارتباطه بالقواعد أقل ضيقاً ، فسيقول لماذا كان ذلك . ولا جرم أن العقل أيضاً هو الذى ينصح له بالابتعاد عن كذا أو عن كذا ، إنه لعقل أكثر استقلالا ، وأقل استنتاجاً ، ولكنه يحذر دائماً من الأخيلة والأحلام والحرارات . وإن واجبه الذى يشتمل على خلقية مثالية ، هو إبعاد تلك القوى المعادية . على أنه لايعرفها إلا عن طريق نتائجها وهو لايحملها فى ذاته ، وهو لم يشعر بنفسه قط مضطرباً منها .

وعندما يلم بشكسبير ، يصل إلى ذات جوهر الكلاسيكية ، وإلى الاهتمام بالحقيقة الأبدية الكونية التى أراد هذا الأخير أن يحوزها . وهاك الجانب الجوهرى من نقده .

إن دوام إنتاج ما ، مؤسس على ماثبت له عند الناس من إعزاز . وتلك هى حالة مسرح شكسبير ، لأنه هزم الزمان ، فإلى أى المحامد هو مدين بهذا الإعزاز ؟ ذلك لأن شكسبير قد عرف ــ أكثر من أى شخص آخر ــ أن يعكس المعالم الثابتة للطبيعة البشرية . ومن ثم فإن فاجعته هى

المرآة الكاملة للحياة . أجل ، لقد قيل إن رومانييه لم يكونوا رومانيين ، وإن ملوكه لم يكونوا ملوكاً حقيقيين ، فإذا كان مايقولونه حقاً فذلك ليس منقصة ، بل هو ميزة لأنه فضل العام على العارض . وهناك مأخذ آخر ، يتطلب اعتباراً أكثر ، وهو أن شكسبير قد خلط الهزلى بالمأساوى . ولكن أليس ذلك لكى يمثل هنا أيضاً على وجه أفضل ، الحياة كما هى ؟ حقاً إن له هنات ، فهو يبدو انه يكتب بلا غاية خلقية ، وإنشاؤه مهمل ، ولا يهتم بالطريقة التى تنتهى إليها مسرحياته ، وهو لم يتجنب التأنق ، ولا المزاح الفظ ، والجينتيلمان فى مسرحياته لايختلفون عن البهلوانات فى طرائقهم ولكن هناك نقطة لايجزم جونسون بأن يدين شكسبير من أجلها ، وهى عدم الإذعان لقاعدة الوحدات الثلاث ، لأن تلك القاعدة قد وضعت لكى تدنى المسرح من الحياة . ولكن إذا كان شكسبير قد مثل واقعية الحياة بغيرها ، فبأى حق يمكن أن يلام .

ولقد كان المسرح إذ ذاك فى انجلترا قد جعل بالفعل يقدم إلى النظارة مؤثراً جديداً ، فكانت الرواية تذرف دموعاً لاترقاً ، وكان الشعر يحدث انفعالات القلوب وينظم مسرات النظرات . وكان قد انتهى الشعر الباهت السائر على وتيرة واحدة ، والقصائد التى تحاكى القدماء ، وتتبسط أحداثها فى طبيعة صناعية ، وكذلك المأساتان الشهيرتان وهما « بوزيريس » ليونج ، و « ماريان » لفانتون ، وكافة المآسى المنظمة ، إنها كانت ميتة ، وميتة وسط التصفيق . وفى نسق التتابع الذى يمضى بنا إلى التقزز مما أحببناه ، وإلى اشتهاء خير غير معروف . كان هناك عصر قد جعل يتبين وكان التمرد على الكلاسيكية قد بدأ . غير أن جونسون كان يقاوم ، لأنه كان يمثل مبادئ لم تنمح قط ، فلنمنحه نوع العظمة الذى يلتئم مع رئيس قلعة محاصرة يعرف كيف يدافع عن حياته ، ولا يسلم نفسه ولنمنحه فى البرنامج العام ، نوع المنفعة الذى يوجد فى العقبات حين تكره المخاصرين على إجادة التحقق من قواهم . ولنمنحه على الأخص ، ميزة أنه من جانبه ، قد احتفظ

بحقوق العقل الأبدى . وأنه جزم بما سيقال دائماً ، وهو أنه — لكى يجيد المرء الكتابة — ينبغى له وجود مفردات محددة ، وقواعد نحوية متينة ، وأنه لاينبغى للمرء أن يستعبد للنماذج العظمى ، ولكن ينبغى أن يفهم ما أنشأ عظمتها ، وأن الخلط ، وعدم الاتساق ليسا من العلائم الضرورية للموهبة ، وأن الأسلوب والروح والنفس تتطلب نظاماً قاعدياً .

وأياً ما كان فإن وطنه — ولو أنه كان قد اتجه نحو آلهة آخرين — قد فهمه ، فاعترف له بجميل بنائه حجراً حجراً ، منذ سنة ١٧٤٧ إلى سـنة ١٧٥٥ ، ذلك « القاموس » الكبير الذى معناه الشرف والوضوح وثبات اللغة المحددة بوساطته ، واعترف له كذلك بمنحه المؤلفين الإنجليز الذين اختبرهم ، ألقابهم النهائية الدالة على الشرف . وفى حانة « أولد شيشير شيز "old Cheshire Cheese" — وهو يشرب قدحاً من الجعة أو كوباً من النبيذ — كان ينطق بالتنبؤات التى كان بوسويل الأمين يجمعها فى تقوى . وكان يقول إنه لم يجى عبثاً ، ما دام أنه مهما يكن حكم الإنسانية النهائى فى شأنه ، قد حاول على الأقل ، أن يستحق إحسانها ، مادام أنه قد عمل على صقل اللغة الإنجليزية إلى نقائها ، بل أنه قد أضاف شيئاً إلى رشاقة بنائها ، وإلى انسجام إيقاعها ، وما دام أنه قد قدم المثل على الاستقامة والشرف . ولقد أقر معاصروه حكمه على نفسه ، ولم يكذب هذا الحكم أخلافه . وفى القرن التاسع عشر وضع كارليل ، صمويل جونسون ، بين الأبطال الممثلين لانجلترا ، واليوم أيضاً نحن نحسبه — مستعملين عباراته الخاصة — « فى عداد الكتاب الذين خلعوا الحماس على الفضيلة ، والثقة على الحقيقة » .

أدب العقـــل

عرف العقل فى تلك الحقبة آونة لذيذة ، فلم تكن هناك عقبات فى طريق حريته ، حيث لا تقاليد ولا احترام ولا سر . وعند إحدى الأسر

البشرية[١]، أن القلب هو ملكة جعلت تحرم نفسها منها بعدم استعمالها إياها ، وعندها أن الخيال ليس سوى حماس مجنون ، ولم يبق إلا العقل أي الماسة النقية ، وإلا السرور الأعظم بالتفكير ، والتفكير السريع ، وإلا البهجة التي يمنحها المرء للآخرين ويمنحها لنفسه عندما يفهمون ويفهم كل شيء .

كان الناس فيما مضى يهدفون إلى شيء من التوازن لم يكن العقل سوى عنصر من عناصره ، ثم كفوا بعد ذلك عن أن يكونوا عقليين ما دام أنهم قد صاروا متحمسين للحساسية ، وفيما بين هاتين الحقبتين ، جعلوا ينفقون بيد مبسوطة ، عملة العقل المتلألئة . وبين السماء التي لم يعد أحد يحاول اختراق قبتها ، وأعماق اللاشعور الذي رفض الناس أن يسبروا غوره ، استقروا في بلد بلا سر ، حيث شعروا بأنهم مستريحون ، وقد أضاؤوه ليجعلوه أكثر جمالا .

وكان العقل إذ ذاك يقيم في البلاط ، وبوساطته احتفظت خليلات الملوك بسلطتهن عندهم بعد أن سحرتهم وكان يقيم في المدن حيث أغرم به المتوسطون أنفسهم فجأة ، وقد جعل يجوس خلال الطرقات ، وتغلغل في الذوق والفن والأدب الذي صار روحه الخفيفة .

وعلى الرغم من اختلاف الأفراد والأوطان ، كان الناس يجدون بين ممثليه معالم القرابة ، أي نفس الوضوح ، ونفس السهولة ، ونفس الدقة . وكان جدهم هو فونتينيل الشيخ الذي كان لا يزال عائشاً ، وكان أحد أوائل الأسرة الجديدة هو ماريفو الذي بحث عن التعبير عن عبقريته في جميع الجوانب أي في الصحافة ، والرواية العادية ، والرواية ذات الأبطال التافهين ، وفي الجانب العاطفي ، والذي لم يجد هـذا التعبير إلا في المسرح ، وفي المسرح العقلي . ولقد اختار المحيط الضيق الذي يتجه من الانعطاف الناشئ ، إلى الاعتراف المؤكد ، ومن الحب الذي يتباطأ في أن يعرف نفسه أو الذي

(١) . المراد بهذا التعبير الفريق البشري الذي لا يعنى إلا بالعقل . (المترجم)

يحاول أن ينكر نفسه ، إلى الحب الذى ووفق عليه . وهذا المحيط يكفيه حقاً أنه بين أحد جانبيه والآخر ، يضاعف المنعطفات ليسر بأن يجد الخيط[١] بعد أن تظاهر بأنه فقده ؛

وكما أن الطبيعيين يدرسون إعدادات بطيئة لاستحالات الحيوانات ، كذلك هو اكتشف الحركات الدقيقة التى يبدو أنها تبعد الأشخاص عن مصائرهم ، بينما هى لاتعدو أنها تقودهم إليها . إنها لعجيبة مهازله التى لا تباغت فيها المفاجآت أحداً ، ما دام أنها لا تعد إلا عن طريق اللباقة التى يعرف أنها تشرح بها . إنها لمهازل بلا أحداث ، وبلا تعقدات تقريباً . وفيها فرسان ، ومركيزات ليس لهم حتى أسماء خاصة ، وفيها وُصفاء ووصيفات ، أخذوا أسماءهم من قائمة المهازل القديمة ، كفرونتان ، وليزيت . وإذ تخلص على هذا النحو من كل ثقل ، اقتحم بنجاح هذه الحادثة الوحيدة ، وهى وضع شيء من العقل فى الحب ، فالفتيات والفتيان الذين يقومون بالأدوار الأول ، والآباء الرحماء ، والخدم والخادمات ، كل هؤلاء أذكياء حتى بعض الأفظاظ الذين يتظاهرون بأنهم حمق لإيجاد شيء من الاختلاف بين هـذا العدد الكبير من العقول الدقيقة ، وحتى أرليكان[٢] الذى يسلم نفسه لأضاحيك مهنته ، ولكنه حين تفلت منه إحدى الهفوات ، يظهر فى الوقت ذاته ، أنه ليس مخدوعاً فيها ، وأنه يقوم بتضحية كبيرة ، لكى تبدو عليه ملامح الحمق .

---

(١) يشير المؤلف هنا إلى الخيط المرشد الذى ورد ذكره فى الأساطير الهلينية. وقصته أن البطل تيزيه قد أراد قتل الوحش « المينوتور » وكان يقيم بقصر اللابيرانت فى جزيرة كريت ، ولكن الأميرة أريان خشيت أن يضل محبوبها فى هذا القصر فيهلك ، فأرشدته إلى متابعة خيط ثبتته هناك ليسترشد به فينجو . وقد صار ذلك مثلا يضرب لكل من يتعرض للعقبات ثم يهتدى إلى وسيلة يتخلص بها من مصاعبه ويصل بفضلها إلى مبتغاه . (المترجم)

(٢) أرليكان هو شخصية نموذجية من شخصيات المهازل الإيطالية . (المترجم).

وحينا لا تكون هناك ريب ، ولا حيل ممكنة ، وحينا تصير العواطف جلية ، تسدل الستار ، وتنتهى المسرحية .

على الضد من ذلك كان جولدونى يقبل وسائل المسرح الصناعية القديمة والجديدة والجيدة والمتوسطة والرديئة ؛ إنه مؤلف يتبع فرقته التمثيلية الجوالة التى بغيرها لا يستطيع أن يعيش ، والتى لا تعيش بغيره . ومهمته ثقيلة لأنه ينبغى أن يقدم مهزلة بعد مهزلة ، وقد يتفق له مثلا أن يقدم ست عشرة مهزلة فى كارنفال واحد . وينبغى أن يكون القلم فى يده بلا انقطاع لأن الممثلة تنتظر دورها فى الغد أو فى هذا المساء ، إنه يعانى وإنه فقير . وفى كل مساء يتعرض لتلقى صفير الإخفاق . وإذا هوت مسرحية فلا بأس بذلك إذ أن غيرها ستنجح فى مرة أخرى .

لا ريب أن هذه الظروف المحدقة به وهى السرعة والارتجال ، مختلفة عن الظروف الاعتيادية ، إن فرقته لم تعد هى فرقة « المهزلة الإيطالية » المستقرة على أحد مسارح باريس ، ولم تعد هى فرقة الكوميدى فرانسيز ، وإنما هى مركبة تيسبيس[1] العتيقة التى تذهب من مدينة إلى مدينة . وفى نهاية المطاف تأتى الشيخوخة البائسة . . . غير أنه بالرغم من ذلك هو من أسرة المتبصرين ، لأنه تلقى من السماء ومن عصره تلك النظرة السريعة الأكيدة التى هى حقاً لا تذهب إلى أعماق القلوب ولا تميز فيها أنواع العنف الخليقة بأن تنفجر بغتة فى وسط الضحك ، ولكنها تنزع ما يطفو على السطح وتستولى عليه ، وذلك أيضاً إنسانى .

ولقد كان مثلا يتنزه فى ميدان « بيازيتا » بمدينة البندقية ، ويثرثر مع مسن من أعضاء مجلس الشيوخ ، ويأوى إلى أحد المقاهى ، ويقوم بإحدى

---

(١) تيسبيس هو شاعر هيلينى يقال إنه عاش فى القرن السادس قبل المسيح ويعزى إليه أنه هو الذى ابتكر فن المآسى فى بلاد الهيلين وكان يطوف القرى الإغريقية متجولا على مركبة تصحبه فرقته ليقوم معها بتمثيل مبتكراته من المآسى البدائية . (المترجم)

الزيارات : وحسبه هــذا لكى يسجل المعالم المألوفة لرفاقه وأخلاقهم وأهواءهم : وهو ينقل كسبه الذى ناله منذ لحظة إلى مهزلته ، ويضعه فى موضعه المضبوط ويمنحه القيمة الدقيقة التى تلائمه . ولم تكن نتيجة هذا غير مكترث بها ، بل فى الغالب كان ينشأ له من ذلك إنتاج رئيسى .

يشبه رامون دى لاكروز قريبه الإسپانى ، فلديه نفس الدقة ، ونفس البساطة مع شىء من الهجاء أشد لذعاً . وهو فى اللوحات الكبرى ، يظفر بنتائج سيئة ، ولكنه فى الصغرى يبدع ، إنه أستاذ فى وصف الكافة من الشعب ، وهو يلاحظ طباع صعاليك شعب مادريد فى الطرقات ، وفى الميادين ، وفى سوق روسترو ، أيام الأعياد ، والأيام العادية ، وهو يرسمها قائلا : « إننى أكتب والبيع يملى » .

وفيلاند ! أليس حاذقاً فى الذكاء ؟ لا جرم أن لديه منه أكثر من اللازم ، وهو لا يرتبط بالأشياء الارتباط الكافى ، لأنه يبين فى وضوح المميزات والنقائص لكل شىء إلى حد أن صار ارتيابياً . إنه يقتبس من جميع كبار المؤلفين ، ولكن دون أن يحتفظ بكسب محقق ، إنه يخضع لجميع التأثيرات ، ولكنه فى كل واحد من تفضيلاته الحائلة يلتقى المرء بأسف على ما كان يستطيع اختياره ، ولكنه لم يختره ، إذ ليس تلاؤم الفكر هو الذى يعنيه بل اختبارها . وعندما يعرف الطريقة التى صنعت بها تصبح ولا فائدة لها عنده ، ويهجرها ، بل إن سخريته خفيفة ولا تعتبر جدية تماماً ، لأنها لو صارت غضباً ، لافترضت عدم فهم ما يسخر منه . وعدم الفهم عنده عيب رئيسى أى هو منقصة الحمق . وإذا كانت رواياته لا تكاد تنتهى ، فذلك لأنه هو السائر الذى لا غاية له ، والذى يصل إلى مسكنه على أتم ما يمكن تأخراً لكى يضاعف المسرات التى تقدمها إليه إمكانيات الطريق . وإذا كان شعره ليس سوى نثر ساحر ، فذلك لأنه لم يكن بالنسبة إليه سوى لعبة محببة . إن وطنه ليس هو إغريقا ، وإنما هو بالحرى تلك الجماعة

الأوربية التى اتخذت العقل شارة من شارات الائتام : إنه لم يتغن باسم « الرشيقات »[١و٢] وقد استجبن له بل يوشكن أن يكن ، قد أفرطن فى الاستجابة .

كانت النكتة زهرة ذلك العصر ، وتلك هى الروح الدقيقة التى كانت تتركز فى اللذعات ، وتنتشر فى الهجاء ، وتنزلق فى الروايات ، والتى كان الناس يتنسمونها فى كل مكان . كانت النكتة وحدها — ولو لم تكن مصحوبة بموهبة أخرى تكفى لتحقيق الشهرة بل المجد تقريباً ، فالأب جاليانى السكرتير القصير لسفير نابولى فى باريس مثلا يدخل عند مدام ديبينيه أو عند البارون دولباك — والكل ينتظر مجيئه ، فيغوص فى مقعد وثير وينتزع شعره المستعار الذى يضايقه ويضعه فوق قبضته ثم يبدأ فى الحديث والهياج والإفراط فى الحركة ، فيقول إن دورا الشاعر الذى نشر آنفاً طبعة مصورة من منتجاته ، فنجا من الغرق بفضل تعلقه بلوح بعد لوح[٣] .

ويقول إنه قد قرأ أفكاراً عن الخطط الحربية للسيد دى سيلفا الذى يريد أن تطول الحربة ، وتقصر البندقية ليحسن الجندى الهجوم ، وذلك كما فعل اليسوعيون الذين أطالوا قانون الإيمان ، وقصروا الوصايا العشر ، ويقول إنه ينبغى وضع الأوبرا الفرنسية فى حاجز سيفر بإزاء معارك

---

(١) الرشيقات هن فى الأساطير الهيلينية ثلاث إلهات بلغن فى السحر أقصاه وفى الفتنة غايتها ، ولا يستطيع أى إنسان أن ينجو بقلبه من غرامهن . وتدعى أولاهن « أجلاليه » وثانيتهن « ثاليا » وثالثتهن « أوفروزينا » . (المترجم)

(2) Musarion, oder die Philosophie der Grazien, 1768.

(٣) لما كانت كلمة « بلانش » تدل فى اللغة الفرنسية على اللوح الخشبى ، وعلى لوحة الصور والنقش فى الوقت ذاته ، فقد تيسر لصاحب هذه النكتة أن يقول إن هذا الشاعر الردىء قد استعان بلوحات الصور التى فى ديوانه لينجو من هلكة النقد ، كما يستعين الغريق بالألواح الخشبية لوحاً بعد لوح لينجو من الغرق . (المترجم)

الثيران ، لأن الحلبة الكبرى يجب أن تكون خارج المدينة .. ويقول إن المغنية سوفى أرنولديها أجمل ربو سمعه فى حياته . وإذ يسمع الناس يأسفون لنقل الأوپرا من القصر الملكى إلى قاعة تويلرى ، لأن هذه الأخيرة صماء ، يقول : ما « أسعدها » . ويقول إن سفيره غبى وكسول ، وهذا أفضل ، لأنه لو كان غبياً ونشيطاً ، لكان ذلك خطراً وأى خطر !

وعندما كان الناس يأخذون عليه غرائبه كان يقول : إنه معتاد أن يوجد فى الخطأ إلى حد أنه يشعر بنفسه فيه كالسمك فى الماء .

وعنه يقول ديديرو : « دخل الأب جاليانى ، فدخل مع هذا الأب الظريف ، المرح والخيال والنكتة والجنون والمزاح وكل ما ينسى مشقة الحيـــاة » ؟

بيد أن أشهر المنمثلين لهذا النوع هو ڤولتير ، وهو ذكى ذكاء جديراً بالإعجاب إلى حد أنه حين لا يفهم ، يكون معنى ذلك أنه لا يريد أن يفهم . ويبدو أنه قد أضاف إلى النكتة ، محمدته الأشد ندرة ، وهى الطبيعة . أما كيف كانت هذه النكتة التى كان ثرياً بها إلى حد غير قابل للنفاد ، فقد قال ذلك هو نفسه : « إن ما يدعى بالنكتة هو تشبيه جديد حيناً ، وإشارة دقيقة حيناً آخر ، وهى هنا إساءة استعمال كلمة يقدمها الناس فى معنى ، ويدعونها تفهم فى معنى آخر ، وهى هناك ، علاقة دقيقة بين فكرتين قليلتى الانتشار ، وهى مجاز غريب ، وهى بحث عما لا يقدمه الشيء بديأ ، ولكن عما هو فيه فى الواقع ، إنها فن الجمع بين شيئين متباعدين ، أو تقسيم شيئين يبدو أنهما منضمان ، أو معارضة أحدهما للآخر ، وهى فن عدم تعبير المرء إلا عن نصف فكرته لكى يدعها إلى التنبؤ . وأخيراً كنت سأحدثك عن مختلف الطرائق بإبداء النكتة لو كان لدى عنها أكثر من ذلك » .

لم يكن المعنى الشعرى هو الجانب القوى لهذا الأدب ، فهو فى الحقيقة كان يتطلب النثر ، وهو فى الواقع كان يخلق نثراً جديداً كما يحطم الجملة

المصوغة على النظام القديم ، والتى كان يجدها ثقيلة ، حتى عند أسلافهم الذين عرفوا كيف يستعملونها استعمال المعلم . وكان يستبعد التشبيهات ، والصور والمجازات كما لو كان يريد أن يجرد الفكر عن كل ما لم يكن هو هى ذاتها . وكان يخلص مجموع المفردات من الكلمات غير المؤكدة وغير المضبوطة ، والتى هى موضوع الريبة ، وكان يبتدئ صورة هى على الفور قابلة للمعرفة ببساطتها المثالية ،وطريقة نشيطة هى دائماً مباشرة ودائماً سريعة، وهى تنبذ المعنى المخالف الناشئ عن إبهام العبارة ، وعن تحميل الأسلوب بما لا يطيق . وكان يتجه إلى غايته السريعة ، وكان أحياناً يلغى الروابط العابثة والتنسيقات الشديدة البطء ، بل العبارات الوساطية التى لا تفيد إلا ذوى العقول السميكة .

كان مجرداً إلى حد أن المرء حين يعجب به كان يعانى مشقة فى أن يجد بواعث هذا الإعجاب ، وكان يجب أن يكتفى بأن يردد كلمة إنه كامل . إنه كان الخادم الطيع للفكرة الجلية ، وكان الوسيط الذى لا يخدع ، بل إنه لم يكن وسيطاً إلا لماماً ،طالما أنه كان مطابقاً للروح التحليلية التى كان عصر الفلسفة المحظوظ يطبقها على كل شىء .

فى فرنسا صار النثر هو الصفاء ذاته ، بل إنه كان مفرطاً فى الصفاء وكان ذلك عيبه إذا كان فيه عيب ، فقد بدأ يفقد الألوان .

وفى ألمـــانيا كان يتم العمل الذى يجب أن ينتهى إلى تركز أسلوب ليسينج وقوته .

وفى إيطاليا كانت الحرب ، فالمجددون لم يكونوا يخشون أن يغيروا جملهم حسب بدعة باريس وأن يحملوا مفرداتهم بالتعبيرات الخاصة باللغة الفرنسية . والمتزمتون كانوا يستنزلون عقوبة السماء على أولئك الكفار . ويقينا أن هؤلاء الكفار كانوا مغالين وأن أولئك المتزمتين كانوا مغالين

من جانبهم . ولا جرم أنه بوساطة مجهوديهم المتناقضين المتضافرين فى إيطاليا ، كما فى كل أوروبا ، قد نشأ النثر الحديث .

أدب الابتهاج الاجتماعى

هناك عصور أخر ستهتم بالفرد فيما لديه مما لا يقبل الاشتراك . أما هذا العصر فإنه يعنى بما لديه من المشترك بينه وبين إخوته . وهو يعتقد أن تشابهات بنى الإنسان تأتى من الطبيعة ، وأن التباينات تأتى من العادة تسطع بوساطة حتى السابقية وحده . وإذن فتلك الحقبة تجتهد فى دراسة ما يوحد ، لا ما يفرق ، وتشير إلى المعالم التى كان المصريون والفرس بواسطتها قد دخلوا فعلا فى مجتمعاتنا الراهنة ، لا إلى المعالم التى كانت تحتفظ بهم بعيداً عنها ، وتشير إلى المعالم التى كان للأوتانتو بوساطتها أحاسيس نفسية كأحاسيسنا لا إلى العلائم الخاصة التى تجعلهم أو تانتو بصورة نوعية .

وهكذا كان توثيق الرابط الاجتماعى إحدى وظائف الأدب . وفى هذا تتحدث أميلى[1] دوقة دى ڤيار ، عن ڤيلاند فتقول : « إنه يبدى فيما يكتبه أن معرفته بالقلب البشرى بوجه عام تعظم بقدر ما تضوءل معرفته بتفاصيل القلب البشرى والأفراد » .

يمكن أن تنطبق هذه الكلمة على كثيرين آخرين عندهم طموح إلى الابتكار فإن لم يكن لديهم قلوب متحدة ، فلديهم على الأقل روح عامة . لم تتخذ عبارة « المكاتبة » ، ألبتة ، معنى عميقاً إلى هذا الحد ، فالرسائل

---

(١) أميلى هى دوقة ڤيارو وابنة شقيق فريديريك الثانى وقد صارت أيما منذ التاسعة عشرة وبقيت وصية على عرش ابنها شارل أوجست سبع عشرة سنة وظل سلطانها قائما أثناء حكمه وقد كانت حامية للآداب والفنون فاجتلبت إلى بلاطها وإلى جامعة يينا التابعة للوقيتها أكثر من تحتويهم ألمانيا من كتاب كڤيلاند وهيردوليشت وشيلينج وشيرجوث ومن إليهم (المترجم)

هى استمرار الحادثة ، وهى التى تحفظ حيويتها . ومؤلفوها يعتقدون أنهم لا يزالون يتحدثون بعيداً عن المنتديات التى ينقلهم إليها حنينهم ، وهاك رسالة منها وصلت آنفاً ،فشكلت الدائرة فى النادى ثم تليت على الحاضرين كما تصور ذلك الرسالة الأخرى التالية : « إن رسالتك ساحرة يا عزيزى الفارس ، ولقد نالت إعجاب جميع الذين تلوتها عليهم ، وإننى أجدك كما كنت فى أجمل أيامك . . . إنى استقرأت رسالتك بوساطة دالمبر أمام مدام دو شاتيليه ، ومدام دى ميربوا ، فطلب المستمعون استئناف تلاوتها مرتين أو ثلاثاً ، ولم يستطيعوا أن يملّوها ، ففى الواقع إنها إنتاج رئيسى »[1] .

كانت تعالج جميع الموضوعات ، تلك الرسائل التى كانت بساطتها دائماً جديرة بالإعجاب ، فهى لا ترفع الصوت بما فيها ألبتة ، لأنها لو كانت تحمل أقل أثر من آثار الخطابة لفقدت نتيجتها ولدفعت الناس إلى الابتسام . إنها تروى صغار أحداث اليوم ، والتمثيل الأخير فى الأوبرا ، والمأساة الجديدة ، وأخبار الحلول والارتحالات ، أو أن مدام دى پومپادور جد مريضة وأنه يقال إنها ستموت ، وأن الملك متحير فى شؤونه المالية ، وأن هذه ليست هى المرة الأولى .

إنها تصدر أحكامها على الكتب التى تظهر مثل « تقريظ الأب دى پراد » أو مجلدات دائرة المعارف ، ورسائل ڤولتير الهجائية ، أو روايات ريشار دسون : « پاميلا ، وكلاريس ، وجراندیسون . التى تطلق عليها اسم رسوم الطبقة العالية كما يدركها صاحب مكتبة ، : واسم قصص حب كما يستطيع أن يكتبها واعظ من شيعة « الميتوديست » البروتيستانتية[2] ؛

(1) Madame du Deffand au Chevalier d'Aydie, 14 Juillet 1755.

(٢) ريشار دسون كان أول الأمر صبى طباع فى لوندن ولما نجح فى مهنته تزوج ابنة صاحب المطبعة ولم يلبث أن صار تاجر كتب ثريا وكان متطرفا فى الميل إلى مهاجمة أخلاق عصره ويخيل إلى من يقرأ كتبه أنه أمام عظة رسمية لواعظ دينى حقيقى ويرمز المؤلف هنا إلى أن =

وهي تعلق على السياسة ، وتناقش شؤون الدين . ولكن من يقبض على القلم – فيما عدا بضعة استثناءات – لم يكن ليتحدث عن متاعبه ، ولا عن يأسه ، ولا عن شذوذ أحاسيسه النفسية ، ولا عن استثنائية طويته ، ولا يقول كيف أنه أبأس بني الإنسان ، ولا أنه ولد على برج أشد الحظوظ قتوماً ، وكيف أنه لا يفهمه أحد ، وكيف أنه منعزل في وسط عشيرته ، وكيف أنه يقيم في جزيرة غير ممكنة الدنو قضى عليه الحظ بالثواء فيها دائماً ، بل على الضد من ذلك توجد محاكاة طبيعية تحمله على ملاءمة من توجه إليه الرزانة وعلى اتخاذ لونه ومزاجه ، وإعطائه معلومات ، مجنباً إياه عدم الفطنة الممثلة في الأنانية .

كانت هذه الرسائل تصدر عن باريس ولندن وبرلين وميلانو وروما ؛ ومن هذه المراكز إلى المدن البعيدة التي هي في حدود أوروبا ، إنها تثبت شبكة من الخيط تمر منها دورة الفكر ذهاباً وإياباً . وذلك كرسائل مدام دو ديفان التي تحمل روح متنداها إلى أعماق روسيا ، ورسائل مدام دي جرافيني ، ومدام دي استال ، وقد وجد في العالم منذ ذلك الحين جمهور من مثيلات مدام دي سيفينييه مع قسط أوفر من البساطة ، كرسائل فاني بورنيه ، ورسائل مدام دي مونتاجو التي ترسل أخبار القسطنطينية والشرق ، ورسائل الأب جاليانى الذى عاد إلى نابولى وجعل يضاعف الإشارات نحو باريس ، ورسائل هوارس والپول الإنجليزى ، ورسائل فريديريك الثاني التي كان من الممكن أن تكون أكثر الرسائل حيوية وأشدها قوة لو لم تكن هناك رسائل ڤولتير . ويمكن أن يقال بلا مغالاة ، إن كل كاتب قد ترك إلى جانب إنتاجه ، مجموعة من الرسائل هي غالباً متساوية مع ذلك الإنتاج ، وأحياناً أسمى منه . حقاً إن الرواية المؤلفة في

–رسائل القرن الثامن عشر كانت تشير إلى مهنته كتاجر كتب وعظاته المتطرفة في الأسلوب الديني . (المترجم)

صورة رسائل ، تبدو لنا اليوم صناعية ، ولكنها كانت طبيعية فى الوقت الذى لم تكن فيه الرسائل كلفة ، بل كانت لذة كل يوم .

هناك لون آخر له الحظوة فى تلك الحقبة ، وهو الدوريات . وقد كتبت عنها دائرة المعارف ، تحت كلمة « الأسبوعى » تقول : « إنه ما كان فى كل أسبوع ، فمثلا أخبار أسبوعية ، وصحف أسبوعية وهى أخبار وصحف توزع فى كل أسبوع . وكل هذه الأوراق هى غذاء الجهلاء ، وهى موئل أولئك الذين يريدون أن يتحدثوا وأن يحكموا بلا قراءة ، وهى كارثة من يعملون ، وتقززهم . وهى لم تنتج ألبتة ، سطراً واحداً لعقل جيد ولم تمنع مؤلفاً رديئاً من إنشاء كتاب ردىء » . ولكن ذلك كان حدة عابثة ، إذ كيف يمكن وقف الغزو : ما دام أنه قد استدعته الحاجة المتزايدة إلى الترابط ؟ ففى انجلترا نشاهد أخلاق استيل[1] ، وأديسون[2] ، قد أنشأوا ثروة فى بلادهم الخاصة ، لأن أكثر من مائة وخمسين دورية ، كانت تقدم إلى حب الاطلاع لدى جماهير القراء من الإنجليز ، حين أخرج صمويل چونسون ، فى سنة ١٧٥٠ ، صحيفته «الرامبلر» . ومن انجلترا ، جعلت الصحف الأخلاقية تنتشر فى كل مكان حتى اقتحمت البلاد التى وصلت متأخرة إلى الحركة العامة كهونغاريا ، وپولونيا ، ولكن هذه الصحف لم تصادف ، فى أى مكان ، جواً ملائماً لها إلا فى ألمانيا ، فمنذ سنة ١٧١٣ — حيث ظهرت فى هامبورج ، أولى تلك السلسلة من الصحف ، وكان عنوانها « المعقول » — إلى سنة ١٧٦١ قد أحصى الباحثون ١٨٢ مائة واثنتين وثمانين مجلة من نفس النوع . وكان ذلك أيضاً نوعاً من التراسل بين

---

(١) و (٢) استيل وأديسون هما كاتبان انجليزيان ظفرا بالشهرة على الأخص لامتيازهما الصحفى ، فقد أسس استيل صحيفة « المهذار » وساهم أديسون فى هذه الصحيفة فى سنة ١٧٠٩ ، وفى سنة ١٧١١ خلفت صحيفة « الاسپكتاتور» صحيفة « المهذار » ، وصارت أشهر منها وقد كتب فيها أديسون ، أشهر مقالاته . (المترجم)

الناشر والقراء ، ورابطاً بين أعضاء الطبقة الواحدة ، الذين هم جميعاً يتبادلون التربيـــة فيما بينهم والذين كانوا جميعاً يتداولون ، المحددات العقلية حقا ، وكانوا يتلذذون بالآراء المشتركة عن احتقار الثروات ، وعن قيمة الفضيلة ، وعن الطريقة اليقينية للحوق بالسعادة . ولما كانت هذه المجالات القومية لم تكف ، فإن أخريات دولية ، كانت تنشط حركة الفكرة التى صار تبادلها هو الطموح والقانون .

غير أن النوع الصغير لم يلبث أن جعل يحل شيئاً فشيئاً محل النوع الكبير ، أى لما لم يعد من المستطاع النجاح فى الملاحم ، فقد أخذ الشعراء يكتفون بقصار القصائد الإطرائية ، وبقطع شعرية صغيرة تحل محل القصائد الطوال . وإذ كان أهل الطبقة العالية قد تعبوا من تمثيل المهازل والمآسى فى حفلاتهم ، فقد انتهوا إلى مسرحيات شديدة القصر ، أطلقوا عليها ، اسم «الأمثال » وقد جعلت الأوبرا تنزل إلى « أوبرا — هزلية » وتحولت الأغانى العظمى إلى أغنيات صغيرة . وكما أن الناس فى المبانى يفضلون المنازل البسيطة على القصور الرحبة المصحوبة بأجنحتها الجليلة ، وفى الرسم طفقت اللوحات الصغيرة ، تخلف كبريات الصور الناطقة المرسومة على الحوائط . وفى الأثاث ، جعلوا يفضلون المقاعد الوثيرة على الكراسى الخشبية الواسعة ، وفى ترتيب الحياة ، بدأ الجميل يأخذ مكان العظيم ، كذلك فى الأدب لم يعد الذوق يتجه إلى التشبيهات الرسمية . حقاً قد استمر الجميع يعزون الفكر ، ولكنهم كانوا يبدون نوعاً من التدلل فى أن تلوح عليهم ملامح أنهم لايفكرون بهيئة جدية ، بل إنه فى وقت فوران الفكر أى وقت ظهور « محاولة على الإنسان » ودائرة المعارف ، كان هذا التناقض يظهر ، أو بالحرى ، لم يكن ذلك تناقضاً ، وإنما كان امتزاجاً غريباً فَقَدَ سِرَّه ، حتى لكأنه يقال إنه كان يوجد لدى هذا المؤلف أو ذاك رجلان ، أحدهما متصنع ومتعاظم ، والآخر كله ابتسام وسهولة ، فكان «جريسيه» مثلا شخصيتان

إحداها هى التى كانت تؤلف تلك القصيدة الطويلة التى عنوانها « إنكار الجميل » والتى منها مايلى :

« أية إلهة مرعبة ذات وجه شاحب ، تلك التى تنفث السم الأسود فى هذه الأمكنة ؟ ويدها تقبض على هذا الحديد الذى يقتل الوالدين ، والذى شقّ قلب أجريبين[1] . إن النسيان الذى لايحس ، والوقاحة والمقت الكامن ، كل هذه تحوط فى صمت ، ذلك الوحش الماجن ، وأيديها البربرية كل واحدة بدورها ستملأ كأسها فى الجحيم من ماء نهر « ليتيه[2] » البارد » .

والشخصية الأخرى هى التى كانت تؤلف القصيدة التى عنوانها « أخضر ــ أخضر » والتى منها ما يلى :

«إننى قاهر الغم المذهل ، بوساطة استعداد سعيد ،وإننى أعرف أن أصنع لنفسى تسلية هزلية من المشقة التى أرسمها . ومن ثم فإن الشعر المحبب ــ وهو الذى فى بقية جوانب الحياة ، يحمل قليلا من الفائدة ــ يأتى ليلطف قسوة أقل الموضوعات سروراً ولينقذنا ، ولو على الأقل بوساطة الخرافة ، من أضجار الحقيقة » .

وأكثر من ذلك أن العبقريات نفسها ، كانت تتبع البدع إذ كان لمونتيسكيو شخصيتان ألفت إحداهما « روح القوانين » بينما كانت الأخرى تبتدع التنكيت على القوانين .

وكان الناس يشاهدون مناظر غريبة ، ومن أمثلة ذلك أن ألمانيا الممزقة قد شعرت بنفسها فأرادت أن يكون لها أدب قومى على غرار الدول الأخرى . ومع ذلك فقد تخرج فى جامعة هال التى كانت إحدى قلاع الفكر الألمانى ،

---

(١) أجريبين هى والدة الإمبراطور نيرون . ولما طغى ابنها وداس العدالة جعلت تؤنبه فى قسوة فلم يسعه إلا أن يأمر بقتلها . (المترجم)

(٢) نهر ليتيه هو فى الأساطير الهيلينية نهر فى الجحيم يصاب كل من يشربون من مائه بالنسيان . (المترجم)

ثلاثة طلاب أصدقاء وهم چوان لودڤيج ، وڤيلهيلم جليم ، وچوان پتير أوز ، وچوان نيكولوس جوتز الذين كانوا مؤسسى الشعر الغنائى ، وأى شعر غنائى ؟ إنه شعر أناكريون ، إذ أن هـذا الأخير كان أستاذهم ، وكانوا يمجـدون معه باكوس الملطخ بالثمالة ، ويتغنون بالنبيذ والموائد والجميلات والحب .

أما كارل ڤيلهيلم راملر ، فقد كان تجسدا للكلاسيكية العقلية ، فماذا كان نموذجه ؟ إنه هوراس ، ولم يكن هناك شىء يسبب له سروراً أشد قوة من أن يدعى هوراس الألمانى .

ولقد كانت حالة فريدريك ڤون هاچيدورن أيضاً أكثر إدهاشاً ، فقد اقتاد الكلاسيكية إلى أعلى إمكانياتها ، فعمل على تنقية اللغة والأسلوب ، وعنده أن الابتكار الشعرى ليس هو مجهود النفس التى تعلن عن ذاتها للكون ، أو التى تستولى على الكون لكى تحصره فيها ، ولكنه للعلاقة المعقولة بين الأجزاء والمجموع . إنه وضع نفسه فى المدرسة الفرنسية ثم فى المدرسة الإنجليزية ، وعرف كيف يستفيد من هذا الدرس المزدوج ، لأنه ظفر بالمعنى الجلى البسيط المعقول ، ولكن هناك معنى لم يظفر به . وهو معنى العمق ، والطيش لا يبدو له متنافراً مع جديته ، بل إن لديه للأول حباً يعترف به ، وقد كتب فى هـذا كريستيان لودڤيج ليسكو فى ٨ ديسمبر من سنة ١٧٣٩ يقول : « إن أنوار اللذات هى الوحيدة التى تنقصك والتى بها تكون إنساناً كاملا » .

كانت هناك إيطاليا جدية وذات إرادة ، قـد أعدت ، بمعونة مفكريها ، إصلاحاً اقتصادياً وإصلاحاً ريفياً . وفى الوقت ذاته كان هناك شعب من الكافة ينشغل بأن يصنع شعرا بلا قيمة ، أو بإنتاجات أخرى تافهة ، فالأعراس والموالد والتعميدات ، ومناسبات التحاقات الفتيات بالرهبانية ، والامتحان الذى مر فى نجاح ، والشفاء ، وأعياد الميلاد . كان

كل ذلك هو الموضوعات الضئيلة التى كانت تستثيرهم للكتابة . ومن ثم فإن البلاد كانت مغمورة بقصائد من جميع الأنواع كـ « إيليجيا » و « كانتات » و « أوديه » و « سونيه » . ولقد كانت هناك سهولة مؤسفة تحمل العاطلين على اتخاذ الأقلام ، وجعل القصائد تسيل منها ، فكانوا يتلهون بإنشاء الشعر كما كان الناس يتلهون فى فرنسا بفك خيوط الأنسجة أو بمزاولة لعبة « بيلبوكيه » . ومن تلك القصائد ما يلى :

« إلى السيد المركيز پيير ماريا ديلا روزا الذى — ولو أن الخريف قد أتى — استمر يعيش فى الريف » و « فى سبيل مشبك كان يغلق خماراً على صدر نيريه ، وقد أخذه ڤيلاند » و « إلى عروس محبوبة من عرائس الغابات كانت ترتدى جونلة وردية وبلوزة زرقاء » و « على كاناريا كريناتيه الجد جميلة » و « على إرسال كلبة صغيرة جميلة إلى السيدة التى يحبها . . . » .

أية موضوعات جميلة ! كان الشاعر يقدم قصيدة صغيرة أنشئت فى الصباح ، كما كانت تقدم علبة نشوق ، أو ملبسة ، وكان الناس يتبادلون الشعر ، كما كانوا يتبادلون المدائح أو التبجيلات . وكانت تلك هى الإشارات الطقوسية لمجتمع كان أعضاؤه يشبهون ممثلين فى المسرح بمساحيقهم وأصباغهم ، بدخولهم وخروجهم فى آنات معينة ، وبأجوبتهم وأدوارهم . كان الشعراء ذوو الألقاب الذين يتناولون أقواتهم غير المؤكدة والآتية إليهم من مهنهم كمنتسبين إلى البلاط ، والشعراء الهواة الذين لم يكونوا ، لأى سبب فى العالم يتنازلون عن أماكنهم الصغيرة فى الموكب الذى كان يحاول الصعود إلى الپارناس ، والشاعرات أيضاً ، كل أولئك كانوا ينظمون : وكانوا يعملون على طبع قصائدهم على ورق جميل أو على حرير بلون الورد ، ثم كانوا يجمعون ياسمين ، منتجاتهم الرئيسية كـ « دموع على موت هير » . لم يكن مقلدو أناكريون وهوراس فى إيطاليا أقل عدداً منهم فى ألمانيا .

غير أنهم كانوا يتوهمون أنفسهم أقل من أولئك ، وأن فروجونى — وهو أحد ممثلى أولئك الشعراء القصيرى الأعمار — كان يسائل نفسه قائلا : « من أنا ؟ إننى نظام لا أكثر ، ولست شاعراً » — وكان يعرف جيداً أنه حين يموت ، سيموت شعره معه فى النسيان .

ذلك لأنه كان ينبغى الاستمتاع على الأقل بهذه الحياة الأرضية ، وأن اللذة ، مهما فرضت واهنة ، لم تكن تستحق الازدراء ما دام أنها كانت تجعل الوجود أكثر عذوبة . لأن تلاؤمات عابرة قد دخلت من جانبها فى الإيقاع السعيد الذى كان يجب أن يصعد من الأرض ، ذلك لأن اناكريون كما يقول جليم — كان يطرد الهموم والذعر ، ولأن هوراس — كما يقول هاچيدورن — كان فيلسوفاً محبباً ، وأنه أريستيب[1] ، وليس ديوچين »[2] وأنه صديق للإنسانية ، ولأنه كان يمثل التنعم واللذة كما يوجه إليه ڤولتير الحديث فى غير كلفة ، فيقول :

« إننى أكتب إليك اليوم يا هوراس اللّذّى ، إليك أنت الذى تتنسم التنعم والرشاقة ، والذى أبرزت نفسك ليناً فى شعرك ، ومرحاً فى خطبك ، والذى تغنيت بأوقات الفراغ الحلوة ، وبالنبيذ والحب » .

ولأن الحوادث أيضاً عندما تعاظمت ، طلبت مكانتها . وأخيراً لأن بضع فكر رئيسية من فكر العصر التى عبر عنها قادته ، قد نزلت إلى الجماهير التى كانت تتبعهم ، وذلك كفكرة أن السعادة يجب أن تقتنص فى جميع صورها ، وفكرة أن اللذة هى العنصر الجوهرى للسعادة . « ولقد كان

(١ و ٢) أريستيب هو مؤسس المدرسة القورينائية وكان يعيش فى القرن الخامس قبل المسيح وكان يبشر بأنه لا توجد سعادة إلا فى المسرات الوقتية الناشئة عن أحاسيسنا الراهنة ، وبأن الفضيلة هى التنقيب عن المسرات . وأما ديوچين فهو أحد أعلام المدرسة السينيكية وقد عاش فى القرن الرابع قبل المسيح وكان يبشر بأن الحرية هى غيبة الرغبات ، وأن أحكم الناس هو من كان أقلهم حاجة . (المترجم)

الأدب فى ذلك العصر ، كما يقول السيد لانسون ، زخرفا من زخارف الحياة ، وإحدى المتع التى تتكون منها السعادة التى هى غاية طبيعتنا ، وكانت اللذة هى القانون الأعلى »[١] .

إن أدب اللذة كان يمكن أن يكون قصائد غرامية ، وقصصاً خليعة ، وروايات داعرة . غير أنه أحياناً كان يصل إلى أن يظفر بالرشاقة . وعندئذ يكون نجاحه الأسمى . ولم تكن تلك رشاقة تلقائية ، بريئة جاهلة بسحرها ، ولكنها رشاقة عالمة كانت ميزتها أنها رقيقة ودقيقة إلى حـــد أن سرها قد غاب عنا . إنها كانت لحظة من لحظات الموسيقا ذات الأجنحة ، أو رؤية سريعة لنقوش تنتشر ، أو انعكاساً على مرآة من الماء .

وصلت هذه الرشاقة إلى حد الانبجاس من مجموعة وسائل ضخمة على نفس النحو الذى ينبغى لجهاز معقد ، لكى ينتج البروق واللموع . وفى الواقع أنها كانت جهازاً ضخماً ، تلك الأوپرا على الصورة التى وصل بها إليها ميتاستاز[٢] "Métastase" عندما أبلغها حد كمالها .

لنذكر بدياً أن النّص الكلامى للمسرحية الغنائية التى هى الأوپرا ، هو أشد الأنواع تصنعاً ، وهو كما لاحظ ذلك بارينى ــ خاضع قبل كل شىء ، لجميع مطالب الموسيقا ، ثم لأهواء المغنين ، ثم للقواعد الضيقة التى تتطلب أن يكون ، فى فصل معين ، أمكنة لمحاورة ومناجاة غنائيتين ، ومناجاة إنشادية ، ثم لتضييقات مجموعة المفردات الخاصة التى لا تستطيع احتمال كلمة غير عادية أو التى ينقصها الانسجام . ولنضف إلى ما تقدم ، مصاعب أخرى أتت من ميتاستاز نفسه ، فقد كان يريد أن يشبه النص الغنائى مأساة ،

---

(1) G. Lanson, Voltaire, 1910, ch. 4, Le gout de Voltaire.

(٢) ميتاستاز هو شاعر إيطالى ولد فى مدينة أسيز فى ســنة ١٦٩٨ . وقد ألف فى عالم المسرح مآسى جديرة بالملاحظة ، وكان أسلوبه سهلا يسيراً منسجما يفهمه كل من يقرؤه ، وتعسر محاكاته على ما يحاول تقليده . وقد توفى فى سنة ١٧٨٢ . (المترجم)

وكان يدافع عنه باسم أرسطو ، وكانت الحرية الخفيفة التي استطاع أن يتخذها ، مؤسسة كلها على العقل . كل تلك ، شروط للمضايقة ، ومع ذلك فإن الرشاقة ستنقذ هذه المجموعة من الجفاف . وفى بعض الأحايين تصير جميلة وأخاذة إلى حد أن توجد الانفعال والدموع . وفى هـذا يقول استاندال : « إن عبقرية ميتاستاز الرقيقة كانت تحمله على الفرار من كل ما يمكن أن يسبب أقل غم ولو على البعد لنظارته . وقد أبعد عن عينيه كل ما يشتمل عليه غم العواطف من مؤلمات ، وليس عنده ألبتة نهاية تعسة ، وليس لديه ألبتة شىء من واقعيات الحياة المحزنة . وليس فى مسرحياته تلك الريب الباردة التى تأتى فتسمم أعطف الأهواء . ولم يتخذ فيها من الأهواء إلا ما كان ينبغى لجعلها شائقة ، وليس فيها شىء مر ، ولا وحشى ، ولقد صير اللذة نبيـلة » .

أو تخيل — بوساطة تجربة أخرى — أداة صغيرة وهى بيت ذو ثمانية مقاطع ، ونفساً جافة وهى نفس ڤولتير ، وموضوعاً من أكثر الموضوعات عادية ، وهو فرار الزمن ، والشيخوخة التى تدنو ، والموت الذى يصل ليطالب بما وجب له ، كل ذلك ستنقذه قوة الرشاقة التى لا يمكن تجنبها ، والتى توجد فى هذين البيتين :

« إذا كنت تريد أن أحب مرة أخرى ، فرد إلى سِنّ الحب . . . » .

كما كان ڤيلاند مؤلف كتاب « موزاريون أو فلسفة الإلهات الرشيقات » (١٧٦٨) ، كذلك كان أهل تلك الحقبة ، إذ كانت الرشاقات فى قلوبهم وصورة الحب للرسام كوابيل ، أمام عيونهم(١) .

---

(1) Heinse en parlant de Wieland. Cité par Victor Michel, Wieland, 1938.

أدب الوقائع أو التاريخ

وهنا يوجد أحد أعوص مشروعاتهم وهو تعقب الوقائع فى الماضى اللائذ بالفرار ، ولا بد أنهم حاولوه ليكملوا تصورهم للعالم . وعندما ينظر المرء إليهم ، يرى تحقق ما لا يخشى المؤرخون من أن يدعوه ثورة فى فكر الغرب[١] .

ولا جرم أن أولئك الذين كانوا يريدون أن يعيدوا إنشاء التاريخ ، لم يكونوا ليلقوا عناء لو أنهم لم يواجهوا إلا الأعداء الخارجيين الذين كانوا كثيرين ، ولكنهم قليلو الثبات وهم الخطباء الذين لم يكن التاريخ بالنسبة إليهم سوى سلسلة من الأحداث العجيبة ، والأعمال الجديدة الغريبة ، والفواجع المتنوعة ، كالحروب والتمردات والفتن والقضايا وأحداث الحب. وكان هؤلاء الخطباء يتغلغلون فى مكاتب الموتى من الملوك ، ويرون مناقشاتهم ، ويرددون خطبهم ، ويرسمون صورهم . إنه كان « تاريخ مأساة » :

وعلى أثر هؤلاء أتى السطاؤون[٢] . كرولان الذى اعترف بأنه — لكى يجمل ويُغْنى كتابه « التاريخ القديم » — لم يتردد فى السلب من كل مكان بل كان ذلك فى الغالب بلا ذكر أسماء المؤلفين الذين ينسخهم ، ما دام أنه كان يمنح نفسه الحرية فى أن يغير نصوصهم حسبما تسنح الفرص .

أتى بعد ذلك الجرآء — أو قد يكونون هم السذج — الذين واجهوا بلا تردد ، التاريخ العام والمدنى والطبيعى والسياسى والدينى لجميع شعوب العالم ، والذين — على الطرف المضاد — كانوا يركزون التاريخ كأنهم يضعونه فى حبوب ، كالأب بوفييه الذى أثنى على استعمال الذاكرة الصناعية ، فمثلا

---

(1) Friedrich Meinecke, Die Entstehung des Historismus, Berlin, 1936.

(٢) السطاؤون هم طائفة من أدعياء الكتاب كانوا يسطون على منتجات الغير فينتقون منها ما يحشون به مؤلفاتهم ، دون ذكر منتجيها الحقيقيين . (المترجم)

بفضل كلمة « رابيسماف » وحدها كان المرء يتذكر سلسلة جميع ملوك أراجون ، بل استقراراتهم وفتوحاتهم لأنه عندما كانت الإشارات تعطى ، كانت الأسماء تأتى من أنفسها ، إذ أن « رابيسماف » تُذكّر رامير والفونس ، وبارسلونا (١١٣٨) وجاك وصقليا (١٢٧٦) ، ومارتان والفونس الخامس ، وفيردنان الخامس الكاتوليكى .

وهناك مقلدون للأب بوفييه قد وضعوا مثله ، تاريخ فرنسا شعراً على النحو التالى :

« إن فرامون ، منذ بدء الإمبراطورية الرومانية ، قد أسس الدولة « الفرانجية » حوالى سنــة ٤٢٠ ، كان ملكا وثنياً ، ولكنه عرف بكونه مشرعاً حكيما ، فأقر القوانين وأبان استعمالها ، ولم يدخل هذا المؤسس ألبتة بلاد الجولوا . ولقد منع النساء من أن يخلفن الملوك بوساطة القانون « ساليك[١] » الذى اتبع دائماً . . . » .

وهناك مربون آخرون كان لديهم كتب تعليمية ألفت على صورة أسئلة وأجوبة على الطراز التالى :

سؤال — ماهى سجية الملك لويس الحادى عشر ؟ .

جواب — كان سياسياً ، سيداً لأهوائه ، شجاعاً ، معتدلا فى لذائذه ، تقياً فى الظاهر ، ولكنه سيئ الظن ، حقود ، شديد الاختفاء ، وكان ملكاً قوياً مطلقاً وأن الأجيال التى تلت عهده وضعته فى عداد الأمراء

وأخيراً كان هناك مؤلفو قوائم الاصطلاحات والملخصات الزمنية التى كانت ترص بلا مراجعة ، أحداثاً موضع ريبة وتآريخ غير يقينية ؛ أما المؤرخون الحقيقيون ، فلم يكن يوجد منهم أحد .

---

(١) القانون ساليك هو شريعة وضعها فارامون ملك الفرنجة ، وهى تمنع النساء من وراثة العرش وقد كان هذا التشريع منشأ لحرب المائة عام حين طالبت انجلترا بعرش فرنسا باسم وراثة النساء للعرش فرفضت فرنسا ذلك استنادا إلى القانون ساليك . (المترجم)

غير أن أولئك المجددين ، كانوا يجلون أعداءهم فى داخل أنفسهم . ذلك بأنهم كانوا يعرفون جيداً أن صبراً طويلا كان ضرورياً لهم ، ومع ذلك فقد كانوا معجلين ، ولم يكونوا يستطيعون الاعتماد إلا على التبحر فى العلوم ، وكانوا لايحبون هذا التبحر . وفيما يتعلق بالقراءة والبحث والاستعلام ، كانوا على وفاق ، ولكن التنقيب فى السجلات وجمع المستندات وتحطيم أبواب مستودعات المصادر ، إذا لم تنفتح من نفسها ، كل ذلك كان يبدو لهم عملا من أعمال التحذلق ، وكانوا يمقتون أمثال بالدوس[١] وشيوبيوس[٢] وليكسيكوكراسوس واسكريبلبروس . وكانوا يميلون إلى الخلط بينهم وبين العلماء الحقيقيين . وفى هذا يقول الأب كوابيه : « إننا لم نعد فى عصر فوسيوس[٣] وهويه[٤] وكيرشيرس[٥] وبورشاردس ، وإن التبحر والبحوث الشيقة تتعبنا وإننا نفضل أن نجرى فى خفة ، على سطوح الأشياء ، على أن نحصر أنفسنا فى الأعماق[٦] » .

ويروى الرئيس بيبروس أنه حين كان فى مدينة مودينا وجدت لديه ساعة من الفراغ فنحها للمكتبة ولموراتورى "Muratori" العالم الشهير الذى انتزع من الظلام آثار العصور الوسيطة الإيطالية ثم قال : « لقد وجدنا ذلك الشيخ الخير بشعراته الأربع البيض ورأسه الأصلع والذى كان يعمل رغم

---

(١) بالدوس هو قنصل رومانى كان صديقاً لشيشيرون وقد ألقى لصالحه مرافعة ظلت شهيرة على الزمن . (المترجم)

(٢) شيوبيوس هو عالم لغوى ألمانى وكاتب ممتاز بخصوبته ووفرة إنتاجه . (١٥٦٩ — ١٦٤٩) . (المترجم)

(٣) فوسيوس هو عالم ألمانى ولد على مقربة من هيدلبرج من سنة ١٥٧٧ وتوفى فى سنة ١٦٤٩ . (المترجم)

(٤) هويه هو عالم متبحر فرنسى ولد فى مدينة كان سنة ١٦٣٠ . وتوفى فى سنة ١٧٢١ . (المترجم)

(٥) كيرشيرس هو عالم طبيعى يسوعى ألمانى (١٦٠١ — ١٦٨٠) . (المترجم)

(6) Abbé Coyer, Dissertations pour être lues, 1755.

البرد المفرط ، بلا دفء عارى الرأس ، فى ذلك الرواق المثلج ، فى وسط كومة من الآثار ، والمحفوظات العتيقة الإيطالية لأنى لا أستطيع أن أصمم على أن أمنح اسم الأثر لكل مايتصل بهذه القرون الدميمة الجاهلة ، وإنى لأتخيل أن هناك — فيما عدا اللاهوتية الجدلية — شيئاً مثبطاً بمقدار هذه الدراسة[1] » .

حقاً إن الرئيس ديبروس كان يوافق على أن قوماً مثل موراتورى يقذفون بأنفسهم فى هوة التبحر بفدائية كورسيوس[2] ولكنه لم يكن شغوفاً بمحاكاتهم .

ولاجرم أن مثل هذا البذل يكتبه المرء مع الزمن ويعتاد عليه ، ولكنها عملية دقيقة ، أن تجرد الوقائع وأن تُنتقى وتخلص من كل اختلاط .

بيد أن هناك ميزة لم تكن لتعزى إلى تلك الوقائع ، ومع ذلك فقد ربطها بها الباحثون ربطاً محكماً إلى حد أنها تبدو كأنها من جوهرها ، وهى العنصر الأخلاقى . إن التاريخ يجب ألا يكون غير مكترث بالأفعال البشرية ، بل ينبغى أن يبرز انهزام الرذيلة ، وانتصار الفضيلة ، وإن الأخيار ينبغى أن يكافأوا دائماً ، والأشرار يجب أن يعاقبوا دائماً ، ذلك هو الذى كان يردده الآباء والأجداد ، وإن جيل ما بعد سنة ١٧١٥ ، لم يجحد وراثته ، وإنما عدلها فحسب مضيفاً إليها أن الأخلاق — معلمة على هذا النحو — يجب أن تكون فلسفية ، بحيث يحل تسرعها محل التسرع القديم ، وإنه لم يصل إلى الظفر بالبقايا الموضوعية التى كان مع ذلك يشتهيها .

---

(1) Ch. Des Brosses, Lettres familières sur l' Italie, Lettre 53, 1740.

(٢) كورسيوس هو شخصية أسطورية رومانية . وتحدثنا الأسطورة أن هزة أرضية فى غابر الزمان قد فتحت هوة فى ميدان الفوروم ، وهو أعظم ميادين روما ، وأن الوحى قد أخبر بأن تلك الهوة لا تنسد إلا إذا ألقى فيها بأنفس كنوز روما ، ولما كان كورسيوس يعتبر أن قوة روما هى فى الأسلحة والشجاعة ، فقد ألقى بنفسه وسلاحه وجواده فى وسط الهوة التى لم تلبث أن انسدت . (المترجم)

وعند ذلك الجيل أن التاريخ ، بدلا من توجيه درسه إلى الرعايا ، سيوجهه إلى أولئك الفنانين التعساء الذين ندعوهم بالأمراء ، وأن هؤلاء الأخيرين مقضى عليهم بألا يروا الأناسى ألبتة إلا تحت القناع . وسيوجهه قطعاً إلى الكنيسة ، وسيكون ضد الإكليروس ، وضد البابوية . ولما كان هناك وجود مستمر يقض مضاجع المؤرخين الجدد ، فقد أرادوا أن يكونوا ضد بوسويه فى كل حدود قوتهم ، أى أنهم لن يبحثوا عن اتخاذ العصور الوسيطة على أنها واقعة تاريخية يجب فهمها ، بل على أنها خطأ ينبغى نقضه . وعندما سينبغى بسط وقائع الإسلام ، سيكون عملهم هو الانتقام له من افتراءات المسيحيين ، وعندما سيتحدثون عن الحروب الصليبية ، سيعتبرونها كتطرف فى جنون خطير ، وهم يطرون النهضة لمميزاتها الشخصية أقل منها لأنها افتتحت عصر العقل . وفى هذا يقول بولينبروك : « إن التاريخ هو الفلسفة التى تعلمنا بوساطة الأمثال كيف يجب علينا أن نسير فى جميع ظروف الحياة العامة والخاصة ، وبالتالى يجب علينا أن نتجه إليه فى روح فلسفية[1] ».

ولكن أصعب العادات قهراً كانت هى التى تتألف من تطبيق الماضى على الحاضر ، ومن القضاء على أهل الماضى بأنهم اقترفوا خطأ أن يكونوا من زمانهم كما يقول قسيس ساذج : « لنضع أنفسنا فى العصر الأول من العالم ، ولنختبر ذلك اختبار الملاحظ المتنبه ... » .

لم يكن هـــذا القسيس يرتاب فى أن العصر الأول للعالم كان يجب أن يحكم عليه حسب قواعد القرن الثامن عشر ، مادام أن تلك القواعد كانت تحتفظ بقيمتها احتفاظاً أبدياً . إن العقليين — دون أن يتألموا كما لوكانوا قد ناقضوا المعنى — حولوا مسائل الأصل إلى مسائل منطقية . ولقد كان التجرد يراقبهم فى الزمن حيث كان التحيز هو الذى يريدون

---

(1) Bolingbroke, Letters on the Study and use of History, 1752. Lettre 3.

اللحوق به . ولكى يظفروا بالشعور التاريخى ، كان ينبغى لهم تغيير تام فى الفكرة التى كانوا يتمثلونها عن الحقيقة ، وانقلاب فى سلوك عقولهم . وفى هذا يقول ديديرو : « إن البرهان الطبيعى والرياضى يجب أن يتقدم البرهان الأخلاقى ، كما أن هذا الأخير يجب أن يفوز على البرهان التاريخى[1] » ذلك اعتقادهم العميق ، فهل كانوا سينجحون فى قلب هذه السلسلة التصاعدية ضد أنفسهم ، وفى أن يردوا إلى البرهان التاريخى كرامته ؟ .

ولقد كانت أولى إراداتهم الواقعية هى مايلى : «إن التاريخ لن يكون بعد اليوم خرافة بل علماً ، إذ قد حدث طلاق بين التاريخ والخرافة » كما يقول عنوان أحد مؤلفات العصر . وإن أولئك الذين زاولوه فى الماضى ، لم يصنعوا منه سوى مرآة كدرة ، ولم يدركوا ماكان يحمل بين طياته من تناقضات عندما لايكون مثبتاً على دعائم متينة ، وكان كله مفعماً بروح الكذب التى جعلته أقل قابلية للتقبل ، من قصص المراضع التى تستعمل لصغار الأطفال . ولعلاج هذا الخطأ كان المهم أولا تثبيت نقد الشهادة ، ومن ثم فإن المناهج قد تضاعفت ، وكانت كلها ترجع إلى نفس التوكيدات التالية : « إن التاريخ معناه قصة أمينة دقيقة صادقة لأحداث معتملة على شهادة العيان أو على أفعال يقينية ليست محلا للشك ، أو على تقريرات أشخاص جديرين بالتصديق » « وإن كل واقعة تاريخية يجب أن ينظر إليها على أنها حقيقية ومؤكدة حين يكون مشهوداً عليها من عدد من كتاب العصر ، أوكانت منتزعة من كتب مؤلفين معاصرين لها ، على أن يكونوا أفراداً متعلمين خليقين بالتصديق ، ولم يهدم شهادتهم كتاب ذوو سلطان أدبى معادل » .

هكذا فعل لانجليه دوفرينوا فى كتابه الذى عنوانه « التاريخ المسوغ ضد الروايات » (١٧٣٥) .

---

(1) **Introduction aux grands principes, Le Prosélyte répondant par lui-même. Oeuvres, II, p. 81**

لقد ذهب فريديريك الثانى إلى حد القول بأن الأفضل بلا ريب هو ألا يروى المرء الوقائع إلا إذا كان قد رآها مباشرة ، أو قد كابدها ، لأنه كان يعتقد أن قادة الدول ، ورؤساء الجيوش هم وحدهم فى خير الأوضاع لمعرفة قصص الأحداث التى وجهوها ، وبالتالى لوصفها . وعند انعدام الرؤية ، يكون المرء مضطراً إلى الاعتماد على الشهادة ، ولكن على شرط أن يعاملها على أنها موضع ريبة ، وألا تصدق إلا إذا كانت قد قدمت حججها الحقيقية . ولقد عرض هارتليه ، ومن بعده بريستليه قواعد رياضية لإثبات أحد الحدين الأعلى أو الأدنى للإيمان الذى يستحقه جزم ما ، وعلى هذا النحو كانوا يطيعون شيطانهم الهندسى الذى كان يثأر لنفسه ، وكان هذا الشيطان ذاته يثأر لنفسه عندما كان ينصح بالاستمساك بالمعقول على أنه هو القياس الوحيد للحق .

بيد أن الناس على الأقل كانوا يحاولون ألا ينخدعوا بعد الذى كان ، فكانوا يتساءلون ماذا كان الشهود ؟ ، وماذا كانت قيمهم ؟ وهل كانوا مستنيرين ؟ وهل عاشوا مثلا فى مدينة كبيرة تحت عيون جيرانهم الذين كانوا يستطيعون أن يكذبوهم لو أنهم رأو زيفاً ؟ وهل كانوا معاصرين للأعمال التى سجلوها ؟ ولنحترس من تصديق الوقائع الصغيرة الغامضة ذات الصبغة الروائية ، والتى كتبها مؤلفون مجهولون فى أعماق أحد الأقاليم الجاهلة والبربرية ، أو لنحتفظ بالحرى ، بالوقائع التى لايتطرق إليها الريب ، أو بالوقائع الساطعة التى لايستطيع أى فرد ذى فطرة سليمة أن يضعها موضع الشك ، كمعركة فارسال أو استيلاء الترك على مدينة القسطنطينية .

كان أولئك المتعطشون إلى الحقيقة يذهبون بعيداً إلى حد أنهم ، فى حالة حماسهم ، قد يضحون راضين ، التاريخ القديم . ولقد أذهل ليفيك دى وپى موريبان الناس حين تلا فى سنة أمام مجمع الآثار مذكرته عن عدم الاستيثاق بالقرون الأولى من تاريخ روما فقال : « إن غيبة

مقالات » تأليف چوان لورانز ڤون موشيم ، والذى نشرت الطبعة الأولى منه فى سنة ١٧٢٠ .

٢ — دراسات على شخصية واحدة كتاريخ «شارل الثانى عشر» ،و«تاريخ عصر لويس الرابع عشر» تأليف ڤولتير ، و « تاريخ حكم الإمبراطور شارل الخامس » تأليف وليم روبيرتسون .

٣ — تاريخ شعب واحد كتاريخ عظمة الرومان وتدهورهم » تأليف مونتيسكيو و « هبوط الإمبراطورية الرومانية وسقوطها » تأليف إيدوارد چيبون (١٧٧٦ — ١٧٨١) .

٤ — تاريخ قومية كتاريخ بريطانيا العظمى و « تاريخ إنجلترا تحت حكم بيت تودور » تأليف داڤيدهيوم (١٧٥٤ — ١٧٧٨) و « تاريخ إيكوسيا » تأليف وليم روبيرتسون (١٧٥٩) .

٥ — تاريخ محلى كتاريخ أوسنابروك » تأليف چوستوس موزير (١٧٦٨) .

وأما إرادتهم الثالثة فقد كانت هى التخلى عن العجيب ، وقد أدخلوا فى العجيب ، ما فوق الطبيعى . ولا ريب أنه لا يوجد مؤرخ إغريقى ولا رومانى لم يتحدث عن الإيحاءات ، والعجائب ، والتنبؤات ، والمعجزات ، وكثير من الكتاب الجديين قد شهدوا على صحتها فى جسد لا يتزعزع وقد صدقهم الدهماء فى عصورهم ، ومع ذلك فلا يمكن أن تكون أية واحدة من هذه الخرافات موضع قبول ، على أنها ذات طابع معقول ، وإنما قد صنعت للمناسبة ثم جُمِّلت فصارت موضع عقيدة . غير أنها اعتقادات غير معقولة يجب أن تنبذ دفعة واحدة ، بل إن التوراة كان يجب أن تسجل فى قائمة الإقصاء

كتب بورك إلى چيبون يقول : « إن خريطة الإنسانية فى الوقت

الراهن قد بسطت » . وفى الواقع كان ذلك أيضاً أحد مطالبهم وهو أن التاريخ كان يجب أن يكف عن أن يكون مقصوراً على الامتلاء بوصف المعارك ، وبتحليل مناورات السياسة ، وبالنشائد الموجهة إلى الأفراد الذين وصلوا إلى فصيلة الأبطال . وأن موضوعه الأساسى يجب أن يكون دراسة المدنية ، وفى هذا يقول بولينبروك : « إن الإنسان هو موضوع التاريخ الحقيقى » ، ويقول دوكلو : « لو لم يكن التاريخ الذى أكتبـــه عسكرياً ولا سياسياً ولا اقتصادياً . . . لسألنى الناس ما هو إذن التاريخ الذى أعتزم كتابته ، إنه تاريخ الأناسى والطباع » . ويقول أيضاً ڤولتير : « ليس هذا مجرد قصة عن حملات حربية ، ولكنه بالحرى تاريخ للطباع والأناسى » .

ولا جرم أن هذه التوكيدات المعادة هى لافتة للنظر وأن التغير الذى تعبر عنه هو رئيسى ، وهو لا يبدو فى أى مكان بقوة أكثر منها فى كتاب « محاولة على الطباع » لڤولتير . ولو أن هذا السفر قد زيف بوساطة المشروع المحدود لاتخاذ الوضع المضاد لبوسويه ، وأنه لذلك قد هوى فى العيوب التى يدينها ، وهى السرعة والاستعلام من مصادر الدرجة الثانية أو الثالثة ، والسطو ، فإنه يبقى رغم ذلك أحد مشـــيدات العصر التى سيحتفظ بها المستقبل لأنه يحمل على مقدمه هذا الشعار التالى : « إننى أريد أن أستكشف ماذا كان مجتمع بنى الإنسان ، وكيف كان الناس يعيشون فى داخل الأسر ، وأى الفنون كانوا يتعهدونها ، بدلا من أن أردد هذا المقدار من التعاسات ومن المعارك ، وهى موضوعات التاريخ المشئومة ، والنعوت العادية للشر الإنسانى » .

وبعد كل هذا ، هل سمح لهم « حماسهم التاريخى[1] » . بأن يسيروا — إلى آخر الخط وبلا وهن — مشروعهم الذى هو إقامة التاريخ إقامة

---

(1) J. C. Adelungs, Pragmatische S aatsgeschichte Européens, Gotha, 1762. Page 11.

نهائية ؟ وهل كانوا قادرين على إحلال فكرة التطور محل إيمانهم بالثبات ؟

وعند ما كتب مونتيسكيو ، ملاحظاته الخاصة ، عنى بإحدى نظريات ڤيكو وهى نظرية السير واستئناف السير "Corsi, - Recorsi" وإليك مجملها :

بدياً كانت الشعوب بربرية فاستعملت الغزو ، وصارت دولا ذوات شرطات ، وهذه الشرطات جعلتها تكبر ، ثم صارت دولا مصقولة ، وهذا الانصقال أضعفها ، فغزيت وصارت بربرية ، وكل أمم العالم تقريباً تدور فى هذه الدائرة . . .

يتمسك مونتيسكيو فى كتابه « نظرات فى أسباب عظمة الرومان وتدهورهم » بفكرة النشوء والتقدم والسقوط . ولقد لفت هذا العبور من العظمة إلى التدهور نظر العصر إلى حد أنه لايوجد إلا قليل من المؤرخين الذين لم يقروا هذه الفكرة ، وذلك أحد الآثار الأكثر بروزاً لهذا العقل العظيم .

ولقد حسب ڤولتير — فى قلق جعل عدة صفحات من إنتاجه التاريخى مؤثرة — أنه قد عين تطوراً قد انتهى إلى التقدم . حقاً إنه تقدم جد بطىء ، وجد عسير ، وهو مهدد بلا انقطاع . ومع ذلك فإنه ، أثناء بعض العصور الممتازة ، كان يظهر فى عالم النور .

كم من الاضطرابات ، والبأساء ، والدم المراق ! إذ أن روح الحروب والقتل والهدم ، قد سادت الأرض دائماً . ومع هذا فإنه فى وسط ذلك السلب كان يبدو حب للنظام يحرك النوع البشرى فى الخفاء ويحول دون دماره التام : « وهو لو لب من لوالب الطبيعة يستعيد قوته ، وهو الذى كون مجموعة قوانين الدولة ، وبوساطته يحترم القانون وخدام القانون فى التونكان ، وفى جزيرة فورموزا كما هو فى روما » .

نهائية ؟ وهل كانوا قادرين على إحلال فكرة التطور محل إيمانهم بالثبات ؟

وعند ما كتب مونتيسكيو ، ملاحظاته الخاصة ، عنى بإحدى نظريات ڤيكو وهى نظرية السير واستئناف السير "Corsi, - Recorsi" وإليك مجملها :

بدياً كانت الشعوب بربرية فاستعملت الغزو ، وصارت دولا ذوات شرطات ، وهذه الشرطات جعلتها تكبر ، ثم صارت دولة مصقولة ، وهذا الانصقال أضعفها ، فغزيت وصارت بربرية ، وكل أمم العالم تقريباً تدور فى هذه الدائرة . . .

يتمسك مونتيسكيو فى كتابه « نظرات فى أسباب عظمة الرومان وتدهورهم » بفكرة النشوء والتقدم والسقوط . ولقد لفت هذا العبور من العظمة إلى التدهور نظر العصر إلى حد أنه لايوجد إلا قليل من المؤرخين الذين لم يقروا هذه الفكرة ، وذلك أحد الآثار الأكثر بروزاً لهذا العقل العظيم .

ولقد حسب ڤولتير — فى قلق جعل عدة صفحات من إنتاجه التاريخى مؤثرة — أنه قد عين تطوراً قد انتهى إلى التقدم . حقاً إنه تقدم جد بطىء ، وجد عسير ، وهو مهدد بلا انقطاع . ومع ذلك فإنه ، أثناء بعض العصور الممتازة ، كان يظهر فى عالم النور .

كم من الاضطرابات ، والبأساء ، والدم المراق ! إذ أن روح الحروب والقتل والهدم ، قد سادت الأرض دائماً . ومع هذا فإنه فى وسط ذلك السلب كان يبدو حب للنظام يحرك النوع البشرى فى الخفاء ويحول دون دماره التام : « وهو لو لب من لوالب الطبيعة يستعيد قوته ، وهو الذى كون مجموعة قوانين الدولة ، وبوساطته يحترم القانون وخدام القانون فى التونكان ، وفى جزيرة فورموزا كما هو فى روما » .

وأنه ظل غير معروف بالقياس إلى مونتيسكيو ، وڤولتير وروبيرتسون وچيبون .

وهل تخلوا – بقدر ما كانوا قد صمموا – عن الشروح بوساطة قوانين عامة مشفقين من أن يتعرضوا بهذه الطريقة إلى التّردى فى الميتافيزيقا التى قد استبعدوها ؟ إنهم لم يتخلوا عن ذلك . وعندهم أن قانون التاريخ قد يكون هو الفائدة وقد يكون هو وثن التجارة ، كما كان الأب رينال يقصد فى كتابه « التاريخ الفلسفى والسياسى للمؤسسات الأوروبية فى الهندين » . وقد يكون أحد أرواح العصر ، وقد يكون اجتماعاً للنتائج كما يقول فى كتاب « محاولة على الطباع » لڤولتير مايلى : « هناك ثلاثة أشياء تؤثر فى الإنسان وهى المناخ والحكومة والدين . وهذه هى الطريقة الوحيدة لشرح لغز هذا العالم[1] » . وقد يكون ذلك قدراً ينم عن نفسه بوساطة تفاوت جلى فى النسب بين أسباب جد صغيرة تكاد ألا ترى ، ونتائج توشك ألا تقاس ؛ لعظمها ...

كانوا يريدون أن يشرحوا الأحداث دون صعود إلى العلل الأولى ، وإذ كانوا يعلنون ذلك ، كانت العلة الأولى هى التى يصرون على التنقيب عنها .

والنتيجة من كل هذا أنهم لم يكتبوا التاريخ كاملا . على أنه منذا الذى سيكتب التاريخ الكامل ؟ ولكنهم قد أتموا مهمتهم على مابها من صعوبة كبرى وفى شرف عظيم . حقاً إنهم لم يكونوا يحبون التبحر إلا حين يكون مشتملا على شىء من المرح ، ومع ذلك فقد فهموا قيمة الشهادة فهماً تاماً ، وحاولوا البناء على أساس مستندات حقيقية ، ولقد عبّدوا طرق المستقبل ، حين شذبوا ونظفوا وأزالوا النقاب عن الكذب .

---

(1) Essai Sur es moeurs, chap, 197.

ولما كانوا موزعين بين فلسفتهم التى كانت تريد أن تكون تجريبية ، والتى لم تكن تقر إلا الوقائع ، وبين ميلهم الطبيعى الذى كان يحملهم نحو التجرد ، ونحو القبلية[١] . "a priori" ونحو المذاهب العظمى التى ينبغى أن يخضع لها الواقعى طوعاً أو كرهاً ، فإنهم لم يضحوا دائماً ولكنهم ضحوا غالباً تفضيلهم الخاص فى سبيل المنهج الذى عرفوا كيف ينتزعونه ، وقد تركوا منتجات ممتازة ، وتلك هى القيمة الدقيقة للعقل الذى خلع طابعه على كل أدب العصر .

---

(١) القبلية هى أحكام مقدمة على التجربة . (المترجم)

الفصل التاسع

الفكر والعادات

الآفاق

لم يبق فى تلك الحقبة أحد فى مكانه ، فمونتيسكيو قد ارتحل قصد التنقيب عن الدساتير ، وديديرو بعد أن قاوم زمناً طويلا — قام ، مع ذلك بالرحيل إلى روسيا . وفى أحد الأيام صمم الشاب جولد سميث على أن يسافر إلى القارة ، وقد سافر فعلا ، بلا مال ، وبلا حماية ، وبلا نهج محدد ، عازفاً على الناى أمام أبواب الأكواخ ، لكى يظفر من القرويين بإناء من الحساء ، وبمبيت فى أحد المخازن . وهو لبيرج يغادر الدانيمارك ، ويتخذ طريقاً إلى غير غاية معتمداً على صوته الرخيم كما اعتمد جولد سميث على نايه ، فجعل يمضى من بلد إلى بلد ، ففى باريس يتعلم الفرنسية ، وفى أكسفورد يعلمها ، ولا تضايقه مثل هذه التفاهات . ولا جرم أن هؤلاء الكلفين بالمعرفة ، والذين لا يشبعهم شىء ، والذين لا يكتفون ألبتة بما يرون ، هم الحركة ذاتها ، وأن المنفى ليس مريراً لديهم ، وأنهم لا يألمون من صعود سلم الغير ، وأن خبز الأجانب ليس له طعم الملح فى أفواههم . وعندما قذفوا بأنفسهم خارج أوطانهم ، جعلوا يستفيدون من الفرص لكى يصطنعوا لهم نفوساً جديدة ، ففولتير لم يكن شديد التعاسة فى لنـــدن ، إذ سيعرف لغة انجلترا وأدبها ، وطباعها ، وكل ذلك ربح . والأب بريفو ، لم يكن جد شقى فى هولندا حيث ينزلق ، فى جنون الشباب . وهو أقل منه بؤساً فى الجزيرة السعيدة التى لا يغادرها إلا آسفاً مترنماً ، بنشيد ، فى عظمتها . وبولينبروك ، يصير ، بلا عناء ، كأنه أحد الأشراف الفرنسيين ، له قصره وحدائقه وأتباعه ، وهو يقوم على كل ذلك . وفينكلمان يجد إيطاليا ، وطنه

الحقيقى وكم من الفلاسفة المضطهدين ، لم يغتبطوا بأن يتجمعوا حول فريديريك الثانى فى برلين ؟ . وهكذا جعلت صورة الالتجاء المأساوية ، تتجه إلى الانمحاء ، وأصبح لا يوجد بعد ، مناف ، وإنما توجد مواطن عالمية » أو كوسموپوليت . "Cosmopol te" .

ظهرت هذه الكلمة فى القرن السادس عشر ، ولكنها لم تظفر بالنجاح ، وفى القرن السابع عشر ، قد اختفت تقريباً . ثم دخلت فى الاستعمال الجارى فى القرن الثامن عشر ، وقد وضع لها قاموس تريڤو ، تعريفاً فى سنة ١٧٢١ ، وهى تشتمل إذ ذاك على فرقين دقيقين فى المعنى ، أحدهما سىء وهو نعت للإنسان الذى ليس له مسكن معين ، والآخر حسن وهو وصف الإنسان الذى ليس أجنبياً فى أى مكان كان ، وهذا المعنى الأخير هو الذى سيتغلب . وفى سنة ١٧٥٥ يتحدث چان چاك روسو ، عن « عظائم النفوس الكوسموپوليتية التى تجتاز الحواجز الخيالية التى تفرق بين الشعوب ، تلك النفوس التى — على مثال الدولة العليا التى خلقتها — تحتوى كل النوع البشرى فى خيريتها » . ولا جرم أن الكوسموپوليت ، قد اجتاز الاحتقار القديم الذى كان محجوزاً فيه ، لأنه لم يكن له وطن ، إلى الاحترام الذى يوضع فيه لأن له عدة أوطان .

وما دام الأمر كذلك فإنه لايباغتنا أن نلاحظ أن المخاطرة الأبدية قد جعلت تتخذ لون العصر ، فلم تعد المسألة مسألة الارتحال للاستيلاء على قبر المسيح ، بفضل طرد الأتراك من الأماكن المقدسة ، بل إن الحملات الاستكشافية ، عبر البحار البعيدة قد وضعت لها قواعد وصارت طرائق للتجارة ، وكشوفاً منظمة . وإن الجانب البطولى لم يبق له إلا الانحصار فى الأنواع الأدبية التى احتفظ له بها ، والتى كانت ملجأه الأخير . بينما أن الجانب المخاطرى قد صار مهنة ملوناً بالسرور والأناقة . وإن الآفاق المخاطر

الذى يحمل سيفاً صغيراً ، ويرتدى الحرير والدانتيلا . قد صار شخصية اتخذت لها مكاناً فى المجتمع .

نعم قد يكون من أسرة مبجلة ، ولكنه فى العموم كان يعتقد هو نفسه ، أن من الأكثر يقيناً أن يصطنع لنفسه ألقاب الشرف . ومن أمثلة ذلك أن لورانزوداپونت — وهو من أبناء « الجيتو » أى من الحى اليهودى — قد اتخذ اسم الأسقف الذى عمده ، والذى أدخله المدرسة الأكليروسية ، ومنها أن والد الأفاق كازانوڤا ، كان ممثلا فرصياً ، وأن والدته كانت ابنة صانع أحذية . ومنها كذلك أن چوزيف بلسامو قد ولد فى صقليا من والدين متوسطين وكان شبابه شباب فتى ردىء . وقد استبدل اسمه المنخفض، باسم ، رنان وهو كاليوسترو ، لأن الحروف الهجائية هى خير مشترك بين الناس جميعاً .

ليس موضع مفاخر الأفاق سهول أمريكا ولا المحيط بل هو العواصم التى يجدفها المحتال دائماً مخرجاً من ورطاته ، وذلك ما لم يفضل صغار القصور التى يضجر فيها أربابها ، والتى يكون محضره فيها مُسَلياً . ولما كان شديد النسيان لمطلع حياته العسير ، وكان مجرداً من محاسبة الضمير ، ومزداناً بظاهر لامع ، فإنه يصل فى أحد الأمسية دون أن يدرى أحد من أين يأتى . وبعد بضعة أيام يرتحل تاركاً لضائفه العناية بدفع الحساب وبإصلاح الخسائر . وليست إقامته طويلة ألبتة ، فهو يجوس خلال أوروبا ، ويذهب إلى مصر وإلى الشرق ، كالمركيز دى بونيڤال على نقيض رجـــل الحروب الصليبية إذ يعود برتبة الباشوية ، وإلى العالم الجديد كـ « لورانزو داپونت » الذى يصير أستاذاً للغة الإيطالية فى نيويورك .

من أين يأتى نجاح الأفَّاق الحائل ؟ الحق أنه هو نفسه لا يعرف عن ذلك شيئاً ، فمركبته ليست ملكه ، وإذا كان عنده خادم فهو شريكه فى المؤامرة ، وملابسه نفسها لم يدفع ثمنها ، وليس له أى ضامن يتعهد بالتزاماته ،

وإذا استعلم أحد عن ماضيه كانت المعلومات سيئة إلى حد أنه ينبغى طرده فى الحال . ولكن مظاهره ساطعة ، فعليه طلاء من الثقافة ، إذ يقول إنه يعرف اللاتينية واللغات الأجنبية ، وهو يجيد الفرنسية التى هى جواز مرور فى كل مكان . وبما أن ذاكرته عجيبة فقد تصيد واستبقى عن طريق الفرص ، مهلهلات من المعارف التى يزين بها الخطب فى مهارة . وهو أحياناً شاعر ، بل هو قدير على تأليف نصوص كلامية للأوبرا الغنائية ، وهو يعرف الموسيقا والرقص ، كما هو حاضر النكتة . ويطيل المحادثة برواية عظائم الأنباء وصغائر الأقاصيص . ولنضف إلى ذلك أن لديه أنواعاً من المجون والجرأة ، وقوة الشخصية لا تخشى الناس ولا الإله .

يستغل الأفاق رذائل ذلك العصر الذى يتفكك ، والذى لم تعد الدرجات الاجتماعية فيه متبعة ، والمبادىء العتيقة صارت موضع السخرية ، والجدية قد مضى وقتها ، وأصبح الناس يفضلون رجلا يعرف كيف يلهو ، على آخر ذى فضيلة ضجرة . إنه يتخذ مكانه بصورة طبيعية إلى مائدة اللعب حيث تكون اللعبة قد بدأت عندما يأخذ مكانه ، فإذا غش فى الورق فليس هو الوحيد ، ولا يغضب أحد إلا إذا ضبط مزلقاً إحدى الورقات إلى كمه دون أن يستتر ، وهو ليس أخرق حتى يفعل ذلك .

يعرف الأفاق كيف ينفق ، فهو ليس شحوحاً بل هو على الضد من ذلك يعرف كيف يمنح فى المناسبات ماسة ، أو عقداً من اللؤلؤ ، أو يلقى إلى خدم الأمير كيسا مليئاً فى إشارة علنية ، وحين يخسر لا يتخذ مظهراً مكتئباً بحجة أن ضده اليوم حظاً سيصلح غداً . وهو يمضى من جميلة إلى إلى جميلة ، ومن فوز نسائى إلى فوز كجميع الناس . وهو فى التحول لا يكاد يزيد عن أصدقائه العابرين ، كالضابط الشاب المعتز بأحداثه الغرامية ، وكالشيخ الداعر الذى لم يعد يحس تلك الأحداث . إنه هو الحركة ذاتها فى اللذائذ . ويعزى إلى أحد أفاق القرن الثامن عشر ، وهو كازانوفا أنه كان تجسداً

جديداً لدون چوان . ويعزى إلى آخر أنه استبقى طول حياته الإبهام التالى ، وهو : هل كان الفارس ديون رجلا أو امرأة .

ولم يكن ذوو السلطان يحتقرون أن يتخذوا الأفاقين أحياناً مندوبين سريين للسياسة الدولية . وهم فى الغالب أعضاء فى الجمعيات السرية . ولقد استطاع الناس أن يروا فى تلك الحقبة ، أفاقاً دينياً ، وهو رامسيه ، قد صار أحد رؤساء الماسونية . وأكثر من ذلك أن هؤلاء القوم الذين لديهم شىء خفى ، والذين يقولون إنهم قد درسوا فى كل الجامعات ، وحاربوا فى كل الجيوش ، وعرفوا معرفة ألوفة ، جميع عظماء الأرض ، هؤلاء القوم الذين يبدو أنهم ينتسبون إلى فصيلة الكائنات التى تظهر بغتة ، وتختفى بغتة كأنها الآثار العلوية ، هم أرباب القوى ألمـا فوق الطبيعية . وهنا أيضاً يستغلون دخيلة من دخائل سرعة التصديق الخرافية التى لم يكن العقل قد محاها بعد ، والتى بقدر ما كان القرن يتقدم ، كانت تأخذ بثأرها من العقل . إنهم رقاة وكباليون ومنجمون ومنومون وأنبياء وسحرة ، وهم يستكشفون الكنوز ويتنبأون بالمستقبل . ويركبون ألواناً من الشراب تعيد الشباب إلى عجائز السيدات وترد إليهن شباب سن السادسة عشرة ، ويبرئون المرضى ، ولا ينقصهم إلا قليل لكى يحيوا الموتى ، فهذا يملك الدواء العالمى ، وذلك قد وجد حجر الفلاسفة ، والآخر قد قهر الزمان ، فهو يسأل خادمه قائلا : « أتذكر يوم أن صلب المسيح » ؟ فيجيبه الخادم بقوله : « هل نسى سيدى أنى فى خدمته منذ ألف وخمس مائة سنة فقط ؟ » وكاليو سترو القبطى الأكبر بينما أن زوجته هى ملكة سـبأ ، قد شرب الأكسير الذى استطاع العثور على سره وهو إكسير الخلود . ولكن ذلك لم يمنعه من أن يموت فى السجن بعـد أن جن أو تصنع الجنون لأنه هو وأمثاله لا يسيرون بمهزلتهم إلى النهاية ، وختامهم محزن ، فهم فقراء بعد أن أسرفوا ، ومساجين بعد أن كانوا هم الحرية نفسها ، ومهجورون فى غده

اليوم الذى يحتفى بهم فيه . وليس عندهم التبكيت لاستعادة الضمير الأخلاقى بل ليس لديهم سوى الأسف . وأحياناً تريد سخرية القدر أن يجر جروا شيخوخة طويلة مفعمة بالتذمر والشراسة . وقصارى القول إنهم معاقبون فى قسوة .

إن المجتمع يسترد حقوقه بإزائهم عندما يلمح فيهم عوامل الانحلال الذى يدينهم . ومع ذلك فقد قدم إليهم بيئة ملائمة ماكانوا ليسعدوا بعيداً عنها . إنهم أمعنوا — إلى حد التطرف والشذوذ والرذيلة — فى تنمية بضع من فكر العصر . إنهم بمثابة الرصائع من ذلك « القرن الذى يسطع[1] » . وبما أنهم كانوا من عصر الذكاء فإنهم لم يسلبوا مركبات المسافرين ، ولم يسرقوا بأيد مسلحة ، وإنما استخدموا دقتهم ونكتتهم ، وإدراكهم النفسى ، مضيفين إلى ذلك شيئاً من الاحتقار لأولئك الأغبياء الذين تركوا أنفسهم ينخدعون . وفى هذا يقول الفارس دى جريو[2] : « إن حماقة الأثرياء والكبراء هى منبع فخم للإدرار على الأصاغر . » وبالإجمال إن الأفاقين كانوا فنانى حياتهم الخاصة[3] .

إستغل الأدب هذا النموذج البشرى ، ففى المسرح نشاهد أن جولدونى ، يرصد الموضوعات ، فكما اتخذ ذات يوم كمادة ، النتائج العجيبة « للأم — الطبيعة » وكما وضع فى يوم آخر على المسرح « الفيلسوف الإنجليزى » تلميذ لوك ونيوتون ، كذلك قد أخرج « الأفاق المحترم » فى سنة ١٧٥١ : غير أن الأدب قد بقى باهتاً وظل نجاحه موضع ريبة إذا قيس بالأفاق الحى لأن هذا الأخير قد أنشأ إنتاجاً رئيسياً من الأيام التى أعطى إياها ،

(١) ذلك هو عنوان كتاب انجليزى من منتجات ذلك العهد . (المترجم)

(٢) هو بطل رواية « مانون ليسكو » الشهيرة تأليف الأب بريفو . (المترجم)

(٣) استعنا فى هذه الصفحات بمحاولة استيفان زويج على كازانوفا وعنوانها :
"trois poètes de leur vie" Paris 1937

إذ استعملها كما كان يريد ، ولأجل الغايات التي كان يرغب فيها ، عندما نحت بصورة غرامية تمثاله الخاص .

لاجرم أنه توجد مشيدات من كل نوع ، وأن « روح القوانين » واحدة منها ، وأن « محاولة على العادات » واحدة منها كذلك ، وأن « المذكرات » لكازانوفا واحدة أخرى ، وهى حاملة دائماً طابع القرن الثامن عشر .

المرأة

هناك عدة كتب قد خصصت للمرأة « كمعبد جنيد » و « رحلة إلى يافوس » وأكثر من ذلك أيضاً « مؤتمر سيتير . . .[1] وهاك إلماعة عنه .

اختفى إله الحب من الوجود ، فاعتزل فى جزيرته ، ودعا مجلسه لموضوع نزاع قد أثير حديثاً وهو : أن الدول المختلفة تتجادل فى عنف حول كيفية الحب . ومن ثم فإن كل دولة منها أوفدت منها سفيرة أمام مجلس الحب ، فمدام دى چازى تمثل فرنسا ، وليدى جراڤيليه تمثل انجلترا ، وبياتريس تمثل إيطاليا . وقد وكل دور المقرر إلى اللذة . ومن المتفق عليه أن هناك نقطة قد بقيت بعيدة عن النزاع وهى رفعة السرور الذى سكبت الطبيعة عاطفته فى القلوب . إن ليدى جراڤيليه ، فى ألفاظها مرارة لأن مواطنيها يستخفون بالنساء ويضجرونهن . وإن مدام دى چازى تثنى على الحب المتنقل وتنبذ الهوى الرجعى ، إذ أن أفضل منه هوى مجمل بالأناقة والنكتة أو « لذة بلا حزن » على حد تعبير كتاب إيطالى . أما بياتريس فإنها تطرى عبادة الجمال المثالى . ولكن لم تدافع أية واحدة منهن عن الفكرة الصحيحة ، ومن ثم فإن اللذة تلخص المحاورة وتبلغ إرادة إله

(١) لعلك تذكر أن سيتير هو اسم لجزيرة سيريجو المخصصة لإله الحب إيروس ابن أفروديتيه إلهة الجمال التى كان لها معبد عظيم فى مدينة جيثيد . (المترجم)

الحب . وهى أنه ليس بملك الرجل أن يختار المرأة التى يحبها ، لأنه مقود نحوها بوساطة القدر ، وإذن فمهمته الوحيدة هى أن يروقها بثنائه عليها وبنقده عيوب خصيمتها كصوت كلوويه أو أسنان ليسبى ، وباجتهاده فى ألا يناقضها لأن المحب يصير هو السيد بمجرد تظاهره بالعبودية وبتسليته إياها وباستعمال وسائل الظفر كالرسائل اللبقة وكالاستعانة بالوصيفات أو كالنزهات والحفلات ، وباختياره اللحظات الملائمة ، بمعنى أنه ينبغى أن يحذر من أن يلقى تصريحه بالحب فى اليوم الذى رأت فيه جميلته على خصيمتها فستاناً[1] مصنوعاً بطريقة جديدة . وبهذا يحدث أن يتوهم المرء أو يلوح عليه تصديق أنه يستطيع أن ينال اللذة دون أن يحزن . وحينئذ لم تعد اللذة مهينة ولا مسموعاً بها سراً عن طريق الطواطؤ ولا مكفراً عنها بالتدم ، وإنما صارت مفخرة بقدر ماهى ميسورة . وإذا كانت تشتمل على بعض الفكر الأجنبية عنها ، فإنما هى فكرة العلنية أى حرية الأخلاق . ولقد جعلت الحواس من جانبها تحتج على قسوة الماضى وقد أبعدت بقدر الممكن ، تلك الفروض السيئة ، والقدر المحتوم ، والخطيئة العنصرية ، وقد أقر أن كل ما كان فى الطبيعة كان خيراً ، وأن السرور كان فى الطليعة ، وأن أعظم المسرات هى اللذة ، وأياً ما كان فليس كل النساء ، بل نساء الطراز الحديث هن اللواتى يلائمن هذا الفن الجديد للحب .

إن هؤلاء الإلهات الطائشات ذوات المساحيق والأصباغ ، والشامات الصناعية ، والقاى والستان والديباج والدنتلة والحلى ، قد تقدمن إلى الصف الأول بخطواتهن الخفيفة ، وإن الترف قد تنظم لهن ، وقد تكون حولهن فوران من المال ، وإن المراقص ، ومآدب العشاء ، والهزيع الأخير من الليل هى لحظات العيد الأعظم الدائم للنساء . ولا ريب أن الكل يبادر إلى إرضاء

---

(١) لا نرى بأساً من استعمال فستان وفساتين كبستان وبساتين ولطالما أخضع العرب لموازينهم وأقيستهم ، كلمات أجنبية . (المترجم)

رغباتهن بشرط ألا يكون ذلك سوى هوى متنقل .

بينما أن الهوى غير المتعقل ، وعهد الوفاء ، واحترام الزوجية ، كل ذلك لم يعد موجوداً فى قاعدة الفن الجديد للحب . ولقد لاحظ أوسبيك[١] أنه لايوجد بلد فى العالم كان فيه الأزواج الغيورون أقل عدداً من الفرنسيين . وليس هذا لأنه كان لديهم ثقة فى فضيلة النساء ، فهم على الضد من ذلك . ولكنهم كانوا يعتزون بسوء حظهم إلى حد أنه لم يكن فى وسعهم سوى الإذعان . وهاك مثلين من أمثلة تحلل أخلاق العصر : كان الأمير أنجولا عاكفاً على تلقى التربية الاجتماعية ، وأوصاف صديقه المائر بالدواء الوحيد ضد الضجر وهو التغيير ، وعلى أثر ذلك جعل ينظر إلى جميلات النساء كأنهن سفاتج تجارية ، تحول من يد إلى يد ، فيقول لإحداهن مثلا : « إننا ارتبطنا بوساطة اللياقة واحتفظنا بعلاقتنا عن طريق الاتفاق ، وإننى أتخيل أننا سنفترق بلا مشقة[٢] » ولقد باغت الإغماء إجليه فى دار التمثيل لأنها اقترفت إثماً جدياً ضد الحشمة إلى حد أن شعرت بأنها فقدت كل شىء ، ولم يبق لها إلا أن تعتزل المجتمع ، أو أن تلجأ إلى التقوى ، وفى الواقع أن زوجها قد أتى يتحدث إليها فى شرفتها فنسيت نفسها إلى حد أنها نظرت إليه فى حنان ، وابتسمت له ، وضغطت على يده[٣] . وبالإيجاز « إن الحب الرقيق الوفى لم يعد يوجد إلا فى الروايات العتيقة[٤] » .

---

(١) لعلك تذكر أن أوسبيك هو أحد أبطال الفرس فى « الرسائل الفارسية » تأليف مونتيسكيو . (المترجم)

(2) Angola Histoire indienne, avec privilège du Grand Mogol, Agra, 1749.

(3) Les usages par M. Tr. D.V. citoyen de Bordeaux, Genève, 1762.

(4) Mad. de Puisieux ou la nécessité d' être inconstant, à Cologne et se vend à Paris, 1762.

إن الأمر الواقع هو أن الخليلات قد صرن نوعاً من منظمات الدولة ، فكانت هناك خليلات الملوك ، ومن بين خليلات لويس الخامس عشر ، مدام دى پومپادور . وخليلات العظماء ، وفى هذا يقول المحامى باربييه : « ماذا ! إن خمسة عشر من عشرين من السادة رجال البلاط ، يعيشون مع نساء أخريات غير زوجاتهم ، ومادام الأمر كذلك ، فماذا يجد الناس مايقولونه عن سلوك الملك ؟ .

وهناك خليلات الفلاسفة بل كل الفلاسفة كڤولتير ، ودلامبير وديديرو ، وهيلڤيسيوس ، والبارون دولباك ، ولا تندرج تحت حصر خليلات الماركيز دارچانس الذى يلعب دور فوبلاس قبل الأوان . ولقد كان الحياءُ — كما تقول مادموازيل كينو[1] — ليس سوى عادة صناعية دانتها الطبيعة ، واخترعها بلا ريب قزم أحدب نحيف ودميم ، لأن الإنسان لايفكر فى أن يختفى ، عندما يكون حسن التكوين » .

لا ريب أن المجتمع الباريسى كان أكثر تقدماً على جميع معانى هذه الكلمات . ومع ذلك فإننا لا نرى أن المكاتبات والمذكرات تقدم إلينا شواهد على ما كان يحدث فى البلاد الأخرى تباين ما رأيناه . ولا يوجد أحد يؤيد أن الأخلاق فى برلين وپوسدام ، كانت نقية ، فأمراء بلاطات ألمانيا ، كانوا يتخذون بدورهم ، خليلات ، نعم قد يكون ذلك كرهاً أحياناً ، ولكن لم يكن ينبغى الشذوذ .

كان فى انجلترا جفاف أكثر ، وفظاظة أشد ، وإدمان أعظم ، وفساد معترف به فى صراحة أبلغ منها فى أى مكان ، ما دام أن الفساد قد صار وسيلة من وسائل الحكم ، بل إن بولينبروك كان يخشى أن الرذائل التى كان يساهم فيها والتى قدم فيها المثل ، تنتهى بإفساد الدستور . ولكن الفرق

(١) مادماوزيل كينو هى إحدى شهيرات ممثلات الكوميدى فرنسيز فى القرن الثامن عشر .
(المترجم)

لم يكن إلا فى تفاوت درجات الرقة . ويروى أن كارولين ملكة انجلترا ، كانت على سرير موتها ، تلح على چورج الثانى أن يتزوج بعد وفاتها ، فيجيب الملك باكياً بقوله : « كلا ، وإنى سأتخذ خليلات » . فتقول المحتضرة : « إن هذا لا يمنع » .

أما إيطاليا ، فقد كانت تردد نفس الدور أى كانت تثنى على العاشق الذى ليس له هوى ولا أوهام . وفى هذا تقول الأغنية : « كانت المرأة فى الماضى ، تختار عشيقاً واحداً . ولكن ذلك الوقت لم يعد موجوداً » وتقول أخرى : « ألا تعرف أن النساء ينظرن إلى عشاقهن ، نظرهن إلى أوراق اللعب ؟ إنهن يستعملنهم بعض الوقت حتى إذا ربحن ، نبذنهم وطلبن آخرين . . . » وفوق ذلك فإن الرحالة قد سجلوا المنزلة التى كان « الفرسان التابعون » يشغلونها فى الحياة الزوجية ، ومجملها أن الفارس التابع يجلس إلى جانب الزوج بل فى موضع الزوج ، ويشاهد عملية تزين الزوجة ، ويقيم فى حجرة استقبالها ، ويقوم معها بزيارات ، ويصحبها إلى دار التمثيل ، ويسكب لها مغلى الشوكولاتا ، ويحفظ لها علبة مساحيقها ، ومروحتها ، ويجلس فى مركبتها ، ويدخل حجرتها فى حرية ، ويصدر الأوامر فى المنزل . وإلى جانب هذا « الفارس التابع » ، يمكن أن يكون هناك آخرون كالأدعياء والأخلاف والموقتين . ومن أجل ذلك كان الأخلاقيون يرعدون ، والشعراء يسخرون ، والشعب يسخط أو يستهزئ . ولكن الفارس التابع كان يصمد .

غير أنه ينبغى على الفور ولكى لا نخون الحقيقة أن نقول : إنه ليس فقط ــ بوساطة حرية صارت دعارة ، ودلالاً أضحى إثارة ــ أن تغيراً قد حدث فى حالة النساء ، فبين المعالم المتعارضة التى تؤلف لوحة عصر من العصور ، تظهر معالم أخرى وألوان . فقد كانت النساء يشتركن فى حركة العقول ، بل كن أحياناً يوجهنها . وقد احتللن موضع المساواة إلى جانب الكتاب والعلماء وكن أقل حذلقة ، لأنهن كن بالطبع أكثر ذكاءاً . ولقد كن

فى أغلب الأحايين ، يخرجن من الأديرة جاهلات ، ثم يتعلمن فيما بعد ، لأنهن كن شديدات الحرص على التعلم ، ولم يركزن حماسهن فى الحب ، بل فى المعرفة . هكذا كانت مادام دوشاتيليه التى كان ڤولتير يتخذ منها رفيقة لحياته حيث اعتزل كلاهما العالم وظلا يعيشان فيما كان الناس يدعونه : « وحدة قصر سيريه المزعجة » . وهناك كانا يمدان — إلى أبعد حدود الإمكان — دائرة معارفهما التى كانا يجدانها دائماً مفرطة فى الضيق . وكانا يقرآن مؤلفات لاتينية ، وإغريقية وانجليزية وإيطالية ، وكانت تلك السيدة تدعو إليها عالماً ألمانياً هو صمويل كونيج ، لتتعمق فى الرياضة ، ولتتابع الدروس التى تلقتها على موپيرتوى وكليرو . وبينما كان ڤولتير يعنى بالطبيعة ويساهم فى مسابقة مجمع العلوم عن طبيعة النار ، كانت هى تسابق من جانبها ، وقد صارت منافسته على المعنى الدقيق لهذه الكلمة . وكانت أيضاً تتعلم الفلسفة ، وكان هو يجتذبها نحو لوك ، وهى تجتذبه نحو ليبنيز ، ولم تكن قناتها تلين فى شىء .

كانا رفيقين غريبين ذانك اللذان يمضيان أمسيتهما مع المعادلات الرياضية . وتلك صورة تمثل مظهراً من مظاهر العصر ، بمقدار ما ستمثل صورة حبيبين حالمين باكيين تحت أشعة القمر من صور الرومانتيكية .

وهناك صورة أخرى يمكن أن تبرز مظهر ذلك العصر بهيئة لا تقل يقيناً عن الأولى ، وهى التى تمثل منتدى ، كمنتدى مسس مونتاجو فى لندن ، ومنتدى كاترينا دوفين ترون فى البندقية ، ومادام نيكير فى استوكهولم ، ومن بين جميع منتديات أوروبا ، منتدى فرنسى ، ومن بين جميع المنتديات الفرنسية التى جعلت تتعاقب كأنها أسر ملكية إلى عهد الثورة ، منتدى مادام دوديفان بـ « فوبور سان هونوريه » فلو تمثلنا هذا المنتدى ، لرأينا فيه حجرة ليست واسعة ولا رسمية ، ولكنها تشعر من فيها بالألفة بوساطة حوائطها المغطاة بنسيج الذهب ومستائرها المشتملة على ذات اللون ، والمحلاة

بأشرطة على لون النار . ومن أحد الأبواب يستطيع المرء أن يرى فى الحجرة المجاورة طنافس زرقا ، ورفوفاً وأطقما من الصينى الدقيق . وهناك تجلس إلى جانب المدفأة — متخوفة من البرد مستقرة على مقعد وثير مستدير تسميه برميلها — تلك التى ملكت أوروبا العقلية ، والتى عرفت كيف تدعوها إلى م اعيدها ، ففى الواقع أن خفة روحها ، وحيويتها ، وتنوع ثقافتها وتعمقها النفسى ، والطابع الخاص بالجماعة العالمية التى كانت تقلب فيها الفكر ، وسحر المحادثة التى صارت فى الوقت ذاته لهواً وفناً ، كل ذلك كان معروفاً إلى حدود العالم المثقف . وعندما عرفت أن قارئتها مادموازيل دى ليسبيناس[1] . قد أسست فى منزلها الخاص ندوة منافسة لندوتها ، تجتمع فيها خيرة أصدقائها قبل الذهاب إليها ، يئست ولكن يأسها لم يأت فقط من الغيرة النسائية ولا من الحقد الناشىء عن إنكار الجميل ، ولا من مرارة الخيانة ، إذ أن ما سلب منها هو منشأ وجودها ، وأن أخرى كانت تؤلف بين النفوس . إن أخرى قد اختطفت منها امتياز إدارة أنغام العقول .

وفى تصوير تأثير النساء يقول الأخوان جونكور : « كل عصر إنسانى ، وكل قرن يبدو للأجيال التالية أنه — كحياة الأفراد — يسوده طابع أو قانون داخلى رفيع فريد دقيق منبثق من الطباع ، مسيطر على الوقائع . ويظهر على بعد أن التاريخ ينساب منه .

لا جرم أن الدراسة تبرز فى القرن الثامن عشر ذلك الطابع العام الثابت الجوهرى ، أو ذلك القانون الأسمى لمجتمع هو تاجه وصورته وسره ،أى أن روح تلك الحقبة ومركز العالم فيها ، والنقطة التى منها يصدر كل شىء ،

---

(١) انظر — فيما يتعلق بمادموازيل دى ليسبيناس ، ذلك المقال القيم المؤيد بالمستندات الذى نشره عميد الأدب السيد الدكتور طه حسين فى مجلة الكاتب المصرى ثم سجله فى كتاب : « ألوان » . (المترجم)

والقمة التى منها ينحدر كل شيء ، والصورة التى منها يتخذ كل شيء نموذجه ، هى المرأة »[1] .

رجل الأدب

سنكون لأنفسنا عن رجل الأدب فى القرن الثامن عشر فكرة عالية ، إذ أنه يكون من التجديف ، أن يقال إن رجل الأدب ليس أنفع للدولة من لاعب الكرة ، بل قد صار ، على الضد من ذلك « مواطناً هاماً » كما يلاحظ الأب رينال .

إنه يعيش من مهنته ، وهذا هو التغير ، وإن الكتاب قد صار أداة ربح ، فهو لم يعد يمنح لصاحب المكتبة ، وإنما يباع له ، ويحرر بينه وبين المؤلف عقد ، هو مربح للأول ، ولكنه ليس عديم الإنتاج بالنسبة إلى الثانى ، فإن دريدان تسلم فى سنة ١٦٩٧ مبلغ ألف وأربعمائة جنيه لترجمته فيرچيل ، وأديسون ظفر من جماهير القراء بجزء من قوته . وپوپ جلب لنفسه السعة ، فترجمته للإلياذة والأوديسا وحدهما قد أدرت عليه مبلغ تسعة آلاف جنيه استرليني تقريباً ، فهو مدين لموهبته ، بفلته فى تويكانهام ، وحديقته وكهفه الصناعى . وجولد سميث وإن كان لم ينعم بوجود ذهبى ، إلا أنه مع ذلك قد يشعر بتقدم حالته ويعلن اعترافه بالجميل لأصدقائه الأخيار الكرماء من القراء .

ومما لا ريب فيه أن كل عضو مثقف من أعضاء المجتمع ، بشرائه ما كتبه رجل الأدب ، يساهم فى مكافأته وأن بدعة الحديث المازح الذى يصور المؤلفين على أنهم بؤساء ، أو جياع ، يمكن أن تكون خفة روح فى الماضى ولكنها كفت عن أن تكون كذلك ، لأن الأمر لم يعد بعد حقاً ، فالمؤلف يستطيع الآن أن يرفض دعوة إلى الغداء دون أن يخشى غضب

---

(1) E, et J. de Goncourt, La femme au 18 ème Siècle, 1862. ch. g.

حاميه ، أو مغبة الجوع عند عودته إلى منزله ، بل حتى إذا لم يستطع أن يتباهى بأنه ثرى ، فإنه يستطيع أن يطالب بكلمة الاستقلال . . .

إن ليساج ، فيما يقال ، هو الفرنسى الأول الذى ربح قوته من رواياته ، ومسرحياته . وإن ماريڤو الذى دمرت ثروته بوساطة مشروع لاس المالى ، قد نجا من الخراب بفضل إنتاجه . أما ڤولتير ، فقد كان أحد رجال الأدب بل أحد عظماء الأشراف ، حقاً إنه كان مالياً أيضاً ، ولكنه فى هذا نفسه ، قد فكر أنه ينبغي فصل المعنيين ، معنى الكاتب ، ومعنى العامل .

وفى ألمانيا ، صارت الأمور بصورة أكثر بطئاً غير أن المسرح والترجمات ، ووسائل العيش التى صارت عامة ، وهى التى تدعى بالصحف ، قد سمحت للكتاب بأن يتخلصوا من وثائقهم . ولقد قدم الناشر نيكولائى مركزاً إلى ممثلى « عصر الأنوار » .

أما فى إيطاليا فقد كان يوجه إلى كتاب مجلة « المقهى »[1] السؤال التالى : « لماذا كان رجال الأدب مبجلين فى الماضى ، ولم يعودوا كذلك اليوم ؟ » ولكن هذا السؤال قد أسئ وضعه ، لأن رجال الأدب ليس لديهم ما يشكون منه فى الوقت الراهن ، فالذوق الأدبى ، قد انتشر فى اتساع ، وقد استفادوا هم من ذلك ، لأنهم عرفوا كيف يقدرون تقديراً عادلا ، شيبيون مافيئى ، ولودوڤيكو موراتورى ، وفرانشيسكو الجاروتى ؛ ولقد منح بلاط ڤيينا ، امتيازات وثروات لميتا ستاز .

وقصارى القول أنه — فيما يتعلق بحالة الأدب فى أوروبا — يجب الاعتراف بأنه لم يمنح ألبتة ، مثل هذا القدر من التشريف للأناسى الذين ساهموا فى إثارة الرأى العام ، وفى نشر الحقائق النافعة . . .

لم يكن هذا التحول بلا نتيجة فيما يتعلق بمحتوى الأدب ، بل بصورته ، ففى الواقع ، حين كان المؤلف ينشر للذته ، أو لمجده ، كان لديه كل

(1) **Il Caffé, Dagli onori resi ai Letterati, 2 éme trim. 1765.**

الوقت الضرورى لذلك . ولكنه حين كان ينشر ليدفع ثمن الخبز أو إيجار المسكن ، كان ينبغى أن ينتج كثيراً وسريعاً . وعندما كان يسلم مخطوطاً ، يفكر فيما يسلمه على أثر ذلك . ولا ريب أن الدوريات تلتهم المخطوطات ولم يعد لديه الوقت اللازم لترك الإنتاج يتكون من نفسه بعد نضوج متمهل ومن جهة أخرى هو على اتصال بالقراء أكثر مباشرة من ذى قبل ، وهو يساهم عن قرب ، فى حياتهم ، وعلى الأخص وهو يتخيل نفسه ، أعظم حرية وذلك هو الجانب الجوهرى .

حقاً إنها لحالة شاقة ، أن يكون المؤلف بلا « ميسين » ! (أى بلاحام) ويحدثنا ماريفو ، أن إحدى أميرات إسبانيا دخلت باريس فى احتفال ، وقد ازدحمت الطرقات بالجماهير لمشاهدة موكبها ، وكان هناك صانع أحذية بقى وحده فى مصنعه ، فدخل عنده أحد الصحفيين فدهش من هـذا ؛ وإذ ذاك جعل يشرح له أنه ينبغى أن يكدح وأن لديه أحذية يجب أن يردها إلى أربابها ، وأنه ينبغى أن يكسب قوته ، وعلى هذا النحو كان الصحفى نفسه ، أو رجل الأدب الذى يميل إلى أن ينشر بنظام ، لا يكف عن العمل حتى حين يستريح الآخرون[1] . ولكنه يرتضى هذا الحظ العسير ، لأنه يجده أكثر نبلا وأنه يرى ما فيه من عظمة ، مع ما يشتمل عليه من مضرة . وهو يحب مهمته تحت مظهرها الجديد ، وكان صمويل چونسون يقول : « إن جريه رجل غريب ؛ فهو يزعم أنه لا ينشىء شعراً إلا حين يشعر بأنه ملهم ! » أما چونسون ذاته فإنه كان ينتهى من عمله سعيداً بأن يعتقد أن الأدب قد صار مهنة ، وأنه قد انتهى من الحماية .

وكان يقال : « إن كون المرء مؤلفاً هو اليوم حالة ، ككونه عسكرياً أو قاضياً ، أو كنيسياً ، أو مالياً[2] » . وإن عملا من أعمال الفكر يتم حول هذه الجملة على النحو التالى :

---

(1) Marivaux, Le Spectateur francais , 1722-1723, Feuille 5.

(2) Almanach des auteurs, 1755.

كان المؤلفون يكتبون بإيجاز ، تاريخ رجل الأدب خلال العصور وكانوا يحاولون أن يحددوا له تعريفاً ولم يكن ذلك من أهون الأمور ، وكانوا ينتشون لأبحثه المعنوية . وكانوا يعودون دائماً إلى القول بأن جمهورية الأدب كانت تتألف سابقاً من الهواة الذين ينشغلون بأمور لا تعبأ بالصالح العام بينما أن أعضاءها فى الوقت الحاضر يشغلون وظيفة . وإذن فلن يكونوا منذ الآن فى خدمة العظماء .

وكان الفلاسفة يرون الحالة كما يلى :

كان ذوو السلطان فى هذا العالم فى الوقت ذاته حلفاء رجل الأدب من حيثية إنهم كانوا يطعمونه ، ويحمونه ، وينفقون عليه ، وكانوا أعداءه من حيثية إنهم كانوا يوجهون قلمه . نعم إن الكتاب لا يريدون أن تكون القطيعة تامة ، ولا يرفضون المزايا والمكاسب . ولكنهم لم يعودوا يريدون أن تكون العلاقة بين سيد وخادم ، فهم يعتقدون أن اصطحاب الأثرياء والأشراف له فائدته ما دام أنه يسمح بملاحظة جزء هام من الأفعال البشرية ، بشرط ألا يكون عبودية على أية درجة . على أنه ، أليس المؤلف مساوياً لأولئك الذين سادوه زمناً طويلا ؟ بل أليس هو من بعض النواحى أسمى منهم ؟ أو ليس هو الذى يوزع أكاليل الغار التى تحول بين الناس والفناء ؟ أو ليس هو ممثل السلطان الجديد الذى يدعى بالعلم ؟ أو ليس هو أميراً من أمراء العقل ؟

ليغير إذن ، عبارات حلفه القديم ، وليتخذ كبار الأشراف على ما هم عليه فى أكثر الأحايين أى جهلاء ، وقضاة أردياء ليس لديهم ذلك الشرف المحزن بأن يكونوا جائرين عارفين بجورهم . بهذا الثمن فقط يظفر بمعرفة قيمته الخاصة .

إنه لجنس صاخب إلى أقصى حد ، جنس مغرور يتخم من الثناء ، جنس منقسم على نفسه ، وأبناؤه ، بدلا من أن يتحدوا هم يتبادلون التقاضم

فيما بينهم ، جنس خليط يحتوى على أعظم الأشياء وأخسها . ومع ذلك فهناك كرامة لا نظير لها قد وعد بها هذا الجنس على شريطة أن يصلح من عيوبه ، إذ أنه يعزى إليه أنه مربى الذوق وموئل الفكرة ، بل رئيس العمل .

كان كينيه الاقتصادى ، موجوداً عند مادام دى پونپادور الذى كان طبيبها ، فسمع رجلا ذا مكانة يقترح وسائل عنيفة لتهدئة المشاحنات الدينية معلناً أن الحربة هى التى تقتاد المملكة ثم تساءل كينيه عمن يقتاد الحربة ثم أجاب نفسه فقال : « إنه هو الرأى ، وإذن فينبغى التأثير فى الرأى » ، ولا جرم أن الكتاب هم سادة الرأى ما دام أن عملهم بالضبط هو التأثير فيه كل يوم ، وأن قوتهم تأتى من ذلك ، وأن كبار الأشراف ، أو أردياء الرجال قد بدأوا يعرفون ذلك لأنهم يرهبونه كما يرهب اللصوص مصابيح الطرقات . ومهما يكن أولئك الكبار أقوياء أو مهما تصوروا أنهم كذلك فإنه يجب عليهم ألا يخلقوا ألبتة لهم أعداءاً يستطيعون بجرة قلم ، أن يحققوا انتقاما جليا وباقيا لأنهم يستمتعون بميزة أن منتجاتهم مقروءة فى أوروبا من أحد طرفيها إلى الآخر . ومن ثم فإن الأمراء — بدلا من أن يعاملوهم بازدراء — يجب أن يتخذوهم مرشدين . وبالإجمال إن رجال الأدب كانوا يرون أن لهم من التأثير فى حظ الأجيال المقبلة ، أكثر مما للملوك أنفسهم فى الأحياء .

رجل الطبقة الوسطى

إنها لواقعة مسلمة بوجه عام أن القرن الثامن عشر قد أقر قوة طبقة جديدة هى الطبقة المتوسطة ، وليس يعنينا هنا أن نختبر هذه الواقعة من الوجهة الاقتصادية ، بوساطة الأرقام ، أو دراسة نقل الثروة أو انخفاض الأثمان أو ارتفاعها أو تنوع الميزانية ، ولكنه يعنينا أن نرى فى ماذاهى تتفق مع تاريخ الفكر .

تظهر أول الأمر أرستقراطية ساطعة ذات بهرج تدعى أنها تظل هى الجسم الأول للدولة ، وهى لا تريد أن تتنازل عن شىء من الألقاب ولا من التشريفات ولا من الامتيازات . ولكنها فى نفس الوقت الذى تسرف فيه فى الثروات التى تسمح لها بالاحتفاظ بمنزلتها ، هى تفقد تلك المنزلة أثناء إعادة الفحص الذى يتصدى للقيم الأخلاقية ، ففى الواقع أن قادة الفكر ينكرون سبب وجودها . وهى أحياناً لا تحسب لجهودهم حساباً وتصر على أن تعتبره عدماً ، وأحياناً تساعده بتحالفها مع الفلاسفة . وهناك قسم من الأرستقراطية قد أحب دائماً أن يعمل للقضاء على نفسه . وهى على أى حال تسىء الدفاع عن نفسها ، فلا ترد ألبتة ، أو ترد رداً منحرفاً على المآخذ المؤسسة على الفكر المحضة ، والتى تتجه فى كل يوم إلى تجريدها من صدارتها ، والتى لم تعد تقف عند حد الموضوع الذى لاكته ألسنة الأخلاقيين ، وهو أن نبل المولد لا يفوق نبل القلب ، وأنه ينبغى احترام عتال شريف أكثر من أرستقراطى يعيش بلا شرف ، ففى الواقع أن هناك تعقلا لم يعد الأمر فيه يتعلق بموضوع مطروق من الجميع ، وهو أكثر إنتاجاً من المطروقات لأنه متطابق بصورة مباشرة مع الإدراك الحديث للدولة والمجتمع ، هذا التعقل قد جعل يتثبت وينتشر ضد تصور طبقة ممتازة امتيازاً أبدياً ، وهو : أن للدولة الحق ألا تكافئ إلا المؤهلات الراهنة ، وأن المجتمع لا يعترف بالجميل إلا لمن يعملون لهناءته بصورة مباشرة . ولو أن الامتيازات التى يمنحانها كانت تنتقل مع الدم ، لكانت مضادة لقانون العدالة الذى يجب أن ينفرد بتنظيم العلائق بين المواطنين . إن الشخص الوحيد النبيل حقاً ، هو الذى يستحق تقدير الوطن والإنسانية وليس هو الذى استحق ذلك أجداده سابقاً من جماعة هى نفسها لم تكن منظمة بوساطة مبادئ عقلية . وفوق ذلك فإن السلطة تعزى إلى الجميع ، وأنها ليست سوى تفويض لا يراد إسناده إلا إلى ممثلين معينين ، ولم يكن لديهم ألبتة

إلا سلطة مؤقتة قابلة للانتزاع . وما دام الأمر كذلك فإنه لاتوجد بعد ، ميزات وراثية ، فنى الحق أن الناس يرتضون الاحتفاظ بأحد أجناس كلاب الصيد الجيدة ، عندما تستمر جيدة ، ولكنها حين تفسد يغرقونها . وفى هذا يقول دولباك : « هل الألقاب والنسب الأسرية الكتابية التى انقضى زمانها ، والمحفوظة فى قصور عتيقة تمنح الذين ورثوها الحق فى أن يتوقوا إلى أرفع مناصب الكنيسة والبلاط والقضاء والجيش دون أن يكون لديهم ، مع ذلك أية موهبة ضرورية لشغلها كما يليق ؟ وهل لأن مقاتلين نبلاء قد استطاعوا سابقاً أن يساهموا ، مخاطرين بحياتهم فى فتح إحدى الممالك أو فى سلب بعض الأقاليم ، ينبغى أن أخلافهم بعد هذا العدد من القرون يظلون يعتقدون أن لهم الحق فى أن يسيئوا معاملة أتباعهم ؟ »[1] .

ومن حيث إن سبب وجود الحكومة الإقطاعية ، لم يعد مفهوماً حتى من الوجهة التاريخية ، وأنه لم يعد يعتبر إلا على أنه « لصوصية منظمة » وما دام أن أوربا — فى الأمور النظرية ، كما فى العملية — تعمل على محو آخر آثارها ، فإن دور الأرستقراطية قد انتهى .

إننا نرى بعد ذلك طبقة لاتعتبر بعد ، قادرة على ملء الفراغ المتروك على هذا النحو ، لأنها لا تساهم فى « الأنوار » بالمقدار الكافى . وفى الواقع أن المحافظين يرون ، لعدة أسباب ، أن الصعاليك ، حيث هم الآن ، هم فى موضعهم الصحيح ، ولو رفعوا لكان أمن المحافظين نفسه فى خطر . أما الأحرار ، فإنهم لا يعتبرون أولئك الصعاليك إلا على أنهم أدوات لأنه ينبغى وجود قوم للعمل ، ولو وجب أن يتألموا من ذلك .

أما الفلاسفة ، فإنهم يترددون حين يرونهم ، ويفكرون على النحو التالى :

حقاً إنه عدد ضخم من الفقراء فى طرقات لندن ، وفى القرى الفرنسية والإيطالية ، وحقاً إنه يوجد تمرد القرويين فى النمسا وفى بوهيميا ، وفى

(1) D' Holbach, Ethocratie, 1776, ch, 10.

هونغاريا ،وأن أولئك الذين شرعوا فى إصلاح العالم قد أشفقوا من ذلك الألم وهم يقولون : إنها لمسألة عظمى ، أن يعرف المرء إلى أية درجة يجب أن يعامل الشعب كأنه قردة . ومما لا ريب فيه أن الطرف الخادع لم يختبر ألبتة هذه المشكلة الدقيقة ، وخوفاً من أن يخطئ التقدير ، قد كدس أكبر قدر ممكن من الأوهام فى رؤوس الطرف المخدوع . ولكن الطرف الخادع ، مع ذلك ، ألم يعمل إلا بوساطة الغش ؟ لا جرم أن الإنسان خليق بالتقدم فى حدود استنارته ، وأنه يوجد كثير من الأناسى ليسوا مستنيرين ولا تمكن إنارتهم إلا على صورة جد بطيئة ، أو قد لا يكونون جديرين بالإنارة ، ولا يستفيدون ألبتة .

وفى الحق أن رفق الفلاسفة يمتد راضياً إلى الحالة الثالثة وهى حالة الصناع . ولكنه لا يصل إلى الحالة الرابعة ، وهو يميز — فيما يدعى بالشعب— بين الحرف التى تتطلب تربية شريفة ، والحرف التى لا تتطلب سوى عمل السواعد والتعب اليومى . والناس الذين ينتسبون إلى هذه الفصيلة الثانية ، لا يذهبون ألبتة — من حيث كل تسلية وكل مسرة — إلا إلى الصلاة العظمى وإلى الحانات ، لأنه يرتل فى الأولى، ولأنهم يغنون فى الثانية . بينما أن الصناع الأكثر تربية ، والذين هم مقودون بنفس مهنتهم إلى التفكير ، هم خليقون بأن يتعلموا . وفى الواقع قد بدأوا يتعلمون فى جميع البلاد . وفى الحق أن الأشخاص المحترمين الجديرين بالاهتمام ، هم الذين يمكن اجتذابهم إلى شىء من الثورة العقلية ، ولكن السفلة ستبقى دائماً هى السفلة .

حقاً إننا نسمع بضعة احتجاجات باسم السعادة موجهة إلى الفلسفة على النحو التالى :

إنكم تقولون إن السعادة يجب أن تكون مقسمة تقسيما عاماً،ولكن هل السوقى سعيد ؟ إنكم تعرفون جيداً أن الإجابة بالنفى ، ففى الواقع أن عبد الإقطاعية أو المرتزق الحر ليس له من حصة سوى المشقة والبؤس والمرض،

وأن العامل يخضع لقانون الرؤساء العاطلين والجشعين الذين تلقوا سلطة تشغيله بلا مقابل . إنكم تعاملون السوقى كما لوكان بلا عقل ولا فضيلة ، وإنما له غرائز فقط . إنه عندكم شبيه بالحيوانات ، وإن صورته الإنسانية ليست سوى وهم .

غير أن هذه الاحتجاجات لم تكن آتية إلا من أصوات منعزلة ، وستكون فيما بعد إحدى شكايات روبيسبيير ضد « الموسوعين » لأنهم ظلوا دون الصعود إلى مرتبة حقوق الشعب[1] .

بين طبقة الأشراف التى يطلب خفضها ، والسفلة التى لا يصمم المصلحون على إعلاء شأنها ، تستقر طبقة لم تنتظر القرن الثامن عشر لكى ترتفع ،ولكنها انتهت إلى العثور على ألقابها فى بعض فكر الآونة الراهنة ، وعلى هذا النحو

---

(1) **Abbé Coyer, Dissertations pour être lues.... sur la nature du peuple, 1755, La Haye—Abbé Raynal, Histoire philo. et poli.: des établissements et du Commerce européens, 1770, L. 17. ch. 31—Robespierre, Discours du 18 floréal an 2, Paru au Moniteur universel, 19 floréal, an 2, 8 mai 1794:**

ويقول هذا الأخير : « إن أهم الشيع وأشهرها هى الشيعة التى عرفت باسم شيعة « الموسوعيين » ، فقد كانت تشتمل على بعض الرجال الجديرين بالاعتبار . وعدد أكثر ، من الدجالين أرباب المطامع . وقد صار عدة أفراد من رؤسائها ، مواطنين ذوى أهمية فى الدولة . ومن يجهل تأثير هذه الشيعة وسياستها فلن يكون لديه فكرة تامة عن مقدمة ثورتنا . إنها فى محيط السياسة قد ظلت دائما أخفض من الصعود إلى مرتبة حقوق الشعب . وفى محيط الأخلاق ، ذهبت إلى ما وراء التصورات الدينية . ولقد كان أعضاؤها يخطبون أحيانا ضد الاستبداد ، وكان ينفق عليهم من المستبدين ، وكانوا يؤلفون أحيانا كتبا ضد البلاط ، وينشئون أحيانا أخرى إهداءات الملوك ، ويلقون خطبا لرجال القصر ، وينشئون قصائد غزلية للمومسات ، وكانوا معتزين بمؤلفاتهم ، ولكنهم كانوا يزحفون حبوا فى حجر الانتظار . ولقد نشرت هذه الشيعة ، بحرارة عظيمة رأى المادية الذى تغلب على العظماء وذوى العقليات المثقفة . ولا جرم أن الناس مدينون لها بذلك النوع من الفلسفة العملية التى — بتحويلها الأنانية إلى نظرية — تنظر إلى المجتمع البشرى على أنه حرب حيلة ، وإلى النجاح على أنه قاعدة العدل والظلم ، وإلى الشرف على أنه مسألة ذوق أو أدب ، وإلى العالم على أنه تركة الأنانيين المهرة » .

اجتمعت طريقة الوجود مع المذهب . وبالتالى فإن بعض الفكر التى تصطحب هذه الواقعة تظهر فى جلاء ، وإن الطبقة المتوسطة لم تكن على ما هى عليه الآن إلا حين وصلت هـــذه الفكر إلى آونة قوتها وصارت غير قابلة للمقاومة . وهى فكرة أنه ينبغى هجران الأسمى للاشتغال بالواقعى ، وترك الجدل النظرى حول العالم من أجل امتلاك العالم . ولقد قال چوبير ذلك فى عبارات لا تنسى حين كان يتأمل الأناسى الذين سبقوا جيله مباشرة : « إن الإله قد انزوى فى نفســـه ، واختفى فى جوهره ، كما تختفى شمسنا بالنسبة إلينا عندما تعكرها سحابة . ولا جرم أن شمس العقول هذه لم تعد مرئية بالنسبة إليهم . . . وفى تلك الغيبة ، غيبة الانجذاب والمشاهدة العليا ، لما كانوا لا يستطيعون النظر إلى الموجود ، فقد انشغلوا بالعالم »[1] .

وكذلك فكرة الحرية التى رأينا قوتها ،وفكرة أن الملكية كانت تصنع المواطن ، وسواء أكانت الملكية تجارية أم عقارية أم صناعية ، فإن هذه الفكرة لا تتغير فكل امرىء يملك شيئاً فى دولة ، يكون معنياً بخير الدولة ، وأيا كانت المنزلة التى تمنحه الظروف الخاصة إياها ، فإنه دائماً ، بوصف أنه مالك ، وإنه بسبب ممتلكاته ، يجب أن يتكلم أو أن ينال الحق فى أن يمثل كما كانت تجزم دائرة المعارف .

ومن ثم فإن أكثر المدافعين عن الفلسفة ، هم من الطبقة المتوسطة ، ومن ثم فإن صوراً جديدة من الأدب تتجه إلى جمهور المتوسطين . ومن ثم فإن الأدب يصف الصعودات السريعة نحو طبقة غير معينة الحدود ، ولكنها تتميز بالثراء . وهاك أمثلة من ذلك الأدب : « القروى الذى وصل » و « القروية التى وصلت » و « القروية الجديدة التى وصلت » و « الجندى الذى وصل » .

---

(1) Les cahiers de Joseph Joubert, textes recueillis sur les manuscrits autographes par André Beaunier, 1938, t. 1, p. 102.

ومن ثم فإن المسرح يطرى : « تاجر لندن » بصورة أيسر مما يسخر به من المتوسط الأرستقراطى[1] .

إن تاجر تلك المسرحية الشهيرة هو رجل ذو كرامة ، وهو يتحدث بالحكم ، ولديه قواعده المشتملة على الشرف التاجرى ، والتى توضع فوق القواعد العادية ، وإن ليلو يجعله يقول (فى هذه المسرحية) : كما أن اسم التاجر لا يخفض ألبتة اسم الأرستقراطى ، كذلك الأرستقراطى ليس مبعداً بالضرورة عن التشريف التجارى . ومن ثم فإن الفاجعة المبكية — فى ذات الوقت الذى تمنح فيه العاطفة مكاناً — تسجل تطوراً اجتماعياً هو أن رجل الطبقة المتوسطة قد ظفر بألقابه ، كما ظفر بالحياة . ومع ذلك فإن مجىء الصناعة العظمى لا يترجم بعد فى الأدب ، وإنما سيكون ذلك فى القرن التاسع عشر .

الماسونى

تبدو الماسونية فى تلك الحقبة كأنها نوع من الشذوذ ، إذ أن الذين لم يعودوا يريدون الكنيسة جعلوا يختلفون إلى كنيسة صغيرة مظلمة ، والذين لم يعودوا يرغبون فى الطقوس والرموز ، أخذوا يلتجئون إلى الرموز والطقوس كالتفتيش والأعمدة ، واللوحة : المصورة التى تمثل معبد سليمان ، والنجمة الساطعة ، والزاوية ، والبرجل ، وميزان الماء ، والذين لم يعودوا يألفون الأسرار والحجب والذين يطلبون أن تكون المفاوضات الخارجية نفسها تجرى صريحة يتعهدون بالسر المطلق فى قسمهم التالى : « إننى أتعهد وألزم نفسى أمام المهندس الأعظم للكون ، وأمام هذه الجماعة المحترمة ، ألا أفشى ألبتة أسرار الماسونيين والماسونية ، وألا أكون السبب المباشر أو غير المباشر لإفشاء تلك الأسرار أو نقشها

---

(١) يشير المؤلف هنا إلى مسرحية «المتوسط الارستقراطى» لموليير وهى صورة لسخرية المؤلفين فى القرن السابع عشر من أهل الطبقة الوسطى الذين كانوا يتظاهرون بالارستقراطية وتلك صورة لم تعد مألوفة بعد فى القرن الثامن عشر (المترجم)

أو طبعها بأية لغة أو أية إشارة كيفما كانت . إنني أتعهد بذلك مرتضياً ـــ عند عدم قيامي بتعهدي ـــ قطع وريدي وانتزاع لساني وتمزيق قلبي ، وأن تدفن هذه جميعها في هوة البحر العميقة ، وأن يحرق جسمي ويحول إلى رماد تذروه الرياح حتى لا تكون لي بعد ذلك ذكرى بين الناس وبين الماسونيين » .

والعقليون الذين سيبحثون في أعماق العصور عن عناصر تنسك هو فيما بعد ، وعند بضعة منهم ، سيحل محل العقل . وأعداء الشيع يؤسسون شيعة .

غير أنه ـــ فيما وراء الظواهر ـــ إنما هي روح العصر تلك التي توجد فيهم ، فهم يلتئمون مع الإدراك الجديد للوجود ، وهو الذي ينبذ الجدية والأحزان واليأس . وهي الأمور التي تنتهي إلى الأمل فيما وراء هذا العالم وإلى هذا تشير أنشودتهم التالية :

« بوساطة طريق مغطى بكثير من الزهور ، يجتاز الماسوني الحياة منقباً عن اللذة فاراً من الألم . وهو دائماً يتبع القوانين العذبة من أخلاق إبيكور . . . »

ومن أجل ذلك هم ، في اجتماعاتهم الأولى ، ينظمون ولائم ومآدب ، ويديرون الكؤوس ، ويترنمون بمقاطع باكوسية[1] . وهم يلقون أكاليل الشوك ، ويحيطون رؤوسهم بأكاليل الورد .

إنهم يريدون تغيير المجتمع ، ولكن ليس لديهم السلطان . وإذن فينبغي لهم مؤامرة ، ومؤامرة دولية . إنهم سيتحدون وسيصيرون إخوة ، وإن وفاء بعض أعضاء الجماعة للبعض الآخر ، سيكون أحد قوانينهم ، وإن أحد الأشياع عندما يصل إلى مدينة ، يجد المواساة عند الأشياع الآخرين ، وإذا كان في ضيق ، فإنه سيتلقى المعونة . وإذا كان في إحدى المضاعب فإنه سينتزع منها وليس عليه إلا أن يقوم بإشارة ، ليكون معروفاً . ومما لا ريب فيه أن

---

(١) الباكوسية نسبة إلى باكوس إله الخمر عند الرومانيين وهي أناشيد مرحة تتغنى باسم اللذة والنبيذ . (المترجم) .

« الأصدقاء الحقيقيين » و « الصداقة الحسنة » و « الصداقة الكاملة » هي أسماء تتمثل غالباً بين أسماء المحافل ، وإذا كان حتما أن هناك فروقاً محلية قد تبدو ، إذا كان حقاً أن كل بلد يتجه إلى أن يمنح هذه الجماعة العامة مظهراً خاصاً ، فإنه حق كذلك أن الرؤساء سيبذلون جهوداً فى إعادة استقرار الوحدة التى هى شرط سلطتهم .

وليس هناك أحد أظمأ منهم إلى الحرية السياسية التى كان ذلك العصر فيها جشعاً . وإلى ذلك تومئ مقطوعتهم التالية :

« إن صرخة الطبيعة أيها الصديق هى الحرية ، ذلك الحق الذى هو جد عزيز على الإنسان ، هو هنا محترم إننا متساوون بلا فوضى ، وأحرار بلا شذوذ ، وإن إطاعتنا لقوانيننا هى التى تصنع استقلالنا . . . »

لتعلن الحرب على الطغاة المستبدين ،ولتعلن الحرب على الامتيازات وعلى كل سلطة ليست هى السلطة التى يقرونها : « إن هذا الميزان الذى نحمله فى أيدينا يعلمنا كيف نقدر الأناسى ، ولكى نجل الإنسانية فى أشخاصهم ،ولكى لا تبهرنا الامتيازات الاجتماعية » . « إن الماسونى رجل حر ، وهو صديق الثرى والفقير على السواء إذا كان من ذوى الفضيلة » .

بقى الماسونى على مذهب المؤلهين زمناً طويلا وكان يجب ألا يكون « داعراً غير متدين ولا ملحداً غبياً » ومن الممكن أن هذه الوصية الأولى تشرح كيف استطاع بعض رجال الكنيسة أن يبقوا إلى جانبه حتى وقت متقدم من تاريخ التطور . ومع ذلك فإنه كان ضد المسيحية . إنه كان يتشيع لذلك الدين العام الذى اتفق عليه جميع الناس ، وهو الدين الطبيعى . وعندما أقبل عليه الملاحدة ، ولما تبينه الفلاسفة — بعد أن فهموا أنه كان فى طلائع صفوف معركتهم — ألفوا فى شخصه أنفس الحلفاء ، وحينما مثلوا فى محفله ، مؤلهين كانوا أم ملحدين ، فإنه استقبلهم بسرور .

ولا ريب أن هذه المشابهات فى الفكر والنيات والإرادات وتلك المساعدات

المتبادلة ، قد حققت من جانبها سرعة إذاعة الماســونية وامتدادها . وفى ٢٤ يونيو من سنة ١٧١٧ كان أعضاء المحافل الأربعة — وقد اجتمعوا فى حانات : الأوزة والمشواه ، والتاج ، والتفاحة ، والرومانى ، والعنب — كانوا يتكونون ليؤلفوا محفل لندن الأعظم ، وفى سنة ١٧٢٣ ، قدم انديرسين إلى الجماعة لوائحها . ومنذ ذلك الحين صارت الماسونية إحدى خمائر « عصر الأنوار » فانتشرت فى القارة ، وعمت كل بلاد أوربا واحداً بعد الآخر ولو استطاع المرء يوماً أن ينشئ خرطة لذلك الزحف التقدمى لرأى فيها المدن التجارية العظمى ، ومرافىء البحر والعواصم . أما تخطيط الطرق فهو يتعلق أحياناً بالمصادفة والعدوى ، ولكنه أحياناً أخرى ينتسخ على غرار الطرق التقليدية للأسواق ، والمهاجرات والغزوات . ولا جرم أن الماسونيين الذين كانوا يتجولون تجاراً وسياسيين وبحارين وجنودا كانوا يؤسسون محافل فى مواضع مرورهم أو إقامتهم وكذلك أسرى الحرب الذين كانوا يرسلون من معسكر إلى آخر وكذلك فرق المهزليين الجوالين .

إن الاسم الإنجليزى « فرى . ميسونس » قد بقى بعض الوقت وأن المحفل الأول فى روما فى سنة ١٧٣٥ قد أسس بوساطة أنصار استوارتس الذين التجأوا إلى روما يعلنون فى لوائحه أن معرفة الإنجليزية ضرورية لطلب القبول . وبعد ذلك ترجمت كل لغة قومية تلك الكلمة عندما تبنتها .

وأيما كان فإن الحكومات قد استبعدتها وإن الكنيسة قد دانتها . ومن أمثلة ذلك أن محفل فلورانسا الذى أنشأه الإنجليز فى سنة ١٧٣٣ قد أبلغ أمره إلى محكمة « سان — أوفيس » فأغلق ، وعوقب الشاعر كروديلى الذى كان عضوا فيه . وأخيراً فقدت الماسونية كلها ، منزلتها فى العالم المسيحى بوساطة براءة قذف بها البابا كليمان الثانى عشر فى سنة ١٧٣٨ . وفى سنة ١٧٥١ جدد البابا بينوا الرابع عشر الإدانة . غير أن الماسونية أخذت تتحدى الحكومة والكنيسة . وأن الأعيان والمتوسطين الميسورين ، وأعضاء المهن الحرة ، الذين هم دائما أكثر

عدداً ، قد جعلوا يشتركون فى المحافل . ومنذ سنة ١٧٣٨ قد سجل قاموس شامبرس كلمة ماسونى بين مقالاته وهو يضيف إلى ذلك التعقيب الآتى : « إن الماسونيين هم الآن جد جديرين بالاعتبار من ناحية عددهم وأخلاقهم » .

لاجرم أن هذه الحركة قد قويت بفضل انتساب الأشراف إليها ، فالمركيز دى بيليجارد — وهو أحد أشراف بلاط شارل - إيما نويل الثالث — قد أقام المحفل الأول فى مدينة شامبرى وهذا المحفل نفسه هو الذى سيصير الكاتب چوزيف دى ميستر فيما بعد عضواً فيه وهو الذى سيكون المحفل الرئيسى لإقليمى سافواى وپيمون . وريموندودى سانجرو أمير سان سيڤيرو صار « الأستاذ الأعظم » لمحفل ناپولى . ودوق دانتان ، والكونت دى كليرمون ، ودوق دى شارتر ، هم « الأساتذة العظماء » للماسونية الفرنسية . وأرفع من هؤلاء فرانسوادى لورين الذى تزوج فيما بعد مارى تريز أمبراطورة النمسا ، قد التحق بالماسونية فى هولاندا . وفريدريك الثانى انتسب إليها فى سنة ١٧٣٨ ، عند ما لم يكن بعد سوى ولى العهد ، وفى سنة ١٧٤٤ صار هو الأستاذ الأعظم فى محفل « الكرات الثلاث » فى برلين . ومارى — كارولين ملكة ناپولى كانت ماسونية .

حقاً إن النساء فى المبدأ كن مبعدات عن تلك الجماعة ، ولم يكن يقبل فيها سوى « رجال محترمين مستقيمين ، ذوى مولد كريم ، وسن ناضجة ومتبصرين » ، ولم يكن يقبل فيها عبيد ولا نساء ، ولا رجال بلا أخلاق ، أو ذوو سلوك مستهتر . وكان الصعاليك يجدون أبوابها موصدة أمامهم على الدوام . ولكن النساء لم يلبثن أن قبلن فى محافل خاصة .

وفى ٧ أبريل من سنة ١٧٧٨ ، طبعت هذه القوة الماسونية بطابع التشريف الفخم . وكان ذلك فى التاريخ الذى صار فيه ڤولتير عضواً فى محفل « الأنجوات التسع » الذى أسس فى باريس فى سنة ١٧٧٦ والذى كان يحركه هيلفيسيوس ثم لالاند . وفى الواقع أن ڤولتير — وقد أعفى من رسميات

الالتحاق — قد أدخل إلى القاعة بوساطة لجنة المندوبين التسعة التي كانت قد ذهبت لإحضاره ، فدخل متكئاً على فرانكلان ، ولقد أجاب على الأسئلة الأخلاقية والفلسفية التي وجهت إليه من « المحترم » في وسط صيحات إعجاب الحاضرين ، وعلى أثر ذلك زحزحت الستارة السوداء ، فظهر « الشرق » مضيئاً في لألائه . وهنا أقسم المبتدئ الجديد اليمين نقبل كمبتدئ ، ومنح منطقة هيلفيسيوس . وهكذا دخل الماسونية الرجل الذي دهش المحفل من أنه — رغم أنه عمل معه زمناً جد طويل — لم ينتسب إليه حتى الآن .

الفيلســـــوف

ليس لفيلسوف القرن الثامن عشر ، علاقة بالدكتور أتكوى ، والدكتور « إذن » إيرجو[١] الشرهين في القياس والانتيميا[٢] ، واللذين كانا يتلذذان بالباربرا والبارا ليبتون[٣] ، أي أنه لاعلاقة له « بالمدرسيين » الذين — إذ يشبهون محامي القضايا الخاسرة — كانوا يخصصون فنهم لخلط أبسط المعارف بوساطة مماحكات دقيقة أو تصريحات فخمة ، ولا علاقة له بتلك النصب[٤] المفزعة المرتدية الملابس السود ذات الأكمام الواسعة والمغطاة روؤسها بأغطية ذات قنابر تشبه قنبرة الهدهد ، والتي كانت تتردد على المدارس لتعلم الشباب فن تحويل الفروض إلى يقينيات ، واليقينيات إلى فروض .

---

(١) الدكتور اتكوى والدكتور إذن هما رمزان لطريقة العصور الوسيطة في الجدل المنطقي الذي كان مطبوعا بطابع الافراط في استعمال القياس على اختلاف صوره وتباين أشكاله . (المترجم)

(٢) الأنتيميا هو أحد أشكال القياس الأرسطوطاليسي وهو الشكل المؤسس على مجرد الاعتبار ، أو مايحتمل المعقولية . (المترجم) .

(٣) الباربارا والبارا ليبتون هما عبارتان وضعهما المدرسيون في العصور الوسيطة لمظهرين مختلفين من مظاهر الشكل الأول من قياس أرسطو (المترجم) .

(٤) أراد المؤلف هنا أن يشبه فلاسفة العصور الوسيطة بتلك النصب السود التي يقيمها الزراع في حقولهم ليفزعوا بها الطيور الساطية على ثمارهم (المترجم) .

كان أولئك الفلاسفة ينتسبون إلى العصور المظلمة فليحتفظ الماضى بهم وليدفنهم ، فلا يأتوا ليلقوا ظلالهم على الأيام الراهنة . وليس لهم صلة أيضا بالميتافيزيقيين أولئك الاختصاصيين فى السحب . ولا صلة لهم كذلك بالأنانيين الذين يطالبون بأسماء[1] هى مفرطة فى الشرف بالنسبة إليهم بحجة أنهم يتقبلون بغير اكتراث أى بجبن كل شؤون الحياة .

لكى لايخطئ الناس فى معنى كلمة فلسفة التى كان ينبغى الاحتفاظ بها ، مادام أن معناها حب الحكمة . ولقد أضافوا إليها نعتا مميزاً ، فأصبح الفلاسفة الجدد يدعون بالفلاسفة العمليين . والآن قد وجد نموذج جديد للإنسانية وهو الفيلسوف الذى أعقب تلك النماذج التى تتابعت على التوالى وهى : القديس ، والفارس الشجاع ، ورجل البلاط ، ورجل اللياقة .

إن تعريفات الفيلسوف ، لا تعوزنا فلنقف فقط عند أكثرها وضوحاً وهو الذى سنطلبه إلى دائرة المعارف .

لاجرم أن حياة خاملة ، وشيئا من العزلة ، وبعض مظاهر من الحكمة ، مع قليل من القراءة لاتكفى لجعل المرء فيلسوفا ، بل ولا التخلى عن كل وهم فى محيط الدين الموحى به ، لأنكم فى هذه الحالة ، تتخذون النتيجة ، على أنها علة ، ولكن العلة هى أشد عمقاً ، وفى هذا تقول دائرة المعارف .

« إن الفيلسوف مكينة إنسانية كأى رجل آخر ، ولكنه مكينة ، وهو بوساطة تكوينه الميكانيكى ، يتأمل فى حركاته ... وهو ساعة تمتلئ أحياناً من نفسها إذا أمكن أن يقال ذلك . » وإذن فإن روح الفحص ، هى الطابع الجوهرى ، ولايوجد أى رأى لايجب إخضاعه لذلك الاختبار الأولى . إن الروح النقدية — وهى التى تعوز أكثر أشباهنا حين يعملون بلا معرفة الأسباب

---

(١) يشير المؤلف هنا إلى ذلك الفريق الذى كان يتصنع مقابلة كل شؤون الحياة باستهتار ليعتبر فى عداد الفلاسفة الرواقيين الذين اشتهر عنهم احتمال كل كوارث الزمن فى سخرية وابتسام . (المترجم) .

التى تحركهم ، وقد حملتهم أهواؤهم خلال الظلمات — هى مختصة بالعقل .
وهذا الأخير هو بإزاء الفلاسفة ، كأنه هو الغوث بإذاء المسيحيين فى مذهب القديس أوجوستان الذى يقول متحدثا إلى تلاميذه : « انتشروا كما ينتشر النحل ... وعلى أثر هذا ستعودون إلى خلايا كم لتكونوا شهدكم . »
وفى الواقع أن المبادئ لايمكن أن تأتى إلا من ملاحظة الوقائع ، فمن الوقائع ينتزع العلم الذى هو فى الوقت ذاته ، يقينى ومحدد . إنه توجد يقينيات عندما يشعر المرء أنه تلقى من الأشياء ، الانفعال الخاص الذى يفترضه كل حكم . ويوجد حد حين تشعر طبيعة الأشياء أو ضعف أعضائنا ، بوجود حدود ، فبهذا اليقين ، يستمتع الفيلسوف ، وبذلك التحديد لايغتم إنه لا يستطيع الجزم بغير المدركات المجتلبة إلى نفسه ، وهو مضطر إلى الاحتفاظ بالصمت بإزاء الحقائق الذاتية . قد يكون ذلك مؤسفاً ، أو لعله هو الأفضل ، إذ أن الفيلسوف يرى نفسه على ماهو عليه فى الواقع ، لاعلى مايبدو للخيال أنه يمكن أن يكون . ودون أن ينطق بالكلمة الحاسمة فى أمر يتجاوز حدود قواه ، هو يميل إلى الإيمان بأنه ليس مؤلفاً من عنصرين هما المادة والعقل ، بل من عنصر واحد هو المادة المزودة بالفكر ،وإذ كان الهواء وحده قادراً على أن ينتج النغمات ، والنار وحدها تثير الحرارة ، والعينان وحدهما تريان، والأذنان وحدهما تسمعان ، فكذلك مادة المخ قادرة على التفكير .

إن العقل الفلسفى — وهو العليم باخطاء الأهواء — والوهم والتخمينات ، والعارف أن الحقيقة لاتنال إلا بالمنهج اليقينى الذى حدده — « هو عقل ملاحظة وضبط يرجع كل شئ إلى مبادئه الحقيقية . »

ولكن هذا العقل ، إذا لم يكن إلا تأملا ، وإلا سروراً متعزلا ناشئا عن إصلاح الخطأ العقلى الذى كان قد دام عدة قرون ، فإنه يكون كمن يعمل فى الخواء . غير أن « فيلسوفنا لا يعتقد أنه منفى فى هذا العالم ، ولا يعتقد أنه فى

بلد معاد ، وهو يريد أن يستمتع كحكيم مقتصد ، بالخيرات التي تقدمها إليه الطبيعة ، وهو يريد الفوز بالسرور مع الآخرين ، وللعثور على هذا السرور ينبغي أن يصنعه . ومن ثم فإنه يحاول أن يتلاءم مع أولئك الذين جعلته المصادفة ، أو جعله اختياره يعيش معهم ، وهو يجد في الوقت ذاته ، ما يلائمه . إنه رجل شريف يريد أن يروق غيره ،وأن يكون نافعاً . وهو يعرف كيف يقسم نفسه بين العزلة التي تسمح له بالتفكير ، وعشرة الناس التي تسمح له بأن يعيش . إنه ملىء بالإنسانية . . . وإن المجتمع المدني هو - إن صح أن يقال ذلك - الألوهية الوحيدة التي يعترف بها على وجه الأرض »

وبينما أن التقي يعمل بباعث الحماس ، أو بدافع الفائدة ، نرى أن الفيلسوف يعمل مبعوثاً بروح النظام وبالعقل ، وأن البواعث التي تنظم سلوكه هي قوية بقدر ما هي نزيهة وطبيعية . ولذا كانت فكرة الرجل الوغد متعارضة مع فكرة الفيلسوف كما تتعارض فكرة الغباوة .

إن لديه طموحاً تام الشرعية إلى مد سلطانه ، ولو أن إدارة الأرض قد وكلت إليه ، لصارت الأرض بذلك أفضل مما هي عليه . ومن ثم فإن تفكير الأمبراطور الروماني أنتونان كان كامل الضبط إذ قال : « إن الشعوب ستكون سعيدة عندما سيكون الملوك فلاسفة أو يكون الفلاسفة ملوكاً » ، ففي الواقع أن الخرافي يسيء شغل الوظائف العالية ، لأنه يعتبر نفسه منفيا على الأرض ، إذ أن مملكته ليست من هذا العالم ، وأن الحكيم ، على الضد من ذلك ، عندما يسمو إلى المناصب العالية ، لا يعمل إلا للخير العام .

وهو لا يخجل من أهوائه أكثر من أنه لا يحتقر الفوائد المادية . « وهو يريد الظفر برفهنية الحياة العذبة ، وفوق الضروري المحدد ، ينبغي له الكمالي الذي هو ضروري للرجل الشريف والذي يكون به سعيداً . وذلك هو أساس اللياقة واللذة » .

وفى الحق أن احترامنا إياه لا يقل إذا بقى فقيراً ولكننا نقصيه عن مجتمعنا إذا لم يعمل على التخلص من عبء بأسائه . وأن المعوز الذى يحرمنا نعيم العيش الشخصى ، هو يقصينا أيضاً عن كل ترف حسى ، ويبعدنا عن معاشرة الأناسى المتمدينين . وبالإجمال « إن الفيلسوف هو رجل شريف يتصرف فى كل شىء بمقتضى العقل ،وهو — إلى روح التفكير والضبط عنده — يضيف الطباع والمحامد الاجتماعية » . وعلى هذا النحو رأى نفسه .

على مقربة من النصر

وحدث بين سنتى ١٧٢٠ و ١٧٥٠ ، حقبة تردد لم تكن كلمة الفيلسوف أثناءها قد حملت كل معناها بعد . ثم تبلورت هذه الكلمة ، وقد انتسبت إلى حزب حربى سجلها على رايته . وروسو — عندما نبذها بالنسبة إليه — قد نبذ فى وضوح أن يكون له مذهب . وإذا كان هناك عنصر يزيد فى ثروتها بعد ذلك ، فإنما هو لون من الكبرياء . وبعد سنة ١٧٦٠ يبدو أن أوربا قد غزيت ، وأن المعركة قد كسبت .

ذلك هو ما يؤكده الفلاسفة أنفسهم،وما يرددونه وهم يسيرون قائلين إن المنعرج العسير قد انتهى ،وأنهم على مرأًى من « الأرض الموعودة »،وأن التخمر العام لم يكن قد ضاع سدى ، وأنه قد نمّى نتائجه ، وأن أزمنة البربرية بعيدة ، وأن العصر قد استنار ، وأن العقل قد تنقّى ، وأنه قد جعل يملأ أكثرية المؤلفات . وأن زماننا — مهما يقل الحسد عنه — هو زمن الكائنات المفكرة ، وأنه يعدنا بمستقبل أفضل ، لأن النور التقدمى يصل قريباً أو بعيداً إلى أعين أولئك الذين يعتقدون أن لهم مصلحة فى إطفائه . ومن المحقق أن الملوك هم الآن أكثر تسامحاً منهم فى أى وقت مضى ، وأنه ينشأ جيل ينظر إلى التعصب فى امتعاض ، وأن المناصب الأولى سيحتلها الفلاسفة

فى يوم ما ، وأن عهدنا هو فى الإعداد ، ولا يتوقف إلا علينا أن ندنى تلك الأيام الجميلة .

وهناك تعبيرات أخرى مشابهة لهذا كانت تبدى ذات الشعور بكسب يقينى ، وبعمل جد قريب ، وسرور شامل .

إنهم ينظرون إلى إنجلترا – وطن الفكر الحر – على أنها قد فتحت نهائيا . وأما فى فرنسا ، فإن أكثر النقط الاستراتيجية – كالمنتديات ، والمجمع – قد ربحت ، بل إنه كانت هناك صدمات فى كتلة السوربون الصفيقة ، وأن بدعة العصر ذاتها كانت فى جانب الفلسفة .

وأن أكثر أجزاء سويسرا ثروة ، أى أن چنيف التى كادت تنبذ كالفان ، ولوزان « كانتا تبديان كثيراً من الرضى » وكذلك أقاليم هولاندا السبعة المتحدة .

بيد أن البلاد اللاتينية كانت تبدو أكثر تأخراً ، فروما كانت تقاوم ، وكانت تغمر باللعنات ، غير أن ميلانو ونابولى كانتا تؤلفان مركزين منيرين وأن توسكانا وپارما لم تكونا مشمرتين ، وأنه كان هناك إيطاليون يلاحظون أن الفلسفة عندهم أيضاً كانت تتقدم من يوم إلى يوم . أما إسبانيا فإنها كانت قد بدأت تتخلص من الأوهام التى استبقتها فى الطفولة ، رغم قواها الطبيعية .

بيد أنه فى هذه النظرة العامة قد استقرت العيون عند بلاد الشمال بصورة أكثر اغتباطاً ، كما يقول أحد شعراء ذلك العصر : « إنما من الشمال اليوم يأتى النور إلينا » . لأن اسكانديناڤيا ، كانت قد تحولت إلى جانب العقل . وفى مدى عشرة أعوام من ذلك العهد ستكون پولونيا قد نبذت نيرها تماماً . وكان فريديريك الثانى ، وكاترينا امبراطورة روسيا يسيران على رأس الحملة الفلسفية . وهكذا كان ينبغى فى النهاية ، أن ينهزم المتعصبون الأخيرون

فى الجنوب ، إذ كان الانتصار آتيا ... وفى هذا يقول ڤولتير : « إن أوروبا كلها تقريباً قد تغير مظهرها منذ خمسين سنة »[١] ويقول شاتيلوكس : « أيها الذين تعيشون وعلى الأخص أنتم الذين بدأتم تعيشون فى القرن الثامن عشر ، هنئوا أنفسكم »[٢] .

---

(1) Voltaire, Traité de la Tolérance, ch. IV.

(2) Chastellux, De la félicité publique.

فهرس الموضوعات

صفحة

من منتجات المترجم

كتب طبعت بالعربية

١ – الفلسفة الشرقية
٢ – الجزء الأول من الفلسة الاغريقية
٣ – الجزء الثانى
٤ – الفلسفة العامة
٥ – مشكلة الألوهية
٦ – الفلسفة الإسلامية فى المغرب
٧ – المذاهب الفلسفية العظمى فى العصور الحديثة
٨ – الأخلاق النظرية
٩ – حياتنا الاجتماعية ومشكلاتها العظمى
١٠ – الجزء الأول من الأدب الهيلينى
١١ – الجزء الثانى من الأدب الهيلينى
١٢ – الجزء الثالث من الأدب الهيلينى
١٣ – أفلاطون
١٤ – من كنوز الإسلام
١٥ – نفثات ولمحات
١٦ – أدب الثورة
١٧ – كيف أعددنا النفوس للثورة
١٨ – الأدب المقارن (مشروع الألف كتاب)
١٩ – التصوف المقارن
٢٠ – المشكلة الأخلاقية
٢١ – الفكر الأوروبى فى القرن الثامن عشر

٢٢ ـ أدباء الرومانتيكية الفرنسية «
٢٣ ـ الفلاحون
٢٤ ـ الضحية

بحوث نشرت فى كبريات الصحف والمجلات

٢٥ ـ نحو مائة بحث نشرت فى مجلة الأزهر فى الخمس عشرة سنة الأخيرة
٢٦ ـ نيف وخمسون بحثاً فلسفياً فى مجلتى الرسالة والسياسة الأسبوعيتين
٢٧ ـ عدة بحوث فلسفية واجتماعية وأخلاقية نشرت فى مجلات الشؤون الاجتماعية بالقاهرة ، والمشرق بلبنان ، والحديث بحلب
٢٨ ـ نحو ستين بحثاً أدبياً نشرت فى جريدة الشعب الأولى
٢٩ ـ أكثر من سبعين بحثاً فى الفلسفة والأخلاق وعلم النفس والاجتماع والأدب والنقد نشرت بمجلات : النهضة الفكرية والثقافة والرسالة ومصر الفتاة .
٣٠ ـ نيف وخمسون بحثاً فى النقد والاجتماع والسياسة والأدب نشرت فى جريدة منبر الشرق من سنة ١٩٤٥ إلى سنة ١٩٥١

كتب تحت الطبع

٣١ ـ الفلسفة الإسلامية فى المشرق
٣٢ ـ مشكلة النفس
٣٣ ـ مشكلة المعرفة
٣٤ ـ مشكلة المادة والحياة
٣٥ ـ الكلام والمتكلمون
٣٦ ـ الفلسفة المسيحية فى الشرق والغرب
٣٧ ـ الفلسفة التجريدية

٣٨ — تيارات الفكر الفلسفى الفرنسى (مترجم)
٣٩ — تاريخ الفلسفة لإميل برهييه (مترجم)
٤٠ — الجزء الثانى من الفكر الأوروبى فى القرن الثامن عشر
٤١ — الجزءان الرابع والخامس عن الأدب الهيلينى
٤٢ — الآداب الأوروبية الحديثة فى خمسة أجزاء
٤٣ — الإسلام والمستشرقون
٤٤ — أدباء الكلاسيكية الفرنسية
٤٥ — تحطيم أوثان الأدب المصرى المعاصر
٤٦ — نقد الترجمات الفلسفية والأدبية
٤٧ — شهيرات النساء الأوروبيات وآثارهن الخالدة
٤٨ — حنين وعواصف (قصص من صميم الحياة المصرية)
٤٩ — المسبحة الوردية أو أنشودة الحب
٥٠ — أجلاقين وسيليزيت
٥١ — النهاية الأليمة أو السر الدفين
٥٢ — الملك والشيطان
٥٣ — كولوميا أو الأخذ بالثأر
٥٤ — مثل خلقية عليا
٥٥ — ورود وأشواك .

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٩٥٨

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

